سيروخانزاتيان

الموت ليس مصادفة

رواية



ترجمة : نزار خليلي



الموت ليس مصادفة..

الحياة هي المصادفة

الكتاب: الموت ليس مصادفة.. الحياة هي المصادفة
المؤلف: سيرو خانزاتيان
ترجمة: نزار خليلي
الطبعة الأولى: 2015/10

يتضمن هذا الكتاب الترجمة العربية الكاملة لكتاب:

3years and 291 days

By: **Siro Khanzzatatian**

ISBN: 978 – 9933 – 477 – 62 -2



تنضيد علا قدّار
الإخراج الضوئي في القسم الفني بدار الحوار



دار الحوار للنشر والتوزيع www.daralhiwar.com
سورية- اللاذقية - ص. ب 1018
هاتف وفاكس: 33 422 41 963+
البريد الإلكتروني daralhiwar@gmail.com
info@daralhiwar.com

سيرو خانزاتيان

الموت ليس مصادفة..
الحياة هي المصادفة

ترجمة : نزار خليلي

دار الحوار

إجابةٌ بعد ثلاثين عاماً

كم أنزعج حين أُسألُ عن أبرز يومٍ عشته في الحرب. ذلك لأنني أستصعبُ الإجابة عن هذا السؤال، ثمّ، لأنني لا أريد أن أتذكّر حياتي مع ثلاثمائة ألف، بل ربّما ثمانمائة أو تسعمائة ألف ميّت، يحيطون بي، ينعبون ويجأرون فوق رأسي، ولم يأخذوني معهم. كلّ ما أذكره هو أنني أعيش، والعيش مهما يكن، يبقى الأفضل. فمع الحياة يزول كلّ حزن وألم، ويلتئم كلّ جرحٍ، ويُعالج كلّ شقاءٍ ويُنسى.

الموت في الحرب أمرٌ عادي جدّاً. مثله كمثل العيش تماماً ـ عادي، بل هو ضروري، أو على الأصح، لا مفرّ منه. والموت ليس مُرعباً في ساحة الحرب، وما ذلك لأنّ الإنسان جريءٌ بطبعهِ، جسورٌ، إلخ... بل لعدم توفّر الوقت للخوف.

قلتُ إنني أستصعبُ أن أُبيِّن أَبرَزَ يومٍ قضيتهُ في ساحة الوغى (في السهل، فوق الجبل، في الغابة، بين البيوت، في النهر، في المستنقعات وغيرها)، لأنّ عدد الأيام كبير. إذ قضيتُ ثلاث سنوات ومئتين وواحد وتسعين يوماً في جبهات القتال، وها أنا، كما ترون، لم أُقتل. لماذا؟ لا أعرف.

يبقى المقاتلون في الحرب أحياءً مصادفةً. الموت ليس مصادفةً بل الحياة هي المصادفة. لقد كنتُ دائماً ـ باستثناء الأيام التي قضيتها في المستشفيات (وهي اثنان وأربعون يوماً) ـ في الخط الأمامي من جبهة القتال، جندياً عادياً في مدفعية الهاون في البداية، ثمّ قائد سرية مدفعية الهاون. وقطعْتُ زهاء خمسين إلى ستين ألف كيلو متر مشياً على الأقدام، حاملاً متاعي على ظهري وأنا أُقاتل. حفرتُ آلاف الأمتار

عمقاً، للخنادق الدفاعية وللأبنية تحت الأرض أو للقبور أو لغيرٍ ذلك من الأمور. وكنتُ أتوقّع في كلّ مرّة أن تصير أيّة حفرة حفرتُها قبراً لي. وهكذا. ومع ذلك فسأُجيبُ عن سؤال، أيّ يوم... وجوابي هو أنّه كلّ يوم من أيام ثلاث سنوات ومائتين وواحد وتسعين يوماً من وجودي في الجبهة. إليكموها.

* * *

العام، منتصف 1941

أنا في السابعة عشرة والنصف من عمري

في يوم الأحد، من صباح الثاني والعشرين من حزيران، انتبذ بي أخي الكبير جانب الطريق وقال:

ــ إنّها الحرب...

لم أنتبه إلى اضطراب صوته، بل تركته ودخلتُ إلى مزرعة خالي، فرأيته مُنحنياً بقامته الطويلة يحصدُ الأعشاب بالمنجل. نقلتُ له ما سمعت. وما كدْتُ أفعل حتّى طاش منجله وارتطم بجذع شجرة توت وانكسر.

ــ ماذا؟

لقد اجتاحت ألمانيا بلادنا، إنّها الحرب...

وقرفص خالي إلى جانب المنجل المكسور يُفكّر.

أبي ميّت، وأنا صغير. وخالي هو أمل مستقبلي، وها هو الآخر مكسور مثل منجله.

وفي المساء عاد أخي إلى البيت مُتأخراً ليقول:

ــ أعدّوا لي متاعي، فأنا ذاهب.

وانخرطَتْ زوجته مع أُمّي في البكاء، ولم أطق ذلك فصحْتُ بهما حانقاً:

ــ لماذا تبكيان؟ الحرب تعني الحرب، وتعني أنّ علينا أن نذهب إليها.

كنتُ في أشدِّ الشوقِ إلى الالتحاق بالجيش عسكرياً، فلقد التحق به جارنا آرام هاروتيونيانَ بعدما أكمل السابعة عشرة، بينما تجاوزْتُ أنا السابعة عشرة بنصف سنة، وصرْتُ أجنّ كلّما أرى آرام في ثوبه الرسمي.

وقرّرْتُ أن أصير عسكرياً.

في الربيع ذهبْتُ ثلاث مرّات إلى شعبة التجنيد للتطوّع متوسلاً، وفي كلّ مرّة كانوا يعدونني بالقبول، بل قصّوا لي شعري، ومع ذلك لم يلحقوني بالجيش.

نحن الآن في حرب. وأنا معلمٌ في مدرسة القرية منذ سنة، وفي إجازة العطلة الصيفية. بي رغبة في الذهاب إلى شعبة التجنيد في المدينة لأتوسّل إليهم كي يأخذوني. ماذا أستطيع أن أفعل إذا كنْتُ ضعيفاً دائم المرض؟ أخشى، ولو استدعوني، ألا يُلحقوني بالخدمة، ويجددوا القول، أنت صغير، وغير سالم صحيّاً.

وأبيْتُ الليل، أنتظر شروق الشمس مؤملاً.

* * *

انبلج الفجر، وذهبْتُ إلى شعبة التجنيد. هناك نظر إليَّ الضابط مُمتعضا وقال:

ــ أهذا أنت أيضاً؟ هيّا. عد إلى البيت وارجع إلى هنا مع زادٍ لك يكفيك ثلاثة أيام.

عدْتُ إلى البيت فرحاً، وأخبرتْ أُمّي، فراحَتْ تبكي وتقول:

ــ وماذا تريدني أنَ أفعل بعد ذهابك؟

ــ لا شأن لي بما تفعلين. أنا أريد أن ألتحق بالجيش.

* * *

ها نحن نقف مُتزاحمين فوق محمل سيارة شاحنة.

وفي لمح البصر صرنا خارج بلدتنا الصغيرة، ومرَرْنا من تحت جوزات أجدادي.

ــ لا رجعة لنا بعد الآن.

اضطربْتُ. فالمتكلّم هو سيروج زاريليان، شابٌّ ضعيف، أجير نعّال، يلوح عليه أنّه يكبرني بعامين.

وها هما مجندان آخران يبكيان.

نحن نقف وتحت أقدامنا حقائب مكدّسة حُشيتْ بالأغذية والشراشف والمناشف والأدثرة، أكثرها صرر رُبطَتْ زواياها على عجل. فقلتُ:

ـ سوف نعود يا رفاق إن شاء اللّه.

لكن أنترانيك آتونتس المرح المزّاح لم يُصدّق قولي، الذي عقَّبَ عليه بارتسيك القصير السمين بقوله:

ـ هُراء.

الحرارة تلفح وجوهنا، وكأننا نتنفس ناراً. وحاول أنترانيك أن يغنّي لكنّ صوته خرج وكأنّه يبكي. فسدَّ سيروج فمه وأسكته. وتذكّرْتُ أنني حملْتُ معي دفتر مذكّرات وقلماً. لماذا؟ لا أدري.

* * *

وصلنا إلى مركز التجمّع.

لم يقودونا إلى محطة القطار، بل أُمرنا بالإقامة في بناء مدرسة.

عندما كنت طالباً في الثانوية اعتدْتُ أن أُسجل في دفتري كلّ ما أرى وأسمع من الأمور الهامّة. وحسب هذه العادة، جلسْتُ قرب نافذة في مقرّنا هذا، وأخرجْتُ دفتر مذكّراتي. ولكن، ماذا أكتب؟ ولماذا أكتب؟

ومع ذلك ها قد بدأتُ أكتب...

* * *

نحن الآن في الرابع والعشرين من حزيران، وهو اليوم الثاني لانخراطي في الجندية. حرارة الجو كالنار تحرق الصخور البرونزيّة، وتحرمنا من النوم، مع أننا فتحنا كلّ الأبواب والنوافذ في بناء المدرسة.

حان الظهر، وتجمّعنا في باحة المدرسة للاستماع إلى المذياع. ترى ماذا ستذيع موسكو؟. وبينما نحن على هذه الحال اقترب منّا ثمانية

فتيان، سألنا أحدهم، وكان ذا شعر غزير استرسل على جبينه وصدغيه مشعشعاً:

ـ أين آمركم؟

فسألته بدوري:

ـ أيّ آمر؟

ـ الأعلى.

ـ وماذا تريدون من الأعلى؟

فقال الفتى مُشيراً إلى أنّهم أكملوا سنيّ الدراسة المتوسطة وحصلوا على وثيقة نجاح.

فقلْتُ لهم:

ـ أُهنئكم، يبدو أنّكم أنهيتم الدراسة بنجاح باهر.

ـ نعم. لكننا جئنا للمشاركة في الحرب. نحن ثمانية عشر فتىً تخرجنا حديثاً، ونريد التطوّع في الجيش الأحمر والذهاب إلى جبهة القتال للدفاع عن وطننا.

كان الفتيان ينظرون إليّ بأمل كبير كما لو كنت أنا آمر الكتيبة. فتحرّك في قلبي شعورٌ غريب، فهؤلاء الفتيان الجبليون الأرمن يحملون في داخلهم قوّة جبّارة من حبٍّ الوطن الذي يتوجب علينا أن نذكيه في نفوسهم.

سألتهم:

ـ وهل يوافق أهلكم؟

فأجاب الفتى ذو الشعر الغزير نفسه:

ـ أهلنا الآن هم وطننا المهدّد المغدور به. ساعدونا أنتم على الوصول إلى الآمر لنعرض عليه رجاءنا، أمّا أهلنا فسيوافقون.

فأشرْتُ عليهم بالذهاب إلى شعبة تجنيد المنطقة، وبيّنْتُ لهم أنّها هي المسؤولة عن مثل هذه الأمور، وأنّ قيادتنا لا تتمتع بمثل هذه الصلاحية. وانصرف الفتيان وأنا أُرافقهم بنظري حتّى رأيتهم يدخلون

شعبة التجنيد. وقابلْتُ في ذهني هتلر الفاشي البادئ بهذه الحرب الباغية وقلت له: إيه، يا أحمق، أو تظنّ أنك قادر على التغلّب على شعبٍ، فتيانه من مثل هؤلاء؟ حضّرْ أيّها الأحمق كفنك، فأنت خاسر عاجلاً أو آجلاً،،.

نحن الآن في الرابع والعشرين من حزيران. بعد نصف سنة وأربعة أيام، أي في الثامن والعشرين من كانون الأول أبلغ الثامنة عشرة من العمر. هكذا بدأْتُ كتابتي.

الملازم آرام هاروتيونيان

السماء مُحمرّة، والماءُ حار. ونحن نلهثُ من شدَّة الحرارة مع لهاث السمك الذي نصطاده. ألقينا بمؤونتنا الغذائية في القمامة، لأنّ الدجاج المحمرّ قد فسد والجبن قد جفّ. وفقدنا الشهية للأكل.

جاؤوا بقطارين من العسكر. أحدهما مِن جورجيا. يحمل جورجيين، والثاني من نواحي شاماخ يحمل شُبّاناً.

وزّعونا على سرايا وفصائل. جاء موقعي في السرية الثانية، وآمرها آرامنا. وهو ملازم خاض قتالاً ضدّ فنلندا. وسُرِّحَ قبل شهرين فقط. وكان يستعدُّ للزواج، ولكن، هي الحرب.

وسألني آرام هاروتيونيان:

ـ لماذا جاؤوا بك إلى هذه القطعة الحربية؟

لم أُدرِك مغزى سؤاله. لقد رغبْتُ في التطوّع في الجيش، وقبلوني. فلماذا ركز آرام على عبارة: هذه القطعة الحربية؟ وبقي سؤاله غامضاً.

ارتخينا من الحرّ وارتمينا تحت الجدران. طار بي الخيال إلى مزرعتنا وإلى الجدول المار بجوارها.

عند المساء جمعونا في باحة المدرسة أيضاً، وألقى علينا آمر سريتنا خطاباً هتفنا له بحرارة ((يعيش)).

* * *

جاؤونا بألبسة عسكرية. لم أُدقّق في الانتقاء، بل حملْتُ ما صادفني: سترة وقميصاً وسروالاً، ولبستها فوراً. كانت مستعملة من قبل، وقد سوّد العرق أجزاء منها، ورفئت أجزاء أخرى.

بعد ما لبس كلّ أفراد السرية ثيابهم. ضحكْتُ للمظهر الذي بدونا فيه. فسروال سيروج أسود له ذيل. قميص أنترانيك خاص بالضبّاط. أمّا قميص بارتسيك فمثقوب في الظهر ومرفو وبالغ القصر.

سترتي كانت بنية اللون مرفوة عند الظهر والذيل. وسروالي يتسع لي ولسيروج أيضاً. وحذائي ثقيل، مجعّد، طويل العنق. أمّا العذاب ففي القمط التي تستر السيقان، فهي لا تفتأ. مهما أحكمْتُ شدَّها، ترتخي وتسحل بين قدمي.

* * *

قادونا إلى الجبال باتجاه قرية صغيرة سيراً على الأقدام. الطريق ممتدّةٌ على مرتقى شديد، كثيرة الحجارة، مختنقة بالأعشاب.

وصلنا إلى المكان عند منتصف الليل. البرد هنا قارس، وعلى قمة الجبل ثلج. أمّا القرية، فعبارة عن أكوام رمادية من الأحجار الباردة. سألْتُ الملازم عن سبب إحضارنا إلى هنا، فأجاب:

ــ لكي نعمل في البناء.

وأحسسْتُ بالأسى وقلْتُ مُستغرباً:

ــ كيف؟ هل تعني أننا لسنا جنوداً حقيقيين؟

ولم يجب.

لا توجد أشجار هنا، وما المكان سوى أخدود في بطن الجبل العالي. وقد جاؤوا بخيام نصبناها وأقمنا فيها.

بدأَتْ مجموعتنا بحفر الأرض لتعريض الطريق المهملة، وبناء أكواخ. وكنْتُ واحداً من الحفّارين.

بعد ذلك استدعاني الملازم إلى خيمته، وقال:

- ستكون أنت في سريتنا الكاتب وموّزع البريد ومدير الصليب الأحمر، مفهوم؟

ولم أذهب بعد ذلك إلى العمل في حفر الأرض.

* * *

في الليل وردنا أمر، فتجمّعنا في الحال وسرنا في الطريق إلى المحطّة. أنا مقهور، لا أفهم، أأنا إنسان أم خروف أم مخلوق يتنفس ولا يُدرك؟ وانتابني خدر مرضي وأسى مميت ويأس. ومع ذلك فأنا لا أتأفف. هذه هي الجندية التي أحببتها كلّ هذا الحب، رأسي غريب فارغ، أحسبني في التسعين من العمر.

وعاد بي الحنين إلى بيتنا ومزرعتنا، وإلى تلك المدرسة التي كنْتُ مُعلماً فيها. فانفرط قلبي ولم أستطع شيئاً.

نحن الآن في السادس عشر من تموز. بعد خمسة أشهر واثني عشر يوماً أبلغُ الثامنة عشرة من العمر. كتابتي لا تشبه شيئاً.

العجلاتُ تصر

مذ تحرّكنا، أخذونا إلى محطّة القطار، حيث وجدنا قُطُراً واقفة على ضفّة النهر الذي تفوح منه رائحة النفط والعفن. كانت الشاحنات من تلك المخصصة للضواحي، عتيقة وسِخة. انحشرنا فيها سرية سرية.

في هذه الأثناء اقتربَتْ امرأة من الشاحنات تصيح:

ـ أخي، هيبي...

عرفتها. إنّها ابنة عمّتي آريفهاد. متزوجة، تعيش هنا منذ أمد بعيد. بعدما عانقتني جلسَتْ على حجر وقالت:

ـ إنّهم يأخذونك إلى حتفك، وأنت طفل صغير، آي...

وتذكّرَتْ خالها، أبي، واختنق صوتها بالبكاء:

ـ واي، خالي، واي...

وأهاجت بكائي، لكنني تمالكْتُ نفسي. لأنّهم ليسوا هم الذين يأخذونني، بل أنا أذهب بإرادتي المحضّة. لكنني، ولأول مرّة، شعرْتُ بما يشبه الندم. لأنني رأيْتُ هول الحرب في دموع آريفهاد.

وصدر الأمر بالصعود إلى الشاحنات، لكن آريفهاد تعلّقت بي وهي تنتحب:

ـ ويلي، يأخذونك إلى القبر، ويلي...

وانكبّتْ على الحجر وهي تنتحب. وهذا يعني أنّ الناس في الحرب يَقتلون ويُقتلون. وخنَقتْ ضجّة القطار صوتها.

* * *

في الشاحنة حر وامتعاض. وسال العرق من الحديد كأنّه يبكي. أريد أن أتخيل وجه مارو، ولون عينيها، دون جدوى. ففي عينيّ ضباب، وفي أذنيّ عويل آريفهاد.

مارو، زميلتي في المدرسة.

كنّا نمشي بعد ظهر كلّ يوم سبت خارجين من المدرسة جنباً إلى جنب صامتين. وعند عبورنا الجدول، تتحفى مارو، وترفع ذيل ثوبها، وتخوض في الماء تاركةً نوراً أبيض يتأرجح على صفحته.

الليلة حارّة. جفاني النوم. أترقّبُ الفجر.

* * *

ينسابُ قطارنا مع الضفة اليُسرى لنهر آراكس. ينسابُ بطيئاً مُلتصقاً بالأرض وكأنّه يخشى حمرة الأرض البوار. تلمس يدي حديد الشاحنة فتلسعها حرارته.

العجلات تصر وتسعل، أترانا ثقيلين إلى هذا الحد؟ العسكر ينامون متلاصقين على الرفوف ذات الطبقات الثلاث. الجلوس مستحيل بسبب انخفاض السقف. لكن هذا غير مستحيل على سيروج، لأنّه قصيرٌ جدّاً.

يحكون، ويتحدثون. في ماذا؟ لا أدري. نحن ذاهبون. إلى أين نحن ذاهبون؟. آه. هه، إنها الحرب. دليلنا شابٌّ نحيل في صوته بحّة، سأسأله:

ــ لماذا لا يعطوننا سلاحاً؟

ــ سكوت! اسكت. السؤال ممنوع.

وأقول:

ــ لكن لماذا؟ فلنتزوّدْ بالسلاح ولنتدربْ عليه. نحن بلا عمل اليوم بطوله.

ولكي لا نبقى بلا عمل، أعطونا كتاباً مهترئاً عفناً: نظام الجندية.

ــ اقرؤوا. وتعلّموا.

وعينني دليل قافلتنا قارئاً في شاحناتنا. وبالفعل، جلسْتُ بين الجميع ورحْتُ أقرأُ بصوتٍ مرتفع.

أدّيْتُ مهمتِي على أكمل وجه. وراح آمر القافلة يثني عليّ، فانتهزتها فرصة وقلتُ له:

ــ الرفيق الآمر، أعطونا بندقية نتدرب عليها، فما فينا مَنْ لمس سلاحاً من قبل.

وفتح آمر القافلة ذراعيه عاجزاً، وذهب.

أعطاني سيروج قطعة كعك قائلاً:

ــ هذا ما تبقى مما أعطتني إياه أُمّي في البيت.

كانت الكعكة قد صارت كالحجر، لذا رحْتُ أحتال على مضغ آخر نكهة من جبالنا.

في التاسع عشرٍ من أيلول أعلمنا آمر سريتنا أنّ قواتنا تخوض معارك عنيفة دفاعاً عن (كييف). وينظر سيروج إلى رجلي. ويقول:

ــ اخلع حذاءك أخطْ لك ثقبه.

* * *

في (ماختشكالا) أخذونا إلى معسكر لإطعامنا. هذه أول مرّة أتذوّق فيها حساء السمك، وأول مرّة أرى فيها لحماً مُعلّباً. تعجبتُ. كيف تؤكل هذه الأخشاب الجامدة! فضحك سيروج وقال:

ــ كم سترى أعيننا بعد!

أنا أُشفق على سيروج. آخ، جسمه ضئيل.

ويهدر القطار.

* * *

اجتزنا نهر الفولغا، قرب ساراتوف على ما أعتقد.

ها هي جكالوف.

منذ مغادرتي وأنا أرسل كلّ يوم رسالة إلى البيت، يصل منها واحدة من عشر. وبارتسيك يكتب رسائل أيضاً، يستهلها دوماً:

ـ آه، يا أُمّي الغالية.

سيروج لا يكتب أبداً، فألومه وأحاول تحريضه على الكتابة، لكنّه لا يكتبْ، ويكتفي بالسؤال: ماذا أكتب؟...

وجدنا في إحدى المحطات ماسح أحذية، فنادى الجميع مرغباً:

ـ تعالوا امسحوا أحذيتكم.

لكنّهم أعرضوا عنه ساخرين.

ونمضي في فلاة لا أول لها ولا آخر، ونمضي...

وقد خلّفنا جكالوف، وهي نورمبورغ قديماً، وراءنا. هنا مات واهان ديريان شاعرنا العظيم وقائل هذين البيتين:

ضاعت ضحكة قلبي دونما رجعة

وغلّف الضباب السام روحي.

فيبكي بارتسيك، وينهره سيروج:

ـ ماذا تفعل، إيه؟.

يُذيبُ الحرّ جسمي، ويُشققُ العطش شفتيّ بارتسيك، فنندفع إلى الماء مثل ثور أكل ملحاً، لكن سيروج يمنعنا ويُحذرنا في الوقت المناسب:

ـ لا تشربوا من هذا الماء، فيه دود.

وفي إحدى المحطات جاءنا بسطل ماء مغلي قائلاً:

ـ اشربوا من هذا، فالماء الطبيعي في هذه المنطقة لا يُشرب.

وهكذا أنقذنا سيروج من تلبّك الأمعاء.

الغروب جميل في الفلاة. استمتعوا...

نحن الآن في السابع والعشرين من تموز. بعد خمسة أشهر ويوم واحد أبلغُ الثامنة عشرة من العمر. كتابتي نواح.

صداقةٌ مع النار

وصلنا إلى الشاطئ الشمالي لبحيرة بالخاش.

الحرُّ هنا صحراوي، مُغبَر. بالخاش، عمال النحاس، بلدة ليست كبيرة تختنق على شاطئ البحيرة بماء تخاله يغلي.

أسكنونا في أكواخ خشبية وحيدة الطابق. ننام على الأرض على ستراتنا.

أخذوا السرايا إلى مناجم النحاس للعمل في معامل الصهر. وعيّنوا الممثل خاجيك مكردجيان طبّاخاً، والنعّال سيروج، ممرضاً، وساشا ميناسيان للعمل في التمديدات الكهربائية، فقال الأخير الأخير متذمراً:

ـ لم أشق في حياتي مثل هذا الشقاء أبداً.

وعندما يشحذ انترانيك موسى الحلاقة الذي ورثه عن أبيه الحلاّق يقول:

ـ عملي ملوكي.

بارتسيك هو المسكين وحده، فحين يعود من المناجم يبدو مُنهكاً يائساً. لهذا أَشفق عليه الملازم هاروتيونيان، وأسند إليه تقطيع الخبز في المطبخ.

* * *

هذه هي البلدة الصحراوية التي تقع في شمال بحيرة بالخاش. لقد زرعوا الأشجار في البلدة حديثاً بغية إحداث حديقة ظليلة للمستقبل. أخذونا إلى الحمّام. وسمحوا لنا بعده بالتنزّه في الحديقة حتّى الساعة العاشرة مساءً.

كانت الحديقة مكتظّةً بعددٍ لا يُحصى من البنات نُقلن بصفةٍ عاجلة من مختلف ميادين العمل في غرب البلاد، فجئن في ثياب صيفية خفيفة مُغرية جذّابة، ورحن ينتزهن هناك زرافات زرافات. اختلطنا بهنّ، واخترتُ لنفسي منهنّ واحدة زرقاء العينين، وذات شعر بلون الشمس. قالت لي:

ــ اسمي شورا.

إنّها كالسوسنة البيضاء، طويلة القامة، حادة الأنف والنظر.

مشينا في المر بين صفي الأشجار. شورا تضحك، هل هذا هو صوت الحسون؟.

وتبكي شورا وتقول:

ــ هناك، في سمولنسك، بقي وجداني...

في شفتي شورا طعم السفرجل، وفي قدّها الأهْيَفْ لمسة ناعمة.

ــ شورا.

ــ آ؟...

* * *

عدْتُ إلى المعسكر مُتأخراً، ونمتُ على الأرض بجانب سيروج. وإذا به يسألني:

ــ لماذا تبكي؟

تعجبْتُ، هل أنا أبكي حقّاً؟ نعم فأمامي وسط الضباب، تتمثل لي جبالنا البعيدة النظيفة.

العفو منكِ، العفو، العفو يا مارو...

* * *

ويرنُّ في أذني صوت شورا:

ــ آ...

جاري هو البحر، وشورا هي عزائي. رماله حارّة.

* * *

حلّ الليل. فقلتُ لشورا:

ــ نحن راحلون.

فارتجفَتْ، وسألتني:

ــ هل تكتب لي؟

ــ لا، عفوك شورا، عفوك...

وترقرقت الدموع في عينيها الزرقاوين، ورأيتُ تحت دموعها الصافية وجهي المذعور.

ــ العفو، العفو...

* * *

طلع الصباح، وبدأنا نستعد للرحيل. وجاءت شورا أيضاً إلى المحطّة لوداعي وسألتني:

ــ هل سنلتقي؟

ورفعْتُ كتفي. من يدري، قد نلتقي وقد لا نلتقي. ولكنّها نظرَتْ إليّ بتصميم وقالت:

ــ بل سنلتقي.

صدر الأمر بنقلنا إلى الشمال، إلى كاراكاندا. لكن مفوض فصيلنا استدعاني، فربتُّ على كتف شورا، وأسرعتُ إلى تلبية الأمر.

نحن الآن في التاسع عشر من آب. بعد أربعة أشهر وتسعة أيام أبلغ الثامنة عشرة من العمر. فلتذكر كتابتي الخير.

الصحراءُ بديعةٌ

أخذني مفوض الفصيل بعيداً إلى حيث تقف سيارات شاحنة، وقال لي:

ـ سيُسافر الفصيل بالقطار مسافة طويلة. وبعد تسعة أيام يصل إلى كاراكاندا، وسأنقل أنا إليها مؤونة بالسيارات. هيّا، جهّز نفسك لمرافقتي.

أيّ تجهيز لعسكري؟ اجعلْ دثارك طوقاً واحمل حقيبتك على كتفك وامض.

وقت الظهر غادرنا البلدة بالسيارات الشاحنة. وأنا أُحاول ألاّ أتذكر شورا. قالت ((نلتقي)). فتاة حمقاء، كيف نلتقي؟

عينني المُفوّض مساعداً له، وأعلمني أنّ الشاحنات تحمل أواني نحاسية مُلئت أغذية من الطحين والسمن والبرغل والمعكرونة والسكر وغيرها من المواد، وقال:

ـ سنصل إلى كاراكاندا بعد يومين، لنجد مكاناً للفصيل ونخبز خبزاً.

على كلّ سيارة يوجد أربعة عساكر: طبّاخان وخبّازان.

لكننا ما كدنا نغادر البلدة حتّى أمر المُفوّض القافلة بالتوقّف على غير انتظار. وبعدما دقق في أفق الصحراء الأصفر، التفت إليّ قائلاً:

ـ اسمعوا، سوف أعود، وأعيّنك أنت رئيساً للقافلة. تصلون إلى كاراكاندا وتنتظرون وصولنا هناك. مفهوم؟

ـ مفهوم. أين تأمرون أن ننتظركم؟

ـ في فناء شعبة التجنيد، فهم ينتظروننا.

زنزل، وركبْتُ مكانه إلى جانب سائق سيارة القيادة.

* * *

تحرّك رتل السيارات. نظرْتُ إلى السائق الذي أجلس إلى جانبه، فوجدْتُهُ رجلاً في الخامسة والثلاثين من العمر، روسياً يعمل في الخدمة المدنية، محروق الوجه، يحمل على ظهر سيارته زوجته وطفليه، يأخذهم إلى كاراكاندا. فسألته:

ــ لماذا تأخذهم معك إلى هناك؟

أجاب:

ــ عندي أقارب في كاراكاندا. آخذهم إليهم، وأؤمن عليهم، فقد يطير اليوم رأسي، مَنْ يدري؟

دخلنا الصحراء الممتدة إلى الشمال من بحيرة بالخاش.

سألْتُ السائق الذي يُدعى سيرجي عن موعد وصولنا إلى كاراكاندا فزفر وأجاب:

ــ قد لا نصل أبداً.

ــ وكيف يكون ذلك؟

ــ هو ما قلت. إنّها صحراء، لا طريق فيها. سنسير مع الطبيعة مخوّضين في الرمال، حتّى إذا هبّت علينا الريح، فاقرأ علينا السلام. أنا لم أمر بهذه الأصقاع سوى مرّة واحدة. والمسافة إلى كاراكاندا سبعمائة كيلو متر، نقطعها في يومين إذا لم يعقنا عائق ولم أضل أنا الطريق، وإذا...

ــ لماذا تُعرّض أهلك للخطر إذن؟

وزفر مرّة أخرى:

ــ مَنْ يفكّر بالأهل؟ إنّها الحرب.

تعجّبتُ من ذوي القامات الطويلة، لماذا يخافون كلّ هذا الخوف من الحرب؟ أين هي تلك الحرب؟ سأذهب إليها لأطّلع على ما هي.

* * *

عند منتصف الليل، لاحظنا أنّ أضواء السيارات السبع التي تلحق بنا قد ضاعت، أين ذهبت يا تُرى؟.

ولمّا بزغ الفجر تبين لنا أننا نحن الذين ضللنا الطريق. إذ لا يوجد أثر لسيارة أو جمل أو أي شيء آخر مرّ بهذا المكان القفر الخالي من الحياة. وتلفّت سيرجي حوله، وأخذ رأسه بين راحتيه وصاح:

ــ الويل، الويل.

مأساة. وسأل سيرجي زوجته:

ــ متى اختفت الأنوار اللاحقة بنا؟

ــ عند منتصف الليل. ماذا هناك يا سيرجي؟

ــ لقد ضللنا الطريق.

ــ ماذا تقول؟

وبان الرعب على المرأة المسكينة.

وجلس سيرجي على الرمال يائساً. ولمّا استيقظ طفلاه طلبا ماء. فانتهرهما بقسوة:

ــ اسكتا. من أين أتيكما بالماء؟

كان عند طباخينا وعاء فيه ماء. أمرتهم بصنع شاي، وبعض الحساء. فقطعوا علبتين من المعكرونة، وأشعلوا النار. بينما انهمكتُ مع سيرجي في البحث عن طريق هنا أو هناك. ولكن لا فائدة ولا جدوى. إذ لا يوجد أي أثر لحياة في الصحراء المُقفرة حولنا. لم يبق أمامنا إلاّ الرجوع. ازدردنا المعكرونة وشربنا الشاي على عجل. وسرنا نتتبع آثار عجلات سيارتنا. والطفلان يتأوهان من الحر، فترقرقت في عيني الدموع.

عدنا مسافة مائة كيلو متر، ووجدنا آثارٍ عجلات سياراتنا الأخرى التي انعطفت يساراً، وكنّا قد انعطفنا يميناً. وتبعنا نقوش الأطر على الرمل ومضينا، وسيرجي لا يغفر لنفسه.

ــ تبّاً لي ما أحمقني، لماذا انعطفتُ نحو اليمين؟

تضاعف همّي عندما فكّرْتُ فيما يمكن أن يحصل إذا ما تعطلت سيارتنا، إذ خُيِّل لي أنّ شاحنتنا الكبيرة قد بدأت تشخر وتلهث، ولسوف تختنق.

نحن الآن في الثامن والعشرين من آب. بعد أربعة أشهر ويوم واحد أبلغ الثامنة عشرة من العمر. كتابتي رمادية مخلوطة بالرمل.

لا تضطرب، يا ولدي

حين أصبحنا وصلنا إلى منطقة مأهولة، فيها خيام رُعاة. وبناءان مُنخفضان من القرميد.عندهما وجدنا سياراتنا متوقفة. لكنّها خمس بدلاً من سبع. فأسرعْتُ نحو الجند المتمددين تحت ظلّها وسألتهم:

ـ أين السيارتان الأُخريان؟

فوقف جندي أسمر البشرة وقال:

ـ تعطلتا في الصحراء.

ونظرْتُ يائساً إلى النائمين وسألت:

ـ وأين العسكر الذين كانوا عليهما؟

ـ هم هنا، معنا. جئنا بهم في طريقنا.

أنا حائرٌ لا أعرف ماذا أفعل. في سرّي أشتم المفوّض الذي تركنا، بعدما أسند إليّ مهام القافلة. ماذا أفعل؟ فتَحْتَ إمرتي اثنان وثلاثون عسكرياً وثمانية سائقين وست سيارات. ماذا أفعل؟ بماذا آمر؟ وفوق هذا فأنا لا أحمل حتّى رتبة رقيب، وإنّما أنا جندي عادي. واقتربْتُ من سيرجي حائراً، وتمتمت:

ـ فقدنا سيارتين.

قال:

ـ فكّر الآن بالباقي. هل أنت واثقٌ من أننا سنسْلَم عليها.

* * *

حسب إرشاد سيرجي ذهبْتُ إلى المسؤول العسكري في المخيم. استقبلني الرجل مُشفقاً. وسألني:

ـ هل تحمل بطاقة تموين؟

هذه أول مرّة أسمع فيها بمثل هذه البطاقة. واتضح لي أنّ الموظف مُلزم بإطعامنا إذا أبرزنا له بطاقة التموين. ولكي أخرج من هذا الحرج رجوته أن يُساعدنا على تحضير خبز من طحيننا. لم يرفض. وأرسل كيسين من طحيننا إلى الفرن لتحضير الخبز بسرعة، واهتمّ بالأمر شخصياً. ثمّ قال:

ـ اسمع أيّها الرفيق في الجيش الأحمر. أنت الآن آمر، وعليك أن تتحمّل الأعباء العسكرية، وأن تتخذ قرارك الفوري في كلّ شيء.

بعد ما أطعمْتُ جنودي، أصدرْتُ أول قرار وأمرت:

ـ استعدّوا للمسير.

كما أمرْتُ السائقين بألاّ يتباعدوا.

الحرُّ خانق، أواه، آب، وصحراء... وتذكّر سيرجي أنّه يوجد بئر ماء بعد مائة وخمسين كيلو متراً.

وتعطّلَتْ سيارة أُخرى من سياراتنا. وأصدرْتُ أمري الحازم بتوزيع حمولة السيارة المعطّلة على الباقيات. وأمرْتُ السائق بترك سيارته والسفر معنا. هكذا. إصدار الأوامر شيء جميل.

ترى أية عقوبة تنتظرني لتركي السيارات في الصحراء.

مع المساء وصلنا إلى بئر الماء. ولم نجد حولها شجراً أو خضرة أو حتّى عشباً شوكياً للجمال. لم نجد غير بئر عميقة ضفرت جدرانها من أغصان الشجر، حُفرت بجانب الطريق. انحنيت، ورأيت صورتي على صفحة المرآة المائية الدائرية البعيدة.

شربنا حتّى ارتوينا، وحملنا معنا مؤونة من الماء.

تحرّكنا. خطرَتْ لي أُمّي. أنا في الصحراء، جندي، الدنيا حرب ضروس. ترى كيف تنتهي هذه البلوى. ويطير بي الفكر إلى، ((الأخ الصيّاد)).

رأيْتُ، يا أختيِ، عاشقاً مهموماً،
توسَّد حجراً بدلاً من وسادة.
نام هادئاً في حضنه كُرة
يضمّها إليه بدلاً من حبيبة.
سألني سيرجي:
ـ ألك أم؟
ـ لي.
وسكت. لماذا سأل؟ ترى هل تترقب أُمّي أيضاً عودتي؟

* * *

ونسير في طريقنا قدماً في الصحراء في الليل. فأنام. ويا للروعة، أرى في منامي أفيديك إيساهاكيان، يُقبِّلُ جبيني، ويقول لي شيئاً. كذلك أرى قوافل الجمال. وأيقظني سيرجي.
ـ لا تنم، إن تنم أنت، أنعس أنا.
وأُركّز تفكيري على قافلة الجمال: ((تلك القافلة تقطع الطريق بخطوات متساوية متمايلة، ترنُّ أجراسها بنبأ حلو، يملأُ البوادي الهادية)). وأنشد القصيدة بصوتٍ مرتفع حداءً.

* * *

تعطّلَتْ سيارة أُخرى من سياراتنا، فتركناها ومضينا. السماء منخفضة، رمادية وحمراء. والحرارة المنبعثة من الرمال تلفحُنا موجاتها المُتتابعة. وبعث سيرجي فيّ الأمل حين قال:
ـ توجد واحة بعد مائة كيلو متر.
خمّنْتُ المائة كيلو متر كأنّها آخر الدنيا، أو دهرٌ كامل نحتاجه للوصول إلى الواحة.
وقال سيرجي:

ــ من حُسْن حظنا، لا توجد ريح...

لكنني وددْتُ لو وجِدْتُ تلك الريح، لأتعرّف على عاصفة الصحراء.

حان الظهر، وجفّتْ ألسنتُنا من العطش. ومن بعيد أخذ يظهر خطٌّ أسود كأنّه بحيرة. إنّها الواحة.

نحن الآن في الثالث من أيلول. بعد ثلاثة أشهر وخمسة وعشرين يوماً أبلغُ الثامنة عشرة من العمر. كتابتي عطشى، عطشى.

دموع الصحراء

اقتربنا من الواحة، وإذ بقطيع كبير من الوعول ينفر ويهرب بسرعة هائلة، وعلى ظهورها صبيان كازاخيون في الثانية عشرة أو الثالثة عشرة من العمر.

وصلنا على الأثر إلى مخيم نُصِبَتْ فيه خيام من اللبّاد. الخيام خفيضة، ذات قباب مكوّرة، مشدودة إلى الأرض بإحكام. عندما رأتنا النسوة والبنات اختفين داخل الخيام. عجيبةٌ هي سراويلهنّ التي تصل إلى أرجلهنّ الحافية، وضفائرهنّ الرفيعة على ظهورهنّ، وجلابيبهنّ الملوّنة.

ثلاثةُ عجائز يجلسون على الحشيش الأخضر، حمر الوجوه، جرد تقريباً، ذوو سحنات صحراوية، وقبعات هرمية من اللبّاد، وسترات ذات ثنيات. لكن يبدو أنّهم لم يرونا. أسرع رجالنا نحو البئر. وقال لي سيرجي:

ــ يوجد عند هؤلاء الكازاخيين كوميس لذيذ.

ــ ما هو؟

ــ شراب مُنعش مُحضّر من حليب الخيل.

كان سيرجي يعرف عدة كلمات من اللغة الكازاخية، فطلب الكوميس من العجائز، لكنّهم هزّوا رؤوسهم نفياً. فأشار عليّ سيرجي بأن نريهم سُكّراً وشاياً. فأمرْتُ الطباخين بإحضار ملء قبعة من السُكر وعدة علب من الشاي. فما كاد العجائز يرونها حتّى وقفوا وهمسوا بشيء لسيرجي. ثمّ دخل أحدهم إلى خيمة قريبة وخرج وهو يحمل جرّة من الكوميس، يريد أن يُبادلها بالسُكّر والشاي.

أذاقتني هذه المُقايضة البدائية طعم الكوميس الحامض اللذيذ. وغادرنا الواحة بعد نصف ساعة.

* * *

وتعطَّلَتْ سيارة أُخرى، تركناها وتابعنا سيرنا.

بدأنا نسير ببطء شديد. فالسيارات قديمة، أُطرها تالفة، تضطرنا من وقت لآخر إلى التوقّف لملئها بالهواء. نسير ولا نلقى أحداً، ونحن في الصحراء الثقيلة من جديد، بكلّ حرارتها الخانقة.

في اليوم التالي تركنا سيارتين أُخريين. ولم نتمكن في هذه المرّة من تفريغ حمولتهما.

ولم تبق غير سيارة سيرجي.

* * *

وصلنا إلى واحة جديدة. وجدنا فيها وحدة تربية أغنام. فلمّا توقّفنا عند كوخ، اقترب منّا شاب روسي وقال:

ــ بماذا أستطيع أن أخدمكم، أيّها العسكر؟ أنا مدير هذه الوحدة.

رجوناه أيضاً أن يخبزوا لنا خبزاً من طحيننا، فوافق بسرور. وقادنا الشاب وهو طبيب الوحدة البيطري، إلى مسكنه، حيث استقبلتنا أُمّه عند الباب مُرحِّبةً، ودعتنا إلى الدخول. كانت أرض الخيمة مفروشة بسجاجيد خضر. جلسنا. ووضعَتْ الأُم تحت ذراعي وذراع ابنها مُتكأً لكل منّا، ثمّ فرشَتْ خواناً أبيض فوق السجادة. يداها الناحلتان نظيفتان، جذابتان. أعطتني أولاً شاياً طيّب النكهة لتخفيف تعبي، ثمّ قدّمَتْ لنا رزاً باللحم. كانت الصحون والأواني نظيفة، نظيفة تلمع. سألتني الأُم بواسطة ابنها:

ــ هل لك أُم؟

ــ لي.

ــ واه، واه، وهل أنتم ذاهبون إلى القتال؟

ـ نعم.
ـ وي، وي...
وبلُغَتِها، وبما يشبه الصلاة، تمنَّتْ لنا الأُم الكازاخية السلامة.

* * *

وصلنا إلى حدود كاراكاندا بعدما خلفنا الصحراء وراءنا، وخفَّتْ وطأة الحر. عند المساء صادفنا مجموعة عسكر كشّافة.
سألني النقيب رئيسها:
ـ عشرة أيام ونحن نبحث عنكم، أين كنتم؟
وقادنا إلى ثكنته وحمّمَنا وأطعمنا، رأيتُ هناك ولأول مرّة جنرالاً.
قال مازحاً:
ـ إيه، يا روبنسون، هل ضعتم؟ هل عندكم خسائر في الأرواح؟
ـ لا.
مرحى.
وكلّف مرافقين أوصلونا في اليوم التالي إلى كاراكاندا، إلى معسكرنا. وهناك، قدّم لي كأساً وقال:
ـ اشرب هذا العرق. لقد خرجْتَ من القبر.
ولأول مرّة في حياتي شرِبْتُ عرق الخروب كريه الطعم. وفي جعبة سيروج شيء آخر لي:
ـ شوراك هنا.
ـ ماذا؟...
أومأ سيروج إلى كوخ خشبي، عليه علامة الصليب الأحمر، وقال:
ـ إنّها ممرضة. عندما كنّا نصعد إلى القطار، جاءت تحمل أمراً من شعبة التجنيد. وانضمّت إلينا.
ـ هل جنّت؟
ورفع سيروج كتفيه:

ـ مَنْ يعلم؟

نسيْتُ كلّ العذاب الذي عانيْتُ منه في الصحراء. لماذا جاءَتْ شورا؟ إنّها نارٌ شبَّتْ في كوخ الإسعاف. وخفْتُ الاقتراب كي لا أحترق.

نحن الآن في الواحد والعشرين من أيلول. بعد ثلاثة أشهر وسبعة أيام أبلغُ الثامنة عشرة من العمر. في كتابتي خوف.

ماذا جرى أمس

استقرّ فصيلنا العسكري في بناء من الطوب مؤلف من طابقين، في وسط المدينة، ذي مظهر جميل إلى حد ما. جعل مقرّاً للقيادة ومقاماً للضبّاط. ومنهم آرام هاروتيونيان. بعد ثلاثة أيام من وصولي من الصحراء استدعاني إلى مكتبه. وقال وهو يقدّم لي ظرفاً:

ــ هذه رسالة لك من البيت، استدعيتك من أجلها. هل تعذّبْتَ في الصحراء؟

ــ كدْتُ أفقد الأمل بالنجاة.

هذا المُلازم الضئيل أحمر الشعر مجدور الوجه هو الملاذ الحق لي. فعندما أراه أشعر بأنني قوي، قادرٌ على تحمّل أقسى أنواع العذاب. وسألته عمّا يعرف من أخبار القتال في الجبهة. بالطبع لم يكن عند هذا الرجل الذي خاض حرباً مُرّة، أي خبر حسن.

ــ نحن نموت:

قلتُ:

ــ لكن ما سبب انكسارنا؟

وبعد صمتٍ طويل، وتدخين. قال بصراحة:

ــ أنا أيضاً أستصعبُ الرد على هذا السؤال. لكن هناك أمرٌ واضح، هو أننا ما كنّا نستعد لدخول حرب رهيبة.

ــ لماذا لم نكن نستعد؟

وتفرّس في وجهي طويلاً، وكأنّ السؤال يُقلقه هو أيضاً. نعم لماذا لم نكن مستعدّين؟ لقد كان واضحاً منذ زمن أنّ ألمانيا الهتلرية ستشنُّ حرباً علينا.

إنّها الحرب العالمية الثانية التي بدأتْ عام 1939 بهجوم ألمانيا الفاشية بدباباتها وقواتها جيدة التسليحِ على بولونيا في الأول من أيلول، وجثمَتْ على صدرها، وراحَتْ تتطلّع بأعينها الخبيثة إلى مواقع حدودنا الدفاعية.

قال المُلازم:

ـ نعم كان هذا واضحاً. لكن كان بيننا وبين ألمانيا معاهدة ما كنّا نتوقع أن تُلغيها ألمانيا منفردة.

الملازم أكثر إطّلاعاً على الأحداث ولا شك. فلقد خاض معركة فنلندا، وخاض قبلها معركة توحيد أوكرانيا الغربية وبيلوروسيا مع الإتحاد السوفياتي.

قلبي يتفطّر

ومَنْ لا يتفطّر قلبه في هذه الأيام العصيبة الصعبة. الوطن في حال خطرة، وخطرة جدّاً. أفتح الصحف اليومية بخوف. وأتحاشى النظر إلى بلاغات دائرة الإعلام السوفياتية كيلا أُفاجأ بنبأ سقوط مدينة أُخرى.

لشدّة ما أخشى ذلك!

ولشدّة ما تزداد فيّ الرغبة في الذهاب إلى جبهة القتال! أحسب كأنّ وجودي هناك في الجبهة سيغيّر موازين الحرب لصالحنا، وسيمنع العدو المسعور من التقدّم خطوة واحدة إلى الأمام. إنّها ولا شكّ تطلّعات نفسية غبية، أو لعلّها نتيجة لانطباعات رومنطيقية طفولية. وإنّها لكذلك.

وأدرك المُلازم شعوري وقال:

ـ أينما كنّا فنحن في الجبهة. وغداً أو بعد غد، نذهب إلى القتال. وكلّما أسرعنا يكون أحسن.

قلْتُ:

ـ إذن، فلنذهب الآن فوراً.

لم يضحك. بل رد:

ـ تعرف القيادة مكاننا جيداً، ولسوف تستدعينا عندما تدعو الحاجة إلينا.

لم يرحني جوابه. فالقيادة تعرف مكان الملازم آرام هاروتيونيان بالطبع. فهو ذو دراية بالحرب، وأتصوّر أنّه لو كان في الجبهة لقام بأعمال بطولية خارقة. إنّه يكبرني بخمس سنوات، له شارب أحمر،

وهو رجل كامل. ولكن مَنْ أنا لتعرف القيادة مكاني؟ أنا يافع تقريباً، لم تسبق لي خدمة في الجيش، وفوق هذا، فأنا كثير المرض بالزكام. وأكتب الشعر أحياناً. إنني أرغب في الذهاب إلى جبهة القتال، وإنني أريد القتال، وأنا... صدقوني. أستطيع القتال جيّداً. صدقوني.

وسألْتُ المُلازم:

ـ ما العمل إذن أيّها الرفيق الملازم؟ العدو يقترب من موسكو.

قال الملازم:

ـ نعم، وما أثقل أن تعلم أننا ننسحب بسرعة تاركين أرضنا وأهلنا تحت رحمة العدو الغاشم.

على الرغم من بُعد كاراكاندا بُعداً كبيراً عن ميدان القتال، إلاّ أنني أشعر بوطأة الحرب الرهيبة، وأُمنيتي في الذهاب إلى الجبهة تزداد إلحاحاً يوماً بعد يوم.

كتبت أمّي في الرسالة أنّهم ساقوا أخي الوحيد الذي يكبرني بعدة سنوات إلى جبهة القتال. أخي عسكري، ويعشق مهنته. وبذهابه يبقى بيتنا من دون رجل، ولا يوجد في البيت غير تسع من ذوات الخمار، ترى هل عندهنّ حطب.

نحن الآن في الرابع والعشرين من أيلول. بعد ثلاثة أشهر وأربعة أيام أبلغُ الثامنة عشرة من العمر. ولا أعرف ماذا تشبه كتابتي.

مع الآثار القديمة

استقرّ لواؤنا في إحدى أجمل ساحات كاراكاندا. نصبوا خياماً مستطيلة في العراء المكشوف وأسكنونا فيها. المركز الطبي وحده من الخشب، وتسكن فيه شورا. لكنني لا أراها إلاّ نادراً.

بدأنا هنا بحفر الأرض لبناء معامل كبيرة. وفي المساء وبعد عمل النهار المرهق نجلس أمام الخيام، نغنّي أُغنيات حزينة.

في خيمة غير واسعة أحدثوا مكتبة للمُطالعة وعينوني قيّماً عليها، فزينتها بصور وزوّدتها ببطاقات وكتب. وعمدْتُ إلى إصدار صحيفة جدارية بلغات أربعٍ: الأرمنية، الروسية، الأذربيجانية والجورجية، فسُرَّ آمرنا لذلك كثيراً.

في أحد الأيام اقترب منّي جندي وقال:

ــ ألا تعطيني قليلاً من الورق للف سجائر؟

أجبْتُ:

ــ أعطيك قليلاً لأنّك أعجبتني أيّها الصديق.

فضحك ساخراً من نفسه وقال:

ــ وجدْتُ من يثيره العجب. على كلّ حال، أنا اسمي ساخنوف. تذكّره جيداً فقد تحتاج إليّ. أنا بنّاء.

ــ أهي مهنتك؟

ـ صنعتي تختلف تماماً. لكنني تعلّمْتُ مهنة التمليط، وهي مهنة مُربحة.

بدا لي غريب الأطوار.

جندي الصف ألكسندر ميخائيلوفيتش ساخنوف من غرب روسيا، ثقيل ثقل الأرض في ظاهره ومن حديثه، لكنّه مرح وطيّب.

قال:

ـ لقد احتلّ الفاشيون قرية لم أكن فيها، بل سمعْتُ بها. وهذا لا يهم، لأنني لو كنت فيها لما استطعْتُ أن أفعل شيئاً. وبعدها سقطَتْ أوديسا. لماذا؟. أنا لا أعرف. هل تستطيع أن تُفهمني شيئاً؟

ـ أعتقد أنّ السبب هو أنّ العدو قوي.

وضحك ساخنوف ساخراً وقال:

ـ أبي في قبره يستطيع أن يشهد على ذلك، أنا أسأل عن السبب الذي جعل هتلر قوياً ونحن لا.

ولم نتوصل إلى نتيجة مُقنعة. لكن الشيء الواضح لكلينا هو أنّ حالة عدم توازن القوى لا تدوم على هذا الشكل، ولسوف يشتدّ عزمنا سريعاً. وسُرِرْنا لفكرة أقنعتنا بأنّ بلادنا تضع كلّ إمكاناتها لصدّ المعتدي، ولنا حلفَاء. وها هي فرق تشيكية مُحاربة تتشكل على أرضنا من اللاجئين التشيك، ومثلها من البولونيين. وهم، كما تقول الصحف، يلتحقون بالجبهة قريباً.

قلْتُ لساخنوف:

ـ إنّها على كلّ حال قوة وعون.

وردّ ساخنوف:

ـ لا تضع أملك إلاّ في ساعديك. لكنني أتعجّب، لماذا لا يسوقونك ويسوقونني إلى جبهة القتال؟ عمل الملاط يمكن للنساء أن يؤدينه. وماذا إذا رُكبَ معمل في مكان غير مملط؟ ماذا يحدث؟

كلنا هنا متحفزون نتابع أحداث الجبهة. حتّى أنّ كلّ رجال لوائنا تقريباً عندما ينتهون من عملهم ويعودون إلى البيت، يهرعون إلى كوخ المكتبة، يسألون عن الأخبار وعن الحرب. فأبدأ أشرح لهم على الخريطة إعتماداً على شرح آمرنا، وأُشير إلى البلاد التي انسحبت منها

قواتنا مُتراجعة نحو الشرق. إنّها مُهمّة صعبة، ولكن ما بيدي حيلة. وينظر الجنود إلى المناطق والبلاد التي احتلّها الألمان على الخريطة، ثمّ يبتعدون حزانى، وكأنّهم يوارون قريباً عزيزاً عليهم. وتزداد الحلقات السود التي أرسمها على الخريطة اقتراباً من موسكو. ويدبُّ فيّ الرعب. تُرى هل سأرسم حلقة حول العاصمة أيضاً؟ لا، لن يحدث هذا.

* * *

ذهبْتُ إلى شورا في المركز الطبي وقلْتُ لها:

ـ عندي صُداع شديد.

وأدركَتْ شورا أنّ الصُداع هو حُجّة لتبرير قدومي إليها. كانت ترتدي رداء أبيض وعلى رأسها قُلُنْسوة بيضاء أيضاً.

ـ هل ابتلعْتَ غباراً في الصحراء؟

سألتني هذا السؤال وفي صوتها رعشة قلق. سألتُها:

ـ وأنتِ، لماذا التحقْتِ بالجيش.

ورمقتني بحدّة، ثمّ لانَتْ في الحال وأجابَتْ:

ـ هل تريدني أن أبقى في الخلف لأصدأ؟ هل عندكَ صُداع حقّاً؟

ـ لا.

ـ هل يؤلمك بطنك؟.

ـ لا.

ونظَرْتُ إلى عينيها بخبثٍ وقلْتُ:

ـ ليس بي أيّ مرض، ولسْتُ بحاجةٍ إلى معونتكِ.

فأشاحَتْ بوجهها حاجبةً عينيها بيديها وابتعدَتْ.

ولمّا دخلْتُ كوخ مكتبتي سالَتْ دموعي لا إرادياً.

* * *

تتألف كتيبتنا من ألفين وستمائة فرد، ضُبّاطاً وجنوداً. نستيقظُ في الساعة السادسة صباحاً بعد نداء الضُبّاط المناوبين. نغتسل ونُجري التدريبات الرياضية ونفطر في السابعة، ثمّ يذهبُ كلٌّ منّا إلى عمله صفاً صفاً. نعود في الساعة التاسعة مساءً. ولا يبقى في الفترة النهارية في المعسكر غير اثنين من المناوبين والمرضى وأنا.

كتبْتُ رسالة إلى مارو، أقول فيها: أتدرين يا مارو العزيزة أننا لسنا في الجبهة بعد، ونعيش كما يقال عالة، وهذا سيء. كلّ همّي أن أذهب إلى جبهة القتال بأسرع ما يمكن. ويلٌ لهؤلاء الفاشيين، إنّهم يدنّسون أرضنا المقدّسة. أنتِ تقرئين ذلك ولا شك في الصحف، أو تسمعينه من الإذاعة. سألْتُ آمر كتيبتنا مرّة: لماذا لا نذهب إلى الجبهة؟ فكان ردّهُ أنّ الخطوط الخلفية أيضاً جبهة. ولكنني لم أصدّق قوله. لأنني أُريد أن أكون في المكان الساخن من الحرب لمحاربة العدو وجهاً لوجه. ومازلتُ أنتظر ذلك اليوم بصبرٍ نافذ...

وأرسلْتُ رسالتي من دون طابع. لأننا معفيون من رسم الطوابع، وهي منحة عسكرية. ثمّ، من أين لنا أن نحصل على طابع هنا؟

يلصق سيروج رأسِ القلمِ على لسانه ويبلله بريقه ثمّ يكتب. ويبقى الحبرِ على لسانه زمناً طويلاً قبل أن يزول. بعد كتابة الرسالة يعطيني غلافاً لأكتب له عليه العنوان.

في كلّ يوم أزدادُ استصغاراً أمامِ نفسي. وأُفكّر، ما داموا قد ألحقونا بالخدمة فلماذا لا يعطوننا سلاحاً، ولا يُدربوننا على القتال؟ ها قد احتلّ الألمان الإرهابيون كييف، وهم على أبواب لينيغراد، مستمرّون في تقدّمهم. ففتُرَتْ حماستي الشديدة لمحاربة الفاشيين، وقلْتُ لسيروج:

ــ أُريد الذهاب إلى الجبهة يا سيروج.

فقال وقد باغته طلبي:

ــ أنا أيضاً، لكنّهم لا يرسلوننا.

ــ لماذا؟

ورفع كتفيه الضيقين:

ـ وما أدراني.؟

وقرّرْتُ الخلاص من هذه الضعة والذهاب إلى الجبهة بأيّ ثمن. أمرٌ مثير. تُرى هل تأتي شورا؟ لكنني لم أنقل إليها فكرتي.

* * *

وقع البرد بسرعة هائلة.

نبرد في الليالي حتّى داخل الخيام. فتأتيني شورا بكحول من وقت لآخر. وتمزجه بقليل من الماء وتُقدِّمه لي وتقول:

ـ اشرب، يُدفئك.

ـ لكنّه سم.

ـ اشرب ولا تخف. يُدفئك.

اعتدْتُ على الكحول. كذلك طلبَتْ إليّ شورا أن أفركَ رجليّ وجسمي كلّ يوم بالماء البارد صباحاً ومساءً. وتُبرّر ذلك بقولها:

ـ الجسم النظيف لا يُصاب بالبرد. تذكّر هذا دائماً.

وأُنفِذُ تعليماتها مسروراً. لكنّ البرد برد. لذا كتبْتُ رسالة إلى أُمّي:

((أُمّي العزيزة، أرسلي لي صدرية دافئة وجراباً، والأفضل أن يكون صوفياً)).

مات ثلاثة شُبّان أذربايجانيون من البرد. أحدهم جارنا القروي، ذلك الشاب المتواضع المسكين الذي كان يجيء إلى بلدتنا كلّ يوم لبيع الفواكه، فيجرّ حماره وعليه سلتان كبيرتان من الكرز والعنب والدُرّاق وغيرها، وميزان، ويمرّ بشارعنا ويُنادي بالأرمنية:

ـ السفرجل الطيّب، العنب الحلو.

مات الآن ودفنّاه.

ـ العنب الحلو...

وخلّفَ ولدين يتيمين هناك، في سهولنا البعيدة.

أخذْتُ نصيبي من الخبز إلى السوق السوداء التي تقع قريباً من المُعسكر واستبدلته بقطن، إذ يجب عليّ أن أُخيط صدرية ألبسها، تحميني من البرد. فكّرْتُ في إعطائه لشورا كي تُخيطه لكنني أشفقت عليها. لكن ّ شورا نظرَتْ إليّ بحزن وإشفاق يبعثُ على البكاء، ثمّ مزّقَتْ قميصي، وبصعوبة كبيرة تمكنْتُ من خياطة صدرية من القطن لبستها واستدفأ ظهري. وصنعْتُ مثلها لأنترانيك وبارتسيك. ولم يبق سوى سيروج. لكن لم يبق قطن في السوق السوداء.

التقيْتُ ساخنوف فسألني:

ــ ألا تبرد؟

ــ مازلْتُ أتحمّل.

ــ سخّنْ طوبة، وضعها تحت قدميك ليلاً. ــ وأضاف ناصحاً ــ حافظ على لفافات ساقيك ناشفة نظيفة. لسوف تزداد شدّة البرد.

نحن الآن في الواحد والعشرين من تشرين الأول. بعد شهرين وسبعة أيام أبلغُ الثامنة عشرة من العمر. كتابتي غير مُتزنة.

البيت الأرضي المُتجمّد

أصبح العمل في الخارج، مع هذا البرد، صعباً جدّاً. إنّ الأفراد العاملين هم من أبناء الجنوب ممن تتجمّد وتتأذى أنوفهم وآذانهم بالبرد. ومن كيس من البلاس صنعْتُ لنفسي كفوفاً. وحسب نصيحة شورا، كنْتُ أتعرّى كلّ يوم حتّى وسطي وأفركُ جسمي بالثلج البارد. شورا مجرّبة، إنّها ابنة الشمال.

الخبز لا يكفي. والجوع مع البرد لا يُحتمل. تبّاً لهذه الأيام.

وتعود شورا لتنصحني:

ـ لا تشرب إلاّ الماء المغلي.

بنينا بأيدينا بيوتاً تحت الأرض، وانتقلنا من الخيام إليها. لكنّ سقوف وجدران البيوت الأرضية مُتجمّدة. وكثيراً ما لا نجد حطباً نُشعله، فنتدثّر عند النوم بستراتنا الرقيقة. فيصيح أحدهم في ركن من البيت الأرضي:

ـ أنا أتجمّد.

ويجلس جندي جورجي على الأرض الخشبية الباردة ويغنّي غناءً حزيناً:

في الخارج شمسٌ يا أُمّي،
في بيتي الأرضي جليد.
كأنّ البيت الأرضي المُتجمّد يشعر بالألم.

* * *

انتهى في موسكو مؤتمر بين الدول العُظمى الثلاث: الاتحاد السوفياتي، والولايات المتحدة الأمريكية، وبريطانيا العُظمى، على مستوى حكومي رفيع للتشاور في خطّةٍ لتنسيق الحرب ضدّ ألمانيا الهتلرية، وتقرّر تزويد الإتحاد السوفياتي بالمعدّات العسكرية الحربية. وأذعْتُ النبأ الذي نشرَتْهُ الصحف بين العسكر، وقرأْتُهُ لهم. جاء هذا النبأ مُشجّعاً. لكنّ المُحزن، هو أنّه الآن وفي هذه الأيام من تشرين الأول تدور معركة مسعورة عند ضواحي موسكو. وتصمد العاصمة باذلة جهداً خارقاً. فرسمْتُ على الخريطة أسهماً حمراء تُشير إلى اتجاه قواتنا التي تقوم بهجمات مُعاكسة من موسكو إلى الغرب والجنوب. ولو لم تتعد الدفاع.

لكنّ خبرِ انتقال العديد من إدارات الدولة من موسكو إلى كويبيشيف ترك انطباعاً سيئاً جدّاً لدى الجنود.

ــ تُرى هل يتحتّم على قواتنا أن تنسحب من العاصمة أيضاً؟

هذا سؤال باتت تتناقله الأفواه قلقة محزونة. لا ترى بسمة على وجه أحد. ونتيجةً لذلك تعلّق سيروج بياقتي وهو يهمس:

ــ هيّا بنا نهرب.

قلْتُ مذعوراً:

ــ إلى أين؟

ــ نهرب. نذهب إلى المعركة. نذهب إلى موسكو. لماذا لا يأخذوننا إلى القتال؟ لماذا لا يعطوننا سلاحاً؟ هذا لا يجوز.

مفوّض الكتيبة الإحتياطية دونو ناتويان عسكري ضخم الجثّة شديد السمرة كبير القلب، وهو يُتابع بنفسه حال كوخي. قلْتُ له مرّة وقد جاء لزيارة المكتبة:

ــ اسمح لي أيّها الرفيق المفوّض أن أرفع إليكم رجاء.

قال:

ــ ماذا تُريد؟ قل.

ــ أرجو أن ترسلوني إلى جبهة القتال.

ـ هل يوجد راغبون كثيرون؟
ـ كثيرون. كلنا تقريباً.
فهزّ رأسه قائلاً:
ـ هذا حسن. لكن انتظر يا عزيزي، فالقيادة العامة تعرف مكاننا جيّداً. نحن هنا أيضاً للدفاع عن البلاد.

* * *

عدْتُ كالسابق إلى الحلمِ بالجبهة وبالقتال. لأنني مازلْتُ أشعر بنفسي رضيعاً وبجسمي تافهاً في هذا المكان. أنا لا أحسبُ نفسي من البشر. ما أنا إلاّ مخلوقٌ بائس لا نفع منه. ولا تفتأ شورا تزودني من وقت لآخر بالكحول، وتبثُّ فيّ الأمل. لكنني سئمْتُ كلّ ذلك. أنا أضيع.
المدينة ملأى باللاجئين الهاربين من حروب الغرب. إنّهم يبيعون كلّ شيء من الألبسة والخواتم إلى الساعات لقاء كسرة خبز أو ذرّة سُكّر.
في الليل، أيقظني سيروج، ودسّ في حُجري قطعة خبز. فسألته:
ـ من أين؟
أجاب لاهثاً:
ـ لا تسلني. أنا الآن مُكلّف بنقل الخبز إلى المُعسكر...
ولم يكمل كلامه، بل ابتعد مُسرعاً. بكيْتُ وأنا أقضم الخبز بين أسناني. هذه الروح السامية تسرق خبزاً! رُحماك يا رب، رُحماك.

* * *

الممثل كارو زانانيان من مدينة باطوم، يكبرني بسنة واحدة. أتذكّره جيداً على المسرحِ يمثّل دور بيبو وسيران خيرَ تمثيل. لقد تغضّن وجهه الجميل، وتهدّلتْ كتفاه وزهدَ في الدنيا، فلا هو يغتسل ولا يأكل، ويمشي شابكاً يديه بكميه. وحين يراني يسألني:
ـ ألا تخشى الموت؟

ـ لا أعلم.

فيقول بيقين هاملت:

ـ بل أنت تخشاه، واضحٌ في عينيك.

صحيحٌ، كلّنا نخشاه. نخشاه بلا استثناء.

عند المساء قال لي كارو:

ـ لقد صادفْتُ امرأتين من اللاجئين، هيّا بنا نذهب إليهما.

صممْتُ أذني، وقهقه هو مثل الشيطان ميفيستوفيل وقال:

ـ انظروا إلى المسيح. هل تظنّ بأنك ستعود برأسك سالماً إلى البيت؟ آه، آه، كم أحبُّ زوجتي آيدا. لكنني الآن ميّت. هل تسمع؟ أنا ميّت...

حاولْتُ أن أُهدىء من روعه، وأن أستدرجه إلى لعبة شطرنج. لكنّه عاد إلى ضحك ميفيستوفيل أو الشيطان، حسب تعبير غوته في مسرحية الدكتور فاوست، وقال:

ـ لن تقدر على استبقائي. ولسوف أذهب. فأنا آثم، وأنت أيضاً. ألا تريد أن تأتي؟ إذن أنت أيضاً ميّت.

وأمسك بكتفي يهزني ويزمجر:

ـ أنا ميّت، وأنت ميّت، كلّنا أموات، والدنيا جثة هامدة.

وذهب. للأسف. لقد قضى سِنِيٍّ حياته في شقاء وضنك. لم أره أبداً في مثل هذا الجمال. الصدق فيه منتهى الجمال على الرغم من كلّ شقاء.

نحن الآن في الثامن والعشرين من تشرين الأول. بعد شهرين أبلغ الثامنة عشرة من العمر. كتابتي ميفيستوفيلية شيطانية.

قُبلات باردة

كتبْتُ رسالة جديدة إلى مارو: إليكِ قُبلاتي الباردة يا إثمي الأبيض. أنت الآلهة آناهيد، وأنت عرشها في أعماق السماء. كتبتها على هامش ((ألحان وجراح)) لكنني لم أرسلها. وهل تتذكّرني مارو؟ أنا لم ألمس حتّى يدها. ومع ذلك أضفَتُ جرحاً آخر على هامش ((ألحان وجراح)) وكتبْتُ: ((أركع على الأرض الميّتة ومن عراء الأرض أرفع صلواتي إليكِ، ياشُعلتي البعيدة)).

إنّه تشرين الأول، الثلج يندف ندفاً ندفاً،والصقيع ألواح ألواح. وما عندنا حطب نشعله.

* * *

استدعاني المُلازم آرام هاروتيونيان وقال:

ــ أنا ذاهب.

ــ إلى أين؟

ــ إلى جبهة القتال.

نظرْتُ إليه بتوسُّل، وهو يجمع متاعه فرِحاً، واقفاً وقفة المحارب الثابتة، تلمع نجومه وأزراره. وناولني معطفاً وسروالاً اسود وكمية من الملابس الداخلية وأضاف:

ــ خُذْ هذه تذكاراً منّي لك.

فشعرْتُ باليتم الكامل وقلْتُ في يأس:

ــ أنت ذاهبٌ إذن.

ـ الوطن في خطر. والواجب يدعوني. لقد تغلغلَتْ الفاشية في جسمنا، ويجب الذهاب لردها.

وصرخْتُ متألماً:

ـ وأنا؟ خذني معك.

فأشاح بوجهه مُكتئباً وقال:

ـ الموت هناك خلف أذنك.

قلْتُ متوسلاً:

ـ خذني. الحياة مملّة هنا. خذني أنا الآخر، أتوسلُ إليك.

ـ ليس الأمر بيدي.

لحظة الوداع، قال لي:

ـ اسمع، حاول أن تتخلّص من هذه الكتيبة بأي شكل. أنا أريدك أن تخرج من هنا وتنتقل إلى الجبهة.

فعانقتُه وكأنني أعانِقُ أبي يوم كنْتُ صغيراً بلا قوة.

ـ إذن خذني معك إلى جبهة القتال.

فتخلّص منّي بلطف، وأكّد لي أنّه لا يستطيع أن يَبْتّ في مثل هذه الأمور. وذهب.

لم أبك. لكنني وأنا أندبُ حظّي الأسود حرقْتُ الأرم إذ ضاع منّي الأمل. تُرى هل أُقابله مرّة أُخرى؟ ربّما...

* * *

دفنّا اليوم عسكريين اثنين. وجاءتني شورا بالكحول وهي تقول:

ـ احذر الصقيع والبرد.

تلقّيْتُ رسالة من آرام هاروتيونيان، يكتب من جكالوف: ((رفّعوني إلى رتبة ملازم أول وعيّنوني آمر سرية. أنا ذاهبٌ إلى الجبهة)).

اشتدّتْ حدّة البرد. ذهب آرام في مهمة مقدّسة، إلى القتال في سبيل الوطن. وأنا قابعٌ هنا أشمّ رائحة هذا النفق النتنة. لماذا؟

ظهر كارو من جديد وسأل:

ـ أي، عزيزي، ماذا تفعل؟

ـ أفكّر في وسيلة توصلني إلى الجبهة.

فضحك وطلب تبغاً. فأعلمتُهُ أنّ ليس لدي، طلب خُبزاً ثمّ ماء، لكن لم يكن عندي شيءٍ من ذلك، فبكى وصاح:

ـ لقد ضيّعوا كلهم عقولهم...

اقترحْتُ عليه أن نذهب معاً إلى شعبة التجنيد في كاراكاندا نرجوهم إرسالنا إلى الجبهة. لكنّه غطّى وجهه الذي شوهته التجاعيد بيديه المسودتين وصرخ:

ـ هل أنت غبي؟

* * *

عند المساء أعطاني سيروج قطعة خبز أيضاً، وقال:

ـ انزلق واحدٌ منّا فوق الصقيع، فكُسرَتْ رجله، وأعادوه إلى البيت.

فقلْتُ مُتأثراً:

ـ مسكين، وهل كسره خطير؟

همس سيروج:

ـ لكنّه مسرور جدّاً.

ـ لماذا؟

ـ لأنّه ذاهبُ إلى البيت. هل تعلم؟ الحقيقة إنّه لم يقع، وإنّما خبطه أخوه العسكري معه خبطة بخشبة، وكسر رجل أخيه كي يُخلّصه من الجيش.

ارتعشْتُ. وهمس سيروج في أذني:

ـ تعال أكسر لك رجلك أنا أيضاً...

فدفعته عنّي دفعة قوية. ومازلْتُ أذكر وجهه البريء وهو يجري مُبتعِداً.

* * *

بعد سوق آرام عيّنوا في لوائنا آمراً من أهل المنطقة، مُسناً. بدأ عمله معنا بإغلاق مكتبتي.

ــ لا نُريد كتُباً، ولا نُريد فلسفة، اذهب واحفر الأرض.

ذهبْتُ إلى حفر الأرض.

كما رحْتُ أساعدُ في العمل على جبّالة إسمنت. وأعمل كلّ ما أُصادفه كي لا يتجمّد وجهي ويداي. خافَتْ عليّ شورا كثيراً.

ــ لكنّك ضعيف لا تحتمل العناء.

قلْتُ:

ــ فليكن ما يكون.

واقترَحَتْ أن ترجو رئيس الأطباء بأن يُلحقني كممرّض في المركز الطبي.

لكنني قلْتُ غاضباً:

ــ إياكِ أن تفعلي شيئاً كهذا. أنا خاضعٌ لقدري وحسب.

فبكَتْ شورا.

* * *

السابع من تشرين الثاني هو يوم الذكرى الرابعة والعشرين لثورة أكتوبر (تشرين الأول). فقرّر المجلس العسكري في كلّ لوائنا أن نعمل اليوم أيضاً لتكريس يوم العيد الكبير للإعمار وتنفيذ الخطّة اليومية بنسبة مائتين بالمئة. ستنشىء كتيبتنا هنا معملاً مهماً جدّاً، سيكون مركزاً لتجميع الآليات التي تردُ من مختلف الجهات. وشعارنا هو ((كلّ شيء في سبيل نصرة جيشنَا الأحمر)).

في الساعة السادسة كنّا في مكان العمل، وعلينا أن نعود إلى البيت في الساعة العاشرة مساءً حسبما تقرّر في قيادات الحظائر. كنّا نفكر، تُرى هل تجري اليوم احتفالات عسكرية في الساحة الحمراء مثلما كانت تجري دائماً في سنين السلام المجيدة؟ أليسَتْ الحرب الضروس دائرة

عند أرباض موسكو؟ لقد ألقى هتلر بكلّ قواه أمامها، كما أنّ ماريشاله غوترياني قد أمر بعبور الساحة الحمراء يوم السابع من تشرين الثاني.

قال ساخنوف:

ــ اسمعِ الوقح صفيق الوجه. شهيته مفتوحة.

أمس علّقوا في مكان عملنا مكبّرات للصوت. وأكّد لنا المفوض أنّ العرض سيجري، وأننا سنسمع صوت موسكو.

وحصل ذلك في الساعة العاشرة، إذ انطلقَتْ كلّ المكبرات تُردد في معسكرنا صوت الساحة الحمراء المعروف.

بكى ساخنوف. وقال:

ــ موسكو صامدة يا إخوان، هل تسمعون صوتها؟

نسمع. ونتخيّل الصفوف العسكرية تستعرض في الساحة الحمراء، ويتوجهون بوجوههم نحو قبر لينين، وفي قلوبهم كلمات قسم. ويمرّون بسرعة في الساحة الحمراء ليتّخذوا طريقهم إلى ضواحي موسكو، إلى جبهة القتال.

أين صارَتْ غزوات هتلر ((بليتس ــ كريت)) الصاعقة؟ ويلفظها ساخنوف:

((بليز ــ كريغ))، ويقول إنّ هتلر سيلفظ أنفاسه مثلها.

* * *

في المطعم هزّ ساخنوف كتفي وقال:

ــ أنفك أبيض، لقد تجمّد من البرد...

وقادني إلى الخارج وراح يُدلّك أنفي بالثلج طويلاً حتّى آلمني.

أخيراً صاح ساخنوف فرحاً:

ــ هه، لقد سَلِمَ أنفك. وهذا يدلّ على أنك ولد حروري. اسمع يا رجل: هل اشتغلْتَ في الملاط من قبل؟

ــ لا.

فقال غاضباً:

ـ تبّاً لك، اكذب على الأقل. ليس التمليط عملاً صعباً. ها أنا كما يقال رئيس الملاطين وعددهم ستة عشر. أستطيع أن أطلب من آمر السرية أن يفرزك إلى مجموعتي، فإذا سألك كم هي درجة خبرتك قل له السادسة. مفهوم؟ يا رجل، في البناء نجبل الملاط بالماء الساخن. عندنا يبقى أنفك مكانه.

ونفّذ ساخنوف وعده إذ استدعاني آمر السرية وأرسلني إلى مجموعته.

ورحنا نشتغل في مبنى عظيم شُيِّدَ حديثاً. البناء مستور بسقف وفي الشبابيك زجاج. هنا لا يتجمّد الماء.

قال ساخنوف:

ـ أيّها الغر كن أرْيبا، تعلّمْ صنعة يا رجل. الحرب طويلة الأمد.

وأعطاني عدّة الملاط وأوقفني بجانبه وقال:

ـ افعل مثل ما أفعل.

خرجْتُ من جلدي كي أتعلّم صنعة الملاط.

ساخنوف يكبرني بخمس عشرة سنة. له ذقن قوية ووجه طيّب وعينان دائمتا الابتسام.

نحن الآن في الخامس والعشرين من تشرين الثاني. بعد شهر واحد وثلاثة أيام أبلغُ الثامنة عشرة من العمر. كتابتي من الجليد.

رغبتي لا تُلبّى

مضى عليّ شهر وأنا ملاط. ولقد ورد اسمي على لوحة الشرف للبنائين بجانب اسم ساخنوف. أمّا اسمي فهو ((الـ 200)) وهذا يعني أنني نفّذْتُ الخطّة اليومية بنسبة مائتين بالمائة. وأعطونا خمسمائة غرام من الخبز. فربَتَ ساخنوف على كتفي وقال:

ــ هه، ((أيّها الشره)) هل أنت راض؟

لسْتُ راضياً. لأنني ما زلْتُ أريد الذهابَ إلى جبهة القتال.

استدعونا على غير توقّع إلى القيادة وأمرونا بالتجمّع. سنذهب إلى جيليابيسنك. الكتيبة كلها طبعاً.

* * *

((العربة الطابقية)) دافئة. عندنا مدفأة حديدية نملؤها بالفحم الحجري ونُشعلها. في الخارج برد يُجمّد الدمع. الخارج يدعو إلى الأسى. في المحطّات حركة سريعة. لا أحد يضحك. الأسواق والحانات خالية. عندما نتوقف أحياناً نتجوّل في القطارات الأُخرى. يقضي العسكر حاجاتهم الطبيعية بجانب العربة نفسها.

في إحدى المحطّات أعطتني شورا رأساً من الثوم قائلة:

ــ لا تأكله، بل أفرك به أسنانك كلّ يوم مرّة.

ــ لماذا؟.

ــ لكي لا تُصاب باحتقان اللثة.

عند توقّف القطار في المحطّات، نُسرع إلى صنابير البُخار لنأخذ منها ماءً مغلياً. كثيراً ما نجد صنابير البُخار مُتجمّدة، تتدلّى منها نوازل

جليدية مثل أسنان من الجليد. كنّا نأخذ الماء الساخن من الصنبور السفلي لمرجل البُخار الذي تفوح منه رائحة زيت الآلات، فنشربها ونمضغ بعدها كسرة من البقسماط الأسود.

الدنيا حزينة، مخنوقة. القتال دائر قرب موسكو من أجل موسكو.

* * *

جيليابينسك مدينة كبيرة تُغطيها غمامة من دُخان المعامل والبُخار. الحافلات خالية، والطرقات تسيطر عليها الريح. أخذونا إلى معمل الجرّارات العظيم حيث خصّصوا لنا قطعة أرض وأعطونا المعاول والرفوش وخشب البناء.

ــ ابنوا لأنفسكم مساكن هنا.

التراب متجمّد على عمق نصف متر. كسرناه بالمعاول. ودبَّرَتْ كلّ زمرةٍ لإقامتها بيتاً تحت الأرض. من حسن حظنا كانت بقربنا جبال من الفحم الحجري. عندما احمرَّتْ مدافئنا بكَتْ السقوف، وارتخى التراب المتجمّد بعد ذوبان الجليد، وانزلق علينا من بين شقوقها. لا يَهُمْ، الدفء هو الأهم.

وأشتغلُ مع ساخنوف بالملاط من جديد. حُدِّدَتْ لنا ست عشرةٍ ساعة عمل. يوقظوننا في الساعة السادسة صباحاً، يقدّمون لنا شاياً عكراً وقطعة سمك أو حفنة حمص وهم يحثوننا على الإسراع إلى العمل. حصّة الخبز خمسمائة غرام.

* * *

استدعاني آمر سريتنا. فلمّا وقفْتُ بين يديه، قال:

ــ إسمع، هل أنت كاتب؟

ــ نعم كنْتُ معلّم مدرسة.

ــ وهل أنت رفيق نصير؟

ــ نعم.

فاقتادني إلى أحد مكاتب معمل كبير ووضعني تحت تصرّف امرأة سمحاء بيضاء الشعر، قالت لي:

ــ سوف تشتغل معي مساعداً.

وعينتني موزعاً لبطاقات الخبز. وبعدما أعطتني تعليمات مُفصّلة وضعَتْ أمامي ورقاً مكتوباً أتعهدُ فيه:

ــ إذا أذعْتُ أسرار الدولة أتعرّضُ لعقوبة الموت.

كتبْتُ على الورق ما يلزم ووقعْتُ.

مكاني دافىء، وعملي نظيف، والحمد لله.

سألني آمر السرية:

ــ قل، هل أنت راض عن عملك؟

ــ لسْتُ راضياً، لأنّني مازلتُ أرغبُ وبإصرار في الذهاب إلى الجبهة.

* * *

أعطتني الأُم الرئيسة بطاقة طعام. وقالت:

ــ يوجد مطعم في الطابق الأرضي من المبنى، تناولْ طعامك هناك.

هذا كرمٌ عظيم. ففي المطعم يقدّمون لنا الشاي بالسكر مرتين وطعاماً بالمرق مرّة في اليوم. حملْتُ نصيبي من الخبز إلى المعسكر، لأُقدمه لسيروج، فلم يقبل بل قال:

ــ اعطه لكارو، أنا أتدبّر أمري.

كارو مُنهار تماماً ومهزوز نفسياً.تراه مُنطرحاً دائماً على الأرض مجروح الوجه. أعطيته قطعة الخبز، فازدردها دفعة واحدة، ثمّ قال:

ــ إذا مُت، أرجوك أن تُخبر زوجتي (سيتا) أنني قُتلْتُ في الحرب. هل تفعل؟

فقلْتُ مُتألماً:

ــ ولماذا تُريد أن تموت؟ افعل شيئاً، أنت شاب.

لكنني لن أتوصل بأي حال إلى إنهاضه، وتحطيم يأسه الذي يهدُّ حيله. وا أسفاه، كان الشاب جميلاً جذّاباً، فأصبح هشيماً جرّاء اضطرابه النفسي.

تركَتْ حالته في نفسي همّاً. بتُّ أخشى أن أقع مثله فريسة يأس قاتل. لكن لا، أنا لا أنحدر إلى هذا الدَّرَك. ليس في داخلي مثل هذا الغول المرعب. لقد ولدْتُ في الجبال اليابسة ولا علاقة لي بآفة الانهيارات العصبية، ففي داخلي قوة تدفعني إلى أن أعيش. وأنا واثقٌ من أنني سأُقابل مارو من جديد.

* * *

تقضي أمّي الرئيسة كلّ يومها مع العمّال. تتكلّم بهدوء بصوتٍ لا يكاد يُسمع. وهي لا تغضب أبداً. ولكنْ في عينيها دموع محبوسة تُحاول إخفاءها. زوجها وولداها في الحرب، وما مردّ عذابها إلاّ إلى ذلك. وقد يكون شيء آخر، لا أعلم. فالبلاد في نكبة حقيقية. ويُخيّلُ إليّ أنّ هذه المرأة الروسية التي شاب شعرها كلّه لم تعش يوماً سعيداً في حياتها. أنا أُشفقُ عليها وأحاول أن أُقدّم لها العون قدر ما أستطيع.

ومع ذلك توجد أمورٌ تُسعِدْ. ففي هذا الصباح، عندما جاءت إلى العمل، وقفتُ لها احتراماً وقلت:

ـ ماريا الكساندروفنا، اسمحي لي بأن أُبلغك خبراً يُسعدكِ.

فانتفضَتْ ورفعَتْ صوتها على غير عادتها وسألَتْ:

ـ ماذا!؟ ما هو هذا الخبر السعيد؟

ـ لقد حرّر جنودنا أمس مدينة فولوكولومسك.

لمعَتْ عينا الأُمّ رئيستي وأسرعَتْ نحو الخارطة المُعلّقة على الجدار. وسألَتْ تستعجلُني: ـ أين تقع فولوكولومسك؟ آخ، هآ، ها هي داخل الدائرة السوداء. أنا رسمْتُ هذه الدائرة حولها يا ولدي عندما سقطَتْ في يدِ العدو... إذن، هات ما يمحو الحبر، يجب محو السواد محواً...

تقعُ فولوكولومسك في غربي موسكو. وهذا يعني أنّ القوات التي كانت تُدافع عن موسكو بدأَتْ بهجوم معاكس وراحَتْ تتقدّم أشواطا وبسرعة كاسحةٍ أمامها القوّات الهتلرية.

ـ آي، ما أروع هذا الخبر.

ولأول مرّة أرى على وجه الأُمّ الرئيسة ما يُشبهُ البسمة.

* * *

ومحتْ الدوائر السوداء من حول ديخفين أيضاً، وهي تقع قريباً من لينينغراد، بعدما تحرّرَتْ قبل عشرة أو خمسة عشر يوما. وحظيتْ بالنعمة نفسها كلٌّ من مدينتي كالين وكلين، اللتين تعلوان موسكو قليلاً. أمّا الآن، فالمعارك تدور في جنوب العاصمة، حول مدينتي نادرفوميسك وكالوكا. ولا شكّ في أنّهما ستتحرّران هما أيضاً قريباً. وبتّ أحتفظ بالشفرة الماحية مشحوذة مع قلم أحمر، إذ يبدو أنني سأستعملها كثيراً على الخارطة.

أوصتني الأُمّ رئيستي بأن أُعلن نبأ تحرير فولوكولومسك على العمال وقالت:

ـ واذهب أيضاً إلى معسكرك وانشر هذا الخبر المفرح، فلربّما لم يسمعوا به بعد. هل يوجد مكبّرات صوت راديو في مغاوركم؟

أجبْتُ:

ـ لا، لا، لا، لا يوجد.

ـ يجب أنْ أتحدّث إلى مجلس البلدة لوضع مكبّرات في كلِّ مكان. اسمع يا ولدي، كلّ ما يجري، كلّ شيء وفي كلِّ مكان، هو في مصلحتِنا. وكان لا بدّ لهذه النتيجة أن تحصل. ما كنْتُ أُصدّق أنّ موسكو سوف تقتدر فجأة... أوه، ما أغباني من امرأة. ماذا أقول؟ سوف يقلبُ هذا الشتاء ميزان القوى في الحرب. هل تفهم يا بني؟ وقد

تصلُني من زوجي وأولادي العسكريين الثلاثة رسائل قريباً، ولا بأس من أن تكون من واحدٍ منهم على الأقل.

في الخارج برد كانوني وجليد، لكنني أمشي وكأنني أدوس على تراب حار. وتتابع أمام عيني صور للألمان الهاربين، كالثلج الذائب في لهبٍ أحمر يتدحرج متكوّرا نحو الغرب.

ومع هذا فأنا أشعر وكأنني مُذنب إلى حدٍّ ما. لأنني لسْتُ هناك في الخط الأمامي من النار. وفيما أنا غارقٌ في أفكاري نادتني امرأة من الرصيف الآخر:

ـ أي، أنت، يا جندي الجيش الأحمر، هل سمعْتَ بالنبأ المُفرح؟

فصحْتُ رداً عليها: ـ فولوكولومسك؟ سمعته. أُبارك لكِ يا خالتي.

ـ شكراً، قدّم الله ما فيه الخير.

بدَتْ المدينة الكبيرة بعد هذا النبأ وكأنّها تحرّرَتْ من قيود جليدية. من إنتصار بسيط يستمدُّ الجندي قوّة ما بعدها قوّة. فلقد انتقلَتْ بهذا الخبر من عالم إلى عالم آخر ((بليز ـ كريغ)) ساخنوف، وانفجرْتُ ضاحكاً. ما جرى للفيلد ماريشال كوتيريان؟ كان يريد في السابع من تشرين الثاني أن يستعرض جنده وأرتال دباباته الرهيبة في الساحة الحمراء. لكنّه تلقى بدلاً منها لكمة على أنفه.

نسيت، عليّ أن أذهب إلى المطعم لآكل شيئاً ببطاقتي. لكنني لا أشعر بالجوع.

نحن الآن في الواحد والعشرين من كانون الأول. بعد سبعة أيام أبلغُ الثامنة عشرة من العمر. كتابتي بالحبر الأحمر.

رغبتي تتحقّق

مغارتنا خانقة. لقد تسمّم الجو بالعرق ورائحة الأقدام الوسخة ولفافات السيقان. أمّا سخام فحم المدفأة فيسدُّ أنوفنا. عندما أستيقظُ صباحاً أرى أمامي زنوجاً بأسنان بيضاء. في المكتب الذي أُساعد فيه الأُمّ رئيستي وجدْتُ لكارو عملاً في المحاسبة. لكنّه رفض، ولم يرغب في العمل وقال:

ــ أُريدُ أن أموت في هذا الحجر. أُريدُ أن أموت.

ولم أتمكن بحال من الأحوال من التخفيف من سوداويته، وباتت حاله تدعو إلى الرأفة.

أثناء عودتي من المعمل إلى البيت أوقفتني امرأة ومعها طفلتها في الطريق وسألتني:

ــ هل عندك تبغ يا عسكري؟

ــ عندي.

وأعطيتها ما يكفيها للتدخين مرّة واحدة، فالتبغ شيءٌ نادر، إذ يمكن المبادلة على علبة منه بخاتم ذهبي. فقالت المرأة:

ــ يبدو عليك الشبع يا عسكري.

فأيّدْتُ قولها:

ــ نعم، لسْتُ جائعاً.

ــ حسنٌ. زوجي أيضاً في الجيش، وأظنّ أنّه هو الآخر ليس جائعاً. أترى إلى أي يوم أوصلتنا الفاشية مع أدولفها الهتلر؟ إياك أن تظنّ بأنني من اليائسات أبداً، لا، ولا بأية حال. أنا واثقة بالنصر وبطرد العدو من أرضنا.

وأكّدَتْ ثقتها:

ـ طبعاً كلّنا نملكُ اليقين نفسه.

فابتسمَتْ المرأة وقالت:

ـ حسنٌ إذن، إلى اللقاء يا عسكري. أنا مؤمنة بأنّ زوجي سيعود إليّ مُنتصراً. إلى اللقاء.

* * *

اليوم هو الثامن والعشرون من كانون الأول. يوم مولدي.

جئْتُ إلى مغارتنا، ووجدْتُ فيها ضابطاً أنيقاً في ثياب دافئة. حيّيته باحترام.

لم أذكر لأحد شيئاً عن يوم مولدي. ماذا أقول، وهو يوم ألم ومولد تجمّد؟ بماذا وكيف أفرح به؟ وآليْتُ ألاّ أبوح به لشورا خوفاً عليها من الحزن. كان الضابط قد أنهى مهمته عندنا وانصرف. سألْتُ رفاقي عن سبب مجيئه إلى مغارتنا، فقالوا إنّه جاء يُسجّل أسماء متطوعين لإرسالهم إلى الجبهة. فطرْتُ من فرحي.

لسوف يكون اسمي بينهم.

وقال سيروج:

ـ سجّل خمسين اسماً سيرسلون إلى الجبهة، وأنا وساخنوف وحتّى المرّضة شورا منهم.

ولم أشعر إلاّ وقد خفّتْ وطأة التجمّد والبرد فجأةً. وأسرَعْتُ وراء الضابط. ووجدْتُهُ في مغارة مفوضنا. دخلْتُ لاهثاً، ووقفْتُ محيّياً.

ـ الرفيق الضابط، جئتكم راجياً.

فسألني مفوّضنا باللغة الأرمنية مُرتاباً:

ـ ماذا تريد؟

ـ أُريد الذهاب إلى الجبهة.

فعبس المفوّض وقال: ـ هناك في الجبهة لا يطعمونك أرزاً. اذهب إلى عملك ولا ترتكب حماقة.

لكنني تحامقْتُ وأكدْتُ بإلحاحٍ على أنني أريد الذهاب إلى الجبهة. ولمّا استفسرَ الضابط عن سبب جدالنا، أعلمته أنني جئته طالباً الذهاب إلى الجبهة. وتماديْتُ في التوسل إليه ليُلبّي طلبي. ووافق وسجّل اسمي مع الآخرين.

وقال:

ـ كن هنا غداً في الساعة التاسعة صباحاً لتتبلّغ مهمتك الحربية.

أصبح الجو حارّاً في الخارج. إذ انسكبَتْ فرحتي على الجليد وأذابته. أمّا في المغارة، فقد أمسك بارتسيك بياقتي وهو يعنفني:

ـ ويلك، أما تدري أنّك ذاهبٌ إلى القبر؟

وفيما نحن على هذه الحال، أخبروني بخبرٍ مؤلم. لقد طردوا كارو من المغارة، لأنّه يشغلُ مكاناً ولا يؤدي عملاً. لكن أين هو؟ عليّ أن أجده لعلّي آخذه معي إلى الجبهة؛ بل إلى خلاصه من سودائه.

ويلحّ بارتسيك: ـ أقول لك إنك ذاهبٌ إلى القبر إيه.

وفي الصباح، تجمّعنا في المكان المعيّن. وأخذ ساخنوف بيدي قائلاً:

ـ ها نحن ذاهبون أخيراً يا رجل. كفانا كسلاً، يجب أن ننشط قليلاً.

بعد قليل، جاءنا ملازم، قرأ أسماءنا، وصفّنا وأمرنا بالسير وراءه.

لا أشعر بالبرد. أين شورا؟ ألم تكتتب هي الأُخرى متطوعةً للذهاب إلى الجبهة. وعلمْتُ أنّهم أرسلوا قبلنا مجموعة في الليل. إذن شورا مع المجموعة الأولى.

بسبب الضابط الذي سيرافقنا سنتأخر ست ساعات في المحطّة. لأنّه جاءنا مُتأخراً، لذا لم نلحق بالقطار. الإنتظارُ مُمِلٌّ. أنا أستعجل الذهاب مخافةً من أن يُغيّروا رأيهم ويُعيدونا إلى المغارة ويحشرونا فيها حشراً.

* * *

اتجهْتُ مع سيروج إلى السوق المجاورة للمحطّة لعلّنا نجد فيه ليموناً أو خياراً أو ثوما. لكنّ الريح وحدها كانت المسيطرة على السوق، تعصِفُ وتصفرُ بصوتٍ جامد كريه.

وجدنا جندياً ممدداً تحت أحد جدران السوق. قد يكون ثملاً أو نائماً. لكنّه عاري الرأس، مُتجمّد الأطراف. جثوتُ إلى جانب الجثّة راثياً، فإذا بها جثّة كارو.

كان متمدداً على جنبه داسّاً يديه في صدره ووجهه على الجليد.

استعار سيروج فأساً من البيت القريب، وتعاونّا على كسر التربة المُتجمّدة وإنتزعنا الجثّة بصعوبة من الأرض المتجمدة وأنزلناها في الحفرة. كنْتُ مُحتفظاً ضمن بطاقتي التعليمية بعدة ورقات يابسة من الورد جئْتُ بها من البيت، وضعْتُ واحدة منها في فم جثّة كارو، كرمز من أرض الوطن. وتخيّلْتُ كارو يضحك.

وواريناه التراب المُتجمّد.

* * *

تجمّع حشدٌ عظيمٌ في المحطّة. معظمهم من النساء، في معاطف قطنية. وسراويل وقبّعات من اللبّاد ملونة، ولففْنَ رؤوسهنّ بخمر. ومنهنّ من تدثّرْنَ بدثارٍ كامل عقدْنَ عليه زناراً مضفوراً. وكان الرجال طوال القامة من كلّ لونٍ، يضعون على آذانهم واقيات الآذان من البرد. محطّة جيلابينسك جميلة. بناؤها أبيض من طراز العمارة الروسية في القرن التاسع عشر.

فوق شرفة حجرية هناك سمعنا رجلاً يُلقي خطاباً. كان ذا لحية بيضاء، يُعلّق على صدره فوق فرائه وساماً جورجياً على شكل صليب. لم أر مثله إلاّ في الكتب. وعلى الشرفة، وقف بجانبه خمسة شبّان. أحدهم بلا لحية في مثل سنّي. كان الرجل يتكلّم بصوت مرتفع ويقول:

ـ أُهنئكم أيّها الروسيون، يا رجال روسيا. أمس، حرّر جنودنا في جبهة موسكو مارو ـ ياروسلافتس. يحيا النصر. سوف يرى هتلر قذال جنوده، لا موسكو. الموت للفاشية ولكلّ أنواع أدواتها. أنا أذكرهم منذ العام الثامن عشر، عندما حاربنا في أوكرانيا. والآن، أيّها الأُخوة والأخوات، ها آنذا، جندي قديم أذهبُ مع أولادي الخمسة إلى الجبهة للدفاع عن وطني الحبيب. فليحيا وطننا روسيا.

صفّقوا له، وهو مستمرٌ في الكلام. أمّا نحن فأسرعنا بالدخول إلى العربة لأنّ القطار بدأ يتحرّك. وزالتْ مني عقدة النقص. ليت هذا المُلتحي يدري أنني أنا أيضاً ذاهبٌ إلى الجبهة.

* * *

الوقت ليل، والنوم يهرب منّي في الشاحنة. عيناي على القبر الذي ضمّ كارو وفي أُذني ضحكته.

وفي الليل أيضاً وصلنا إلى كوركا. هنا يتشكّل لواء جديد. قُسمنا إلى كتائب. بعد نصف ساعة قادونا أنا وساخنوف وسيروج وعدداً آخر من أفراد حضيرتنا البائسة إلى قرية حرجية قريبة.

أسيرُ فوق الثلج المُتجمّد. وأتدفأ بالبُخار الخارج من فمي، لكنني مسرور. لأنني الآن جندي حقيقي ورجل كامل.

لم ألتق شورا. لعلّهم احتفظوا بها في مستوصف اللواء أو أرسلوها إلى حضيرة أُخرى. اشتقْتُ إليها ولُمْتُ نفسي إذ كنْتُ فاتراً جدّاً معها، بل كنْتُ أُعاملها بخشونة.

نحن الآن في التاسع عشر من كانون الثاني. مضى إثنان وعشرون يوماً على بلوغي الثامنة عشرة من العمر. كتابتي سوداء.

* * *

كلّ امْرِئٍ جاء إلى هذه الدنيا ولد قبل أن يقوم بأي عمل آخر. إذن، أنا أيضاً ولدْتُ. كان أبي ساعي بريد في إحدى القرى. وأُمّي ابنة قروي أيضاً. وهي المرأة الوحيدة المتعلمة في حيّنا الكبير في قريتنا الكبيرة.

يولد المرء في أيّ مكان، في القرية، أو في المدينة، أو في الباخرة، ولربّما في الطريق وفي غيرها من الأماكن.. أمّا أنا، فولدْتُ في كهف في الجبل. فإذا ما صرخْتُ، ردّدَتْ الصخور ألف صدى. ومسقط رأسي هو كما يلي: منطقة زانكيزور قرية كوريس، والبلد: أرمينيا. عمر قريتنا، حسب شهادة الآثار القديمة، ثلاثة آلاف سنة، وقلعتها ذات ثلاثة آلاف سنة وبيتنا كهف في الجبل. كان أجدادي رعاة وأصحاب زيتون وبُناة جسور. وهم فوق ذلك، مغنّون ومُجبِّرو العظام المكسورة. آخرهم العم آتون. جدّاتي راويات حكايات مذهلة وقابلات. قبل موت جدّتي في عام ثلاثة وعشرين وتسعمائة وألف، في الخريف كانت كلّ الولادات تقطمها واحدة من جدّاتي القديمات في القرية.

لقد حكيْتُ كلّ هذا لشورا فراحَتْ تضحكُ من أعماقها وهي تقول:

ـ هل تحكي لي حكاية...

قلْتُ إنّه التاسع والعشرون من كانون الثاني. مضى شهرٌ ويومان على بلوغي الثامنة عشرة من العمر. وقلْتُ إنّ كتابتي سوداء.

العام الأسود 1942
إلى الأُخوة الشهداء

يُتمتم سيِروج. ويبدو وكأنّ قامته القصيرة قد استطالَتْ وصوته تجدّد:

ــ أخيراً، تخلّصنا من الخدمة غير المشرّفة.

هذه القرية. حسب المظهر الطبيعي. قرية أورالية، تحمل صورة عن طبيعة سيبيريا الشرقية. منبسطة، واسعة. مُحاطة بالغابات. مُنارة بأنوار كهربائية مُتباعدة كئيبة. ويُسمع من بعيد نُباح كلب مُستمر هو الآخر ممتعض ومُكتئب.

أسكنونا في بناء المستوصف الخشبي في القرية. لكن أحدنا اعترض بقوله:

ــ ألا يوجد فراش هنا؟

عندها ضجّ ساخنوف بالضحك وهو يردُّ عليه:

ــ أتُريد الفراش لتربِّيَ قملاً؟ يكفي أنّه مكان دافىء. ولننم فيه كالدببة.

* * *

عند الصباح، جاء الماجور آمر الكتيبة لرؤيتنا، وكان طويل القامة بهي الطلعة، وذا هيئة عسكرية أصيلة. أدّينا له التحيّة واقفين بصوتٍ واحد. وبعدما جلس على إفريز النافذة، بدأ ينظر إلينا مُتفحّصاً ثمّ سأل:

ــ هل تدرّبتم على السلاح؟

ــ لا.

فعبس. ثمّ قسّم الموجودين إلى مجموعات لم يُدخلنا فيها أنا وسيروج وساخنوف. فوقع الهمّ في قلبي. تُرى ألا يعتبرنا أهلاً للخدمة؟. لكنّه بعدما صرف المجموعات، قال لنا:

ــ سوف أُرسلكم إلى سريةِ مدفعية الهاون. ومدفعيةُ الهاون نوعٌ حديثٌ ومتميّز

من الأسلحة. ففيها نحتاج إلى متعلّمين.

وفي طريقنا إلى سريتنا الجديدة قال ساخنوف:

ــ أيّ شيءٍ فيّ أوحى إلى الماجور بأنني متعلّم؟ أنا لم أتعلّم أكثر من الصف السادس، ومهنتي لص.

فقلْتُ له ناصحاً:

ــ الأفضل ألا تعود إلى ذكر ذلك بعد الآن. أنت عنصر في الجيش الأحمر، وهذا هو المهم.

* * *

آمر سرية مدفعيتنا ملازم. أعجبني فيه موقفه العسكري المُتشدّد وعنايته الخاصة بنا. حذاؤه يلمع لمعاناً، عنده حزام بإبزيم نجمي، وسير كتفي من الجلد. أمّا أكثر ما أغواني فيه فهو جراب مسدسه والمسدس نفسه. أنا أحلم بأن أكون عسكرياً مثله. قال لنا:

ــ سوف نستلم السلاح بعد يومين. أمّا الآن فاحلقوا لُحاكم.

سألتُهُ:

ــ وهل يوجد حلاّق؟

فنظر إليّ بأسف وقال:

ــ الجندي يحلُقُ بنفسه. احصلوا على شفرة وتدبّروا أمركم، وتعالوا إليّ بعد ساعة حالقين.

كيف أحلقُ لنفسي؟ أنا لم أفعل ذلك في حياتي. ومع ذلك أعطاني ساخنوف موس حلاقة. لكنني رجوتُهُ أن يحلق هو لي. فهزّ رأسَهُ وقال:

ـ لقد أمرَ الملازم أن تحلق لنفسِكَ.

وتدبّرْتُ أمري في مهمة غريبة عليّ تماماً وعلى جلدي أنا. وحلَقْتُ لحيتي بعدما جرحني الموس جِراحاً عدّة، وتنفسْتُ الصُعداء وذهبْتُ ومثلْتُ أمام الملازم.

فسألني:

ــ هل حلقْتَ لنفسِكَ؟ مرحى.

وكانت أول كلمة تشجيع أسمعها من القادة.

بعد ذلك حصّل لي سيروج شفرة وفرشاة حلاقة.

* * *

عيّنوا ساخنوف لصيانة المدفع، وأنا لتحديد الهدف، وسيروج لتلقيم القذائف. ونحن الثلاثة في مجموعة واحدة.

مدفع الهاون سلاح جديد لا يعرفُهُ حتّى الرقيب آمر المجموعة. أمّا ساخنوف فقد وقف أمام المدفع المُفكّك وبسط ذراعيهِ وقال:

ــ ماذا نفعل الآن؟ لماذا عينوني للصيانة؟

وجدنا مع قطع المدفع دليل تركيبه وإستعماله. فبدأْتُ أقرؤه وأدرسُهُ مع فحص أجزاء المدفع حسب إرشاد الدليل. وساعدني ساخنوف وسيروج. نجحنا في تركيب أجزائه الثلاثة الأساسية وأجزائه الدقيقة المُتممة وأصبح جاهزاً للاستعمال.

بعد ثلاثة أيام، وبحضور كامل هيئة سريتنا قُمْتُ أنا وساخنوف بإطلاق قذائف حربية حيّة. وبالطلقة الثالثة قضينا على الهدف المُفترض الذي كان يبعدُ كيلو مترين عن قاعدتنا.

مدفع الهاون سلاح جيّد، لكن أجزاءه ثقيلة وهي: أنبوبة الدفع، جسم السلاح المدرّع والمنصب. ونظراً لأنّ عملي تحديد الهدف فقد اختصصْتُ بحمل الأنبوبة التي تزن خمسة وثلاثين كيلو غراماً، وقد نمشي بهذا الحمل أحياناً مسافة خمسين إلى ستين كيلو متراً في اليوم،

إضافةً إلى البندقية والرفش والقناع المُضاد للغازات ومنظومة ضبط الهدف وغيرها.

إنّها حياة جندي يستعدُّ للمعركة.

أخيراً نفضْتُ عن نفسي غُبار العار الذي عُلِّقَ بي. أنا الآن رجلٌ بسلاحه.

* * *

عملُنا شاق. فنحن نستيقظ صباحاً في الساعة السادسة، ونُسرع إلى الخارج من دون قميص لنقوم بتدريبات رياضية على الثلج، ثمّ نغتسل بالماء البارد، ونلبس بعده ثيابنا ونذهب بالصف إلى الإفطار.

بعد الإفطار نذهب إلى التدريب العسكري فنقضي اليوم بكامله في العراء ونعود في الساعة العاشرة مساءَ، نصطف ونذهب إلى العشاء. وعلينا أن نُنشِدَ الأناشيد الحماسية في الذهاب وفي الإياب.ساخنوف لا يعرف غير أنشودة واحدة:

أنا يتيمة فقيرة

طائرٌ بلا مأوى.

ومع أنّها ليسَتْ حماسية، إلاّ أننا كنّا نُنشِدُها بحرارة.

ننام في الساعة الحادية عشرة. إنّها حياة صعبة، لكنّها حلوةٌ على قلبي. إذ لم أشعر بنفسي من قبل في مثل هذه الصحّة والقدرة.

نحن الآن في الثالث من شباط.شهر وستة أيام وأنا في الثامنة عشرة من العمر. كتابتي فيها رائحة سلاح.

ساخنوف مُستاء

أعطونا ألبسة جديدة.

لذا حزَمْتُ سروالي بالقطن الذي جئْتُ به من حضيرة السوق، ومعه ألبستي الداخلية وقميصي وحشوتها في كيس كتكي. أُريد أن أُرسلُها إلى البيت، لعلّ أُمّي تستبدلها بخضار أو بحطب للتدفئة. تنفعُها على كلّ حال. وجعلْتُ الكيس وسادة أنام عليه بانتظار الوقت المُناسب لإرساله إلى البيت. لكن ناظر سريتي أمرني بالتخلّص منه فوراً قائلاً:

ــ تخلّصْ من هذه النفايات، إنّها تشوّه منظر المُعسكر.

لا يوجد بريد في هذه القرية لأُرسل الطرد إلى البيت، ولم يأذنوا لي ولا بيوم واحد للذهاب إلى كوركا. لذا قرّرْتُ أن أحمل صرّتي وأنا في طريقي إلى التدريب، وأتخلّص منها بإلقائها بعيداً في مكانٍ ما. لكنّ ساخنوف اقترح عليّ حلاً آخر.

ــ اتركها الآن.

* * *

في اليوم التالي حمل ساخنوف صرّتي إلى القرية واستبدلها بلحمٍ وخبز. فرحنا بهما كثيراً، لأنّ ما يُقدمه لنا المطعم لا يُشبعُنا. وبذلك حصلنا على ما نملأ به معدتنا.

لكنّ هذا اللحم والخبز خرج من أنفي. فلقد استُدعي ساخنوف إلى القيادة فوراً. وذهب الرجل مُتعجّباً خائفاً، وعاد شديد الحزن واليأس وقال:

ــ لقد ضُبطَتْ الأسمال التي بعتها، واعترفْتُ بأنّها لك يا بني. وسنُعاقب.

قلْتُ مهموماً:

ـ لكنّنا لم نسرق لنُعاقب.

فقال ساخنوف ساخطاً:

ـ بل يعاقبون. أمرُكَ أنت بسيط، فهي أول ورطة لك، أمّا أنا فصاحبُ سوابق، ولقد حُكِمْتُ مرتين بالسجن على السرقة.

استدعوني بدوري إلى القيادة، فاستجمعْتُ رجولتي وذهبْتُ. سندي الوحيد هو أنني لم أسرق الألبسة التي باعها ساخنوف، وأنّها مُلكي، أخذتُها من حضيرة التجنيد كأجرٍ على عملي، أمّا الأحذية فقد اشتريتها بمالي الخاص.

* * *

تقع القيادة في مبنى خشبيٍ، بابه ضيّق. دخلْتُ، وقدّمْتُ نفسي للنقيب المسؤول عنّا. وبعدما نظّم محضراً سجّل فيه اسمي وكنيتي وغيرهما من المعلومات التي سألني عنها، نظر في عيني مُحدِّقاً وسألني:

ـ هل تعلم أنّ السارق في الجيش يُعدم بالرصاص؟

أجبْتُ وأنا أبتلِعُ ريقي:

ـ نعم أعلم.

ـ من أين إذن سرقْتَ هذه الألبسة المُباعة؟

أجبْتُ وأنا أُحاول السيطرة على نفسي:

ـ أنا لم أسرق، أُقسم بشرفي الحزبي. إنّها لي ومُلكي الشخصي.

وشرَحْتُ للنقيب تفاصيل الموضوع، فاستمع إليّ بانتباه، دون أن يُظهر أيّ تعبير على وجهه.

ـ وهل قرّرْتَ أن تبيعها أنت نفسك؟

أجبْتُ:

ـ نعم أنا نفسي.

ـ ألم يقترح عليك أحد هذا الاقتراح؟

ـ لا.

ـ فلماذا نفّذَ الجندي ساخنوف عملية البيع من دونك؟

ـ هو أكبر منّي بثمانية عشر عاماً وخبرتُهُ أكثر.

فضحِكَ النقيب برقّة، ونظر إليّ ملياً، ثمّ هزّ رأسَهُ ومزّق المحضر الذي نظّمه. وقال:

ـ لقد صدّقتُكَ وعفوْتُ عنك، لكنني سأُرسلُكَ عشرة أيام إلى السجن عقوبةً مُخفّفة لتكون لك درساً يُبعِدُكَ عن ذنوب أخطر، ولتكون عبرة لغيرك.

كرّر الأمر.

وكرّرتُهُ.

نزعوا حزامي، واحتفظوا بأوراقي وأشيائي وقادوني إلى السجن. مع أنّ العقوبة خفيفة إلاّ أنّها مُذِلّة حقاً.

يُقدمون في اليوم وجبة واحدة لمسجوني العشرة أيام. وفي النهار يسوقوننا إلى العمل في تنظيف بقايا قمامات مُتجمّدة مُتحجّرة. ولايُنيرون مكاننا في الليل. لكنني كنْتُ أتعزّى بشيء واحد، هو أنّهم لم يعاقبوا ساخنوف.

* * *

أنا محظوظ لأنني بقيْتُ خمسة أيام في السجن فقط. أطلقوا سراحي بعدها ليلاً وأمرونا:

ـ اذهبوا إلى سراياكم. سنُسافر إلى الجبهة.

عانقني لدى خروجي سيروج وساخنوف. بكى ساخنوف وقال:

ـ كدْتَ تضيع يا بني بسببي. سامحني.

انطلقنا من القرية وسرنا في أماكن خالية حتّى وصلنا إلى المحطّة. وهناك أركبونا عربات طابقية، وانسابَ بنا القطار نحو الغرب.

نحن ذاهبون إلى الجبهة. يا لسعادتي.

نحن الآن في الثامن والعشرين من شباط. وأنا منذُ شهرين في الثامنة عشرة من العمر. كتابتي سجينة.

أنشودة للوطن

اجتزنا مدينتي سفيردلوفسك وقازان ودخلنا موسكو. ورحْتُ أنظر من خلال باب الشاحنة الواسع إلى التماثيل العظيمة المكسوّة بالثلج وإلى قباب الكنائس الظاهرة من بعيد، ورحْتُ أبحثُ عن الكرملين.

يبدو أنّه مُختفٍ وراء استحكامات دفاعية من الحواجز الحديدية والمُنشآت البيتونية. فلقد جرَتْ هنا في وقتٍ قريب معارك عنيفة تمكّنَتْ بعدها موسكو من إبعاد القوى الفاشية عن حماها. انتصرَتْ موسكو. إنّها ربّة النصر، وها هي تُضمّد جراحها.

اقترب من قطارنا رهطٌ من طلاب المدارس ـ صبيان وبنات ـ وأهدونا ورق سجائر وأقلاماً ودفاترِ وما شابه ذلك، وكانوا شاحبين كأنّهم كبروا عشر سنوات. منظر مؤثر جدّاً.

* * *

هبط الليل ونحن نسير في الطريق إلى الطرف الأوسط من الجبهة. هذه حدود كالين. تبدو آثار الحرب هنا واضحة. بقيّتْ كالين شهرين تُعاني من احتلال الفاشيين. شهران والفاشية فيها تُمارس ((بأسلحتها الحديثة)) كلّ أنواع الوحشية والتخريب والتشريد والقتل.

نزلَتْ كتيبتنا في قرية (كراسني خولم*) غير بعيدة عن الجبهة.

بداية القتال.

---

* تعني حرفياً ـ التلّة الحمراء.

حشروا مجموعتنا في كوخ خشبي من غرفة واحدة، وانسحب أهل البيت إلى المطبخ. ربّة البيت عروس شابّة ذكرتني بشورا. أين شورا؟ هل مازالَتْ تذكُرني يا تُرى؟ وضحكْتُ من تداعي أفكاري، فلقد وجدْتُ الوقت المناسب تماماً للعواطف القلبية. دخلَتْ ربّة البيت إلى غرفتنا وهي تقول:

ـ أرجوكم، لا تطلبوا منّي شيئاً. ما عندي شيء.

كانت تفوح منها رائحة البقر والقش اليابس، في عينيها دموع وفي صوتها شكوى.

وما كنّا لنطلب منها شيئاً.

شربْتُ هذه الليلة شايي مع الخبز اليابس، وأعطيْتُ نصيبي من السُكّر إلى ربّة البيت.

وراحَتْ أُختُ زوجها الصغيرة اليتيمة تهزّ سرير رضيعٍ وتغنّي بمرارة وبصوتٍ باكٍ:

لولي لولي لوليكي
حط الحمام يحميك
بالقرب راعي مسرور
بالمزمار يشجيك.

هدهدة مريرة علقتْ في ذهني. تُرى هل أنساها؟ لا أعرف.

* * *

يُدربوننا على القتال فوق الثلج طول النهار، ونتعبُ إلى درجة السقوط من الإعياء. ولكنّ هذه هي الحياة الشاقّة التي أرغبها فعلاً.

بدأ ذوبان الثلج، وبدأنا نتبلل. وعندما نعود إلى البيت نُشعل ناراً ونُجفّف عليها لفافات سيقاننا. لقد علّمني الجنود الذين خدموا في الجيش سابقاً أشياء كثيرة. قالوا لي يجب أن تُلف لفافات السيقان بحيث يُغطّي قسم منها أخمص القدم، ويلتفُّ الباقي على الساق. فإذا

ابتلّ قسم الأخمص تخلعُ الحذاء وتجعل القسم المبتل في أعلى الساق والقسم الناشف يلفُّ الأخمص، فلا تبرُد الرجل. وريثما يُبتل القسم السفلي يكون القسم الملفوف على الساق قد جفَّ، فتُبدلُهُ من جديد وهكذا. وأخذْتُ أعملُ بنصيحتهم، ولم تبرد رجلاي بعد ذلك أبداً.

عند المساء سحبتني ربّة البيت من يدي إلى حظيرة البقر وقالت:

ـ لا أستطيع ربط البقرة، ساعدني يا عسكري.

دخلْتُ الحظيرة وبصعوبة مُتناهية ربطْتُ البقرة، فقالت ربّة البيت:

ـ إنّها المُعين الوحيد لأفواهنا نحن الثلاثة، والبقرة هي أملُنا.

سألتُها:

ـ ومن أين تؤمنين لها العلف؟

قالت:

ـ تّعطينا التعاونية، أقصد أنّها تسمح لنا بحصده من الحقل وجلبه إلى البيت. وبالإضافة إلى البيت، منحونا قطعة أرض نزرع فيها البطاطا والملفوف.

ولمّا أَسِفْتُ لها عن الصعوبة التي تُلاقيها في إعالة الأُسرة الصغيرة في أثناء غياب زوجها في الحرب، قالت:

ـ نعم، الحال صعبة جدّاً، ولكن ماذا بيدي أن أفعل؟ علينا أن نُضحّي بكلّ شيء في سبيل البلاد. ونظراً لأنّي زوجة مُقاتل في الجبهة فأنا أتمتع بتسهيلات. والحكومة لا تتركنا نجوع. ونحن نقاوم بدورنا، نواصل العمل في الليل والنهار بغية تأمين إحتياجات الجبهة.

عُدْنا إلى البيت، وأعطتني ربّة البيت موس حلاقة وهي تقول:

ـ هذا موس حلاقة زوجي. خُذْهُ هدية، فهو لا يلزمُنا الآن، ولا أعلمُ إن كان زوجي سيعود أم لا.

وانخرطَتْ في البكاء، وقالت:

ـ آوه، كان أندروشكا طيباً. كان رئيساً في التعاونية. لا يضربني، ولا يشرب. إيه، آمل أن يكتُبْ الله له الحياة.

حاولْتُ ألاّ آخذ الموس، ولكنّها قالت مُنزعجة:

ـ ألم أقل لك إنّ كلّ شيء عندنا للجبهة، خذْهُ، فما هو بشيء يُذكر، وتَذكرني معه بخير.

فأخذْتُ الموس مُضطراً، وامتلأ قلبي باحترام عظيم لهذه المرأة الروسية الجميلة صاحبة الهدية. لقد أنعم اللّه على هؤلاء الناس بخير ربّاني. عندهم حبٌّ خاص للعسكر. يضعون تحت تصرفنا غرفتهمً الوحيدة، يُشعلون لنا النار ويساعدوننا في كلّ شيء لكي نشعر بالأنس والراحة. قد لا توجد امرأة في الدنيا تعتني بالجنود مثل هذه المرأة الروسية.

واعتدْتُ على أن أحمل معي دائماً هذا الموس الهدية.

نحن الآن في الحادي عشر من آذار. أنا في الثامنة عشرة من العمر منذُ شهرين وأحد عشر يوماً. كتابتي لطيفة.

استفْحَلَ ذوبان الثلج

ذوبان الثلج فظيع. فنحن نُجري تدريباتنا اليومية غاطسين في الطين حتّى الركب مُبلّلين بردانين. وعندما نعود إلى البيت مساءً، نجدُ ربّة البيت وقد أشعلَتْ لنا النار. ومع أنّ عملها هذا يجرحنا، إلاّ أنّها راضية به كلّ الرضى.

وتقول:

ـ نشّفوا ثيابكم يا شباب، النوم على بلل مضرّة.

فنحلُّ لفافاتنا الندية ونعلّقها فوق المدفأة على الجدران الحارّة وتفوح في الغرفة رائحة ثقيلة، لكنّها لذيذة.

* * *

عند المساء جمعوا الكتيبة بكاملها، وقال مفوضنا:

ـ لن نستلم منذُ اليوم خبزاً، بل طحيناً، ولسوف نخبز خبزنا بأنفسنا. فمن كان منكم خبّازاً، آمره بالخروج من الصف.

وخرج من الصف خمسةُ عساكر بينهم ساخنوف.

ذهب ساخنوف إلى الفرن ليخبز. وبدأْتُ أقوم بمهامه في المجموعة.

كوليا مكسيموف أقصر واحد في المجموعة. له عينان ضيقتان ووجه مُستدير، ولا يُدخّن. نحن نغبطه على ذلك. لكن شهيته للأكل مفتوحة. عندما نقتسم الخبز نحاول أن يكون النصيب الأكبر له. كذلك الأمر في الطعام.

* * *

في إحدى الأُمسيات عاد ساخنوف، وامتلأتْ الغرفة برائحة الخبز، ووضع لفّة على الطاولة وقال:

ـ هذا رغيف خبزناه من العجين غير المُقنّن. أحضرْتُهُ لربّة البيت وأطفالها، لأنني لاحظتُ عند الصباح أنّهم يشربون الحليب دون خبز.

وحمل الخبز لإعطائه إلى ربّة البيت، وإذا بالباب يُفتح ويدخل الرقيب معاون آمر وحدتنا ويسأل ساخنوف:

ـ من أين جئْتَ بهذا الخبز؟

ولبرْهة لم يتمكن أحد من إعطاء الجواب، فالموقف عسير. لكنّ ساخنوف قال:

ـ أنا جئْتُ به أيّها الرفيق الرقيب.

ـ أي سرقته من الفرن.

أجاب ساخنوف واقفاً باستعداد:

ـ لا أيّها الرفيق الرقيب. هذا الخبز من بقايا العجين المُتخلّف في المعجن، غير المُقنّن. باختصار صدقني، جئْتُ بهذا الرغيف لربّة البيت وأطفالها.

ـ لتبيعها إياه.

قال ساخنوف بكلّ لطف:

ـ لا أيّها الرفيق الرقيب، لقد رأيْتُ ربّة البيت وأطفالها هذا الصباح يشربون الحليب دون خبز، رأيتهم بعيني، وهي زوجة مقاتل في الجبهة فأشفقتُ عليهم.

نظر الرقيب إلى ساخنوف طويلاً، وهو يستصعب إصدار أيّ قرار يتخذه في حدود صلاحياته كمعاون آمر وحدة. وأخيراً قال:

ـ مهما يكن، هذا نوع من أنواع السرقة أيّها الرفيق الجندي ساخنوف، وأنا مُضطرٌ إلى التبليغ عن هذه المخالفة إلى الآمر، فالسرقة في جيشنا مُستثناة وتُعتبر جُرماً.

فغمغم ساخنوف:

ـ لكن ليست هذه سرقة أبداً أيّها الرفيق الرقيب. جئْتُ بالخبز و...

ـ أسكُتْ...

واتجه الرقيب نحو الباب وبيده الرغيف كدليل ماديّ على السرقة. وشعرنا كأنّ الجليد تلبّسنا. ولسْتُ أدري كيف واتتني الشجاعة واقتربْتُ من الرقيب الذي تعجّب ونظر إليّ شذراً.

ـ ماذا تريد أيّها الرفيق العسكري؟

قلْتُ:

ـ أنا لا أريد، وإنّما أرجو أيّها الرفيق الرقيب أن تُصدقوا قول ساخنوف. إنّه لم يسرق الخبز، وإنما خبزه من بقايا العجين ليُقدّمه إلى هؤلاء الأطفال المحرومين من الخبز. إنّه ليس لصاً وأرجو أن تُصدّق.

زفرَ الرقيب:

ـ عجيب، ومن سمح لك بمعارضة رئيسك؟

ـ ضميري أيّها الرفيق الرقيب. لقد عانى ساخنوف كثيراً في حياته، وأنا أعرف ذلك جيداً فلا تتهموه بسرقة لم يرتكبها، هذا ليس عدلاً. هل ستُخبر القيادة عن الموضوع؟

أجاب الرقيب جازماً:

ـ نعم، سأُخبر، وسيُعاقب العسكري ساخنوف حسب القوانين المُشدّدة في أيام الحرب.

وتجرأْتُ أكثر وقلت:

ـ لكن هذا ظلم أيّها الرفيق الرقيب، والظلم ممنوع في جيشنا مثل السرقة.

وبهت الرقيب.

ـ ما هذا الذي تختلقهُ؟ هل أكون ظالماً إن أظهرْتُ الحقيقة؟

ـ نعم هو كذلك.

كنْتُ أقفُ أمام الرقيب وجهاً لوجه، أنا هادئ وهو مُنفعل قليلاً. كذلك كان رجالنا واقفين هادئين كأنّهم في الصف، ولكنّهم بدؤوا يتكلّمون جميعاً دفعة واحدة يرجون الرقيب ألا يُبلغ القيادة بالحادث. وقالوا له إنّ ساخنوف ما جاء بالخبز إلاّ من باب الشفقة والإنسانية.

وظلّ الرقيب في هذه الفورة صامتاً يهزُّ رأسَهُ، أن ((لا)) ((يجب أن أُبلغ القيادة)).

ثمّ قال:

ـ أمّا ما تُقرره القيادة فليس من شأني. لا يحقّ لي أن أكتمَ هذا الأمر عن القيادة، عليّ أن أُبلغ عن كلّ ما يحدث في القسم الذي أضطلع به، لا تنسوا أننا في حالة حرب.

كنّا نتكلّم بصوتٍ منخفض كيلا تسمعُنا ربّة البيت النائمة في الغرفة المجاورة لأنّ العيب كلّ العيب أن نُجادل آمرنا، حتّى لو كان معاوِن ضابط صف، أو رقيباً. وترك الرقيب الخبز على الطاولة وذهب مُحنقاً. ونمنا أنا وساخنوف الليلة نوماً مُضطرباً. ساخنوف يُدخّن في مهجعه.

نحن الآن في العشرين من آذار. أنا في الثامنة عشرة من العمر منذ شهرين وعشرين يوماً. كتابتي مُرّة.

حزامي ذو الإبزيم النجمي

يترددُ في الكوخ صوت هدهدة البنت الصغيرة. ويترددُ في أُذني بكاء أُمي وهي تهزّ سرير ولدها الرابع عشر.

يزدادُ ذوبان الثلج. وَتُلْفِتُ مجموعتنا أنظار الكتيبة كلّها باستعدادها القتالي. أعطونا وقت التدريب قذائف حربية حيّة، دمرنا بها أهدافاً عدوّة مُفترضة، وهي عبارة عن واجهة مشكّلة من خشب الصنوبر. وأثنوا على جهودنا الفائقة، وأشاروا إليها في صحيفة الشرف.

ذوبان الثلج على أشدّه. وكتيبتنا بكلّ تخصُصاتها، كبيرها وصغيرها، في التدريب من جديد. حتّى أنّ قائد اللواء حضر العمليات القتالية بنفسه، ورآنا نؤدي مهامنا حسب نظام وقانون الحرب. فنزحفُ ونحفرُ الخنادق الدفاعية مُنبطحين بفؤوس قصيرة المقابض. نُركبُ المدفع في خمس دقائق ونبدأُ بالرمي حسب الأوامر الصادرة. أنا راض عن نفسي لأنني أتقنْتُ تشغيل السلاح المدفعي بكلّ دقّة، ولأنني جنديّ نظامي نشيط. هذا مُختصر عن مظهري الخارجي، أمّا ما بداخلي، فهو أنني أجدُ نفسي مُستعداً لخوض المعركة ومحاربة عدو يرهبه غير قليل من الشعوب والأمم المغلوبة على أمرها. وهذا الشعور لا يخصّني وحديً، بل ألمسهُ لدى ساخنوف وكوليا مكسيموف وغيرهما من الرفاق الجنود. لكنني لا أنسى رغيف ساخنوف الذي يسدّ النفس.

بعد التدريب، وقبل حلول الظلام، اصطفّتْ الكتيبة على شكل مربّع زوايا، ووقف آمر اللواء يُثني علينا ويقول إنّه ممتن من استعدادنا القتالي وروحنا المعنوية. وختم كلامه بقوله:

ـ معكم يا رفاق، تهون الحرب، فأمامنا مهمّة صعبة ثقيلة، هي شلّ صفوف الفاشية وتشتيت قواتها وطردها خارج ترابنا المقدّس. وأنا واثقٌ من أنّ كتيبتكم قادرة على تذليل أصعب مهمّة قتالية.

وتناول الحديث بعده قائد كتيبة آخر. كانت مجموعتنا مدفعية الهاون واقفة طوال هذا الوقت في الصف الأمامي. تحدّث هذا القائد عن النظام وهو يأتي بأمثلة على المخالفات وعلى حوادث مُعينة جرَتْ في الكتيبة، وأعلن أنّ المُخالفين قد نالوا العقوبات التي يستحقونها. بالطبع لا يتعلّق الأمر بمجموعتنا. لذا تهاونّا في الاستماع إليه.

وتابع قائد الكتيبة قوله:

ـ تعيش بلادنا الآن فترة عسيرة عصيبة، فنحن نخوضُ معركة حياة أو موت ضدّ قوات ألمانيا الهتلرية الفاشية الغاشمة التي استباحَتْ بلادنا، وراحَتْ تعمل فيها تخريباً وفي الأرض فساداً منذُ ثمانية أو تسعة أشهر. يجب على كلّ فردٍ منّا أن يُنفّذ بإخلاص ما يتطلّبُهُ منه الوطن في سبيل طرد الغزاة من البلاد، وسيتم هذا دون شك. ولكن، لكي يتمّ بسرعة، يجب على كلّ جندي أن يشحذ كلّ قواه. كما يجب أن يسود في صفوفنا نظام حديدي يكون وحده الكفيل بالنصر. فتحاشوا الوقوع في أصغر هفوة أيّها الرفاق مهما تكن تفاهتها. حافظوا على أيديكم وضمائركم طاهرة نظيفة.

ورحْتُ أنظرُ إلى أيدي الجنود في مجموعتنا واحداً واحداً، ووجدْتُ أيديهم وضمائرهم نظيفة ساطعة كالنور. هم على استعداد لتنفيذ أصعب المهام، وعلى استعداد للموت في سبيل الوطن. وتوقّفَتْ أنظاري عند ساخنوف، وتذكّرْتُ رغيف الخبز، وشعرْتُ بذنبي حين جادلْتُ الرقيب معاون صف الضابط آمرنا، فهذه مُخالفة في العُرف العسكري. وقد جاء ساخنوف برغيف الخبز إلى ربّة البيت دون أن يُخبر رئيسه، وهذه أيضاً مُخالفة، وإن لم تكن سرقة. هذا أمرٌ سيء ولا شك.

وعقد قائدُ الكتيبة يديه وراء ظهره وراح يتمشّى أمام الصفوف. وران الصمْتُ على أفراد الكتيبة، فلا يُسمع غير صوت المُتحدّث الذي تحسبه تكسير حطب. واقترب منّي، ونظر إليّ عابساً وقال:

ـ أخرج من الصف واتبعني.

قُضي الأمر... إنّه يُخرجني من الصف لأنني مانعْتُ الرقيب معاون آمرنا صفّ الضابط أثناء عمله. يبدو أنني... وشُلّ تفكيري، وبدأْتُ أمشي وراء الماجور مسلوب الوعي. وبعدما ابتعد بي المأجور عن الصف التفتَ إليّ بكامل طوله، ووقف أمامي وجهاً لوجه وأمرني:

ـ انزع حزامك.

وانهدّ حيلي تماماً. نَزْعُ الحزام يعني الاعتقال. ضعْتُ... وأخذ حزامي ذا الإبزيم النجمي وهو يقول:

ـ حزام مساعدي من البرونز. أمّا حزامك فجديد، بإبزيم نجمي. قل لآمرك أن يجد لك حزاماً. انصرف.

عدْتُ وكأنني وُلدْتُ من جديد. ورأيْتُ رفاقي يُسيطر عليهم الهمّ والغم. سألني ساخنوف هامساً:

ـ ألم تفقد وعيك؟.

ـ كلا لم أفقد وعيي، ومعاون آمرنا ضابط الصف لا يخوننا.

نحن الآن في الثلاثين من آذار. أنا في الثامنة عشرة من العمر منذُ ثلاثة أشهر ويومين. كتابتي عجين.

أقدامٌ عارية

مشينا سبعة أيام.

وصلنا بعدها إلى (مالايا فيشيرا). بلدة صغيرة مدمّرة عن آخرها. قبل شهرين وبعد قتال عنيف طرد جماعتنا العدو منها. وجدْنا قُرْبَ محطّة الخط الحديدي صفوفاً من القاطرات المُحطّمة وحُفراً لا تُحصى على شكل قمع. الثلج باق فوق كثير من الأماكن، لم يذب، لكنّه حُفِرَ وتبعْثَرَ في أمكنة عدّة. ووجدّنا جثثاً منّا ومن الألمان لم تُدفن، من بينها جثّة على جانب الطريق، برز نصفها من تحت الثلج. مالَ ساخنوف عليّ:

ــ انظر.

جمجمة الجثّة بيضاء. وقعَتْ الشمس عليها وبدأ يسيل منها سائل جليدي أصفر. أشَحْتُ بوجهي. لكن أين أهرُبْ بأنظاري، فالجثث في كلّ مكان. وزمجر سيروج الذي يسير ورائي، وسألني كوليا:

ــ هؤلاء منّا أم من الفاشيست؟

لم أجب لأنني لا أعرف.

* * *

في الليل اجتمعنا قريباً من الغابة. وصدر الأمر بعدم إشعال النار، والتدخين تحت السترات فقط. لا يوجد طعام ساخن. مضغنا بقسماطاً وثلجاً وتذكَّرْتُ نصيحة شورا:

ــ لا تشرب الماء إلاّ مغلياً.

ولكن أين أجد الماء المغلي هنا؟

في النهار تجمّد الثلج الذائب. نحن نقفُ فوق الجليد. وهنا راودني النوم. هل أنام على فراش من الجليد؟ ولكن لا فائدة، فالنوم غلاب، ارتختْ ساقاي، ونمنا على الجليد مُتلاصقين، نشمُّ أقذلة بعضنا بعضاً. لسوف ألتصقُ بالجليد ولا أتمكّن بعد ذلك من الوقوف.

ظهرَتْ طائرة في السماء وأرعبتنا بنيرانها الحمراء وهديرها الفظيع. الآن يُلقي هذا الوحش بحمولته فوق رأسي. همس مكسيموف في أُذني:

ـ هل أنت خائف؟

ـ نعم، وأنت؟

ـ أنا خائفٌ من الجثث.

أنا أيضاً. الدنيا ظلام. والجثث حيّة تصرُخ، تسبُّ، تلعنُنا نحن الأحياء. ألسْتُ أنا أيضاً جثّة يا تُرى؟ الجثث. نحن الأموات. وضاعَتْ منّي رؤية سماء بديعة. ومع ذلك ففي الجبهة معنى سام، وهي جذّابة على الرغم من جثثها غير المدفونة وفراشها الجليدي وحاملات القنابل الحائمة فوق رؤوسنا.

ويأتينا من الجبهة صوتُ الدوي الهائل، وكأنّه احتجاج السماء والأرض. ويُجبرني ساخنوف على البقاء مُستيقظاً. النوم، النوم ولأَمُتْ بعده.

وبالفعل تجمّدْتُ، فأنا لا أشعر الآن بشيء. ما أنا إلاّ تُراب مُتجمّد. تُرى هل تجمّد سيروج أيضاً أم أنّه لا يزال دافئاً؟ غابَتْ حياتي القصيرة الماضية كأنها لم تكن، فلا جاء الربيع، ولا كانت مارو. ولا توجد الآن شورا. غاب كلّ شيء. لا شيء غيرَ التُراب المُتجمّد وهذه الجمجمة الصلعاء. أمّا أنا فمعدوم، غير موجود. أين أنا من الوجود؟

* * *

ظهرَتْ الشمس، ولم يعدْ المشي في الغابة ممكناً: طين، ماء، ثلج يذوب. مشينا يومين آخرين. لُهاث جبهة القتال يلفحُ وجوهنا برائحة الدم والبارود. لكنّنا اعتدْنا على انفجار القنابل، ففي كلّ نصف ساعة نسمع

إشارة ((أوت، أوت)) وننطرح في الحُفر مثل الخراف المذبوحة. أو نتستّر خلف جذوع الأشجار ونلتصق بالأرض. أمّا أنا، فأنبطح على الأرض على وجهي وكأنني ميّتْ، وأحسّ كأنّ دمي يسيح خارجاً من جسمي. ثمّ أروح في غيبوبة أبدية. كم مرّة مُتْ...

جاء مفوضنا لزيارتنا:

ــ هيه، كيف أنتم يا نسور؟.

كانت تفوح منه رائحة الكولونيا، وهو يتمنطق بحزامي ذي الإبزيم النجمي. ما عاد يُحرّك فيّ شعور الغيرة، كما أنني لا أستطيع أن أشعر بالغيرة.

ونمشي من جديد..

ها نحن على الضفّة اليُمنى لنهر فولخوف، غير بعيد عن مدينة نوفغورد. أمرنا بحفر مغائر أرضية. حفرنا لمجموعتنا كلّها مغارة كبيرة، لكن الماء أخذ ينبع من أرضيتها، ويرتفع مُهدداً بغمر أسرّتنا الخشبية. لذا اضطررنا إلى ترك مناوب مُستيقظ يُفرغ الماء كلّما ارتفع بسطل. وصنع ساخنوف شيئاً يُشبه المدفأة. الليل رطب وحار..

صرْنا طوال النهار نبني استحكامات على ضفّة النهر. الألمان يصلوننا بنيران مدافعهم بعيدة المدى وطياراتهم. جُرِحَ الرقيب معاون آمر وحدتنا بجواري، إذ شقّتْ شظية قُنبلة فخذه فوق الركبة ومزّقَتْ ثيابه. غمغم وأنا أربُطُ له جرحه:

ــ لم تبقَ من حاجةٍ إليّ.

يداي ترتجفانِ. فهي المرّة الأولى التي ألِسُ فيها دم آدمي حاراً ولحم مجروح. على كل حملْتُهُ لأوصلَهُ إلى المركز الطبي، فقال في الطريق:

ــ لن أنسى جميلك ما حييت.

قلت:

ــ وأنا أيضاً. هل تذكر قضية رغيف الخبز.

ــ وهل كنْتَ تعتقد أنني أخونكم؟

من المركز الطبي عُدْتُ إلى نقطتي. فأثنى عليّ مُفوضنا أمام الصف، لأنني عاونْتُ الآمر الجريح، في حين كنْتُ أرمق حزامي النجمي الذي يتمنطق به.

* * *

تقدّمْتُ بطلبٍ لقبولي عضواً عاملاً في الحزب، وزكّاني مفوضي.

في الليل وجد آمر سريتنا الحارسِ المُناوب الجندي كروكوف نائماً في نقطة الحراسة. فهدّده بإعدامه رمياً بالرصاص أمام الجنود بعد انتهاء فترة مُناوبته، فانتحر كوركوف.

نحن الآن في السابع عشر من نيسان. أنا في الثامنة عشرة منذ ثلاثة أشهر واثنين وعشرين يوماً. رائحة كتابتي بارود.

صوتُ الدم...

اجتزْنا نهر فولخوف واتخذْنا مواقعنا الدفاعية، واختلطْنا بواحدة من كتائِبنا، في بقعة كانت قواتنا قد حرّرَتْها من يد العدو.

الألمان لا يتوقفون عن مهاجمتنا، همهم أن نتقهقر، ونغرق في النهر.

وبجهود كبيرة تمكّنْتُ من تحديد موقعنا. وراءنا نهر فولخوف العريض الجبّار وأمامنا حُصن سيليشجينيان، ولايوجد غير جسرٍ خشبي واحد يربطنا بالأرض الأم. رسمت على ورقة تجنيدي مُخططّاً لمكان دفاعنا، فبدا مثل كيس عريض طرفه الضيّق مُستند على النهر.

الألمان يقصفون جسرنا الخشبي جواً وبراً، لكن القنابل والقذائف كانت تضيع في النهر.

* * *

اخضرَّتْ الأشجار. وبدّلَتْ الأرض ثوبها.

إنّه الربيع.

طلبونا عند المساء إلى الصف. صفّونا وأخذونا إلى فسحة في الغابة القريبة. وجدنا هناك عدة مئات ممثلين عن كلّ سرايا كتيبتنا مُصطفين بانتظارنا. في وسط الصفوف التي كانت على شكل مربع وقف جندي حُكِمَ عليه بالإعدام.

أركعوا الهارب وأطلقَ ضابط النار من مُسدسه على رأسه.

لكن لماذا أُفكّر بالهارب المعدوم. العقوبة عادلة بكلّ معنى الكلمة، ولا إثم على أحدٍ فيها. لماذا ترك هذا الجندي موقعه وقطعته. ألم تُعْهَدْ إليه رقعةٌ من الأرض وعايه أن يُحافظ عليها كحياته بالتضحية؟ لا، لا

يجوز العطف على أمثاله. الأمر هو أنّ العدو يُريد القضاء علينا كلّنا، وهذا الهارب هو واحدٌ منّا. وبهربه وتركه موقعه أفسح المجال للعدو ليفعل ما يُريد. ولا يقتصر الأمر على هذا وحده، بل يحتل العدو تلك الرقعة من الأرض التي كانت عهدة في عنق هذا الجندي الهارب وأنيطَتْ به مهمة الدفاع عنها.

أنا أُفكّر في هذا الجندي الهارب وأُدينه في الوقت نفسه. إنّه لا يستحقّ العيش. لقد كان له في العيش حق، لكنّه ضيّعه بجبُنِهِ. وعلى الرغم من أنني أُفكّر من هذا المنطلق إلاّ أنني أشعرُ أيضاً بالإستياء.

نعم، يومٌ رهيب.

* * *

بجواري جدارٌ مهدوم. كان بيتاً أساسه من الآجر، لم يبق منه غير بقايا جدار جعله رجالنا متراساً لهم ضدّ العدو المُقابل لهم.

خفَّتْ حدّةُ النار قليلاً. مع استمرار طلقات مُتفرِّقة يُطلقها العدو باتجاه الجدار المهدوم فتصطدم به وتسقط كما يسقط الذباب حين يصطدم بالزجاج.

النُعاس يُراودُني وأنا أُقاومه. ورحْتُ أتسلّى بمعرفة أنواع ما نما من الأعشاب والمتسلقات والشجيرات تحت هذا الجدار. وبالمُصادفة، وقعَتْ أنظاري بين الحشائش على كلمات حُمر. ما هذا؟ أزحْتُ الحشائش، وتأكدْتُ من أنها كلمات كتبَتْ بالزيت الأحمر، وليست بالدم. وطار النوم من عيني:

((أنا جريح. أنا وحدي مع رشاش، أموت يا ناس. لكنني لا أستسلم للكلاب. وداعاً يا وطن...)).

في الواقع لقد كتبها الشهيد حقاً بالدم، الذي جفّ والتصق بالملاط الأبيض في الجدار. وبدأْتُ أبحثُ عن اسم كاتب هذه الكلمات أو

تاريخها ولكن دون جدوى. وأخذْتُ أمسِّدُ الكلمات المكتوبة بالدم باحترام.

تُرى هل كان هذا الشاب الذي حارب العدو حتّى آخر رمق من حياته أشقر أو أسمر؟ وأية أغنية كان يُحب؟ لا أعرف. لا أحد يعرف ولن يعرف أحد.

أمّا وقد أبغض هذا الشاب العدو كلّ هذا البُغض، فأنا أعرِفُهُ وأراه. لقد كتب بدمه قسمه ووداع وطنه.

ما اسمك يا أخي؟

الجدار لا يرد. فنسَخْتُ ما كُتِبَ بالدم على دفتر مذكّراتي، ولم أنتبه إلى أنني أبكي على هذا الشاب الذي كره العدو أشدّ الكره، نعم بكيتُه ولا أعرف عنه سوى أنه يعبِّرُ عن شعوري الشخصي. لقد كان صلداً كالصخر لا يُقهر حتّى في عاطفته، وهذا هو صوت دمه.

واقشعرَّ بدني، فللدم إذن، صوت. آه أيّها الدم الغالي الحبيب.

إقتلَعْتُ الحشائشٍ التي تُغطي الكتابة لكي يراها الناس عند مرورهم ويقرؤوا قلب جنديٍ مجهول. ولو أمكن إيصال صوت الدم هذا إلى أوروبا إذن لازدحمتْ كلّ هياكل الكنائس بالصلوات على روحِ هذا الجندي المجهول.

لِم يترك هذا الجندي موقعه، بل وقف صامداً في وجه العدو يُقاتل ذوداً عن حياضه، وكلّل اسمه بالمجد. أيّ شيءٍ أسمى وأجلّ عند الإنسان من المجد والتضحية؟

لقد وصل الألمان إلى هذا المكان ولم يتمكنوا من تجاوزه، لأنّهم اصطدموا بهذا الجندي الذي كان أقوى من جبروتهم فصدّهم، وأرجعهم لأنّه جندي الوطن، بل حبُّ الوطن كان سدّاً منيعاً في وجههم. قبل صوت الدم هذا كان حبُّ الوطن عندي شاعرياً ونوراً غير ملموس. أمّا الآن، وبعدما رأيْتُ هذه الكلمات على حجر الجدار، فقد أصبح حبُّ الوطن عندي حقيقة نقيّة، وبدل الخيال الشاعري أصبح كياناً حقيقياً ملموساً مرئياً، بل مشموماً، أو كالنور بالنسبة للأرض.

نادَيْتُ رفاقي الجنود وأريتهم كتابة الجندي المجهول بالدم، وذلك الجدار الذي وإن تهدّم، إلاّ أنّ أُسسه متينة.

* * *

ولم يمض وقت حتّى حضر إلى موقعي مُلازم سألني:

ــ أين الجدار؟

فسألتُهُ بدوري:

ــ ومن أنت؟

قال:

ــ ما الفرق عندك، فلأكن من أكون.

ــ لا، يجب أن يتحلّى الذي يقترب من هذا الجدار بضمير طاهر.

ونظر إليّ المُلازم مُتعجباً. يبدو أنّه يُقيِّم هذا الجندي الغر بمّا استطاع أن يتوصّل إلى التفكير فيه. وذلك من حقه، لأنّه لا يدري أنّ ما اقتبسْتُه من تفكير وقول إنّما جاء من هذه الكلمات ومما فعله الجندي المجهول.

وأعلمني المُلازم أنّه محرّر جريدة الكتيبة، وجاء ليرى القسم الذي اكتشفْتُهُ.

ركعْنا نحن الإثنين أمام الجدار مثلما كان القدماء يركعون أمام آلهتهم وأصنامهم، ويتطهرون من كلّ أدران النفس. وصوّر المُلازم الجدار والكتابة، ثمّ بدأنا نبحثُ علّنا نجد أيّ شيْ من مُخلّفات الجندي المجهول. لكننا لم نجد أسمى من صوت الدم هذا.

نحن الآن في التاسع والعشرين من نيسان. وأنا في الثامنة عشرة منذ أربعة أشهر ويوم واحد. في كتابتي صوت الدم.

دم ساخنوف

ما كادَتْ الأرض تجفّ حتّى بدأ الألمان يُهاجمون مواقعنا بشدّة، يُريدون إلقاءنا في النهر وإغراقنا.

نحن بنينا استحكاماتنا قُربَ قرية (مياسنوي ـ يور). أمّا الآن، فقد امتلأ دفتر مذكّراتي، ولا يوجد ورق، لذلك بدأْتُ في كتابة الأحداث اليومية على هوامش كتاب شعراء (الأرمن الغربيين)، وصرت إذا أردْتُ كتابة رسالة إلى البيت، اقتلعْتُ صفحة من الكتاب نفسه وكتبْتُ الرسالة على الهامش.

الليالي بيضاء، مُضيئة، مثل روحي.

* * *

هدنة قتال تعني توقّف الهجوم من قِبَلِنا ومن العدو. نحن اليوم في واحد من أصباح أيار الخفيفة المشمسة التي توحي بدوام النور واختفاء الظلام. كنّا ثمانية أشخاص نجلس على الحشائش، أنا وساخنوف وسيروج وخمسة آخرون. ولمّا شعرنا بحرارة الجو خلعْنا معاطفنا وعلقّناها على أنبوبة المدفع. وبدَتْ في شكل مُضحك تحسبُها رجالاً منشورين.

لكننا لم نهنأ بهذه الراحة، إذ بدَتْ تحوم فوق رؤوسنا خمس قاذفات قنابل ألمانية من طراز ((يونغرن))، تتقدّمُها طائرات انقضاض من طراز ((ميسر شميدت)) تلفُّ حول القاذفات مثل الدبابير المسعورة، ترتفع مرّة وتنقضُّ مرّة أُخرى. أمّا ((يونغرن)) فمثل العقبان التي ابتلعَتْ جيفة، ثقيلة، تنخفض حين تحوم فوق رؤوسنا فتُحْدِثُ دوياً هائلاً... وألقَتْ قنابلها بعيداً جداً عنّا، ربّما على الجسر الخشبي فوق النهر.

أول من بدأ الكلام منّا كان ساخنوف إذ قال:

ـ آمل أنّهم لم يهدموا الجسر. أبناء الكلب.

كان هادئاً جدّاً، حتّى أنّه لم يبال بكلّ ما جرى حولنا. هدوؤه هذا حرّك فيّ شعوراً بالفرح واليقين بأننا سننتصر على العدو ونهزمه. لا توجد قوّة تستطيع أن تقهر ساخنوف. ومن لا يُقهر ينتصر ولا بد.

تحيط بنا غابة جُرحَتْ أشجارها، وانغرز في جذع واحدة منها شظية قنبلة طويلة اخترقتها إلى الجانب الآخر، وهي تلمع. استعملها أحد الجنود كمشجب علّق معطفه عليه. كانت الشجرة الجريحة خوخة. إلى جانبها أشجار حور عارية. عجباً لهذه الأشجار الرشيقة، قشرتها ناعمة. لكن لماذا هي عارية؟. آه، هه، لقد قشّرها الجنود. إنّهم يشقّون قشرتها شقّاً عميقاً عمودياً من أعلى إلى أسفل بطول مترين بالفأس، ثمّ يُحرّرون طرفي الشق، فتنفصل القشرة عن الجذع بسهولة لأنّها غير مُلتصقة به تماماً. هكذا يسلخون جلد الماعز في جبالنا. يفتحون فتحة في رجل الذبيحة وينفخون فيها حتّى تمتلئ بالهواء، ثمّ يشدّون الجلد فينتزع بسهولة، ويستعملون الجلد في تخمير الجبن. أمّا هنا فلا يوجد جبن. لكنّهم يُقشّرون الحور ويجعلون القشرة سقفاً لكوخ من أغصان الشجر يحتمون تحته من المطر. هذا هو سبب عري الأشجار.

فيقول ساخنوف مُعلّقاً:

ـ لم تعُد هذه الغابة تنفع في شيء.

ـ لماذا؟

ـ الأشجار المقشورة تموت. وفي غير المقشورة تراكم طنٌّ من الفولاذ من شظايا القنابل والقذائف والرصاص وغيرها، فلا تَصلُح هي الأُخرى للصناعة، لأنّ أسنان المناشير تنقصف إذا هي عملَتْ فيها.

هذه مضرّة جديدة يُلْحقُها بنا الفاشيون الألمان. كم أَلحقَ بنا هذا الضيف الثقيل غير المدعو من أذى. لقد دخل بيتنا بالنار والرصاص.

غابَتْ ((ميسر شميدت))، و((اليونغرن)). وساد المكان هدوء عجيب.

نفسيتي ليست سيئة تماماً، لكن اللعنة، أُريد أن أرى إنساناً في ثياب مدنية، خصوصاً بنتاً أو إمرأة. ويتذكّر كلّ واحدٍ من رفاقي متى قبّل أول مرّة وشمّ رائحة جسمها. لكنني كنْتُ بعيداً عمّا يتذكّرون... كجنود نسينا لفترة حالنا الرهيبة، وغصنا في الخيال. أمّا أنا فإذ أتذكّر، فإنني آسفُ على أولاء الفتيات اللواتي كان بإمكاني تقبيلهنّ ولم أفعل. لو عشْتُ مرّة أُخرى... أشعرُ كأنْ لم يعش هنا إنسان على هذه التربة المعفّرة من قبل. ما هذا؟ هذا جندي عثر وهو يعبثُ بالتراب، على شظية مرآة طاولة، وهاهو يدسّها في شق في الأرض وينظر فيرى نفسه فيها وينفجر ضاحكاً:

ـ يا أولاد، أرى في المرآة وجه بنت، والله.

وقبّل في المرآة وجهه الذي ينظر إليه.

وضحكنا كثيراً.

أنا اليوم غني. عندي ورقة بطول ثلاثين سنتمتراً أكتبُ عليها رسالة. عرضُها عشرون سنتمترا وهي مصفرّة قليلاً، لكنّها تصلحُ لكتابة رسالة. كتبْتُ: ((السلام عليكِ يا أُمّي. لم يمض وقت طويل على رسالتي السابقة، لكنّ عنواننا تغيّر من جديد... أنا الآن في منطقة لينينغراد، على ضفّة نهر فولخوف، في الجيش الأحمر العامل هنا. وأنا بخير وأحسن حال...)) ثمّ كتبْتُ عنواني باللغة الروسية، وأضفْتُ: ((أُمّي العزيزة، لقد قُبِلْتُ في الحزب قبل يومين عضواً مُرشّحاً. لا تُفكري فيّ كثيراً، فأنا صحيح الجسم هنا، لا أمرض)).

* * *

نحن نُقاتل بحرارة، لكننا لا نرى ألماناً، فهم مُتسترون خلف الأشجار أو وراء التلال، أو في باطن الأرض. يقصفوننا بالمدافع بعيدة المدى أو بالرشاشات أو بالآليات، أو من السماء. أمّا القناصون الألمان ((كوكوش)) فقد محقونا، لأنّهم يختفون بين الأشجار كالشياطين ويصطادوننا. كثافة هذه الأشجار وبالٌ علينا. نحن لا نبقى يوماً في مكان

واحد، بل ننتقل مُبدلين مواقعنا باستمرار في حيّز ضيّق. وتبديل المواقع المستمر هذا يتطلب منّا حفر الأرض الذي أنهك قوانا. كنّا نتعب لدرجة تجعلُنا ننام أحياناً أينما وصلنا، ولو كان ذلك على الطين. ويتذمّر ساخنوف ويقول ساخطاً:

ــ ليتني أفقأ عيني هتلر اللعين، ماذا يريد منّا هنا في أرضنا؟

نعم، ماذا يريد؟ هل يعتقد أنّه سيجد هنا بيضاً من ذهب تبيضُهُ له دجاجاتنا؟ لقد جاء ليحفر قبره في هذه المُستنقعات، ونحن واثقون من ذلك.

* * *

نسينا أننا في أيار. ولم ننتبه إلى حلول الربيع، ولا إلى الزهور والخضرة. أُريد أن أنام على التراب الهش. غطيْتُ وجهي بكُمِّ دثاري وغططْتُ في نومٍ عميق... ولكن كيف أنام والألمان يهجمون؟ فأصرُّ على أسناني وأُشرعُ مدفعي للقتال.

* * *

عند الفجر اتخذْنا موقعاً جديداً لنا في أُخدود ضيّق يُحاذي الخط الحديدي، عند حدود الغابة. هنا استلقَيْتُ من جديد على ظهري داخل الأُخدود، ويا للمُعجزة! رأيْتُ السماء لأول مرّة زرقاء صافية صاحية. وربّما رأيْتُ في أعماقها البنفسجية البعيدة نجوماً تلمع. أين كانت هذه السماء حتّى الآن؟ طبعاً، ما كنت أراها، لأنّ رأسي دائماً مُنكس، أنظرُ إلى آثار السلاح والموت والدمار.

كانت الفُسحة المُقابلة تغلي بالانفجارات، فالألمان لا يهدؤون، ولا أراهم. أمّا طائراتهم فبدأتْ تطيرُ على انخفاض صفيق، تقصفنا بالقنابل وترشّنا بالرصاص، حتّى قُتل واحدٌ من مجموعتنا وجُرح آخر، وفقدَ الثالث عقله، وراح يركض هنا وهناك على غير هدى، يبحثُ عن مكان أكثر أمناً. إنّه كوليا. فأمسكْتُ قدمه وأوقعتُهُ على الأرض وحشرْتُهُ في حفرتي.

ــ غبي، كيف تركض هنا وهناك؟

فقال مُتعجباً:

ــ أنا، أنا أركض هنا وهناك.

وبدأنا نُصلي العدو ناراً حامية.

جُرِحِ آمر سريتنا، وخلق فينا بلبلة. دليل سريتنا شاب طيّب، لكنّه غير مُجرّب ولا يدري ماذا يفعل، واحتار في أمره، ومع ذلك لم نوقف إطلاق النار، وتابعنا القتال وراء غلالة كثيفة من الدُخان تخلّفتْ عن نيراننا.

* * *

وقت الظهيرة مشيْنا على طول الفسحة أمامنا محنيي الظهر وراء آمر مجموعتنا، وما كنّا نستطيع الزحف لثقل حمولتنا من قطع المدفع.

جُرِحَتْ قدم ساخنوف، فوقفْتُ لمعالجته، فقال:

ــ ضَمّد لي جرحي، يا ولدي.

أخرجْتُ من كيسي ضماداً لففْتُ به جرحه، فقال:

ــ إن لم أنزف أسلم. في كيسي ثلاث قطع من البقسماط وشفرة حلاقة، خُذها لك.

أجبْتُ:

ـ لا ضرورة لذلك، لا أُريد.

لكنّه ألحّ عليّ:

ــ خُذها فأنا ذاهبٌ إلى الخلف، وهناك أجد ما أُريد.

نفّذْتُ رغبته وأخذْتُ الخبز والشفرة. وطلب عنوان بيتي وقال:

ــ إذا شُفيَتْ قدمي أعود إلى مجموعتنا حتماً. أمّا إذا لم أشف، فسأبحثُ عن جماعتك وأهل بيتك.

وقطعْتُ ورقة من ((ألحان وجراح)) كتبْتُ عليها العنوان، وكانت الورقة تحتوي على قصيدة ((ابكوا مع همومي)). كان أبي يترنّم بها مُغنياً. مُصادفة عجيبة أن تحمل عنواني ((ابكوا مع همومي)).

تراجع ساخنوف زاحفاً، بينما تابعْتُ أنا تقدُمي.

ابكي مع همومي

يا جبال الفرح...

ويتساقطُ الرصاص من حولي، بجانبي. تحت أُذني، وأمامي، وأمشي في أثر جماعتي والشمس ساطعة، مع أنني لا أراهم.

وتتقطع أنفاسي تحت الحمل الثقيل، وأزيز الرصاص.

وصلْتُ إلى تل قليل الارتفاع، يحصد الرصاص المُنهمر رؤوس أزهار الزنبق فألتصقْ بالأرض، وأرى في كأس زهرة سوسن خنفساوين يتحابان على فراش أزرق، وتُدفىء أجنحتهما شمس الربيع الساطعة. يا لمعجزة الكون!

انتشيْتُ وطرْتُ فوق التل الأخضر. لكن تبعني رشق الرصاص الطويل. فارتميْتُ في حفرة في قاعها دم مُتجمّد.

* * *

قُبيل المساء وجدْتُ جماعتي مُتفرقين بين الأشجار. لم يبق من مجموع حضيرتنا غير ثمانية عشر جندياً ودليل. وعلى الرغم من تعبي الشديد، حفرْتُ برفشي حفرة قليلة العمق تكفي لنومي. إستلقيْتُ فيها لعلّي أنام قليلاً.

جاءنا ناظرنا بعد قليل بطعام في ترمْس وصاح مُتعجباً:

ــ يا إلهي! أهذا هو العدد الذي بقي من مجموعتكم؟

قدّمنا له قصعاتنا، فملأها بحساء كثير وقال:

ــ كلوا نصيب المقتولين أيضاً.

أكلْتُ بسرعة وارتميْتُ في الحفرة. وقبل أن تبرد حرارة الحساء على شفتي انفجرَتْ قذيفتان حيث يجلسُ رفاقي. قذيفتان فقط.

خرجْتُ من الحفرة، ومن هلعي ارتميْتُ فيها من جديد، إذ رأيْتُ جندياً ممدّداً بلا رأس، بجانبه كوليا مشقوق الصدر والذُباب يئزُ فوق الدم. متى تبلّغَتْ هذه الحشرات النبأ وتجمّعَتْ؟

من الأفراد الثمانية عشر لم يبق سليماً إلاّ أنا وسيروج وقنّاص، وأربعة جرحى، ومات الباقون. في يد أحدهم ملعقته. وفي فم الثاني

كسرة خبز لم يمضغها بعد. ولكي لا أغيب عن وعيي، عضضْتُ على لساني بشدّة وسمعْتُ الدليل يصيح:

ـ ساعد الجرحى.

البُخار يتصاعد من قصعة كوليا وإلى جانبها الخبز الذي قضم نصفه.. هيّا، لم يعد بحاجة إليه. ولكن هناك جندي يمسك بغصن خروب مكسور، انكبّ يشدُّ به على ذراعه ليوقف النزيف الغزير. قال:

ـ لا تنشغل بالأموات، اربط يدي.

فككْتُ رباط حذائي وربطْتُ بشدّة ما تبقّى من ذراعه. وانطلق لساني.

ـ إسعاااف....

وبرزَتْ من بين الأشجار فتاة تحملُ حقيبة إسعاف. نحيلة طويلة هادئة غير مُضطربة. يا إلهي! إنّها شورا. لكنّها لم تعرفني. فلقد مضَتْ أشهر لم نر فيها أحدنا الآخر. ولربّما عرفتني وتغاضَتْ. لا، لم تعرفني. آخ، كم تغيرْتُ أنا! طال شعر رأسي ولحيتي واتسخ بدني وتمزّقَتْ ثيابي، ولربّما غاض لوني من همّي. بعدما ألقتْ المرضة نظرة سريعة على الجرحى عادَتْ من حيثُ أتَتْ مُسرعة.

وانقضضْتُ على بندقية كوليا التي كانت قريبة منّي، وصوبْتُها عليها.

سوف أُطلق عليها النار وأقتُلُها. لماذا لم تعرفني؟ لكن الدليل أمسك بيدي قائلاً:

ـ دعها تذهب.

لكن لماذا لا أكون مُخطئاً؟ قد لا تكون هذه شورا. لكن لماذا ينقبضُ قلبي حين أُفكّر بأنّها ليست هي؟

وتجمّد دمُّ ساخنوف على يدي وعلى أوراقي التي أحتفظُ بها في جيب سترتي.

نحن الآن في الثاني عشر من أيار. أنا في الثامنة عشرة من العمر منذ أربعة أشهر وأربعة عشر يوماً. كتابتي دامية.

حلمي يتحقّق

في الليل، قابلنا، نحن الذين بقينا على قيد الحياة، آمر كتيبتنا مصادفةً. كان يتقدّم خمسين إلى ستين فرداً تقريباً. ورأينا تحت شجرة مُفوّضنا مقتولاً مُقطع الأوصال، يتمنطق بحزامي النجمي، فنظر آمر الكتيبة إلى حملي، أنبوبة المدفع الثقيل، وهزّ رأسه وقال:

ـ أتعجّبُ، كيف تمكنْتَ من إنقاذ هذا الحمل الثقيل.

ثمّ نظرَ إلى المُفوّض المقتول بحزنٍ آسفاً على ضياعه وأضاف:

ـ خُذ حزامك. فلم يعد يلزم المُفوّض بعد الآن.

لكنني لم أنظر إلى الحزام، بل قلت:

ـ على أيّ حال، لم يتمكن العدو من اقتحام مواقعنا.

ورمقني آمر الكتيبة بأمل كبير.

على مُرتفع من الغابة المُحترقة المُحطمة ثبّتنا مواقعنا. ومن ثلاث مجموعات مدفعية هاون تمكنّا من تجهيز مجموعة واحدة، عينوني آمراً عليها وأعطوني جنديين آخرين. صرنا مع سيروج أربعة، نكفي للمجموعة الواحدة.

لم يتيسر للعدو اختراق مواقعنا. لكن كيف صمدنا؟ لا أعلم. كنت أتصوّر القتال شيئاً آخر تماماً، أمّا هذا، فلسْتُ أفهمه، مع أنّه قد حصل.

* * *

المعارك التي نخوضها هي معارك مواقع.

الغذاء لا يكفينا كالسابق، وطبّقنا التقنين على قذائف المدفع.

ليلة بيضاء.

الألمان يهجمون على مواقعنا من جديد على نطاق واسع. ومن الجو ألقوا علينا قُصاصات ورقية كثيرة كانت كالثلج المندوف. جمعنا القُصاصات الورقية للف التبغ، إذ لم يبق عندنا ورق. فرحنا بها ولففْنا التبغ ودخنَّا. لكن دليلنا أخرج القُصاصات من جيب سيروج وسأل:

ــ لماذا تجمعونها؟

أجاب سيروج:

ــ ما عندنا ورق للف السجائر.

ومع ذلك فقد أمر الدليل بجمعها وحرقها مع أننا لم نقرأها.

* * *

أيار الشمال غريب. وليله كأنه النهار غائم جزئياً، أو يوم بلا شمس. في مثل هذه الأيام في البيت يغلبُني النُعاس فأنام. أمّا هنا فالنوم أمرٌ مُستحيل. إنّها الحرب. قتال على ضفّة فولخوف اليُسرى، قُرب قرية (مياسناوا ــ بور) سابقاً، المُندثرة الآن. لقد صارت في مستوى الأرض. ولا توجد غابة أيضاً، لأنّها دُمِرَتْ واحترقَتْ بنيران الألمان ونيران مدافعنا معاً، إضافةً إلى الرصاص النازل من الطائرات كالبَرَدْ. لكن حبّات هذا البَرَدْ كبيرة، لأنّ طائرات ((يونغرز)) و((ميسر شميدت)) تُلقيها بالأطنان، لو وقعَتْ واحدة منها على صخرة صمّاء لفتتتْها.

نحن نُقاتل داخل شقوق الأرض. أنا أُسدّد ويُزودُني معاوني بالقذائف فأدفعها في أُنبوبة المدفع وتنطلق. لم يبق من مجموعتنا إلّا أنا ومعاوني.

ــ أعطني ورقة لألفّ سيجارة.

لا يوجد في السرية كلّها ورقة للف السجائر. كنت قد ذكرْتُ أنّ معي كتابين حملتهما معي من البيت: ((ألحان وجراح)) و ((الشعراء الأرمن الغربيون)). ورق الأخير فخم، فيه أشعار مطبوعة على ربع الصحيفة. فقطعْتُ بالشفرة أُقصوصة غير مطبوعة، وأعطيتها لمعاوني ليلفّ بها سيجارة. الورقة التي قصصْتُها كانت تحمل أشعار واروجان من ملحمة ((الغانية)). وهي:

((عند حلول الربيع في مساء يوم، في قصرها المرمري...)). معاوني لا يفهم منها شيئاً طبعاً. أمّا قلبي فممتلئ بعاطفة غريبة. وبإحترام حلول الربيع، والأرض والسماء والموت الذي يتربّص بي في جهاتي الأربع، ثمّ ينقلب إلى شيء تافه. حفظْتُ ((ألحان وجراح)) غيباً من البداية إلى النهاية. لأنّ مؤلفها إيساهاكيان معي دائماً حتّى عندما ينطبق جفناي على النوم.

سمعْتُ واحداً يناديني. التفتُ، ورأيْتُ أمامي سمباد خجادوريان، وهو شاب طويل القامة أسمر اللون، جندي في الصف، قروي من قرية (كوريسي برون)، ويده مجروحة. ربطْتُ يده، وسألني:

ــ أين ((الإسعاف))؟ في أية جهة؟

دللته على مكان الإسعاف. كان جرحه خطيراً، لكنّه يقف على قدميه ثابتاً. أنا أذكر أباه القروي كومونتس سامون، وأذكر أخوات هذا الجريح الست. أعينهم الآن جميعاً على الطريق.

ــ سوف تتحسن يا سمباد.

ــ طبعاً، هل عندك ورقة للفّ سيجارة؟

قصصْتُ له من صفحة الأخ الصياد قُصاصة غير مطبوعة، لففْتُ له بها سيجارة وهو ينظر إلى الكتاب، ثمّ يقول:

ــ أرأيت كيف وأين ينفعنا هذا الكتاب؟

أشعلْتُ له السيجارة وأعطيتُهُ إياها، وذهب. وامتلأتْ روحي بالبكاء حين أذكر قصيدة ((رأيتِ، أُختاه، ولدك المغموم... رصاصة ساخنة في صدره يحتضنها بدلاً من الحبيبة)). ويهمس الشاعر المُعلّم في أُذني: ((كن رجلاً يا ولدي)). أنا أسترجل، وليسلم سمباد.

* * *

نحن الآن في الثامن من حزيران من العام الثاني والأربعين.

لم تضعف كتائب لوائنا، بل استشهد رجالها. معارك ضارية في الليل وفي النهار. وأيّ ليلٍ نذكره هنا؟ السماء بيضاء والليالي بيضاء

ولهيب نار. وفوق ذلك قنابل لا تُحصى وقذائف مُحرقة تُطلق اللهب فلا تترك لظلام الليل فرصة ليلفنا فيها مع النوم.

لا أثقل ولا أصعب من قلّة النوم. أتخيّل، وأتصوّر النوم العميق، النوم.

الهتلريون مستمرّون في شن غاراتهم علينا، وشبّاننا يستمرّون في الاستشهاد وهم بحسرة إلى النوم، بحسرة إلى البيت. ولا يُعدّ ما هم بحسرة إليه. ولا يستطيعون إخماد هذه الحسرة. هم يواجهون الهتلريين بشجاعة غريبة وتضحية نادرة. إنّهم بأرجل مبتورة وسواعد مكسورة يُدمّرون دبابات العدو بمُضاداتها. ويقصفون العدو بالمدافع والقنابل والرصاص، همّهم صد العدو وردّه.

في كلّ سرية مدفعية من كتيبتنا بقي خمسة عشر أو ستة عشر مُحارباً فقط. ولكن ها قد انقضَتْ أيام ثمانية ولم ينجح العدو في إحراز أي تقدّم باتجاه إستحكاماتنا. ولم يترك أيّ واحد من جماعتنا محله. الله! ما هذه الرجولة والشجاعة التي يتصف بها شباننا! ماذا لو حصلَتْ مُعجزة، وعاد هؤلاء الوطنيون الفدائيون أحياء؟!

في صحيفة أزفيستيا السوفياتية كُتِبَ عن جبهتنا القتالية ما يلي: ((هاجم العدو بقوّات مركّزة مواقعنا. لكن قوّاتنا القتالية ردّتهم بشجاعة)).

هذا وصف دقيق صادق وشامل. وتذكّرْتُ واحداً وثلاثين جندياً استشهدوا من مجموعتنا فقط.

إختلّتْ نقاط نيراننا وتهدّمَتْ. فبِنينا بسرعة نقاط نيران غيرها. أمّا مجموعتنا المدفعية فلم يبق منها غيراثنين، أنا وأفريدور دافيدوف. أنا أُسدّد على الهدف ودافيدوف يحملُ القذيفة من ذيلها ويدسّها بيده في فوهة أُنبوبة المدفع. وعندما أصيح ((نار)) يصيح هو أيضاً ((نار)) ويُفلت القذيفة حسب التعليمات ويسحب يديه، ويزأر المدفع، وتنطلق القذيفة، وأراها بعيني كيف تطير بشكل حلزوني، مثل صقر ضمّ جناحيه وشقّ مسيره بُرْهةً إلى أعلى، ثمّ انقضّ إلى أسفل وراء صيده.

ــ نار، ــ ويُكرّر دافيدوف في الوقت الذي أعود فيه إلى إصلاح موقع منظار الهدف الذي يكون قد تزحزح من هزّة إطلاق القذيفة.

* * *

في الساعة السابعة وخمس عشرة دقيقة فتح العدو علينا النار بغزارة. حمل دافيدوف القذيفة ليدسّها حسب عادته في أنبوبة المدفع، لكنّه غُمِر على طوله بالتراب. ووقعَتْ خوذتُهُ ورأيتُ دماً على صدره.

أُصيب دافيدوف في جبهته.

دمه غزير جدّاً. انطلق الدم كنافورة يُلطّخُ أنبوبة المدفع ويسيل نازلاً على سطحها الأخضر مُشكلاً بُحيرة تحت منصب المدفع. طار صوابي وبدأتُ وحدي أُسدّدُ الهدف وأُلقّمُ المدفع وأصيحُ والدمع في عيني:

ــ نار...

((دافيدوف)) انهض أنا وحدي. دافيدوف انهض، العدو يهجم، قُمْ)).

دافيدوف مات.

* * *

بعد يومين فقط حظيْتُ برفيق شاب، تمكن من الإفلات من طوق للعدو، والنجاة. كان عميق التأثُر متورّم العينين. قال:

ــ شهران ونحن مُطوقون، لم نأكل شيئاً منذ ثمانية أيام.

فقاسمتُهُ خبزي، ولكن هبط علينا طبيب الكتيبة وخطف الخبز من يده وقال:

ـ أمعاؤه الآن مُتضيّقة لا تحتمل الخبز، يجب أن نُعطيه شيئاً مُليّناً.

ووضع في فم المُحارب قطعة من الزبدة.

ــ كل الخبز كسرة بعد كسرة، كي تعيش.

مهما يكن، فإنّ معي الآن رفيقاً، والقتال ليس عنيفاً.

نحن الآن في الثامن من حزيران. أنا في الثامنة عشرة منذ خمسة أشهر وأحد عشر يوماً. كتابتي جريحة.

زواجٌ تحت سلاسل دبابة

ليلةٍ بيضاء أتعجَّبُ منها، إذ لم أر مثل ذلك من قبل. زد على ذلك أن العصافير المُختفية بين أوراق الأشجار تُزقزق هي الأُخرى في هذا الليل.

أعطونا ((انزى)) أي مؤونة طعام لثلاثة أيام، هي عبارة عن بقسماط وسكر وطعام مُكثّف في ورق كتيم وغير ذلك. أمّا معنى (انزى) الصحيح، فهو، المؤونة التي لا تُمس. أي لا تلمسها، واترُكها لأيام الشدّة.

اقتعد سيروج الأرض براحة وفتح (انزئته) أمامه، وقال لي:

ــ كُل، حتام تدخرُها. كُلها الآن، هيّا.

ــ لكن هذه ((أنزي)) لا يجوز...

ــ هي ((أنزي)) ولكن من يضمن لك البقاء بعد ربع ساعة؟ كُلْ، كُلْ.

* * *

وعدنا لنخوض معركة عنيفة.

خلف موقعي بقليل تتمركز بطارية كاتيوشا. هكذا نسمي مدافعنا المُضادّة للمُدرّعات، وفعالية هذا السلاح الرهيب كبيرة. حيثما يُرى يبعثُ الرعب.

بدأ الكاتيوشا يُطلق النار، وصار كلّ شيء في مواقع العدو رأساً على عقب، واحترق وارتفع هناك ستارٌ من نار.

نفدَتْ قذائفي، فاتجهْتُ إلى آمر مجموعتي الذي حفر لنفسه نفقاً في جدار الخندق ودخل فيه، فلا يرى منه غير رأسه. قلت له، إنّ قذائفي قد نفدَتْ.

فقال:

ـ أرسل رجلاً يُحضر لك، يا غبي، قذائف.

هذه ((الغبي)) آلمتني كثيراً. لماذا ((غبي))؟. أرسلْتُ جنديين لجلب القذائف. وعندما عدْتُ وجدْتُ خندقي مُمتلئاً بالماء. فأفرغتُهُ بطاسي واستلقيْتُ على التُراب الندي بانتظار وصول القذائف.

في الجبهة انفجارات لا تنتهي. وطائرات الألمان كثيرةٌ جدّاً. تبدو وهي تحوم في السماء الزرقاء مثل لوحة فنية زرقاء في الصباح، فيها مُجنحات. هي غربان متوحشة في مناقيرها الموت. أغمضْتُ عيني كي لا أرى الموت، ولم تنفتح عيناي إذ أضناني التعب، ورحْتُ أحلم بعرسي.

* * *

لقد حلمْتُ أنّهم يزوجونني من مارو. ها هم يعزفون ويُصفقون، ويطلبونني إلى الرقص. وتسحبني أُمّي وتخرجني من مكان العرس...

ـ لم يحن يومك بعد.

إستيقظْتُ على ترابٍ ينهال عليّ. إنّها قنبلة انفجرَتْ قريباً منّي. نفضْتُ عن وجهي التراب، ورجعْتُ إلى النوم من جديد.

وقعقعة أُخرى. وتنضغط أضلاعي بقوة. الضغط يأتيني من فوقي. وأفتح عيني فلا تريان إلاّ الظلام. أُحرّك يدي، يا للهول، فوقي معدن كالجسر. وأجد نفسي ميتاً في أقل من لمح البصر. أئنُ في داخلي وأهوي في الهاوية، وأموت بيسر وسهولة مُتناهية. احتضارٌ لطيف.

ويمتلئ أنفي بالدخان ويا للعجب! أرى النور، وأجلس مكاني، فأرى أمامي سيروج وجندياً آخر يسألاني:

ـ هل أنت حي؟

لست أدري إن كنت حياً أو ميتاً. فقدمي ثقيلة وأضلاعي توجعني. ويخرجني سيروج من الخندق وهو يقول:

ـ مرّتْ فوقك دبابة.

ورأيْتُ الدبابة معطّلة غير بعيد عنّي، بجانب الغابة. فأُقهقه كيلا أغيب عن الوعي. لقد دهسَتْ هذه الدبابة مجموعة مدفع الهاون المكونة من أربعة من الشبان. واحدٌ فقط تمكن من النجاة. أمّا أنا فقد حماني الله على ما يبدو، إذ كان خندقي عميقاً وضيّقاً. على حافتيه جذور غليظة مقطوعة من الأشجار، مرّ جنزير الدبابة فوقها وبقيْتُ أنا في الخندق سالماً، حمتني الجذور بإرادة الله، وهذا هو قدري، وما العرس إلاّ أضغاث أحلام.

على كلّ حال لقد سلمت.

شُلَّ تفكيري وارتخى مفصلي. أعطاني سيروج ماء من مطرتِهِ. أرى شورا بجانبي مع حقيبتها الطبية، ممتقعة. لمسَتْ قدمي ومسحَتْ وجهي وجسَّتْ نبضي، وأنا أشمّ منها رائحة الأدوية والتراب الرطب. وأمسكتُ بيدها فقالت:

ــ يبدو أنّ عظم قدمك مكسور.

يد شورا باردة طرية. سيروج يبحثُ عن خوذتي ونظارتي. لقد كانت على رأسي وها هي الآن مفقودة. ملأتْ شورا ورقة طبية ووضعتها في جيبي وقالت:

ــ لقد وقعت تحت دبابة.

وبسبب قدمي المتورمة حملتني شورا، فارتبكْتُ من الخجل، لكن كان الحمل خفيفاً، لا يزيد وزني على الخمسين كيلو غراماً. فأنا والحالة هذه غير ثقيل على ظهر شورا. تحت أنفي تفوح رائحة صدر شورا المألوفة وعلى شفتي يتأرجح هدهد لطيف هو شعرها. وأغمضْتُ عيني سعيداً مُستمتعاً.

في مُستشفى الميدان

أوصلتني شورا إلى المركز الطبي ووسدتني الأرض.

ـ تحمّل.

وانحنَتْ عليّ وطبعَتْ بشفتيها على جبيني قُبلة وهي تقول:

ـ اصمُدْ، هل تسمع؟ لا تمُتْ.

ووضعَتْ في جيبي حفنة من تبغ وهي تُكرّر:

ـ إياك أن تموت.

كان صوتها يفيض مرارةً وارتعاشاً. واستيقَظْتُ وسط الضباب فرأيتُها.

ـ أين كنت حتّى الآن يا شورا؟

فصاحَتْ:

ـ في الجحيم، ومازلت. أُخرج مائة جريح يومياً من ميدان القتال. الدم يختفي.

قلت:

ـ شورا، رأيتك مرّة قبل هذه المرّة، منذ أسبوعين تقريباً.

ـ لا أذكر. هيا إنهض، لا تيأس.

وسقتني ماء براحة يدها. وانحنَتْ عليّ، لكنّها ارتدَّتْ وذهبت... يوجد كثير من الجنود الجرحى هنا في المركز الطبي بين الشجيرات، عددهم يُناهز الثلاثة آلاف جريح، مُرتمون فوق بعضهم بعضاً.

أمّا الأطباء المُنهكون العاملون بلا نوم بصداري دامية فلا يتوصلونٍ إلى إسعاف كلّ هذا العدد من الجرحى الشباب الذين ينزفون دماً. كم واحداً من هؤلاء ضمّدَتْ شورا جراحهم! وكم واحداً أخرجَتْ من ميدان

القتال! من يعلم؟ ها قد عادَتْ لمساعدة جرحى جدُد وإنقاذهم. شوراي ملاك مُنقذ. شوراي، ألكساندرا ميخائيلوفا إيفانوفا.

ها هي الطائرات الألمانية تحوم فوقنا نحن الجرحى، وتُلقي علينا قنابلها، فيهرب من يقدر على المشي ويبقى المُصابون في أرجلهم مثلي تحت رحمة الله، مُنبطحين على وجوههم. وسمعْتُ واحداً بجانبي يصيح بأعداء الإنسانية:

ـ اقتلوني، كي أرتاح.

جحيم. الوحش الكافر يعود إلى قتل المقتولين دون رادع أو وازع.

قصفونا خمس مرّات قبل الظهر، فتناثرَتْ أشلاء أجساد آدمية، ووقع رأس أمام أنفي مازال يرفُّ بعينيه. ومرّ بي طبيب فاسترحمْتُهُ:

ـ ساعدني حُبّاً بالله...

وحملني الطبيب ووضعني في العربة.

* * *

العربة شيء من مُخلّفات بطرس الأول، تدرج على الأرض بشكل يجعلك تحسب أنّ عجلاتها مربّعة الشكل. وترتجّ رجلي الجريحة من شدّة الهز، فأشدُّ على أسناني. ولم يكتف القتلة الألمان بالقنابل، بل بدؤوا بحصدنا برشاشاتهم، فقتل حوذينا. ولم أجد بداً من فك حزامي وضرب الخيل أستحثها نحو الغابة القريبة.

وينهمر وابل آخر من الرصاص.

عند المساء، وصلنا إلى مشفى الكتيبة. وأنا وانٍ تماماً، أُحرّك يدي فلا أستطيع رفعها. أمّا رجلاي فما هما منّي.

* * *

تعجّب أطباء مشفى الكتيبة وأخوات الرحمة من شهادة مُذكرتي الطبية التي كتبت فيها شورا ((وقع تحت دبابة)). وسألوني:

ـ كيف بقيْتَ حيّاً؟

بعث فيّ هذا الاستغراب خوفاً شديداً.

وفارقني النوم من الخوف أكثر منه من الألم. كلّما أذكر وجودي تحت الدبابة يقف شعري.

وضعوني في مغارة ضيّقة رطبة في غابة رطبة. لا مهرب من الهوام هنا فلقد تكاثر علينا كالغيم. بين استلامي الطعام من المطبخ وشروعي في الأكل يكون قد تراكم فوقه من الهوام بسمك أصبع.

ضمّدوا رجلي، وقال البروفيسور إنّ عضلات رجلي مضغوطة على العظم. وأفرحني هذا التقرير إذ لم تنكسر عظامي، ولم أفقد رجلي.

وجدْتُ خشبة متينة جعلتُها عصاً أتوكأ عليها، ورحْتُ أمشي بين المغاور والأشجار مُتكئاً عليها.

ولملء الفراغ رحْتُ ألعب الشطرنج، أو أقرأ الصحف من الألف إلى الياء.

أيام مُحزنة مملّة. وحشتني الحياة في الغابة.

نحن الآن في السادس عشر من حزيران. أنا في الثامنة عشرة من العمر منذُ خمسة أشهر وتسعة عشر يوماً. كتابتي جريحة.

الغدرُ بالوطن

كنْتُ ألعبُ الشطرنج مع ضابط تحت شجرة حين شعرْتُ بنظرات تتضرّع إليّ. رفعْتُ رأسي وعرفْتُ حاجب[*] قائد حضيرتنا. كان كثيف الشعر مُلتحياً، رابطاً يده اليُسرى إلى صدره. ومع ذلك فقد عرفته من فمه، لأنّه كان من الكبر بحيثُ تظنُّ أنّهم شدّوه حتّى شقّوه. وأوقفْتُ لعبي وقُمْتُ.

ــ مرحباً دينيشجيك، كيف حالك؟

فأنّ وتنهد. لم يكن همّه في جرحه، بل في ما هو أبلغ. مشيْتُ معه تحت الأشجار. فأجاب على أسئلتي بأجوبة غامضة مُقتضبة وكأنّه مسلوب العقل. فسألتُهُ:

ــ هل جرحك خطير دينيشجيك؟

ــ ليتَهُ كان كذلك. ليس هذا ما أشكو منه.

تعجّبْتُ. إذا كان جرحه غير خطير، فما ما الذي جعله إذن كالميّت؟ ربّتُّ على ظهره وقلت:

ــ ماذا حدث؟

ــ أوف، فظيع، شيءٌ فظيع. رهيب. لقد أخذوا من هنا شابّاً قبل قليل وأعدموه.

فجفّ ريقي، وسألتُهُ:

ــ لماذا؟

ــ جرح نفسه، فعالجوه وشُفي. ثمّ...

قلتُ غاضباً:

(*). الحاجب هو من يقوم على خدمة الرئيس.

ـ أعدموه، فأحسنوا بذلك عملاً. ماذا تُريدهم أن يفعلوا بمن يجرح نفسه ليتخلّص من الخدمة؟ هذا يعني الغدرُ بالوطن، فهل تأسف عليه بعد؟

ـ آه، لقد فعلْتُ الشيء نفسه.

وأمسك دينيشجيك بيده السليمة حزامي متوسلاً:

ـ أنا أأتمنك على سرّي يا أخي. أنت شابٌ ذو ضمير. أتوسّل إليك أنقذني. يشهد الله أنني نادم، ولن أُكررها. أنقذني فقط.

وبكى بصمت وهو يرتعش. لقد تولاه الندم، وواضحٌ أنّ ندمه ليس نابعاً من الخوف من الإعدام بقدر ما هو يقظة ضمير مُفاجئة. وابتلع بكاءه وقال:

ـ أنقذني يا أخي. ألا أستحقُّ منك ذلك؟ أنا كلب، أنا حقير إذ فعلْتُ هذه الفعلة الشنعاء. وها أنا أُريد أن أُكفّر عن ذنبي. آه هل تسمع، إنّهم يُنادونني، يطلبونني لتغيير الضماد، أنقذني بربك، أنقذني.

صدّقتُهُ ونصحْتُ له بعدم الذهاب إلى تغيير الضماد. فذراعه متورمة على طولها كالقرع. فإن ذهب إلى التضميد فسوف يكشف الأطباء ما فعل، ويُعدم.

ـ آه منك، آه مما فعلْتَ يا دينيشجيك.

ـ لو كنت أدري أنّ الأطباء يكتشفون من يُطلق النار على نفسه لما فعلت. آه يا عيسى المسيح، أنقذني فلقد تبْتُ ولن أعيدها أبداً، ولسوف أقوم بواجبي على أحسن وجه.

قرّرْتُ أن أُساعد دينيشجيك.

تغلغلْتُ معه في الغابة بحجّة البحث عن فطر. ووجدْتُ جدول ماء. وبعدما تأكدْتُ من أن أحداً لا يرانا فككْتُ رباطه، فرأيْتُ المكان الذي صوّب عليه فوهة بندقيته وأطلق عليه النار، قد تورّم واحترق وإسوّد.

ضغطت بكلّ قوتي على الجرح المُتقيّح. فخرج مع القيح عدد كبير من حُبيبات البارود. أخرجْتُ الشفرة التي أعطانيها ساخنوف من جيبي وقلت:

ـ لا تصرخ. تحمّل.

قطعْتُ بالشفرة الجلد المُحترق، ثمّ بدأتُ أستنزف الجرح حتّى يجفّ تورمه. لم يصرخ دينيشجيك، بل كان يكزّ على أسنانه. وأخيرا غطسْتُ يده في الماء وغسلتُها له، واستغرقَتْ هذه العملية زُهاء ساعة من الزمن، وانقطع الصديد، وبدأ الدم النقي يسيل، فلففتُ جرحه بقطن طبّي ولفافات طبيّة. وعدنا إلى جمع الفطر.

* * *

في اليوم التالي أيضاً استنزفْتُ جرح دينيشجيك، وسمحْتُ له بعد ذلك بالذهاب إلى الإسعاف.

دخل دينيشجيك إلى مركز الإسعاف. وجلسْتُ على مقعد في الخارج أنتظر ما سيجرّه إليه حظه، وأنا أتساءل عمّا إذا كانوا سيكتشفون اللعبة أم لا.

ولم يكتشفوها. خرج دينيشجيك من المغارة، وقد ضُمدَتْ يده بعناية، وعُلّقَتْ على صدره برباط. كانت الفرحة بادية على وجهه الشاحب. فنزل الهمّ عن كاهلي، وتنفسْتُ الصُعداء.

قال دينيشجيك:

ـ أنت إلهي. أُقسم أنني حالما يُشفى جرحي سوف أذهب إلى الجبهة وأُقاتل بإخلاص. أُقسم بحقّ عيسى المسيح.

نحن الآن في العشرين من حزيران. أنا في الثامنة عشرة من العمر منذ خمسة أشهر واثنين وعشرين يوماً. كتابتي آثمة.

أخبارٌ سوداء

منذُ أول يوم لدخولي إلى مشفى الميدان كتبتُ إلى رفاقي في المجموعة. أرجوهم أن يبعثوا إليّ بالرسائل التي تردني إلى عنواني هنا.

تحت سنديانة كثيفة الظل وضعوا طاولة من خشب متين. ذلك هو مركز بريدنا. يضعون فوقها ما يرد من بريد، ويأتي أحد الجنود من نزلاء المشفى، يوزعها بأن يُنادي بصوت مُرتفع بالاسم الذي يقرؤه على المُغلّف.

يبدو أنّ الرسائل هي أحبُّ شيءٍ للجندي في الجبهة. أمّا نحن نُزلاء المشفى، فإنّ هذه الطاولة هي أحبُّ شيءٍ إلينا.

عند الظهر بدأْتُ أعرج وأقتربُ من مركز البريد. كانَ ثمّة جندي جريح طويل القامة يُنادي بأسماء أصحاب الرسائل. وأخيراً، وبصعوبة، وبتشويه لا رأفة فيه نادى باسمي.

أخذْتُ الرسالة وانتظرْتُ.

فسأل الجندي:

ــ ما بالك، لماذا لا تنصرف؟

ــ أنتظر. فقد توجد رسالة أُخرى باسمي.

ــ طمّاع. هنا رجال لا تصلهم رسائل أبداً.

أمرٌ صعب ولا شك. فكثير من الجنود، لا يعرفون إن كان قد بقي أحدٌ من أهلهم على قيد الحياة. ومنهم من يعرفون أنّهم فقدوا كلّ ذويهم ولم يبق لهم من يذكرهم في قريتهم المحروقة التي صارت رماداً. لكنّهم اعتادوا على الوقوف هنا ظهر كلّ يوم بانتظار البريد بأملٍ بعيد وانتظارٍ بلا أمل... ثمّ يُصفقون يداً بيد ويروحون.

ــ لم يُبعث أحد من القبر حيّاً.

لكنّهم يعودون في اليوم التالي إلى مركز البريد.

أخذْتُ رسالتي وانزويْتُ تحت شجرة للجلوس على المقعد مُكتفياً بالخبر الآتي من البيت. كتبَتْ هذه الرسالة أُختي الطالبة في الثانوية تقول: ((أخي العزيز، أُمّي مريضة جدّاً. آه، وصلتنا ورقة سوداء...)).

اختلطَتْ الدنيا في عيني، ومن دون إرادة سحلْتُ عن المقعد وركعْتُ على الأرض، فأسرعَتْ نحوي ممرضة تسألني:

ـ هل تشعر بتعب؟ تعال معي أرقدك. لماذا تركت السرير؟ مازلت بحاجة إلى الراحة.

ولمّا رأتْ المُغلّف الذي يهتزُّ في يدي أدركَتْ سبب حُزني وتعبي وتمتمَتْ:

ـ مأساة.

ـ قُتل أخي في الجبهة.

ـ يكتبون من البيت؟

ـ نعم.

وساعدتني على الجلوس على المقعد.

وتأوهَت البنت وقالت:

ـ أوه، لماذا يفعلون ذلك بلا حذر؟ هل يجوز أن يُكتب إلى جندي في جبهة القتال نبأ موت أخيه؟ قد لا يكون الخبر صحيحاً، هه؟ ألا تحدث أخطاء أحياناً، وترى من اُعتبرَ ميّتاً حيّاً يُرزق؟

بنت طيّبة أنيسة. أُخت فدائية رحيمة مثل أُمّ الرب. وما أدراك أنني لم أقل مثل هذا الكلام لجندي مثلي قبل شهر، كتبوا له رسالة من البيت أنّ أخاه ميشا قد قُتل في موقعه (دولاي)؟ قرأ الولد الرسالة وراح وهو في الموقع يبكي وينوح. أسرعْتُ نحوه إذ ظننْتُهُ جريحاً وسألْتُهُ:

ـ ما بك؟ هل أنت جريح؟

ـ لا، لكن انظر إلى الخبر الذي جاءني من البيت.

واستمرّ في بكائه المرير. وقرأْتُ رسالته. نعم، كتبوا له أنّ ميخائيل قد قُتل، واستلموا ورقة نعيه.

قلت:

ــ قد لا يكون الخبر صحيحاً.

وازداد الجندي نحيباً.

ــ أواه، خرب بيتنا. كان ميشا عالماً، ونال الثانوية وله زوجة وولد. أواه، لقد كان أملنا.

ولم أتوصل إلى تهدئته بحال من الأحوال. بقي مُضطرباً طوال اليوم لا يعي ما يفعل، يتخبّط بحزنه هنا وهناك، وقتِلَ في الليلة نفسها، ربّما قبل أن يتمالك نفسه.

وها هي الآن الفتاة ذات الأنف الصغير والوجه الطفولي تحاول أن تُعزيني بكلمات قليلة ضرورية تعلمتها، لكن بحرارة وأسف، بحيث بتُّ أستحي من رفع صوتي.

في الليل كتبْتُ رسالة إلى أهلي أُعزيهم وأقول لهم إنّ الخبر قد لا يكون صحيحاً، أو إنّ فيه التباساً، إذ كثيراً ما حصلَتْ أخطاء مماثلة في الجبهة. لم أكتب ذلك على سبيل التعزية بل لبعث الأمل في نفوسهم، وأفعل ذلك عن قناعة كاملة. صوتٌ في داخلي يُحدثني ويُنبهني مُدوياً: ((ليس ذلك صحيحاً، أخوك موجود، موجود)).

وأتصوّر أمام عيني ذلك الجندي الذي طاش صوابه، وراح ضحية حزنِه الشديد الذي أفقده صوابه. تُرى، هل ألاقي المصير نفسه؟ لا، أبداً، فصوت ضميري يقول شيئاً آخر.

* * *

أصبحنا، ودخل مدير المشفى إلى مغارتنا وقال:

ــ يا رجال، سأنقلُ إليكم خبراً سيئاً. الألمان يقتربون من ستالينغراد، وتدور الآن حرب ضروس في بقاع حوض الفولغا، درعنا.

لم يُضف على قوله شيئاً آخر وذهب. ونزلنا نحن الجرحى من أسرّتنا وتجمعنا حول الطاولة الثابتة التي غُرِسَتْ قوائمها في الأرض،

ونُشرَتْ عليها خريطة مُهترئة. وتوقّفَتْ أنظارنا كلّنا فوق قوس عصب الفولغا الأزرق، حيث توجد ستالينغراد.

لم يطاوع أحداً قلبه في رسم أسهم سود ضمن دائرتها الكبيرة. إلى أين وصل هتلر؟ هل يريد اختراق الفولغا بعرضه؟

وران الصمت على الجميع، وحبسوا أنفاسهم. لكن نقيباً جريحاً في يده قطع الصمت وفكّ الرباط عن صدره وتكلّم بحزمٍ وسط صمت الكهوف:

ـ أظنّ أنّ يدي قد شُفيتْ.

وهزّ يده.

ـ إنّها سليمة ولا شك. وأنا ذاهبٌ إلى قطعتي. فلقد تعفنّا هنا.

ذهب، ولكنني لاحظْتُ أنّ الدم يقطر من يده.

وقال مقدّم جريح:

ـ هناك، على ضفاف الفولغا، يتحطّم العمود الفقري الألماني، فلا يبقى لنا مكان نموت فيه.

وارتفع صوتُ جريحٍ ممدّد على سريره مُغنيّاً:

فولغا فولغا يا أُمّي الحنون

فولغا يا نهر روسيا.

نحن الآن في الثامن عشر من تموز. بعد خمسة أشهر وعشرة أيام أبلغُ التاسعة عشرة من العمر. كتابتي مُتورّمة.

الهمُّ القديم

لم تُفك أربطة رجلي بعد، لكنني صرْتُ أمشي بسهولة وأتنزّه أحياناً تحت الأشجار. فتعرّفتُ على مُلازم في الخدمات العامة، ليس جريحاً، وله كوخ صغير يبعد قليلاً عن مغائرنا، مزوّد بهاتف. في أحد الأيام أعطاني رغيفاً كاملاً من الخبز قائلاً:

ــ ذهب جندياي في مهمة، وهذه حصتهما، خُذها أرجوك.

أخذْتُ الخبز وجئْتُ به إلى مغارتنا وقطّعْتُهُ قطعاً صغيرة ووزّعتُها على جيراني. وحملْتُ قطعة إلى شالونتس يريم ابن بلدتي. دخلنا الجيش معاً، وخدمنا معاً في مُعسكر التدريب. ومن جيليابنسك جاء هو أيضاً إلى كوركا لسوقه إلى الجبهة. ولقد أُصيب في ذراعه. وهو لا يعرف الشبع أبداً.

قال بريم وهو يتألم ويتعذّب:

ــ كنْتُ أريد أن أُلقي بنفسي في النهر، فأنا، آه، لا أشبعُ أبداً، ما هذه البلية التي علقَتْ بي.

بريم، طويلُ القامة، أحمرُ الوجه والحاجبين. يتذكّر أيام شبعه بحسرة وألم حين كان في البيت. كان عنده وأبوه في بلدتنا حمارٌ مربوط على عربة صغيرة ينقلان بها المواد الغذائية من المخازن إلى الحوانيت.

قال:

ــ كنْتُ في الصباح أفتح علبة مربّى وأجلس آكلها مع الزبدة... وآكل.

ويُضيفُ والنار تقدح من عينيه:

ــ أظنُّ أنني لن أشبع أبداً.

دعاني صديقي المُلازم يوماً إلى كوخه. كان يقف في كوخه الضيّق المُرتَّبْ جنديٍ تنمٍ عيناه عن خوف ورعب. أعلمني الملازم أنّه جورجيٍ، ظهر وحيداً قريباً من المشفى، ولا يعرف الروسية. ورجاني أن أتكلّم معه وأعرف ما أمره. وكنْتُ قد تعلّمْتُ قليلاً من لغتهم من رفاقي الجورجيين، فتسلّحْتُ بما أعرفه وسألْتُهُ عمّا جاء به إلى هنا، وعن القطعة التي ينتمي إليها. وتبين لي أنّه فقد أثر قطعته الذاهبة إلى الجبهة ولا يعرف ماذا يفعل. وقال:

ــ أنا تائهٌ منذُ ثلاثة أيام بلا طعام ولا نوم، أرجوكم ساعدوني.

شرحْتُ كلّ ذلك للمُلازم. ولمّا كان الجندي لا يعرف من أيّة قطعة هو، ولا يعرف غير اسم آمر حضيرته، لذا يتعذّر إرساله إلى قطعتِهِ. وقال المُلازم:

ــ ربّما كان هارباً، أو...

فاعترضْتُ:

ــ لا أظنُّ. هذا الرجل ضال تائه وحسب. لأنني أرى البراءة في عينيه.

ضحك المُلازم وقال:

ــ إذا لم تكن صلة الدم تُحتّم عليك الواجب، فأنت مُحق.

وأرسل المُلازم الجندي إلى قطعة قريبة. وهي حضيرة وضِعَتْ مدّة أسبوع لخدمة الجرحيٍ، وقال:

ــ فليسترح أسبوعاً هناك، ثمّ نُرسله إلى قطعة أُخرى.

* * *

عند الصباح جاءني المُلازم ضابط الخدمات العامّة قائلاً:

ــ سأُبلغُك خبراً مُحزناً. سقطَتْ الليلة (سيباستوبل).

إنّها فعلاً ضربة قاسية لنا جميعاً. ففي تشرين الأول من العام الماضي تمكن الميناء البحري (سيباستوبل) من الصمود بشجاعة لغارات الألمان

وهجماتهم. والآن نحن في الخامس والعشرين من تموز. أي إنّ هذه المدينة ظلّتْ تُعاني الويلات ثمانية شهور. ثمانية أشهرٍ وهي صامدة بقوّة ومناعة أسطورية في وجه العدو. هل عرف التاريخ شبيهاً لها؟ لا، لم يعرف.

سقطَتْ (سيباستوبل). والألمان يهجمون إلى القفقاس على جبهة واسعة.

* * *

أسراب الذُباب والبعوض تحوم فوقنا نحن الجرحى. ولا وسيلة للخلاص منها. أعطاني صديقي المُلازم قطعة قماش مشمّع وقال:

ـ اصنع منه كيساً والبسهُ عليٍ رأسك، فيحميك من البعوض ـ وسألني ـ هل تبعد لينيناكان كثيراً عن الحدود التركية؟

أجبْتُ بعد فترة تفكير:

ـ لا، إنّها على الحدود مُباشرةً. ولكن لماذا تسأل؟

تركيا تحشد جيوشها على حدود أرمينية.

وسألتُهُ وقد جفّ ريقي ولا أكاد أبتلعُهُ:

ـ وهل هجمَتْ؟

ـ هم يستعدّون للهجوم. يتقدّم الألمان الآن على جبهة واسعة نحو شمال القفقاس. وهم يُحرزون انتصارات ويقتربون من كروز (جورجيا).

ويتضاعفُ خوفي:

ـ ثمّ؟

ـ تنتظر تركيا سقوط باكو، وهذا ما قالوه لهتلر، حالما يدخل الألمان إلى باكو تهجم تركيا علينا.

وانعقد لساني. إذن، عدوّنا القديم بدأ يشحذُ أسنانه من جديد.

في العام 1915 دفنَتْ تركيا أرمينية الغربية ووضعَتْ حجراً على قبرها، والآنٍ تُحضّر حجراً آخر لدفن أرمينية الشرقية. ما هذا القدر؟ كامل أوروبا تقريباً تحت السيطرة الألمانية. على خريطتي آلاف الدوائر السوداء من جبال القرباط حتّى المجرى الأوسط للفولغا. متى تُمحى هذه الدوائر؟

قلْتُ لصديقي المُلازم:

ــ أيّها الرفيق المُلازم، لقد قدّمْتَ لي خدمات كثيرة، ألا تزيدها واحدة، فتجِدُ وسيلة لي لتُخرجني من المشفى الآن وتُرسلني فوراً إلى الجنوب، إلى أرمينية، لأُكمِلَ خدمتي هناك؟

أجاب المُلازم:

ــ أظنُّ أنّ هذا غير ممكن، فهتلر لم يصل إلى جورجيا بعد ولن يصل. لقد غاصَتْ أقدامه في أرض ستالينغراد. أمّا باكو، فلا تسقط أبداً، لأنّ قدر القفقاس منوط بستالينغراد.

بعث كلامه هذا فيّ أملاً كبيراً.

ونسي بريم شالونتس جوعه الأبدي وقال:

ــ إذا هجم التُرك علينا، تضيع أرمينية تحت الأقدام. والتُرك إذا مكثوا شهراً واحداً على أرضنا، أشاعوا الموت والدمار. ما العمل؟

فقلْتُ رأيي:

ــ نذهب إلى الجبهة. جراحنا بسيطة لا تهم. يجب أن نُقاتل.

فهزّ بريم رأسه مؤيداً. ودخلنا غرفة رئيس الأطباء.

ــ نُريد الالتحاق بقطعتنا.

ولمّا كشف عن جرحي، عبس وقال:

ــ لا يستهين بجروحكما إلاّ عديم رحمة، ولسْتُ أنا هو. اسمعا، لا يدر بخلدكما أنّها نهاية العالم. نحن نسعى إلى عرض قوتنا على هتلر. ستُشفيان تماماً عندي، ثمّ ترحلان إلى الجبهة. اذهبا وأكملا العلاج.

نحن الآن في العاشر من آب. بعد أربعة أشهر وثمانية عشر يوماً أبلغُ التاسعة عشرة من العمر. كتابتي مُضطربة.

الأخُ الصيّاد

شُفيتْ رجلي تماماً. لكن تحالف مع البعوض وقلّة الغذاء شرٌّ ثالث طوّق عُنقي. لقد أُصبْتُ بالحكّة، كما أُصيب بها الجميع، ضُبّاطاً وجنوداً، ونحن نبحثُ عن وسيلة للخلاص منها دون جدوى. لكنني فكّرْتُ بطريقتنا القروية، وذلك بأن أنشر ثيابي على التنور.

حفرْتُ حُفرة عميقة عريضة، وأشعلْتُ فيها ناراً حامية ونشرْتُ ثيابي أمامها.

تخلّص الكثيرون من طُفيليات الحكّة بفضل تنوري.

* * *

استدعوني إلى القيادة وسألوني عن ثقافتي وشْغلي. وبعدما سمعوني قالوا:

ــ سنرسلك إلى دورة ضُبّاط للتدريب.

ــ أين؟

ــ قريباً منّا، هنا في هذه الغابة.

وافقْتُ. مُدّة الدورة شهران. ففي أيلول تنتهي الدورة وأصيرُ مُلازماً ثانياً، لا بأس في ذلك.

* * *

التحقْتُ بالدورة.

لا يوجد هنا قتال. لكننا نقوم بتدريبات قتالية وهمية طيلة ثماني ساعات في اليوم. إنّها مهمة سهلة بالنسبة لي، فأنا هدّاف مدفعي

وأعرفُ هذا السلاح بكلّ أجزائه. أمّا السيء فهو أنّه كان يوجد بيننا شُبّان يرون السلاح لأول مرّة.

* * *

في صباح أحد الأيام، ونحن في طريقنا إلى ساحة التدريب سمعْتُ أُغنية في الغابة:

أخي الصياد، تجيءُ من الجبل

تبحثُ عن ظبي الجبل...

امتلأ قلبي نشوةً بنغمها، وملْتُ ناحية الصوت، فرأيْتُ ثلاثة أو أربعة جنود يحفرون حُفرة. بينهم واحد أسمر بشاربين رفيعين ولحية قصيرة مُدببة يتميز بها سكان جبالنا. يا إلهي، هذا سيروجنا. رمى الرفش وهجم يُعانقني:

ــ ها قد التقينا، ويا له من لقاء! هل أنت في الدورة؟

أجبْتُ:

ــ أنا في الدورة، في المدفعية. وأنت؟

ــ أنا مدفعي رشاش.

ــ صوتك في الغناء جميلٌ يا سيروج.

ــ الغناء خير شيءٍ في الدنيا. لو تعلم كم أرمنياً وجدْتُ بهذه الأُغنية. كلّما غنيْتُ يجيئُني أرمني على الصوت.

أعطاني سيجارة، فسألتُهُ:

ــ أنت تُدخّن إذن.

وماذا تُريدني أن أفعل؟

* * *

ألتقي سيروج أحياناً، وكان هذا يُسعدني.

توقفنا عن التدريب قبل انقضاء شهر، ومع ذلك منحونا لقب مُلازم ثانٍ وأرسلونا إلى القطعات وقالوا:

ـ نحن بحاجةٍ كبيرةٍ إلى ضُبّاط هُناك.

ذهبنا جماعةً إلى الضفّة اليُمنى لنهر فولخوف، إلى مواقعِ لوائنا. أنا في زي ضابط، وعلى كلّ ثنية من ثنيتي ياقتي مربّع. ارتبكْتُ عندما حيّاني رقيب عسكري. واتخذْتُ جانب الحذر والمسؤولية وأنا في هندام الضابط، وصارَتْ حياتي ذات شأنٍ جديد.

* * *

أُرسل سيروج إلى حضيرة مدفع رشاش خاصة. كان لواؤنا قد انتقل إلى مكان آخر لا أعرف أين، لذا أرسلوني إلى قطعة عسكرية أُخرى كآمر مجموعة مدفعية.

كلُّ الوجوه هنا كانت جديدة عليّ عدا ساخنوف. لقد شُفي وأُخرِجَ من المُستشفى قبل أُسبوع وعينوه في هذه الكتيبة.

بدأ ساخنوف يُخاطبني بصيغة الجميع، فسألتُهُ مُتعجّباً.

ـ ما هو الجديد في الأمر يا ساخنوف؟

لكنّه تعجّب هو الآخر وقال:

ـ كيف لا أحترمك؟ ألسْتَ ضابطاً؟ لا يجوز لي أن أنسى هذا.

فضحكْتُ مسروراً. فأنا لن أفقد إلى الأبد وفاء ساخنوف.

ليكن ما يكون.

* * *

آمر سريتنا المدفعية رجل في الخمسين من العمر مهيب الطلعة. تحدّث إليّ طويلاً، ويبدو حسب الظاهر أنّه راض عنّي.

تتمركز كتيبتنا في الضفّة اليُمنى من نهر فولخّوف، قريباً من حصن (سيليشجين) فوق تل مرتفع. تحتنا النهر. ويُقابلنا الألمان على مرتفع

أيضاً. هناك يوجد دير (زفانكان)، الذي يقولون عنه إنّه نهر من عصر (الكساندر نيفسكي). ولكنّه تهدم وجعل العدو جدرانه الأساسية السميكة مواقع لإطلاق النار.

يقتصر قتالنا الآن على المعارك الدفاعية الموضعية.

تعرَّفْتُ على جنودي وعلى مواقع مجموعتي. وأرسلني آمر السرية لأنوب عن الضابط المراقب في مركز الرصد وقال:

ـ أُكلفك بهذا العمل الإضافي بإسم الصداقة.

ـ حسنٌ، أنا أذهب بكلّ سرور إلى المرصد.

ضيّفني عرقاً وأضاف:

ـ سأتوسّط لكي يُعينوك مكاني.

واستنتجْتُ أنّه يخفي ألماً. ما أكثر آلام كبار السن. أخبرني أنّهم كسروا رتبتُهُ قبل ثلاثة أشهر. كان قائد كتيبة...

قال:

ـ لا تسلني ما السبب في كسر رتبتي. ثلاثون سنة من الخدمة راحَتْ هباء. وعدوني بترقية نظراً لسنّي. وهذه هي المُكافأة.

لم أجد كلاماً مُرضياً أُعزيه به. لكنني شعرْتُ بأنّه عوقب من دون ذنب. وذكّرني هذا الرجل الروسي الطيّب بأبي إلى حد ما.

* * *

انتقلْتُ إلى مرصد سرية مدفعية الهاون بعدما سلّمْتُ أمور المجموعة إلى ساخنوف.

لم أُحاول أن أبحث عن شورا مخافةً أن تصطدم خشونتي بنعومتها. إنّي أتوحّش.

نحن الآن في الرابع من أيلول. بعد ثلاثة أشهر وأربعة وعشرين يوماً أبلغُ التاسعة عشرة من العمر. كتابتي نفسها.

حلَّ البردُ بسرعة

تمرُّ أيامي على وتيرة واحدة.

خريفٌ بديع. لو تخلله ضباب أو مطر يحجبُ عن أنظارنا وجه هذا العدو المُجتاح الغاشم! لكنّه فصلٌ رائق كسبيكة من ذهب وسماء مُزدانة بالنجوم.

يقع مركز مرصدي على السفح المائل من ضفّة النهر، بابه مُتجه نحو الخلف في خندق عميق. ثلاث فُتحات في جدار المبنى تُطلُّ على العدو. الوسطى منها مزودة بمنظار مُكبّر بعيد المدى. برج المرصد صغير لكنّه متين وناشف نوعاً ما ومستور بعناية بأغصان خضر للتمويه، وفيه مقعدان خشبيان وكرسي ثابت.

لبرج المُراقبة ثلاثة جنود: واحد للهاتف واثنان يحرسان المنظار بالتناوب. يبلغونني كلّ ما يرونه في مواقع العدو.

على يميني ويساري مراكز مُراقبة للمدفعيين، وورائي حضيرة كاملة في تحصينات بيتونية ومتاريس خشبية.

زال بعض الخوف الذي شعرنا به أمس من الألمان، عدا ذلك فأنا واثقٌ من أنّ هؤلاء الألمان المتحصنين في (زفانكا)، لن يبقوا هناك طويلاً، وقد لا يرجع أحدٌ منهم إلى بلاده سالماً.

* * *

في هذا السفح الرملي الرطب توجد شُجيرات توت العلّيق. ثماره لذيذة الطعم، زكية. وهي تتكاثر على المُنحدر المُشرف على النهر. ثمرها كالتوت الأرضي، حلو وطري وهو كثير. اكتشفناه صُدفةً بعدما انقشع الضباب وتوضّحَتْ لنا مواطئ أرجل الطيور على الرمل.

جمع جنودي ملء قصعة من التوت العلّيق، فأكلناه بشهية. توجد منه شُجيرة عند مدخل مغارتي تتدلّى منها عناقيده الحمر كأنّها العنب.

أخبرْتُ بذلك رُماة الرشاشات المجاورين، واستمرؤوا بدورهم طعمه. واحمرَّتْ الشفاه وبدَتْ كأنّها مصبوغةٌ باللون الأحمر.

لكن خير هذه الأرض المنبوشة لم يدم طويلاً. ففي الليل هطل مطرٌ غزير عرّى شُجيرات العلّيق حتّى من ثمرها الفج. للأسف...

ــ علامَ الأسف؟

ــ كان توت العلّيق لذيذاً...

وضحك ساخنوف:

ــ وأنا ظننْتُ أنّ حادثاً ما وقع عندكم. إيه، ما أرق قلبك يا ولدي. إذن! بارك لي.

ــ هل نلْتَ وساماً؟

قال:

ــ سأناله يوماً. إذاً... حسنٌ، لا أُريد أن أقول لك شيئاً يُحزنك. اعلم يا صغيري، اليوم عيد ميلادي.

لم أبتهج للخبر ولم أتعجّب. إنسانٌ وِلد، فهو إذن يتذكّر يوم مولده. عفواً، ماذا قلت؟ من يستطيع أن يتذكّر لحظة مولده، أو يومه؟ إنّه يعرف ذلك بعدما يكبر، يقرؤه على ورقة ميلاده أو يُخبره به أهله. أمّا ساخنوف فلا أهل له منذُ أمدٍ بعيد. سألته:

ــ كيف علمْتَ أنّ اليوم بالذات هو يوم مولدك؟

وخُيّل إليّ أنني أرى عبر سماعة الهاتف شفة ساخنوف السُفلى مصبوغةً بالتوت.

فقال:

ــ ألا أعلم هذا أيضاً؟

ــ لكن كم سنة تبلغ اليوم من العمر؟

ــ ما هذا السؤال؟

ـ أُريد أن أُحيي كلّ سنة من عمرك بطلقة من مدافعي الاثني عشر معاً. ماذا ترى أمامك؟ ساخنوف، أعني ماذا ترى ليوم غدك؟

أجاب ساخنوف:

ـ رشاشاً ألمانياً. ها هي فوهته مصوّبة إلى صدري، لكن دع المُزاح...

حزنْتُ. نعم، فوهات الرشاشات والبطاريات والمدافع وغيرها من الأسلحة اللعينة مصوّبة إلى صدورنا كلّنا. وعندنا رجل شقي يتذكّر يوم ميلاده. أُريد أن أكتب له شعراً هدية، لكن قلمي ضائع، فلا قلم في الجبهة.

قرّرْتُ أن أذهب إلى موقع الرشاشات، وأرجو الرامي أن يسمح لي بأن ((أعزف)) معزوفة بسلاحه على شرف ساخنوف. لكنني وجدْتُ الرامي مقتولاً. أُصيب لتوه، ومات وحيداً مُتكئاً على قرص رشاشه.

ابتعدْتُ عنه.

بدأ المطر من جديد، واختفى توت العلّيق عن الأنظار. المطر يندلق فوقنا اندلاقاً، مثلنا كمثل العدو. أمرْتُ جنودي بأن يدهنوا سلاحنا بالشحم خوفاً عليه من الصدأ بفعل الرطوبة. الماء في كلّ مكان. سقفي يدلُف، والأرضية تنبع، خنادقي مغمورة بالماء. ماء، في كلّ مكان ماء... تذكّرْتُ أُغنية قديمة تقول: ((المطر ينزل من الغرابيل...))، ثمّ؟ ثمّ نسيْتُ الباقي.

تحت غزارة المطر أطلقَتْ كاتيوشتنا النار من فوهات ثمان خلطَتْ النار واللهب بالسماء المُطرة، وحطّتْ فوق المواقع المُعادية. تذكّرْتُ نصف الأُغنية:

((روحي حبيبتي، روحي)).

أشعلَتْ قنابل الكاتيوشا النار في شجرة قريبة من زفانكا، فارتفع عمود من النار بين المطر في الليل. يا لها من صورة بديعة... وحملتني الشجرة المُشتعلة إلى وادينا. كان عندي شجرة كرز ضخمة، من ذروتها يُرى بيت مارو. كثيراً ما كنْتُ أتسلّق ذروة الشجرة التي يتأرجح غصنها ويكاد ينكسر. ومن أعلى، كنْتُ أبحثُ عن مارو. فيُناديني أبي من الداخل:

ـ الآن تقع يا ولد، انزل عن الشجرة.

لكنني لم أقع.

* * *

انقشع الظلام، ورأيْتُ في الأعالي طائرةً تطير، لم أتبين هويتها. أهي صديقة أم عدوّة؟ وألقَتْ قنابل مُضيئة حمراء وبيضاء وخضراء، كأنّ السماء قد نفضَتْ ذيلها. فتساقطَتْ نجومها هادئة بطيئة، وتنطفئ في الطريق.

ماذا يفعل ساخنوف؟ كيف يحتفل بعيد ميلاده؟ تخابثْتُ، ولم أذهب لتهنئته، فأنا لا أستطيع ترك مركز المُراقبة دون حراسة، ثمّ إنني لم أكتب له قصيدةً بالمُناسبة.

وسمعْتُ ضجّةً في الخارج. ماذا هناك؟ آه، وصل مطبخ مواقع الرشاشات بطعام ساخن. ارتديْتُ ممطري المُبقّع وخرجْتُ. ووجدْتُ طبّاخ الميدان يقف تحت سور الخندق الدفاعي المرتفع. ((آه، مرحباً بك أيّها المطبخ المحبوب ـ كنْتُ أحكي معه في سرّي ـ أنت صديقنا نحن العسكر، أنت محبوبنا مملوءاً أو فارغاً، لا فرق. مرحباً بك، نحن نُحبك إلى أبعد الحدود، مثلما يُحبُّ الطفل حضن أمّه. فمع أنّ صدرك ينفثُ دُخاناً، وقد يكون فارغاً أحياناً، إلاّ أننا نظمنا أُغنية لك على شرفك، نُغنيها عندما نجوع. أمّا الآن فأنا شبعان)).

تعب الحصان الذي يجرُّ المطبخ ذا العجلتين تحت المطر وصار يرتجف من البرد.

موقد المطبخ مفتوح. ومن بويبه تتساقط جمرات نار في ماء المطر فتنطفئ وتفش. غطاء الحلّة النُحاسية الكبير مكشوف، فيخرج من الحلّة سحاب كثيف من البخار. اصطفّ رماة الرشاشات في صف مُنتظم بالدور يرفعون قصعاتهم فوق رؤوسهم. يغرف الطبّاخ الواقف بجانب الحلّة الطعام وبسرعة يفرغها في القصعات الفارغة ويسبُّ المطر الذي مازال ينزل قوياً غزيرا.

صاح واحدٌ:

ـ لا تسُبْ المطر، لأنّه يدعمك، فلا تُمنى بنقص.

فزفر الطبّاخ:

ـ وإذا فسُدَ الطعام تسبونني أنتم، وتصبّون غضبكم على رأسي.
ـ بسلامة رأسك، فهو غال علينا.
وضحك الواقفون في الطابور.
أمّا المطر، فلا يضحك وهو جاد دائماً، مُلتحم مع منسجه المائي.

* * *

أُحبُّ من وقت لآخر أن أُعكر صفو العدو. فآمر مُحاربي بالهاتف:
ـ ساخنوف، اسمع، الجانب المحمد الخامس، هدف عشرة، زاوية ستة ونصف، اثنا عشر مدفعاً واحدة، نار...
وبناءً على أمري تنطلق مائة وأربعة وأربعون قذيفة دفعة واحدة من اثني عشر مدفعاً تسقط كلّها ناراً مُحرقة مُدمرة فوق (زفانكا).
أمري بيدي وعلى مزاجي. كلّما عنّ على بالي أوجّه النار إلى مسافة كيلو مترين وراء زفانكا. فإمّا أن ترتفع أعمدة النار، وإمّا أن ترتفع أصوات مُنكرة. هكذا أُنغِصُ عيش الألمان، وأحرمهم من الأمن والنوم. وأعرف ما هم فيه من فوضى من طريقتهم في الرد على نيراننا.

* * *

بزُغ الفجر.
وشاهدْتُ نقطة سوداء في مكانٍ واطئٍ من الضفّة الأُخرى من النهر.
نظرْتُ في المنظار، ورأيْتُ رجلاً مُستلقياً على ظهره لا يتحرّك. فعجبْتُ لأنّه يرتدي ثياباً مثل ثيابنا وفي يده مسدس رشاش من سلاحنا.
بادرْتُ إلى إيقاظه، فقد يكون جندياً منّا هارباً، وقد يكون جاسوساً ألمانياً في زيّنا. وكشف منظاري أنّ هذا الرجل يتصنّع الموت.
المكان خفيض، وهذا يعني أنّ رشاشاتنا لا تنال منه. كذلك لا يصله رصاص المسدس الرشاش. لأنّه على بعد ستمائة وخمسين متراً. إذن لا تصله غير قذائف مدافع الهاون.

ـ ساخنوف، استعد.

وقعَتْ أول ثلاث قذائف قريباً جدّاً منه، بحيث لم تُصبْهُ شظاياها. لم يتحرّك. وأرسلْتُ ثلاث قذائف أُخرى، وأُخرى.

وخاف الرجل وقام يعدو نحو مواقع العدو. وهناك أشاروا إليه بأيديهم. فحوّلْتُ النار إلى مقصده، وكان لا بُدَّ من القضاء عليه.

ـ ساخنوف نار بسرعة، بعشر قذائف... وبصعوبة تمكن الرجل من الوصول إلى السفح المجاور، وها هو يقترب من الملاجئ، فلا أرتاح، نار، نار...

أخيراً وقع عند حافة خندق ألماني وتدحرج إلى داخله...

وأسفْتُ إلى حد ما. لقد قتلته. لكن فيم الأسف؟ عدو جاء ليقتلني فقتلته، وهذا أمرٌ طبيعي. لكنني كنْتُ أُريد أن يفعل هذا الأمر الطبيعي غيري، لا أنا.

عجيبةٌ هي النفس الإنسانية.

* * *

كتاب ((شعراء الأرمن الغربيون)) يتقلّص. أُتابع كتابة رسائلي على هامش صفحاته. يحيا مُجلدوه، ورقه فخمٌ وثلاثة أرباع الصفحة فارغة. وكتاباتي لا تعدو بضعة أسطر.

أكتب أحداث الحرب بين سطور صحف (برافدا) و(كراسنايا إزفيستا)، وعلى لفائف خبز الذرة الورقية الدهنية. ليس الورق وحده ما ينقصنا، فكثيرون منّا تنقصهم القصعة والملعقة، فيضطرون إلى صنعها من الخشب.

لا نحلم بالنفط أبداً. بل نُشعل في مغائرنا أشجار الصنوبر (المرخ) أو أعمدة الهاتف المُحطّمة، فيُكوّن سُخام الدخان طبقة سميكة على جدران المغائر. وحين نسعل نبصق السُخام.

نحن الآن في الحادي عشر من تشرين الأول. بعد شهرين وسبعة عشر يوماً أبلغُ التاسعة عشرة من العمر. كتابتي في المغارة.

ورقةٌ كُتِبَ عليها باللغة الأرمنية

قضيْنا عيد أكتوبر في المواقع. أعطونا عرقاً، مائة غرام للواحد. وتلقيْنا من الناس لفائف، هي هدايا بهذه المُناسبة. وكان من نصيبي لُفافة من منطقة كيروف من أم: ((بُني، رعاك الله)). وليس في اللفافة شيء من تبغ أو عرق. يبدو أنّ أُمّي هذه فقيرةٌ جدّاً. ووجعني قلبي عليها، واعتبرْتُها أغلى هدية، لأنّها جاءَتْ من قلب أُم ملهوف: ((بُني، رعاك الله)).

* * *

كنْتُ أُصادف بعضاً من الأرمن أحياناً. لقد ضيّعْتُ سيروج ولا أعرف أين هو. فأسأل من أُصادفُهُ من الأرمن:

ـ هل تعرف أُغنية حديثة؟

و يُجيبني مواطني مُتعجّباً:

ـ وجدْتَ الوقت...

* * *

ندف ثلجٌ كثيف، كثيف، لكنّ البرد خفيفٌ بعد. سلمونا ثياباً شتوية وقُبعة ذات أُذينات وداخليات دافئة، قميصاً قطنياً وسروالاً. كما استلمنا قناعاً من صوف ليس فيه غير فتحتين للعينين فقط. لفّاحات من اللبّاد، وصدرية من جلد الخروف وقفازات. أنا دفآن فيها. شيءٌ واحد ساءني، هي الحشرات ساكنة الأجساد التي تتكاثر في الصوف بشكلٍ عجيب.

صنعْتُ في الخندق مكاناً للاستحمام من شجر الصنوبر. وأوعزْتُ إلى عسكري المُراقبة بتسخين ماء في صفيحة. كذلك رصفْتُ أرض الحمّام بأغصان الصنوبر وخلعْتُ ثيابي فوق الثلج واغتسلْتُ جيداً في الحمّام الذي صنعْتُهُ في الهواء الطلق.

استدعيْتُ رُماة الرشاشات:

ــ تعالوا يا أولاد، اغتسلوا في الحمّام.

ومنحني آمر سرية الرشاشات بالمُقابل ورقتي رسائل وقال:

ــ حمامك عظيم.

أمّا سبيل خلاصي من القمل (جب التنور) فلم أعد بحاجة إليه لأنّهم أحضروا لنا مواد كيماوية لإبادة الحشرات.

نحن الآن في السادس عشر من تشرين الأول. بعد شهرين واثني عشر يوماً أبلغُ التاسعة عشرة من العمر. في كتابتي بركة.

النارُ المُضللة

أحياناً أعزلُ ثلاثةً من مدافعي عن الموقع، وآخذُها يميناً أو يساراً وأُثبتُها على الأرض، وأبدأُ بإطلاق النار على العدو مُدَّة ثلاث ساعات. ولا يردّ الأعداء في مثل هذه الحالات، لأنّهم يتعجبون من الموقع الجديد الذي يُطلق منه النار ويبدؤون بالبحث عنه. وريثما يتوصلون إلى كشفه أكون قد نقلته إلى جهةٍ أُخرى وأبدأُ من جديد من هناك.

يعتبرُ المدفعيون الألمان أنّهم صيادو صوت جيدون، فيحصرون الصوت في جهة ويقصفون المكان بنيران مدافعهم التي لا تُصيب غير الخلاء لأنّ مدافعي تكون قد انتقلَتْ، ويستمرّون في القصف نصف يومٍ سُدىً.

هذا النوع من القتال بالقذائف يُسمّى ((النارُ المُضللة)).

* * *

بعد عملية ((نار مُضللة)) ذات مرّة، عُدْتُ إلى مواقعي الأصلية. وما كدْتُ أضع قدمي عند باب مغارتي، حتّى شممْتُ رائحة عطر ذكية. ما هذا؟ خشيْتُ أن أكون تائهاً، ودخلتُ مهجعاً للأخوات المُمرضات.

لكن، لا، لسْتُ تائهاً، ففي مغارتي وبجانب طاولة صغيرة تجلس امرأة تتحدّث مع العسكري المُناوب. كانت في فروة نصفية. وهي برتبة نقيب في الخدمة الطبية. كانت عارية الرأس غزيرة الشعر جميلة مثل كلّ النساء، كلّها حيوية، ناحلة، طويلة العنق، ناعمة الأصابع، ساقاها مُستقيمتان بانسياب.

منذُ متى وأنا أُحللُ الجمال النسائي. آه، هه، الفضل لشورا.

حيّيْتُ النقيبة حسب قواعد النظام واللياقة، لأنّها امرأة وضابطة في الخدمة الطبية. نحن المُقاتلون في الجبهة نُحبُّ الأطباء كثيراً، أكثر من الأدلاء. كلّنا يعرف أننا سنقع يوماً بين أيديهم. شيءٌ واحد لا نعرفه، هل سنقع موتى أم جرحى؟ نموت بين أيديهم الرحيمة. في جيوب سراويلنا الخلفية موضع بحجم الإصبع، فيه صفحة معدنية صغيرة كُتِبَ عليها اسم المُقاتل وكنيتُهُ وعنوانه. وضِعَتْ لتُرشد الدافنين أو المُسعفين أو الأطباء إلى هوية المُقاتل. فإذا قُتل أو مات مُتأثراً بجراحه على طاولة الطبيب يعرفون الميّت بواسطة هذه القطعة المعدنية.

أنا لا أحمل صفحتي هذه، مع أنني أفرض على جنودي حملها.

نعم، نحن الجبهويون، نُحبُّ الأطباء كثيراً، تماماً كأُمهاتنا إن كنّ نساءً، وكآبائنا أو إخواننا إن كانوا رجالاً. لكننا لا نحبُّ ضُبّاط التموين، بل نكرههم، لأننا نظنُّ بأنّهم يلتهمون نصف مؤونتنا. هم بعيدون عن النار في أقصى الخلف وجشعون. (هذا ما نعتقده، لكنّه غيرُ عادل). على الطريق المؤدية إلى كتيبتنا غُرِسَتْ لوحة معدنية خضراء رُسم عليها طفلٌ ذكي يقول:

ـ يا بابا، اقتل الفاشيين.

فأضاف عليها أحدهم باللون الأحمر ((وضباط التموين)). طبعاً مسحوا هذه الكتابة بعناية، ولكن لم يذهب أثرها بل بقي واضحاً.

ضحكَتْ الطبيبة النقيبة وقالت:

ـ ألا تستغرب أنني اقتحمْتُ عليكم موقعكم.؟

قلت ـ لا، لماذا أستغرب؟ هذا يُفرحني بالتأكيد. ابقي معنا إذا شئْتِ حتّى نهاية الحرب.

وضحكَتْ المرأة ضحكة جميلة جدّاً أحرجتني، بل أخافتني. ماذا يجري لو ركعْتُ على الأرض فجأةً واحتضنْتُ ركبتيها؟ أليست الفاكهة الممنوعة مُغرية. لكنني تمالكْتُ نفسي. ويبدو أنّ الطبيبة قد شعرَتْ بمحنتي وبنظرتي النهمة، فقامَتْ بدلال وقالت:

ــ أنا أتبيّن الحالة الصحية في المواقع، أُريد أن أكون ذات نفعٍ لكم ضمن تخصصي، لكنني أراكم هنا في حالة تُحسدون عليها من النظافة والصحة، ولا ضرورة لوجودي هنا على الإطلاق.

ولمّا خرجْتُ قالت:

ــ الجديد هو أنّ قواتنا طوّقَتْ الجيوش الألمانية العاملة في ستالينغراد تطويقاً كاملاً، وعددهم ثلاثمائة ألف مُقاتل. لقد سمعْتُ هذا من الراديو.

ــ هذا نبأٌ عظيمٌ مُفرح أيتها الرفيقة النقيبة في الخدمة الطبية. شكراً لمذياعك. لكن لا تمكثي هنا وأسرعي بالابتعاد.

فتعجَّبَتْ وقالت:

ــ لماذا؟ هل تخاف عليّ أن أُقتل؟

ــ لا، أخاف أن تقتلي أنت أحداً ما.

ــ مَنْ؟

ــ قد يكون الجندي المُعاون، فهو لم ير وجه امرأة منذُ سنة ونصف السنة.

ــ وهل نحن النساء ضروريات إلى هذا الحد؟

ــ لا أعرف.

ضحكَتْ وذهبَتْ. وعدْتُ إلى مغارتي، وقد استيقظ في قلبي شيءٌ غريب، مثل عزّة نفس. أنا عسكري، وها أنا أُحارب في سبيل الوطن، وجندي آخر طوّق العدو وأباده في ستالينغراد. لا حدود لفخر الجندي، كذلك لحزنه. الفخر عندما ينتصر والحزن عندما ينهزم.

رسمْتُ على خارطتي دائرة كبيرة حول ستالينغراد وسهولها الغربية. ثمّ جلسْتُ أستعرضُ في فكري بالتفصيل خطوط جسم تلك المرأة التي كانت تجلس في مغارتي، وجهها ونظرتها. لقد دبَّتْ حرارة غير عادية في هذا البيت الأرضي. هل هي تلك المرأة؟ أم لأنّ ستالينغراد صارت مقبرة للألمان الفاشيين. لقد جاءت الحرارة من الاثنين معاً.

وأقلقني شيءٌ: لماذا لم أُفكر في شورا؟ لماذا حشَرْتُ هذه الطبيبة في رأسي ناسياً شورا؟ هذا بعيدٌ عن الإنسانية، وأنا لسْتُ بهيمة.

وجلسْتُ أكتب رسالة إلى شورا. حاولْتُ أن تكون في كتابتي حرارة، أي كما يُقال وضعْتُ فيها قلبي. لكن لم أوافق، ومزَّقْتُ الرسالة الناقصة.

أنا في حيرة. لماذا لا أكون حازماً في مثل هذا الأمر. ما الطبيبة تلك إلاّ ناراً مُضللة، تشتعل مكانها بلا نار.

نحن الآن في الرابع والعشرين من تشرين الثاني. بعد شهر وأربعة أيام أبلغُ التاسعة عشرة من العمر. كتابتي نارٌ مُضللة.

صوتُ الأرض

استلمْتُ من البيت عدة أعداد من مجلة أرمينيا السوفياتية. دسسْتُها في جيب فروتي النصفية، إذ لا يوجد نور لأقرأها، إضافةً إلى القتال الحار الدائر فوق الثلج الذي تخدّشَتْ صفحته بفعل النيران. مسكين أنت أيّها الثلج الناعم، لأنك تُغطّي جراح أرضنا. أنا وساخنوف نُذيبك ونشرب، وأنا أفرك بك وجهي لكي لا يتجمّد، أيّها الثلج الروسي البريء!.

العدو يزرع السماء بطائراته، ويُعكّر نومنا بالرشاشات والمدافع والبنادق وبكلّ أنواع الأسلحة، ويُمزّق الثلج ويُشقق الأرض.

عندنا الآن ذخيرة كثيرة، ونحن نردُّ على العدو بقبضة فولاذية بالرغم من كلّ محاولاته، لم يعد يستطيع التقدّم، وراح يعضُّ على شفتيه من الغيظ، ويكزُّ على أسنانه الفولاذية التي مضى مفعولها، وينتحب أمام العاصفة الثلجية المُضيئة.

عند الصباح، وعلى نوره الشتوي، جلسْتُ أمسك بيد نصيبي من البقسماط والسكر وآكلهما، وأمسك باليد الأُخرى المجلّة التي استلمتها من موطني. نُشرَتْ فيها رسالة الشعب الأرمني إلى المُحاربين الأرمن. خفق قلبي من التأثر، فالرسالة من تراب الوطن وبلُغته ابنة آلاف السنين، بقسوته وحنانه. تقول الرسالة:

((اذكروا يا أولادنا أينما كنتم تُقاتلون، في أيّة رقعة من الجبهة ضدّ ألمانيا الفاشية أنّكم تُقاتلون من أجل أرمينيا أمّكم، في سبيل الحفاظ عليها وعلى استقلالها. وتذكّروا أقوال جدودنا الحكيمة: (الموت من دون علم، موت، أمّا الموت المعلوم فهو الخلود).

نسيْتُ أنني أقرأ رسالة يفوح من ورقها أريج تُراب الوطن، وأتذكّر حرارة صدر أُمّي عندما كنْتُ صغيراً. أنا أسمع صوت شعبي الحبيب. وتصفو لي الدنيا دفعة واحدة.. ونسيْتُ قطعة البقسماط في يدي، فأنا أتلقّى الآن غذاء أهم منها وأُقبّل رسالة الشعب الأرمني، وأبحثُ في ذيلها عن أسماء قد أعرف أصحابها بين التواقيع التي تمهرها.

استندْتُ على صفحة مدفعي الهاون الحارّة وبكيْتُ كثيراً.

ثمّ جرى قتالٌ من جديد.

ذهبْتُ للبحثِ عن الجندي بريم شالونتس، ولم أجده. أعلمني رفاقه في السرية أنّه... أنّه لم يسمع صوت الشعب الأرمني والتراب الأرمني. إنّه منذُ الآن في أرض الوطن، وأعلموني أنّهم منحوه وساماً بعد الموت.

وجدْتُ بين الموّقعين في ذيل الرسالة اسم نابيري زاريان. فكتبْتُ له رسالة:

((أُقسم أنني لن أبخل بروحي في سبيل الدفاع عن ترابنا)). وكرَّرْتُ القسم ثلاث مرّات رافعاً قُبعتي.

ــ أُقسم، أُقسم، أُقسم...

نحن الآن في الثلاثين من تشرين الثاني. لم يبق شهر، بل بقي ثمانية وعشرون يوماً وأبلغُ التاسعة عشرة من العمر. كتابتي قسم.

الجليدُ رقيق

ظهر آمر كتيبتنا في مواقعي على غير إنتظار. فتركْتُ حزامي ورحْتُ أشرح له سير العمليات الحربية، فصافحني وتفحّص بدقّة برج مرصدي.

ــ هل أنت مُطّلع جيداً على تحركات العدو؟

فقرّبْتُهُ من منظار المُراقبة وشرحْتُ له بالتفصيل وضع مواقع العدو.

ــ إنّه لعينٌ لا يُقهر.

ــ نعم، نضربُهُ على جبينه، فلا يتأثر.

أهداني زُجاجة من العرق وقال لي:

ــ بعد يومين، علينا أن نهجم على (زفانكا). يجب أن نستخلص هذا المُرتفع من العدو. فما رأيك؟

فاستوضحْتُ بفضول:

ــ هل سيتم الهجوم على طول الجبهة؟

ــ لواؤنا وحده. هل تسمح لي بأن أُدير بداية المعركة على منظارك فهو مُناسب؟

ــ كيف لا، سيدي المُقدّم، لكن (زفانكا) جوزة قاسية، فيها واحد وثلاثون رشاشاً، وثمانية وعشرون مدفعاً ثقيلاً، وأكثر من مائة مدفع هاون مُحصّنة كلّها وراء حصون سميكة متينة. اختراق زفانكا يحتاج إلى جيش كامل، ولا يمكن انتزاعُهُ بقوّة لواء واحد.

بدأ آمر الكتيبة يُدخّن، ورأيْتُ على غلاف سجائره كلمات أرمنية. رجوتُهُ أن يُعطيني ورقة الغلاف. فأفرغ السجائر في جيبه وأعطاني الورقة.

ــ ما حاجتك إليها؟

ـ أثر من موطني.

كانت الورقة تحملُ كلمة ((غابان)). فشممْتُها ووضعْتُها في جيبي الداخلي. وتأثر المُقدّم من تصرفي كثيراً. وهمس في أُذني كمن يُفضي بسر:

ـ أنت تتميّز بروح شاعرية. على كلٍّ، لنحاول قهر (زفانكا). في أيّ يوم ولد الرفيق ستالين؟

ـ الواحد والعشرون من كانون الأول.

اليوم هو السابع عشر من كانون الأول، يجب أن نُقدِمَ له في يوم مولده هدية، هي نصرٌ حربي. وستكون هذه المرّة الثمانمائة التي تستخلصُ فيها (زفانكا) من الأعداء. هل فهمت؟

ـ هذا ما فهمْتُهُ تماماً.

فوقف وشدَّ على يدي وقال:

ـ استعدوا.

* * *

جاء آمر الكتيبة حسب الموعد وأخذ مكانه في مركز مُراقبتي. ونادوني إلى الخلف، فذهبْتُ إلى مواقع استحكاماتنا. سنبدأ الهجوم. جهزْتُ مجموعتي للتحرُّك.

نحن الآن في التاسع عشر من كانون الأول. بعد تسعة أيام أبلغُ التاسعة عشرة من العمر. كتابتي هادئةٌ.

عبورٌ فوق الجليد

عند المساء تجمّعنا عند ضفّة النهر. صدر الأمر بعبور النهر مُتسترينِ بالظلام، لاحتلال مواقع العدو في الضفّة الثانية من النهر، تمهيدا للهجوم العام الشامل.

وقفْتُ مع مدافعي ووسائل اتصالي ومُقاتلي ننتظر الأمر بعبور النهر.

فولخوف هنا عريض ــ عريض، مُتجمّد. وفوق الجليد طبقة ناعمة من ثلج حديث.

* * *

بدأتْ سرايا المُشاة بالعبور. ووقفنا نحن المدفعيين ننتظر وقد حبسنا أنفاسنا. ننتظرُ تقدُّم الحشود السوداء التي ستعبر النهرٍ في الظلام، لكي نتبعهم من خلفهم نشدُّ أزرهم. لكن ها أنذا أسمعُ أصواتاً مَضطربة.

ــ الجليدُ يتكسّر.

فظيع. مجموعة من المُشاة غاصَتْ في طرفة عين تحت الجليد. لم يتحمّل الجليد الرقيق بعد، ثقل الجنود، فتكسّر. دفعتني هذه الفاجعة إلى اليأس. مع جنودي أحمال، إنّهم يحملون المدافع على ظهورهم.

لكنّه أمرٌ، ويجب عبور النهر. أمرْتُ جنودي الطيعين بعبور النهر فرادى، وبمسافة أمان بين الواحد والآخر بقدر عشرة أمتار على الأقل.

وتذكّرْتُ اللفافة التي بعثتْ بها أمٌّ تُباركُنا: ((الله يرعاك...)) ذكرْتُ اسم الله، ووضعْتُ قدمي على الجليد، فخشخش الثلج بلُطفٍ تحت حذائي الثقيل. وسرْتُ.

على يساري، وفي الأعالي. أتون من نيران المدفعية يُطلقها جماعتنا والألمان معاً. سمعْتُ صوت تكسير جليد، وتفجّرَتْ نافورة ماء. وتقدم جنودي مُتفرقين بعيدين عن بعضهم البعض.

وتحمّل الجليد.

لم أكد أصل إلى منتصف النهر حتّى خبطَتْ رجلي موجات قوية من تيارات الماء، وجرف الماء طبقة الثلج الخفيفة التي تُغطّي الجليد، وعرّتْهُ، وصار الجليد الأملس زلقاً، واختلّ توازني، وبدأْتُ أنزلق، وخفْتُ كثيراً، لأنني إذا وقعْتُ فإنّ الجليد سينكسر تحت ثقل جسمي، وتكون نهايتي.

رأيْتُ جنودي يستعملون بنادقهم كالعكّازات يستندون عليها ويمضون. ولكنني ما كنْتُ أملك بندقية، والماء يدفعني نحو الأسفل:

أمثالنا جاء بهم الماء

أمّا أنتم فيأخذكم يوماً.

ـ النجدة.

صحت، فرأيْتُ ساخنوف يتقدّم نحوي وهو يستند على بندقيته. كان يحمل على ظهره مجموعة الهاتف، ففكّ حبلها وأرخاه في الماء وحمله الماء إليّ. وتمكنْتُ من التقاطه، وحافظْتُ على توازني، وصار ساخنوف يسحبني وراءه مثلما يجرّون عجلاً حروناً إلى الزريبة.

* * *

عبرَتْ مجموعتي النهر بلا خسائر.

كان المُشاة على ضفّة النهر يحفرون خنادق للاستحكام فيها. وتخيّرْتُ مكاناً لمواقعي، وأمرْتُ جنودي أن يُحضّروا خنادق ويحتموا بها.

البرد ينخرُ عظامي. التراب متجمّد ونحن نكسره بالفؤوس. تبللنا، وبدأنا نتجمّد. حفرْتُ حُفرة عميقة، وسترتُها بدثار وأشعلْتُ في داخلها ناراً. وصرْتُ أُرسل جنودي إلى هذا التنور العجيب ليتنشّفوا، ويتدفئوا قليلاً.

أمامنا مُنبسط من الأرض على مسافة كيلو مترين، يبدو بعده مُباشرةً تل (زفانكا). تفرّق مُشاتنا فوق المنبسط يزحفون على الثلج نحوه.

طلع الضوء.

ووجدْتُ مكاناً للمُراقبة فوق مرتفع ثبَّتُّ عليه منظاري وهاتفي في الثلج. وظهر المُنبسط الضيّق الطويل بجانب النهر من عندي مثل راحة الكف. وظهر موقع (زفانكا) مع كلّ تحصيناته.

* * *

بدأ هجومنا من الجو بالطائرات التي مهدَتْ الطريق للمُشاة الذين انطلقوا من مواقع الضفّة اليُمنى. وأصدرْتُ الأمر بدوري بقصف (زفانكا)، مع شكي في جدوى هجومنا، وقدرة نيراننا على إلحاق ضرر يُذكر بتحصينات العدو الألماني. وفي رأيي أنّ الاستيلاء على (زفانكا) لا يتم بالمواجهة، وتجربتنا هذه فاشلة.

تحرّك المُشاة، فسلّط الهتلريون عليهم نيران رشاشاتهم ومدافعهم. وبدأ الثلج والأرض يغليان تحتها. وأمسكْتُ برأسي هلعاً: سيُباد الجيش المكشوف المُنتشر فوق أرض المُنبسط الأجرد.

ومع ذلك، لم أتوان في تأدية واجبي على أكمل وجه، ورحْتُ أُصلي (زفانكا) ناراً حامية، تدعمني المدافع بعيدة المدى. لكننا، لم نتوصل إلى إسكات مدفعية العدو.

وفشِلَتْ أولى محاولات هجومنا قبل الوصول إلى سفح (زفانكا). شباننا مندفعون يهجمون مُتحمسين لا يهابون الموت الماثل أمام أعينهم. ولكن ماذا تفعل الشجاعة في مثل هذا الموقف؟ يواجههم حصنٌ حصين، وتنزل عليهم القنابل بنسبة خمس قنابل فوق كلّ متر مربّع، نعم، خمس قنابل قاتلة.

* * *

بدأنا الهجوم الثاني بعد الظهر. لم نربح أكثر من زرع جثث جديدة فوق السهل المنكوت. طار عقلي وأنا أرى هذه المجزرة الغبية. وخُيّل إليّ أنّ هناك يداً شريرة تتعمد القضاء على شبابنا.

* * *

وهجمنا في اليوم التالي بلا جدوى.

* * *

وفي اليوم الرابع صدر إلينا الأمر بالانسحاب إلى مواقعنا السابقة، وتركنا على أرض المعركة عدة مئات من الجثث البريئة التي ندف عليها الثلج الأبيض الجديد وكفنها.

* * *

رُغم كلّ هذا إحتفلنا بيوم مولد الرفيق ستالين. فاستمعنا إلى الموسيقا في مغائرنا. وفي الواحد والعشرين من كانون الأول أقمنا احتفالاً في كتيبتنا بهذه المناسبة، فأُقيم سرادق كبير من أغصان الشجر ومنبر من الخشب زُين بالرسوم، غير بعيد عن مواقعي.

شارك في الاحتفال ممثلون عن كلّ الحضائر.

بعد مهرجان خطابي طويل قدّمَتْ فرقة أوزباكستانية شعبية مؤلفة من رجال ونساء وصلات غنائية ورقصات شعبية.

كان العدو في هذه الأثناء يُزعجنا بنيرانه، وكنْتُ أخشى أن تقع مُصادفةً قُنبلة مُحرقة فوق المنبر الخشبي فلا تبقي ولا تذر، وتقضي على ما يربو على خَمسمائة شخص.

انتهى المهرجان الاحتفالي، وعُدْنا إلى أماكننا. وقبل أن أصل إلى مرصدي سقطَتْ بجانبي قُنبلة ألمانية مُحرقة. انبطحْتُ أرضاً. وألقى بي عنف الانفجار بعيداً، ورماني على جذع شجرة وغطّاني بالتُراب.

وغبْتُ عن الوعي...

* * *

فتحْتُ عيني في مركز الإسعاف الطبّي. علمْتُ بأنني (مصروع). تُهسهس أُذناي وكأنّ فيهما نهراً يجري، وأسمع الأصوات كأنّها من بئر عميقة. لقد صُممْتُ.

أرسلوني إلى المُستشفى.

لا بأس بما جرى لي فأنا مصروع، لكنني حي. أمّا حاجبي المُرافق فقد مات.

ومرَّتْ هذه الحادثة على هذا الشكل.

نحن الآن في الثاني والعشرين من كانون الأول. بعد ستة أيام أُصبح في التاسعة عشرة من العمر. كتابتي صمّاء.

أنا أتحمَّلُ وزر لعبتي

كنْتُ واثقاً من أنّ صممي مؤقت وأنّ أُذُني ستفتحان.

أشعر بالغثيان ووجع فظيع في كلّ أنحاء جسمي. أضف إلى ذلك ثقل في لساني. لكن لا بأس، فأنا واثقٌ من استعادة سمعي.

يقع المشفى في بطن الغابة في بقعة يُطلق عليها إسم (آكك سوجي).

بعد قضاء سنة ونصف السنة في العراء وجدْتُ نفسي لأول مرّة في مأوى يُلائم بني آدم، له نوافذ وفيه فراش وسرير.

غسّلوني، وحلقوا لي شعري، وألبسوني ثياباً قطنية. وغططْتُ في النوم عشر ساعات مرّةً واحدة على ما أظنُّ.

* * *

استيقظْتُ، وذُهلْتُ عندما رأيْتُ المرضة شورا تقف إلى جانبي. لم أرتح لذلك كثيراً. قالت شيئاً لم أسمعه. فقلْتُ:

ـ ارفعي صوتك، شورا.

وسمعْتُ صوتها يأتي من بعيد، إلاّ أنني فرحْتُ لذلك فرحاً شديداً، لأنني لم أُصب بالصمم الكامل. ونهضْتُ من فراشي.

ـ شورا، أنا أسمع.

ضحك الجنود المكدّسون في العنبر الواسع. لكنني لم أسمع لغطهم، بل خمّنْتُهُ من وجوههم. ولمّا انحنَتْ شورا عليّ سألْتُها عن سبب ضحكهم. فهتفَتْ بما خمّنْتُهُ:

ـ كأنك لا تسمع. أنت في التاسعة عشرة من العمر، إذا لم أكن مُخطئة.

ـ نعم، بعد ستة أيام أصيرُ في التاسعة عشرة، وأنت؟

ـ لا يسألون النساء مثل هذا السؤال.

ـ ماذا تفعلين هنا؟

فكتبَتْ لي شورا الجواب كتابةً، لأنّها على ما يبدو لم تشأ أن يسمع الجميع قولها: ((لقد رافقْتُ المُقدّم طبيب كتيبتنا الرئيس. فهو مجروح جرحا بسيطاً)).

ـ ولماذا لا تعودين؟

ـ ((لم يتركني المُقدّم)).

فنظرْتُ إليها بحسرة وغيرة، تُرى هل تزوّجَت المُقدّم.

* * *

أخذتني شورا إلى المُقدّم. فضحك من صممي. بعدما فحص أُذُنَي وأنفي وحُنجرتي، خبط على رأسه وصاح:

ـ كيف تسمعُ بالله؟

أجبْتُهُ:

ـ لكن أُذُنَي بدأتا بالانفتاح رويداً رويداً. وآمل أن أكون في الجبهة بعد خمسة أيام.

ولمّا لم أسمع ما قاله رجوتُهُ أن يرفع صوتُهُ.

ـ ولماذا بعد خمسة أيام؟

قُلْتُ:

ـ ربّما قبل ذلك. فالثامن والعشرون من كانون الأول هو يوم مولدي ولقد جاؤوا بي إلى هنا دون إرادتي، فأنا سليم، وستنفتح أُذُناي وأنا في مرصدي.

* * *

أخذني المُقدّم إلى طبيب مُختص بالأنف والأذن والحُنجرة في المُستشفى. قُلْتُ له إنني أعرف وسيلة أنجع للشفاء من الصرع.

ـ اسمح لي بالنوم ثلاثة أيام، ويتحسّنُ كلّ شيء. فأنا لم أنم تقريباً طيلة سنة ونصف السنة.

ابتسم الطبيب المُتخصص بالأذن والأنف والحُنجرة وقال:

ـ تُريد الحق؟ لقد كان الله معك. أنت شابٌ جميل، وحرامٌ أن يؤذى الجميل.

أعرف أنني جميل. لكنني أعتبر ذلك شرّاً عليّ. وهل هذا وقت الجمال؟ أعادتني شورا إلى مكاني وهي تنظر إليّ وكأنّها مُذنبة، فمشيتُها مُضطربة وجلة. وأدركْتُ أنّ المقدّم لا يروق لها، فضحكْتُ بخبث:

ـ هل وقعْتِ بالفخ يا شورا؟

فامتقعَتْ وقالت:

ـ أيّ فخ؟ ماذا تُريد أن تقول؟

ـ لا شيء، لكلِّ امرئ عقلٌ يُرضيه.

رجوتُ شورا ألاّ تزورني في الأيام الثلاثة التالية، لأنني أُريد أن أنام. تركتُها وذهبْتُ إلى الحلاق ليقصّر سوالفي ويُشذّب شواربي.

عُدْتُ بعد الحلاقة إلى عنبر المرضى ونمتُ نوماً عميقاً.

* * *

بقيْتُ خمسة أيام في المشفى، شعرْتُ بعدها بأنني شُفيْتُ تماماً، إذ اتزن صوتي ومسمعي، ولم يبق غير ألمٌ خفيف في أُذُني اليُمنى.

* * *

وبدأ صممي يتضاءل يوماً بعد يوم، وشورا لا تُصدّق، فتقول:

ـ الصمم يدوم أشهراً.

لسْتُ أدري لماذا كانت تُريدني أن أبقى أشهراً في المشفى. لا شكّ في أنّ النوم في المستشفى مُريحٌ وجيّد، ففيه السرير والغذاء وكلّ ما يطيب.

وعلمْتُ بوجود مكتبة، فذهبْتُ إليها لأستعير كتاباً، فلفَتَ نظري كتاب بالروسية يحملِ عنوان: ((بلاد نايبري)). تردَّدْتُ قليلاً، لكن رأسي انحنى لا إرادياً لتقبيل إسم جارينتس

(مؤلف الكتاب بالأرمنية). كتب جارينتس رائعة أرمنية فلا تجدها عند الباعة ولا في المكتبات. لاحظَتْ قيّمة المكتبة فضولي فسألتني:

ــ أأرمنيٌ أنت أيّها الرفيق المُلازم؟

ــ نعم أرمني.

ــ جارينتس أيضاً أرمني، وهو شاعرٌ عظيم، لقد قرأْتُ كتاب ((بلاد نايبري)) هذا واُعجبْتُ به. صحيحٌ أنّكم شعبٌ صغير، لكن عندكم شُعراء كبار. كيف هو جارينتس؟ أعتقدُ أنّه أيضاً في جبهة القتال. أليس كذلك؟

تعثّر لساني، ولكنّ الله أعانني، وقُلْتُ:

ــ نعم، جارينتس أيضاً في جبهة القتال. إنّه يُقاتل الفاشيين أيضاً. هل تعرفين أنّه من ألدِّ أعداء الفاشية؟ لقد حارب إلى جانب الثورة السوفياتية بقلمه وسلاحه. أُريد أن أقرأ هذا الكتاب، ممكن؟

ــ طبعاً ممكن. إذا كنْتَ تعرف عنوان جارينتس، أرجوك أعطني إيّاه فأنا اُريد أن أُراسله. ضممْتُ ((بلاد نايبري)) إلى صدري، انزويْتُ في مكان بعيد لأقرأه.

معنوياتي عالية. كذلك هي حال الشباب الذين يستشفون هنا. لماذا يا تُرى؟ أعتقد أنّ السبب يعود إلى حالنا الحسنة في شمال القفقاس. فلقد أُوقف الزحف الألماني وبدأَتْ قواتنا تردّهم خطوة خطوة عن مشارف جبال القفقاس. أصبحت باكو بالنسبة لهم عزيزة المنال. أمّا الأتراك المُحتشدون في قارص فقد أُسقط في أيديهم ولم يبق عندهم الجُرأة لاجتياز نهر آخوريان. ستالينغراد اُسطورة، أو خُرافة. ستالينغراد صامدة، نصفها بيدنا ونصفها بيد العدو، ويدور القتال فيها في ممرّات

البيوت، بين الأدوار الطابقية، فترى بناء فيه طابق بيدنا وطابق بيدهم. من قال إنّ الفولغا مقبرة الفاشيين صدق.

ستالينغراد تبعثُ في نفوسنا القوّة. ستالينغراد تُشفي جراحنا. نحن هنا في الشمال الغربي البعيد. لكن أين حُلفاؤنا؟ لقد وعدوا بفتح جبهة ثانية في غرب أوروبا ضدّ ألمانيا، فنحن نُحارب منذُ سنة ونصف وحدنا ضدّ القوات المُعادية الرهيبة. لماذا لم تُفتح هذه الجبهة المزعومة؟ أي نوع من التحالف هذا؟

* * *

جاءتني شورا بدواء وأنا أقرأُ كتاباً، فلم أنظر إليها. يئسَتْ منّي بعد بُرهة وذهبَتْ. بعد قليل ذهبْتُ إلى الأُخت المرضة وخدعتُها مُدّعياً أنني سأذهبُ إلى مركز البريد، وطلبْتُ ثيابي لساعتين فقط، وغمزتُها بعيني غمزة جعلتُها توافق على طلبي.

جاءتني بالثياب، فارتديْتُها وألقيْتُ بنفسي خارجاً.

نحن الآن في السابع والعشرين من كانون الأول. بعد يوم واحد أصيرُ في التاسعة عشرة من العمر. كتابتي فرارية.

ديكُ الحرجة المقتول

ثلجٌ كثيف، وشتاءٌ قاس.

ومع ذلك مشيْتُ مسافةً، حتّى لحقَتْ بي سيارة شحن أوقفتُها وتسلّقتُ ظهرها.

آه من غدر الشيطان. أنا أهرب من شورا، وإذا بي أجدُ المُقدّم الطبيب معها وستة جنودٍ آخرين في صندوق سيارة الشحن حيثُ تسلّقْتُ. فقال المُقدّم مُنفعلاً:

ـ يا لك من شاب ظريف، أترى؟ ها قد تقابلنا من جديد. ولكن إلى أين أنت ذاهب؟

ـ طبعاً إلى الجبهة، وإلاّ فإلى أين؟

ـ لقد تبلّغْتُ ترقية جديدة وأنا ذاهبٌ إلى خدمتي، فماذا تقول في هذا؟

ماذا أقول؟ شورا جامدةٌ مُطأطئةٌ رأسها، لا تنظر إليّ. أنا أيضاً أنظر إلى ناحية أُخرى. ما شأني بها وبمقدّمها الذي حصل على ترقية جديدة؟

* * *

الغدُ يوم مولدي. الحمدُ لله أنني لم أفقد سمعي، وأنني هربْتُ من المُستشفى، فالشتاء جاف والجليد ممتع والقمل راح.

الطبيب المُقدّم رجلٌ مرح. قال لي:

ـ هل تعلم يا بني أنّه من الصعب عليك أن تجد كتيبتك؟ لقد انتقلَتْ إلى مكانٍ مجهول. أجبتُه: ـ سأجدُها، فلا يوجد شيءٌ مجهول عندي.

مررْنا في طريقُنا بمستنقعٍ متجمّد رُصفَتْ فوقه من الألواح الخشبية التي سُمّر بعضها إلى بعضٍ بمسامير قد اقتُلع بعضُها، فلا ترى إلاّ والألواح تقفزُ تحت ثقل السيارة. أنا لا أنظر ناحية شورا. أنا مُشتاقٌ إلى مرصدي وإلى رجالي. تُرى هل فقدتهم حقّاً كما يدّعي هذا المُقدّم؟

المُقدّم عجوز، وحرامٌ على شورا أن تكون معه. أنا أمْقُتُ الشيخوخة.

* * *

وقفَتْ السيارةِ لتأخذ ماء. وكان على بُعد ثلاثمائة متر من مكانٍ وقوفنا غابة، لمحتُ على غصنٍ مرتفع من إحدى أشجارها طيراً كبيراً أسود. فسألْتُ الجنود:

ـ هل هذا نسر؟

أجاب المُقدّم:

ـ ليس هذا قفقاسك لتجد فيه نسراً. ثمّ إنّ النسر لا يقف على غصن شجرة. هذا ديك الحرجة.

ـ هل يؤكل لحمه؟

ـ في ظروفنا هذه يُعدُّ غنيمة أيضاً.

فأخذْتُ بندقية من أحد الجنود وصوبْتُ عليه، وضحك المُقدّم وقال:

ـ ها قد تبعثر ريشه.

رجوته ألاّ يُربكني. لكنّه حاول أن يُنفر الطير فقال أيضاً:

ـ ستُصيبه الآن في مكان طري تحت سرّتِهِ. الآن...

وأطلقْتُ النار. فقفز الطير قفزة إلى أعلى ثمّ وقع على الأرض مُترنّحاً. وأسرع عسكري من السيارة وجاء بالصيد.

تحرّكَتْ السيارة. ديك الحرجة ساخنٌ بعد. لونه أسود وعلىٍ جناحيه نطاقٍ أبيض، رأسه رأس دجاجة دون عرف، ويزن كيلو غراما ونصف تقريباً. فرحْتُ بصيدي غير المُنتظر، كذلك فرحَتْ شورا ومسّدَتْ بطنه، وقالت مُعبِّرة:

ــ إنّه جميل.

قال المُقدّم:

ــ اسمع يا شاب، أعطني صيدك، فأُعطيك علبة دُخّان.

أجبْتُهُ:

ــ اطلبِ مكاناً طرياً تحت سرّتِهِ.

ــ دع المُزاح جانباً، أُعطيك مع علبة التبغ ألف روبل.

ــ ادفعها ثمن لبن رائب.

ووقف على رجليه وِخلع ساعة يده:

ــ أُعطيك هذه أيضاً. ماذا، وافقت؟

ــ لا. لوأعطيتني شورا التي بجانبك بحالها لا أوافق.

فضحكَتْ شورا، وسحبَتْ ذيل معطف المُقدّم وقالت له:

ــ اجلس أيّها الرفيق المُقدّم مكانك. هذا الشاب صديقي، وهو ضابط. فلماذا يُعطيك صيده. لقد جرحْتَ شعوره.

وعرض المُقدّم زجاجة عرق أيضاً، ولكنني صفّقْتُ بيدي ولم أُعطه.

وصلْنا إلى قيادة جيش. تهيأ المُقدّم وشورا للذهاب. أهديْتُ صيدي لشورا وابتعدْتُ مُسرعاً فناداني المُقدّم:

ــ خُذ التبغ على الأقل.

لكنني لم ألتفتْ إلى الخلف.

نحن الآن في السابع والعشرين من كانون الأول نفسه. بعد يوم واحد فقط أصيرُ في التاسعة عشرة من العمر. كتابتي مُضيعة.

* * *

واجبٌ لم يكتملْ

أمروني في قيادة الجيش بالبقاء في جناح الضُبّاط ريثما يصدرُ الأمر بإرسالي إلى القطعة المُناسبة.

حزنْتُ لأنني لن اُقابل ساخنوف بمُناسبة عيد ميلادي.

في مغارة واحدة يُقيم ثلاثون شخصاً. اختلطْتُ بهم ووجدْتُ نفسي أنني الأصغر فيهم، فقال لي ناظر المجموعة:

ــ منذُ الساعة أنت عرّيف مغارتنا.

قلتُ مُعترضاً:

ــ لماذا؟ يوجد هنا من يحمل رتبة آمر كتيبة.

لسببٍ واحد فقط، هو أنك من جبهة القتال، أمّا نحن فلسنا منهم بعد.

كانوا كلّهم من الكهول الذين وصلوا حديثاً من الخطوط الخلفية. أشفقْتُ عليهم وجلسْتُ على لوحٍ خشبي قريباً من بابِ المغارة. ولم تُفارقني صورة شورا والمأجور، و((تحت السرّة)). لا شكّ في أنّ شورا هي ((ا، م، م)) المُقدّم. أي، امرأة الميدان المُتنقِلة، وإن شئتم فاجعلوها، امرأة الجيش المُتنقلة. ويلٌ للمُقدّم، إنّه ينهشُ الآن ديكي. بماذا تُفكّر شورا؟ لماذا هي مُتمسكة بهذا العجوز؟

* * *

ربَتَ أحدهم على كتفي:

ــ نفَدَ الوقود. مُرْ بالذهاب لإحضار الفحم الحجري.

قلْتُ:

ــ أذهبُ أنا بنفسي.

فردَّ مُحدثي، وهو برتبة مُعاون قائد كتيبة، بحدّة:
إنّهم لا يسمحون بأن يذهب عريفهم لإحضار الوقود.
وطلب منّي أن أُعيِّنَ واحداً آخر معه. فوقع نظري على واحد. وبالفعل وقف مُستعدّاً، وكان برتبة قائد كتيبة.
هيّا، إذهب لإحضار وقود.
وعرِقْتُ من الخجل.

* * *

طلع الصباح. واليوم عيد ميلادي.
بدأتُ أبحث عن أرمني. فدلّني أحدهم إلى مغارة قريبة قائلاً:
ـ أعتقدُ أنّه يوجد واحدٌ هناك من مناطقكم.
دفعْتُ الباب، ونزلْتُ الدرج الخشبي في المغارة التي يُنيرُها فتيل زيتي من القنب. كان النور ضئيلاً يُنيرُ صلعةً. وقف الرجل، ورأيْتُ له أنفاً جنوبياً وعينيه، وكان برتبة نقيب. لكنّه ليس أرمنيا. أردْتُ الرجوع عندما احتضنني أحدهم ونطق باسمي. كدْتُ أهتف فرحاً. فلقد كان المحتضن باكراد خاجونتس، وهو إلى حد ما قريبي من طرف أُمّي. كان يعيش مؤخرا في يريفان، وكان حزبياً عاملاً.
ـ باكراد؟ الرفيق النقيب؟ أنت أيضاً هنا؟
ـ نعم، أنا أيضاً هنا.
باكراد ربع القامة، حوالي الأربعين من العمر، ثيابه العسكرية لائقةٌ به، ولا يتصرّف مثل المُسنين. رأيتُهُ وخِلْتُ أنني وجدْتُ أبي.
ـ منذُ متى وأنت هنا يا باكراد؟
ـ منذُ ثلاثة أيام.
ـ وماذا جئْتَ تفعل؟
فاحتد وقال:
ـ جئْتُ أُحارب الفاشية، أُدافع عن الوطن، لماذا يأتون إلى الجبهة؟ هيّا قُل.

ومع ذلك قلْتُ له:

الحياة هنا في الجبهة شاقّةٌ.

فثار فضول النقيب الأصلع وسأل:

ــ هل المدنيون أيضاً موجودون في القتال؟

ــ نعم، إذا كانوا في الكتائب طبعاً لا في الخطوط الخلفية.

فبانَتْ في نظرة النقيب الأصلع آهة مكتومة، وشيء من العجب من كلّ ما يسمع. لا أعرف من أيّة قومية هو، ولكن لهجتُهُ تنم على أنّه ليس روسياً.

أخرج باكراد خاجونتس من كيسه قنينة كونياك ((أرارات)) وعلبة من اللحم الأمريكي المحفوظ وقال لي:

ــ هذا من حظك. آخر تذكار بقي عندي من الوطن.

وعزم على كلّ الضُبّاط الموجودين في المغارة أن يُشاركونا، وملأ أكواباً من الصفيح والألمنيوم وغير ذلك من أكواب الأمم المُختلفة، ورفع كوبه وقال:

ــ أنا أذكرُ يوم مولدك جيّداً. لقد عشْتَ نبيلاً في هذه الدنيا. أتمنّى لك خمسة أضعاف عمرك من الحياة يا جُندي الوطن.

والتفَتَ إلى الضيوف قائلاً:

ــ أُقدّم لكم هذا الجُندي الأرمني مواطني. نحن الأرمن أوفياء دائماً للدولة السوفياتية، فلنشرب نخب حياة هذا الوفاء.

وشعرْتُ بكثير من الفخر والاعتزاز، وصار باكراد في عيني رمزاً.

تحدّثنا طويلاً، وكان هذا اليوم أسعد يوم عشْتُهُ في حياتي. باكراد بالنسبة لي شقيق.

نحن الآن في الثامن والعشرين من كانون الأول. أنا في التاسعة عشرة من العمر. كتابتي فخورة ووطنية.

المغارة الثالثة من الجهة اليُسرى

يُقابلني باكراد خاجونتس كلّ يوم ويتساءل قلقاً:

ـ لماذا يتأخرون في إرسالنا إلى قطعات الجيش؟ هل أتينا إلى هنا للاستجمام؟

فأردُّ عليه:

ـ انتظرْ، سيأتي ذلك اليوم حتماً، فالقيادة تعرف ما تفعل، وأنا مُستعجل أكثر منك.

* * *

وجاء إلى نقطة التجمّع أشخاص جدُد من مُختلف أرجاء الاتحاد، كلّهم مُتشابهون،

وكلٌّ قام يشكو من عدم إرساله إلى المواقع الأمامية للقتال. ولكي لا يملّوا من الفراغ بدؤوا بإجراء تدريبات يومية من الصباح حتّى المساء. أمّا ((عجائزي)) فرجوني أن أُعرّفهم على سلاح مدفع الهاون.

ـ أنت قاتلت، وعندك خبرة، علّمنا نحن أيضاً.

وأمرّتُ بحفر خنادق للمدافع قريباً من المغائر، وبدأْتُ بإفراغ الخنادق بالتعاون مع ((العجائز)). كان هؤلاء الرجال يتعلّمون الأمور القتالية بسرعة عجيبة ناسين مناصبهم المدنية، كالأمين العام للمكتب الفرعي، ومُدير محطة الطاقة، وأُستاذ المعهد المُحاضر، حتّى المُمثل المسرحي هذا الرجل الأصلع.

* * *

في الأُمسيات أصفُّ ((العجائز)) الموجودين تحت إمرتي وآخذهم إلى المطبخ لنأخذ نصيبنا من حساء البطاطا أو الملفوف. فيسيرون مشدودي القامة قدر طاقتهم ثابتين، وقد يُغنّون إذا طلبْتُ منهم ذلك:

أنت طَيري، طَيري يا حصاني
ما دمْتُ لم أمسك بك بعد.

في المطبخ يمدّون قصعاتهم المُطعجة المعوجّة بكلِّ خضوعٍ إلى البنات الطبّاخات غير العسكريات، بل في خدمة حُرّة بالأجرِ. ويسحبُ ((عجائزي)) الخبز من جيوبهم ويأكلونه مع حساء البطاطا. ثمّ، ومن دون انتظار التعليمات يصطفّون، وإذا شئْتُ يُكملون النشيد الذي بقي نصفَهُ:

وإذا أمسكْتُ بك لجمتُكَ
بمرس متين.....

أشعرُ مع هؤلاء الكبار المحبوبين، هؤلاء المُهذّبين، أنني تطهرْتُ تماماً.

* * *

في هذا المساء، مددْنا قصعاتنا من جديد لنحصل على نصيبنا ((الوافر)) من الطعام وإذ بإحدى البنات تقول:

ــ كان ديكك لذيذاً.

فوجمْتُ وتطلّعْتُ، فإذا بها شورا في رداء أبيض وقُلَنْسوة بيضاء. وأخذْتُ قصعتي وقالت:

ــ أنا اليوم مُناوبة في المطبخ من قِبل المركز الصحّي.

قالت ذلك ودخلَتْ إلى المطبخ وعادَتْ وقد ملأتْ القصعة بحساء البطاطا وعلى سطحه الزبدة المُذابة.

ــ هذا من البطاطا غير المُجمّدة (للكبار).

ــ وأنتِ ماذا تفعلين هنا يا شورا؟

ــ المُقدّم العجوز هو رئيس الأطبّاء المُعيّن لهذه القطعة، وقد ربطني إلى رجله، واليوم أنا مُناوبة في المطبخ.

وسألتُها وأنا أتصنّع عدم الاكتراث:

ــ وهل أنت مُنقادة لهذا الرباط؟

فأرخَتْ شورا كتفيها وقالت:

ـ لا أعرف، من مربوط بمن؟ أنت شديد الغباء، وبذرة الشك في نفسك سخيفة. لكن لا يسير كلُّ شيءٍ حسب ما تُفكِّر به أنت.

سعيْتُ لايصال نصف حسائي إلى باكراد، لكنني أكلتُهُ في الطريق، وبدأ باكراد بإستنطاقي: من أين؟ من أعطاك؟. يا له من رجل مُدقق نظامي!

* * *

في المساء التالي أيضاً أعطتني شورا طعام ((الكبار)) وقالت:

ـ أتيْتُ اليوم إلى المطبخ من أجلك، ومن أجل أن يكون طعامك لائقاً بك. كوخي هو الثالث إلى اليسار. أنتظرك في الساعة الحادية عشرة.

وماذا عن مُقدّمكِ؟

فانتفضَتْ ودسَّتْ في جيبي قطعتي سُكّر.

ـ وما علاقتُهُ بي؟ أنا حُرّةُ نفسي. أنا وحدي وبحالي. لا حُكم له عليّ إلاّ فيما يتعلّق بالخدمة، ولا شيء غير ذلك.

* * *

لعبْتُ بالدومينو مع باكراد واثنين آخرين من الساعة التاسعة حتّى الساعة الحادية عشرة. في الحادية عشرة تمنيْتُ لهم ليلة سعيدة وخرجْتُ.

كانت ليلة شتوية صاحية ذات نجوم وجليد. وصلْتُ إلى كوخ شورا و ... تابعْتُ طريقي.

ونمْتُ في مغارتي مُطمئناً.

* * *

جاء الصباح. وإذا بشورا تخلقُ جلبة في المطبخ باعتبارها مراقبة صحيّة. لم تأخذ قصعتي بل قالت:

ـ أكل نصيبك واحدٌ آخر يا ((غبي)).

في طريق العودة كان ((عجائزي)) يُغنّون. لماذا أعتبرهم عجائز؟ أكبرهم في الخامسة والأربعين من العمر. لكن قد أكون أنا العجوز لأنّهم يُغنّون وكأنّهم يصرخون في وجهي مفتوحي الأفواه.

ـ يا غبي ...

أنا لم أندم على ما فعلت.

* * *

مساء هذا اليوم جاء باكراد لزيارتي مع رفيقه الأصلع، ورحنا نُدخّن ونتحادث بحضور كلّ ((عجائزي)).

وعلى حين غرّة منّا دخل اللواء الركن قائد جيشنا إلى المغارة. ولمّا كنْتُ أنا ناظر المجموعة، وقفتُ مُتأهباً وصحْتُ:

ـ استعداد.

شرحْتُ وضع المجموعة للواء الركن الذي صافحنا كلّنا مع أربعة آخرين كانوا معه، ثمّ اقترب من نور الفتيل وقال:

ـ يا رفاق، تكلّموا عن مشاكلكم، أنا مُصغٍ إليكم.

أول من برز كان قائد الكتيبة المكلّف بإحضار الوقود. وأعرب عن رغبته في إلحاقه بأية قطعة في الجبهة. هزّ الجنرال رأسه وقال:

ـ حسنٌ.

ونظر إليّ وقال:

ـ أو، أيّها اليافع. أأنت أيضاً تتعجّل الذهاب إلى الجبهة؟

أجبْتُ:

ـ نعم، أيّها الرفيق اللواء، لقد اشتقْتُ إلى رفاقي الجبهويين.

ـ وماذا لو أرسلتُك إلى الكليّة الحربية للتعلّم؟

ـ لا أذهب، أنا أعرف صنعة القتال من دون الكليّة. أنا جبهوي.

إبتسم اللواء الركن وقال:

ـ ها ... أنت أرمني، استنتجْتُ ذلك من حماستك.

والتفَتَ إلى باكراد:

ـ وأنت، ما طلبك، رفيقي النقيب؟

أجاب باكراد:

ـ أنا أيضاً أُريد الذهاب إلى الجبهة، رفيقي اللواء.

لا يُمكن أن يكون عنده جواب آخر، فأنا أعرفه.

وتحرّك اللواء باتجاه الباب ينوي الخروج، وإذا بصاحبي الأصلع يعترض طريقه. فسأله اللواء عن مطلبه. غمغم الرجل قائلاً:

ـ أنا لا أعرف الروسية جيّداً، أرسلني إلى الخلف.

فكر الجنرال قليلاً ثمّ هزّ رأسه والتفتَ إليّ قائلاً:

ـ قل لهذا الرفيق أن يحضر إلى قيادة الجيش، فسأُرسلُهُ إلى الخلف.

انحنيْتُ على أذُن باكراد:

ـ قُل له أنت أيضاً إنّك لا تعرف الروسية، وليُرسلْك إلى المؤخرة.

فضغط على ذراعي بشدّة، حتّى كاد يخلعُها. وبعد ذهاب اللواء انفجر في وجهي:

ـ كيف تجرؤ على إسماعي مثل هذه الفكرة، أيّها الرضيع؟ لقد جئْتُ لأُحارب، هل تفهم؟ أنا شيوعي، هل تفهم؟ وأنا أرمني أيضاً.

وطلبْتُ منه العفو عمّا قُلْتُهُ دون رويّة.

* * *

بعد يومين وزعونا على القطعات العسكرية. واتفقْتُ مع باكراد على أن يستعلم كلٌّ منّا عن عنوان الآخر بأية وسيلة كانت لنتمكن من المُراسلة، وافترقنا بعدما تبادلنا القُبُلات.

هل حلّتْ السنة الجديدة؟ لماذا لم أعلم بها؟ هل ستُصادفني شورا من جديد؟ إذا حصل وصادفتُها، فلن أنفصل عنها أبداً.

نحن الآن في السابع من كانون الثاني. أنا في التاسعة عشرة من العمر منذُ عشرة أيام. كتابتي للعام الجديد.

* * *

العام الأصفر. 1943

على مبعدةِ أربع خطوات من الموت

الجبهةُ قريبةٌ. لذا ذهبْتُ إليها ماشياً، فعبرْتُ نهر فولخوف عن طريق الجسر المُعلّق قُرب حصن (سيليشجينيا).

الطريقُ معروفة. كومة خرائب (مياسناوا ـ بور) المُحترقة، ثمّ ذلك الميدان الذي جُرِحْتُ فيه أول مرّة.

لكن المداخن الآجرية التي كانت ظاهرةً فوق الخرائب في الربيع قد خُرِّبَتْ هي الأُخرى الآن.

هنا حقل زراعة البطاطا، حيث كنّا نلتقط البطاطا التالفة من بين الطين، والذي بسببه كادوا أن يُرسلوا كوليا مكسيموف إلى السجن.

الثلج. الثلج تحت قدمي مثل أمواج مُتجمّدة، يصفُرُ مثل طفل ينوح.

في المنطقة الدفاعية الضيّقة على ضفة النهر، وإلى جانب قطعات عسكرية أُخرى كان يُحارب لواء المدفعية الثاني الذي عينوني فيه لمُتابعة خدمتي.

سألوني في القيادة:

ــ هل أنت قديمٌ في رتبة مُلازم ثانٍ؟.

ــ منذُ ستة أشهر.

ــ آن الأوان إذن لتسميتك مُلازماً أولاً.

لم أعترض، وعلمْتُ أنّ اللواء الذي كنْتُ أخدم فيه قد نُقِلَ إلى مكان آخر في الشمال. أنا الآن آمر حضيرة مدفعية الهاون في الكتيبة 261 من اللواء الثاني من تشكيلات الجيش 59 على الفولخوف.

* * *

في قيادة الكتيبة سلّموني أول منحة: وسام ((النجم الأحمر)). قالوا:

ــ هذا لبلائك الحسن في زفانكا. هل معك صورة؟

ــ كلا.

وبدلاً من الصورة كتبوا على براءة الوسام ((صالحة من دون صورة)) لكن لماذا من أجل معارك زفانكا؟ نحن لم نتمكن من انتزاع زفانكا من العدو. فلماذا هذا الوسام إذن؟ لماذا أثقل رأسي بمثل هذه الأسئلة. ((الكبار)) يعرفون ماذا يفعلون.

ثبَّتَتْ كتيبة المدفعية 261 مواقعها في الشطر الأيسر من المنطقة الدفاعية على مُرتفعات تُجاور الغابة التي صارَتْ هيكلاً على ضفّة نهر فولخوف.

في مقر قيادة الكتيبة ضُبّاط لا أعرفهم، فحزنْتُ لذلك. حتّى أنّ رئيس مكتب القيادة لم ينظر إليّ.

سألني:

ــ أأنت مُعافى تماماً؟

ــ تماماً.

تشوّقْتُ إلى معرفة مغزى شكّه في سلامتي. في هذه المرّة نظر إليّ بامتعاض وقال:

ــ كثيرٌ من القادمين من المُستشفى يؤكدون أنّهم لم يتعافوا بعد. إذن، اعلمْ أنك داخل على ميدان فيه كلّ يومٍ حرب، كلّ يومٍ قتال، كلّ يومٍ موت. وقد يحدث نقصٌ في الغذاء.

ــ أنا أعرف كلّ هذه الأمور.

ــ يا للرومنطقية!

* * *

ذهبْتُ إلى الحضيرة التي عُينْتُ عليها.

يبدأُ خطُنا الدفاعي من ضفّة النهر إلى مسافة ثلاثمائة متر مُتغلغلاً باتجاه مواقع العدو. بيننا وبينه مسافة مائة متر هي الحزام المُحايد، حقدٌ جديدٌ على الهتلريين.

يُطلق العدو أحياناً طلقات من رشاشاته وقنابل من مدفعيته تُعكّر نظافة الثلج وتُقلق راحتهُ، وقد ترتطم القذائف والقنابل بصفحة النهر المُتجمّدة فتنطلق فوارات من الماء.

في مكان ما ينعقُ غُراب بقوةٍ وخشونة. لم أتمكّن من تحديد مكانه لأنّ أُذُني الصمّاء لا تُساعد على ضبط الوجهة الصحيحة للصوت.

خرجَتْ من أحد المغاور بنت تحمل طستاً، وبسرعة رشقَتْ ما فيه من ماء الصابون على تلّة مُتجمّدة وعادَتْ إلى الداخل. توجد على باب المغارة علامة الصليب الأحمر. أدركْتُ مُتأخراً أنّ البنت كانت شورا. إنّها لم ترني. لكن متى وصلَتْ إلى هنا؟ ولماذا؟ هل هي مع طبيبها ذاك العجوز أم أنّها تحوّلَتْ عنه؟ لكنني استغنيْتُ عن هذه الأسئلة وطرحْتُها جانباً. حسنٌ أنْ لم ترني شورا، بل لعلّها تصنَّعَتْ عدم رؤيتي، من يدري. في الواقع أنا مسرورٌ لأنّها هي أيضاً في هذه الكتيبة.

* * *

تتمركز سريتنا (مدافع الهاون) على الضفّة مُباشرةً.

نحن أربعة ضُبّاط، أمّا آمر السرية فهو بيوتر بوتغارادزه، الدليل غرافتسوف، آمر الحضيرة أنا وإيفان أوفيتشكين.

فوجئْتُ برؤية ساخنوف. فسألْتُهُ:

ــ كيف حصل وأنت هنا يا عجوز؟

قال:

ــ حظّي. تحوّل لواؤنا وذهب إلى الشمال للتعبئة. أمّا من بقي من الأحياء منه فضمّوهم إلى هذه القطعة، وها أنا هنا كما ترى.

إنّه حاجبُ آمر سريتنا. وقد ربّت على يدي وقال:

ـ الحمدُ لله أننا مازلنا أحياء. كم مرّة نجونا من الموت!
استمعْتُ إليه وحسبْتُ أنّه يقول ذلك بأسف.
مواقع مدافعنا الهاون في سريتنا تبعد خمسين متراً عن مغارتنا، خلفنا مُباشرةً. تربطُ بين قيادة السرية والمواقع خنادق عميقة، وملاجئ. سريتنا كلّها تحتوي على حضيرتين وحسب.
عُيّن أوفيتشكين على إحدى هاتين الحضيرتين، وعُيِّنْتُ أنا على الثانية. كنّا نقضي اليوم بقسمه الأكبر في قتال مواقع فعلية. أمّا الليل فأقضيه بين المواقع.

* * *

الدليل غرافتسوف رجلٌ وسخ، يقضمُ الخبز بهمهمة. ويغتسل مكرهاً. أمّا عندما يتكلّم، فلا يعرف غير الشتم والسب. يجمعنا في الأُمسيات تحت ضوء الفتيل بعد فراغنا من العمل، ويتحدّث ساعات عن أشكال الجيش التي نعرفُها. يتكلّم آلياً بجمل غير مُترابطة. بلا روح ولا هدف، فينام أوفيتشكين، ويتظاهر ساخنوف بالاستماع، ولا يبقى غيري مُنتبهاً. وأنا أسعى إلى التعوّد على لفظ الكلمات الروسية صحيحة.
بعدما ملّ، قام ساخنوف قائلاً:
ـ حان موعد العشاء. فلأذهب ولآخذ طعاماً إلى المواقع.
وكأنّ غرافتسوف كان ينتظر هذه الكلمة، فأطبق دفتر تسجيل المُذكّرات، ودسّهُ في عبّه والتفتَ إليّ:
ـ هيّا نلعب الشطرنج إلى أن يعود ساخنوف.

* * *

أذهبُ بعد العشاء إلى المواقع.
في كلّ يوم نقتلُ بعض الجردان بمسدسنا لأنّها تأكُلنا. مرّةً قرضَتْ قميص غرافتسوف. وأكلَتْ إطار قُبعة أفيتشكين المشمّع. وفي الصباح

ننزحُ الماء المُتجمّع في المغارة بدلاء خشبية صنعَها ساخنوف، وهي عملية مُزعجة.

وفي المواقع يُفرغ جنودي الثلج من الخنادق. أنا أنام في مربض المدفع. فأنظر إلى السماء وأعدُّ القذائف والصواريخ والقنابل التي يُطلقُها علينا العدو في ساعة واحدة.

* * *

يُسخّن ساخنوف ماء لآمر السرية ليحلق لحيتُهُ، ويشحذُ موسه على حزامي الجلدي، لأنّ حزامه من البرونز، ويقول بألم:

ـ طال شعر المُلازم الأول، وعليّ أن أقصُّهُ له.

فأسألُهْ:

ـ لماذا أنت؟ ألا يوجد حلاّق مُتنقّل في الكتيبة؟

ـ الخدمة عندنا ذاتية. ثمّ إنّ شعر المُلازم شاذ لا يقطعُهُ الموس.

لم أفهم هذه الفقرة. الشعر شعر، وأنا أحلقُ من زمن بعيد، فما معنى الوضع الخاص. لكنّ ساخنوف في نظري نبي، فكيف لي أن أعترض عليه؟

بعد آخر مرّة خرج فيها من السجن قبل شهر من الحرب راح يبحثُ عن عمل. وقبل أن يجد، استدعوه إلى شعبة التجنيد وأرسلوه إلى مُعسكر التدريب باعتباره لصاً سابقاً. وجاء معي من جيليايِنسك مُتطوعاً مثلي إلى الجبهة. أذكرُ كيف ربطْتُ جرحه في مياسنوى ـ بور. فسألْتُهُ:

ـ هل شُفي جرحُك تماماً يا ساخنوف؟

فضحك ساخراً:

ـ لا بأس.

ـ أما كنْتَ تستطيع الذهاب من المُستشفى إلى البيت؟

ـ كان بإمكاني ذلك. ولكن إلى أين أذهب، لا أهل لي ولا زوجة، وبالطبع ولا ولد، وأكادُ لا أذكرُ أين ولدْتُ،

قال ذلك ونظر إليّ في حُزنٍ وأضاف:

ـ مللْت...

ـ من أيّ شيء؟

ـ من صنعتي. إذا لم تنزلق أقدامي حتّى نهاية الحربِ، أذهبُ إلى الجنوب وأعملُ في كروم العنب. أستطيع أن أشتغل حلاّقاً. لكن العنب أحلى من الشعر.

* * *

عقد ساخنوف صحبة مع الطبّاخ، وصار يأتينا أحياناً بطعام اسمه دابفكا. لكنّه ركّز كلّ اهتمامه على بوتغار ادزه لإنقاذه من حكّة أصابتْهُ، فعاد إلى المُلازم الأول لونَهُ.

بوتغار ادزه طبيب أطفال، طبيبٌ ودود.

إيفان أوفيتشكين يشكو من قِدم ثيابه فيقول:

ـ ضُبّاط الخطوط الخلفية يلبسون الثياب الأنيقة، أمّا نحن فنلبس ما تيسّر. أوفيتشكين يخلقُ شيئاً من لا شيء، لكنه خدوم. لقد خاط لنا قُبّعات عسكرية وراح يرقعُ أحذيتنا كلّما احتاج الأمر.

واتبعنا طريقتهُ، أنشأنا حول مواقعنا حواجز دائرية الشكل، وجعلناها مُتصلة بالسراديب تحت الأرض.

وقال مُبرراً:

ـ كفانا نوماً، علينا الآن أن نتعمّق في الأرض لكي ننجح بعد ذلك في الهجوم على العدو.

شيءٌ واحد كان يغيظُ أوفيتشكين، هو أنّه لا يستطيع أن يُدرك شيئاً من خارطة الأماكن. فيقول ساخطاً:

ـ لا أُريد أن أراها، إنّها من عمل الشيطان، لا أتوصل إلى إدراكها.

نحن الآن في السابع عشر من كانون الثاني. مضى عشرون يوماً على بلوغي التاسعة عشر من العمر. كتابتي بقلم الكيمياء.

لحمُ حصان

يربض بجانبنا مدفع مُضاد للنقيب غوبين، داخل مواقع حصينة. بفضل الشطرنج تعارفنا. غوبين طويل القامة كبير الأنف ضيّق السروال، وذو صوت خافت. ذكرني بفرسان المجر الذين لم أرهم إلاّ في الصور.

إذا ربحني غوبين يصيحُ بصوتِهِ الضيّق:

ـ هه، ألا نشرب قدحاً من العرق؟

ولا أعلم من أين يحصل على العرق.

* * *

قُلْتُ لغوبين مرّة إنّ جنود المدفع المُضاد يعيشون في راحة. فسألني:

ـ من أيّة جهة تعني؟

ـ قليلاً ما نسمع صوت مدفعك المُضاد. لعلّك تخشى أن يكتشف الألمان مكانك.

عضّ غوبين على شفته، وأمر تشكيلة مدافعه بأن يُطلق كلّ واحد خمسين صاروخاً على مواقع الألمان.

وزمجَرَتْ ضفّة النهر، وانطلقَتْ الصواريخ من تسعة مواقع خلال دقيقتين اثنتين.

وصاح غوبين واقفاً بطول قامتِهِ:

ـ نار، أنا... هؤلاء الجُبناء المُقملين.

فسددْتُ أُذني وذهبْتُ بعيداً عنه.

بالطبع، يوجد مثل غوبين عند الألمان أيضاً، فبدأ هو الآخر يُعكّر مواقعنا. يوم جهنمي. كان بيتنا تحت الأرض يهتزُّ من الانفجارات،

مثل صندوقٍ فارغ على عربة تسير على أرض وعِرة. وخاف ساخنوف وتكوّر خوفاً من أن ينزل صاروخ فوق بيتنا..

استمرّ قصف غوبين الأرعن أربع ساعات. فتنهد غرافتسوف وقال:

ـ لم يبق من مواقع غوبين غير المخلب والمنسر.

خفْتُ على غوبين. لأنني أنا الذي حرّضْتُهُ على التفرّد بالقصف. فخرجْتُ من مغارتي بسرعة وذهبْتُ إلى مواقعه.

الركض مُستحيل، ففي كلّ متر حُفرة جديدة نتيجة للقصف. الأرض مُمزّقةٌ والثلج مسوّد. تعجّبْتُ عندما رأيْتُ غوبين واقفاً بقامتِهِ المديدة في الموقع.

فصحْتُ:

ــ إيه؟ هل خسائرك كبيرة؟

فقال وهو يصُفّقُ بيديه:

ــ قُتِلَ حصان. نأكل لحمه. وعُطِبَ مدفع عطباً خفيفاً.

فسألتُهُ عمّا سيفعلُهُ بعدما اكتشف العدو مكانه. وضحك ساخراً:

ــ أسكُتُ ثلاثة أيام، فيظنُّ الألمان أنّهم قضوا علي، ثمّ أنقضُّ عليهم مرّةً أُخرى بكلّ قوتي، وأُنغّص عيش ذلك الهتلر.

واقترح عليّ لعبة شطرنج، فاعتذرْتُ.

ــ أُفضّلُ أن تُعطيني قليلاً من لحم الحصان، فلن تأكلُهُ كلّه وحدك.

فكزّ على أسنانه:

ــ أُنظر كيف. إذا لعبْتَ اللعبة وحمستني لتحصل على لحم حصان وتأكل شواءً أرمنياً؟

ولعبْتُ معه الشطرنج وأملي أن أغلبهُ وأحصل على اللحم. غلبْتُهُ وأعطاني عشرة كيلو غرامات من لحم الحصان.

عدْتُ إلى مواقعي وأعطيْتُ لحماً لجنودي. ورأيْتُ على سطح النهر المُتجمّد سمكاً لا يُحصى، اندفع مع فوارات الماء الذي ارتفع بعدما انكسر السطح من الصواريخ. فناديْتُ رجالي:

ــ تعالوا نجمع سمكاً يا شباب.

وجمعْنا ما لا يقلُّ عن عشرين رطلاً من السمك.

حضيرتي شبعانة.

* * *

عند الصباح حضر إلى مواقعنا فجأةً آمر سريتنا مُعاون قائد الكتيبة، فشرحْتُ له سير العمليات وأطلعْتُهُ على مواقعي. صافحني وصافح كلّ جندي كان موجوداً في المواقع. آمرُنا هذا طويل، يميلُ إلى السُمرة، هيئتُهُ العسكرية مهيبة، مُندفعة. وأظن أنّ من يحمل مثل هذه الصفات لا يستسيغُ مرارة الإنكسار.

قال:

ـ لقد جئْتُ من الخلف بجهاز راديو، إنّه شيءٌ جذّاب ويمكن استعماله حاكياً أيضاً باسطوانات.

سألْتُهُ:

ـ هل جاءك هدية؟

قال:

ـ لا بُدَّ لي من تسليمه إلى حضيرة من الحضائر هدية، هدية فريدة في الجبهة. هه، ماذا تقولون؟

وبعدما تفحّص طويلاً مواقع مدافعي وتحدّث إلى جنودي التفتَ إليّ وقال:

ـ هل تعرف؟ نحن منذُ زمن بحسرةٍ إلى لسان، ليس لدينا ((لسان)) يخصّنا، يخصُّ كتيبتنا. وقرّرْتُ أن أمنح الراديو للحضيرة التي تُحضر لنا ((لسانا)).

غمزني ساخنوف الذي كان يقف باستعداد ويستمع إليه، بعينِهِ دون أن يلحظه أحد. قصد أن يُفهمني أنّ آمر الكتيبة يُريدنا أن نحضر له ((لساناً)) وهو يحثُّني على الموافقة. فأومأتُ إليه برأسي والتفَتُّ إلى آمر الكتيبة وقلت:

ـ اسمحوا لي أيّها الرفيق مُعاون قائد الكتيبة بأن أذهب أنا ورجالي لإحضار لسان. والحق أنّ أي مخلوق لا يُساوي شيئاً من دون لسان يخصّهُ. فأرجو أن تسمح.

ضحك آمر الكتيبة وقال:

ـ بالطبع، أنا ما جئتكم إلاّ لهذا الغرض.

جلسنا في الخندق نُخطط لعملنا. وقرّرْنا أن يذهب ثلاثة أشخاص بطلبِ ((اللسان)). أنا وساخنٍوف، وافريدور سوروكين. واقتادنا آمر الكتيبة إلى مكتبة القائم فوق تل قريب.

* * *

تدرّبْنا ثلاثة أيام على عملية اقتناص ((لسان)) وكنّا نُغير سبع مرّات كلّ يوم. أمّا ((اللسان)) فهو ألماني، نأسره من المواقع التي تُقابلنا والتي تقعُ على بُعدِ مئتي متر ٍتقريباً. فإذا ما ذهبنا واقتنصنا أيّ واحدٍ من هؤلاء الألمان، يُصبحُ لساناً لنا، يحكي ما يهمّنا أن نعرفه عن مواقعهم وقواتهم.

قال ساخنوف في شكٍّ: ـ وإذا اقتنصناه، ولم يتكلّم ابن الكلب، إذ يوجد أشخاص عنيدون، فماذا نفعل؟

قلْتُ له:

ليس هذا من شأننا. مهمتنا أن نأتي به أسيراً، وعلى مكتب القيادة أن تفتح فمه.

قال ساخنوف:

ـ لكنني مع كلّ ما سرقْتُ لم أخطف في حياتي إنساناً. يشهد الله أنّ لا خبرة لي في مثل هذه الأمور.

ـ هل ندمْتَ على اقتراحك؟

ـ أتخلّى عن رأسي ولا أتخلّى عن اقتراحي.

تهيأنا حسبما يجب. افريدور قوي كالثور، هو يحني ظهر الأسير. ساخنوف شاطر أريب، وعيناه تريان في الظلام. وأنا أيضاً... أنا ذاهبٌ إلى رحلة كأنّها مُتعة.

* * *

في ضوء الثلاثين من كانون الثاني وليل الواحد والثلاثين منه، وفي الساعة الثانية عشرة دخلنا الحزام المُحايد. الدنيا ليل والشتاء قارس البرد. ولا أرى في الظلام سوروكين وساخنوف على السطح الأبيض إلاّ بصعوبة، مع أنّهما بجانبي.

يمشي ساخنوف في المُقدمة ثمّ افريدور وبعدهما أنا. أنا أُشفق على ساخنوف لأنّه رجلٌ بلا بيت، مثل الريح الضالّة. وها هو يمشي بحذر قطة. أتعجّبُ من هذا الرجل الشقي الذي قضى نصف عمره في السجن، والذي يعتبر السرقة اختصاصه الوحيد، لماذا تطوع وأخذ على عاتقه بملء إرادته هذه المهمة الخطرة؟ ما هذه الروح الخيّرة في هذا الرجل؟ وماذا يبغي وما هي القوة التي تدفعُهُ إلى التضحية؟

ها هو خطّ الدفاع الهتلري الأول. يوجد سور من الطين وأسلاك شائكة وأعمدة داعمة. قادنا ساخنوف من خلالها، ثمّ بدأنا نزحف زحفاً.

كانوا يرشقون من مواقع العدو بالرشاشات والقنابل، وقد يُطلقون قُنبلة مُحرقة تنفجر في الجو، ثمّ تذرو ناراً تتساقط مطراً فوق الثلج. أشار ساخنوف إلى شجرة ثمّ ألصق شفتيه بأُذني وهمس:

ــ هذه نقطة نار فيها ألمان. فلنتجه إليها.

الثلجُ حار. أكادُ أنسلقُ داخل فروتي. لماذا لا أخلعها وأُلقيها بعيداً؟ العرق يتصبّبُ من جبيني ويدخل في عيني. العرق ساخن. لماذا كلّ هذا الحر هنا؟ أزحف فوق الثلج، وأحسبُ أنّ الثلج يحرق يدي وأنفي وكلّ جسمي. هل أنا محموم؟ لا أدري.

نعم، الشُجيرة هي نقطة رمي ألمانية. هي تحت أنظارنا على بُعد خمسة وعشرين مترا. رأيناهم يُطلقون منها صاروخاً. التصقنا بالثلج. على ضوء القنبلة رأيْتُ واحداً منهم، طويل القامة في ثياب دافئة، فتح ذراعيه وتثاءب وهو يُتابع خط ضوء الصاروخ وانسكاب النار.

انطفأت القُنبلة وساد ظلام دامس لا يُشق، ثمّ بدأ ينفرج مع اعتيادي عليه.

الآن أرى طيف الألماني الأسود، الذي كان يظهر عملاقاً من أسفل. وألصق ساخنوف فمه بأُذُني مرّة اخرى وقال:

ـ امكث هنا واجعل هدف سلاحك باب السور. هل تراه؟

أنا لا أرى شيئاً. لكن ساخنوف ظلّ يقترب من الباب حتّى أراني إيّاه، غاطساً في الأرض، لا يُرى منه غير طرف إطاره العلوي.

وقال هامساً:

ـ راقبْهُ، حالما تره جيّداً أطلق نيران سلاحك عليه. ثمّ ألصق ساخنوف فمه بأذن افريدور سوروكين. على الأثر، تقدّمه سوروكين قليلاً ثمّ انعطف إلى اليمين.

عندنا سكون أصم. من بعيد مدفع يُلعلع. أشعر بحرارة رائحة السور. يبدو أنّهم يُشعلون ناراً هناك، كما أشمُّ رائحة دُخان و... يا للفظاعة، ركبني النوم. أعضُّ على لساني لأطردَهُ عن عيني، لكنّه يكاد يغلبُني. هل هذا وقت النوم؟ انقضّ ساخنَوف وسوروكين على الألماني من جهتيه. لم يصدر أيّ صوت ولم أشعر بأيّ خوف. وفرَّ النوم. ومرّا مع الألماني بقربي مربوطاً وقمْتُ من مكاني وأسرعْتُ وراءهم. كانا يأخذان الأسير غائباً عن الوعي محمولاً، رأسه على كتف ساخنوف ورجلاه على كتفي سوروكين. وأحسسْتُ كأنني زائدٌ في هذه العملية فأفلَتُّ في الضحك، ضغطتُ على فمي كي لا أُصدر صوتاً وتقدّمتهم من حيثُ جئنا، لأتأكد من آثار أقدامنا.

بعد قليل فوجئْتُ بصوت ساخنوف عالياً يقول:

ـ اسحب قفّازي من فم الأسير، فقد وصلنا.

سحبْتُ قفّاز ساخنوف القطني المُبلل الذي كان قد دسّه في فم الأسير ليكتمَ صوته. وفكَّ سوروكين رباطه وسار معه قابضاً على يده بإحكام...

هذه هي مواقعنا.

واستقبلنا في الخنادق كرافتسوف وبوتكارادزه:

ـ هه؟ فارغين؟

ضحك ساخنوف بكلِّ كيانِهِ. وأمام الجميع قبّلنا بوتكارادزه نحن الثلاثة، وأبلغ آمر الكتيبة هاتفياً من أقرب حصن بقوله:

ـ رفيق خمسة وعشرون. مرني. إلى أين نُرسل لساننا؟

قدّم كرافتسوف عرقاً للأسير.

ـ اشرب يا طيري الوديع ليذهب عنك خوفك. ألم ينعقد لسانك؟

قال الألماني شيئاً لم نفهمه. لكنّه شرب العرق وطلب خُبزاً.

* * *

جاء آمر الكتيبة ومعه مُرافقه يحمل على كتفه الراديو هديتنا.

قال مُعاون قائد الكتيبة:

ـ توجد معه اثنتان وخمسون أسطوانة، هدية لحضيرتكم. اسمعوها على هواكم.

بعدما ذهب الجميع قُلْتُ لساخنوف:

ـ لكنّك وعدْتَ يوماً أنّك لن تعود إلى السرقة أبداً.

فارتمى على المقعد الخشبي وزمجرَ:

ـ أنت أيضاً قُلْتَ إنّ أسر العدو واختطافَهُ ليس سرقة. هيّا جرّب هذا الراديو لنرى إن كان يعمل أم لا. وليعزف لنا شيئاً، فقلبي مُنقبض. فليغن لنا هذا الجميل شيئاً. من زمان لم أسمع غناء.

وشغلْتُ الراديو. حقّاً إنّه شيءٌ عظيم. ها هم يعزفون على الكمان. في المغارة السوداء الجامدة. ومن بين القبور رنّ صوتٌ نسائي ناعم:

لا تنظر إليّ هكذا يا حبيبي

أنا أخاف من نظرتك القاسية.

جلس ساخنوف على مقعده.

ـ لا لزوم له.

ـ وأسكت الراديو. ثمّ دخّن والتفتَ إليّ يسألني:

ـ ترى هل لهذا

((اللسان)) ولد؟

ـ نسأل ونعلم.

ـ ألا يُرسلونه إلى (السماء)؟

ـ لا يا ساخنوف، ماذا تقول. سوف يعيش.

نحن الآن في الواحد والثلاثين من كانون الثاني. شهر وثلاثة أيام وأنا في التاسعة عشرة من العمر. كتابتي رائحة سمك.

المصرانُ الأعور

ثلاثة أيام ولياليها ونحن في قتال مُستمر.

عند المساء استدعوني مع كرافتسوف وضابط آخر من المُشاة إلى مكتب القيادة.

ــ اذهبوا لمدّة ثلاثة أيام تحت تصرّف الفرقة الأولى.

فسأل كرافتسوف:

ــ لأيّ غرض؟

ــ تعلمون هناك.

بيت آمرِ الفرقة كهفٌ بمستوى الثلج، ومن بين الثلج يتصاعد دُخان ينثر سُخاماً فوق الثلج أيضاً. دخلنا محنيّي الظهور. يضفي نور الفتيل على وجه المُقدّم آمر الفرقة لوناً أحمر. رمقَنا ببرود وقال:

ــ ها قد جئُتم أيّها المدفعيون. لكن ما بالكم؟ كأنّكم أموات.

فغمغم كرافتسوف:

ــ ماذا تقول أيّها الرفيق المُقدّم؟

فصفّق بيديه وقال:

ــ لا تقولوا شيئاً. الكلام لي. الموضوع يا شُجعان، هو أنّ إحدى حضائري المؤلفة من ثلاث نقاط رمي ناشبة كالمصران الأعور داخل المواقع الألمانية، واقعة في ضيق، لقد قُتِلَ آمرها، وأُريد أن يحلَّ واحدٌ منكم محلّه مؤقتاً ريثما يصلني غيره.

فسعل ضابط المُشاة وقال:

ــ كان بودّي أن أذهب لولا حرارتي المُرتفعة

فطردَهُ المُقدّم:

ــ اغرب عن وجهي يا جيفة.

ثمّ صاح موجهاً أنظاره إلى كرافتسوف:

ـ وأنت؟

ووجد كرافتسوف أيضاً عُذراً للتخلّص من المهمة الخطرة:

ـ أنا قصيرُ النظر رفيقي المُقدّم. ومعي أوراق ثبوتية. ومع ذلك، أذهب إذا شئتم، لكنني أكون شبه أعمى في الليل.

فصرَّ المُقدّم على أسنانه وشتم كرافتسوف. وتذكَّرْتُ اجتماع الفئران:

ـ ((جالو أنت. جالو أعرج. ـ مستو أنت. مستو قصين)). وضحكْتُ غصباً عنّي. فنظر إليَّ المُقدّم غاضباً:

ـ لعلّك أنت أيضاً أطرش أو أخرس أو أعرج. نعم؟

ـ لا. إطلاقاً أيّها الرفيق المُقدّم. أنا مُستعد لتنفيذ الأمر.

ذهب كرافتسوف، وشرح لي المُقدّم مهمتي واقفاً. وأرسلني إلى ما سمّاه بالمصران الأعور من مواقعه.

* * *

ظلام وجليد. دخلْتُ بين كثبان الثلج ومشيْتُ في الخندق الطويل.

الثلج الأبيض في الجهات الأربع. وحسبْتُ أنني أسير داخل قبري مع فارق الثلج وانعدام النهاية. أمّا تبادل النار بيننا وبين العدو فهو الشاهد الوحيد على حقيقة وجودي في الدنيا.

المشي المُنتصب خطر، لأنّ رشاشات العدو تصلي المكان ناراً حامية على مسافة مائة وخمسين خطوة. لذلك رحْتُ أمشي مُنحنياً، وفي بعض المحلّات زحفاً على بطني. أشعرُ بسرور عندما أرى خطوط النور التي تخلفُها الرصاصات وراءها. تَفتُنُني لدرجةِ أنّها تُحفزني على مدِّ يدي للإمساك بها وهي طائرة.

* * *

في أول حصن من المصران الأعور وجدْتُ ستة جنود ومدفعاً رشاشاً ومدفع هاون صغيِر جدّاً. تحدّثْتُ مع الجنود دقيقتين فقط ثمّ تابعْتُ طريقي نحو المواقع زحفاً على الثلج.

وجدْتُ الحصن الأول زرياً كأنّه كوخ كلب، فيه خمسة جنود مُتلاصقون متخانقون. اشمأزَتْ نفسي من منظرهم، فهم غير حليقين، وتركّز سُخام فتيل النور على وجوههم. يلبسون رداءً مُبطّناً من القطن فوقه معطف، وفوق الاثنين فروة نصفية. يلفون رؤوسهم بما لا أعرف ما هو. هم بهذا الشكل يكادون لا يستطيعون الحركة.

لا يُمكنني الوقوف مُنتصباً في الحصن لأنّ السقف واطئ جدّاً ورقيق. أصغر قُنبلة تقع فوقه تُحطمهُ تحطيماً. تعجّبْتُ كيف يعيش هنا رقيب وأربعة جنود. حالة رهيبة، لقد أوصلتهم النار المُستمرّة فوقهم إلى خبل لا شعوري. إنّهم ليسوا جنوداً، بل خوفٌ مُتحرّك وكتل لحم مسودّة.

وجدْتُ جثّة المُلازم المقتول مُسجاة على الحاجز الثلجي. مُتحجرة. فنظرْتُ إلى عينيها وفمها المفتوح وأُذُنَيها المسدودتين بالجليد بأسى.

ــ لماذا لا تدفنونها؟

فحشرج الرقيب:

ــ عندنا إحدى عشرة جثّة هنا وضعناها كلّها على السياج نفسه فصارَتْ متراساً.

زحفْتُ تحت متراس الجثث، فنفرْتُ من نفسي. أتراني أعيش هنا زاحفاً؟

وجدْتُ جندي الحراسة نائماً قُرب الجثث، وبجانبه سلاحه. إذا استمرّ في النوم هكذا يتجمّدُ في طرفة عين. لذا أمرتُهُ بالقيام والتمشّي على طول الحاجز.

فغمغم:

ــ قد تُصيبُ رأسي رصاصة، فأنا طويل القامة.

قال هذا لكنّه نفّذ أمري، وبدأ يمشي رافعاً رأسُهُ لا مُبالياً وكأنّه ملّ جيرة الجثث.

عندما يعكسُ الثلج الضياء يبدو كلّ شيء حولنا واضحاً. فالعدو يُحيطُ بنا من جهات ثلاث، مُتستراً بظلمات الغابة. كلّ شيء مُغطى بطبقة سميكة من الثلج.

عند جنودي فؤوس ورفوش. أمرتهُم بحملها والخروج من الحصن والبدء بتحطيم الثلج الجامد وتشكيل تلٍ منه يُشكلُ نصف دائرة حول الحصن. فتعجّبَ الجنود:

ــ تلٌّ من الثلج؟

قُلْتُ:

ــ نعم، من الثلج. فالرصاصة لا تخترق ثلجاً سمكه متر. اعلموا هذا. أنتم تعيشون هنا كالخنازير. عيب، أنتم بشر، أليس كذلك؟

* * *

أحدثنا حول الحصن حاجزاً من الثلج سمكه متران، والمقدار نفسه إرتفاعاً. ومن الثلج الجليدي إقتطعنا قطعا بحجوم مربّعة رصفناها بعضاً فوق بعض.

أدفأنا العمل. فبدأ الجنود بخلع فرواتهم النصفية، ثمّ معاطفهم، وانحلّتْ بالتدريج عقدة لسانهم.

في الليل أنشأنا حاجزاً مُدهشاً.

في الصباح رتّبْتُ لتعميق أرضية الحصن. وبدا أمري هذا غريباً على الجنود. لكنَّ الأمرَ أمر.

لم تكن الأرضية جامدة بسبب حرارة الأجسام. لذلك تمكنّا من تعميقها في ظرف ساعتين من الزمن، وتمكنْتُ بعد ذلك من الوقوف بطول قامتي دون عناء.

ــ الآن استوَتْ الظهور يا رجال. العيش بانحناء أمرٌ ثقيل.

فقال جندي:

ــ طبعاً فهذا قبرُنا.

ــ ليكن، لكن القبر أيضاً يجب أن يكون مُريحاً.

في ركن من الحصن توجد مدفأة مُطعجة مُهملة. سويتُها ووضعتُها في وسط الحصن فقلق الرقيب وقال:

ــ يرى الألمان الدُخان فيبيدوننا.

أخرجْتُ أنبوب المدفأة إلى الخارج وطمرْتُ طرفَهُ في الحاجز الثلجي.

عندما أشعلنا النار ضاع الشرر والدُخان في الثلج. وانتشرَتْ في الحصن حرارة لذيذة. عندئذٍ خلع الجنود صداريهم وكنزاتهم ليُريحوا أجسامهم. وأذبْتُ ثلجاً في القصعات وسخنْتُ ماءً وأعطيتهم موسي وصابونتي وأمرتهم بحلاقة ذقونهم. وبالطريقة نفسها سخنّا ماء واغتسلنا.

رجالي الآن نظيفون. كان هؤلاء اليافعون تقريباً، أمس، أشبه بالكهول. والآن عادوا إلى هيئتهم الآدمية الحلوة وإلى المنظر الرجولي المُحبب.

بهذه الطريقة رتبْتُ الحصنين الآخرين.

الاتصال بالخطوط الخلفية معدوم. فلا يوجد للمصران الأعور المُحاط من جهاته الثلاث بنيران العدو غير ارتباط واحد مع المواقع الدفاعية الأُم، عن طريق خندق ضيّق، هو أيضاً تحت رحمة هذه النيران. لذلك كانوا يستفيدون من ظلمة الليل ليجلبوا لنا الطعام، وقد لا يصل الساعي، إذ قد يُقتل وهو في طريقه.

نحن الآن في الرابع من شباط، منذُ شهر وسبعة أيام وأنا في التاسعة عشرة من العمر. كتابتي على صفحات جريدة برافدا.

يا ربنا عيسى المسيح

حلّ الظلام بعد نهارٍ قصيرٍ فجأةً.

فتح الألمان نيران مدافعهم الثقيلة على ذنب ((المصران الأعور)) وهو الخندق الضيّق الذي يربطُنا بالمواقع الأساسية.

رنَّ جرس هاتفي. إنّه آمر الكتيبة.

ـ ما الذي يجري عندكم؟

قُلْتُ له:

ـ يُريد العدو بنيرانه أن يعزلنا عنكم ليقوم بالهجوم على مواقعي.

ـ وأنتم؟

ـ نحن نُدافع. لكن أرجو إرسال قوّة أوتوماتيكية لدعمنا.

وانقطع خطُّ الإتصال الهاتفي.

ونبح الليل المُرعب على الثلج.

الألمان يصبُّون نيرانهم دون توقّف من فوق رأسي ومن وراء ظهري، وأنا واقفٌ تحت الحاجز الثلجي أُراقبُ من فوقه مواقع العدو. إنّهم لا يُطلقون النار علينا، وهذا أشدُّ خطراً. فالأمرُ واضح، إنّهم يُريدون عزل ((مصراني الأعور)) ليُباغتونا بهجومٍ يُبيدوننا فيه ويأسرون من يبقى. وأعملْتُ فكري. لقد توقّف الألمان عن إطلاق النار. وهذا يعني أنّ قواتهم المُهاجمة قريبة جدّاً. وتحفّزْتُ كلَّ حواسي.

* * *

جمعْتُ جنود الحصنين ووزّعتهم على طول استحكاماتنا.

عندي ثلاثة رُشيشات يدوية، بنادق ومدفع هاون خفيف يُحمل على الكتف. ما عندنا سلاح جبّار، آه لو كان الموقع قوياً مثل موقعي أمام (زفانكا). لكن موقعنا هنا هزيل، والحاجز الثلجي لا يصمُد أمام المدفع الثقيل.

على كلٍّ، تهيأْتُ للدفاع دون أمل في النجدة، لم يكن لدينا خيار آخر. والممر الضيّق الذي يربطنا بالقيادةً واقعٌ تحت نار شديدة يستحيل معها وصول خبر من هذا الطريق.

* * *

ساعاتٌ تحت وطأة النار المُلتهبة عرفنا فيها نار جهنم.

لم يدخل أحدٌ منّا إلى داخل الحصن ولو لتدفئة يديه، ولم يتذمّر أحدٌ منّا من أيّ شيء، مع أننا لم نذق غير كسرة من البقسماط، ولم نشرب غير ماء ذائب الثلج.

* * *

ويستمرُّ القصف الرهيب. لا يُدرك رهبتَهُ إلاّ من عاناه، لكنّي هدأْتُ نفسي تمام الهدوء، وشملتني قوّة ما بعدها قوّة. لا أعرف، أأعزو ذلك إلى شعوري باقتراب النهاية، فصرْتُ في وضع اللامُبالاة؟ بتُّ أشعرُ بهدوء وأنا مُنبطح على البساط الثلجي إلى جانب رُشيشي، والأعداء يتربّصون بي من جهات ثلاث.

* * *

كانت الساعة تُشير إلى الحادية عشرة ليلاً، عندما لاحظ رجالي تقدّم نقاط بيضاء نحونا، وشاهدوا الشيء نفسه عن اليمين وعن اليسارٍ وتحقق حدسي. يُريد الألمان اقتناص بعضنا أحياء ليجعلوا منهم ((لساناً)) لهم. أمرت رجالي بالالتصاق بالحاجز الثلجي والانتظار دون حركة.

نحن سبعة عشر رجلاً بسلاح كافٍ وذخيرة جيّدة. أمّا عدد الفاشيين المحيطين بنا فلا أستطيع تقديره. أسندْتُ كتفي على أخمص رُشيشي البارد، ورحْتُ أُحدّقُ في الثلج الأبيض الضارب إلى الزُرقة، وإلى النقاط البيضاء التي تتحرّك عليه بصعوبة كأنّها كُرات ثلج. إنّهم الألمان في قمصان تمويه. ذكرْتُ أُمّي، ثمّ تخيّلْتُ الجثث المدفونة تحتي تتحرّك. تُرى هل تُدفن جثتي أيضاً معها؟

* * *

فجأةً، وعلى بُعد ثلاثين متراً منّي شاهدْتُ كُرةً ثلجية. إنّه واحد. لا، بل كثيرون يزحفون غاطسين في الثلج. صُعقْتُ. وانتزعْتُ قُنبلة مُضادّة للدبابات ورميتُها بكل قوّتي عليهم. وأتبعتُها بخمس قنابلٍ مُماثلة. ثمّ عمدْتُ إلى رُشيشي، وصوّبْتُ فوهتُهُ عليهم وفرّغْتُ خزاناً كاملاً بنار كالإعصار. وأطلق رجالي النار أيضاً. وراحت قنابل بحجم الخيار تسقط من مدفعنا الصغير على الأعداء.

على الرغم من كل شيء فالمُبادرة في أيدينا، والنار نُطلقها بلا تقنين على الجهات الأربع.

شيءٌ واحد كنْتُ مُتأكداً منه، وهو أنّ الألمان لا يستطيعون قصفنا بالمدافع خوفاً على جنودهم المُهاجمين. بقي علينا أن لا نترك لهم المجال لرفع رؤوسهم.

* * *

تابعنا ضرب مُحاصرينا خمس أو ست ساعات، وربّما أكثر. لأنني لا أستطيع ضبط الوقت، فهو أسرعُ منّي. والموت المُتربّص بنا لا يعرف الوقت، ونحن أيضاً موت. وما عليك يا إنسان إلاّ أن تؤدي واجبك وتُدافع عن نفسك.

أنا لا أبرُد، ولا أشعر بجوع، والتدخين أيضاً نسيته. ما من مُتذمّر غير لساني الذي جفّ. فاقتلعْتُ طبقة من الثلج ووضعْتُها في فمي.

في هذه الأثناء طار صاروخان من مواقع العدو في الجو، واحدٌ أخضر وآخر أحمر. أمرٌ بديهي، إنّها علامةُ الموت. أمرْتُ جنودي بتكثيف النار.

فجأةً اختفى المُهاجمون الذين أرادوا تطويقنا. وتوقّف القصف العنيف على المر الضيّق. فأمرْتُ الجنود باللجوء إلى الحصن لأنّ العدو سيُركز قصفهُ على رؤوسنا.

لم يصل جندي مدفع الهاون إلى التقاط سماوره الصغير من الأرض، لأنّه أُصيب بأول قذيفة فاحتضنْتُهُ وحشرْتُ نفسي معه في الحصن. وأصابَتْ شظية خوذتي ودوَتْ في أُذُني.

بدأ...

* * *

جلسنا حول المدفأة مُتراصين.

وضعْتُ الجندي المقتول قُرب الباب وجلسنا جامدين. الوضع الآن أفظع مما كان عليه قبل قليل. مازلْتُ أذكرُ حتّى الآن البَرد ينزلُ على سقفنا الحديدي حبّات كبيرة ويقفزُ معها قلبي هلعاً. هكذا يسقطُ علينا الآن سيل النار.

الأرضُ تغلي من تحتنا. ونحن ننتظر القذيفة التي يُمكن أن تسقط فوق حصننا الهزيل. قد تقع ونفى ولا ندري ما حدث. هنا جاشَتْ نفسُ مُعاوني الرقيب وبدأ يُغنّي:

تنتظر الأُمُّ المُسنّة عودة ابنها إلى المنزل بلا أمل

وعندما يُذكرونها بابنها تبدأُ بالنواح عليه.

فهزَّ بأُغنيته روحي، وبدأنا نُغنّي كلّنا معه كتفاً على كتف، ورأساً على رأس. ليس ما نقوله أُغنية، بل صرخة أرض جامدة، رعدٌ سماوي، شيءٌ خارج عن مفهوم الجُندية. وغنينا أُغنية أُخرى:

والأمواجُ تتلاطم

لعلعةُ القصف في أُذُنَي وحدها مُخيفة. لا نعرف متى تنفجر فوق حصننا خمسون قذيفة وقُنبلة ولُغماً.

حياتُنا مُعلّقة بالصُدفة. وهكذا كان. ولم تقع أيّة قذيفة فوق قصعة الماء الذي يغلي. نحن نعيش، إذن فلنُغنِّ طالما فينا نفس.

اقترح أحدُ جنودي أن نُصلّي. لكن ما فينا واحد يعرفُ الصلاة، فرفع الجندي نفسه قبعتهُ، ورفع أنظاره إلى السقف، وبدأ يُصلِّبُ على وجهه دون معرفة ويقول:

ربنا المسيح عيسى، أنقذْنا.

وراح جندي مُسلم يُصلّي هو الآخر ويقول: إيه، يارب يا رحيم يا كريم. مساكينٌ نحن، حتّى هذه التعزية البسيطة لا نعرفها.

ولمّا عجزنا عن أداء الصلاة تابعنا الغناء. ثمّ قام الرقيب وبدأ يرقص، يخبُط الأرض برجليه خبطاً إيقاعياً بجانب الجثّة التي لم يبرد دمها بعد.

وجاريناه ورحنا نُصفق له تصفيقاً غطّى اللعلعة، وتناسينا لعلعة الموت المُصلتْ فوق رؤوسنا. ويُخيّلُ إليّ أنّ الجثة أيضاً صارَتْ تُغنّي وترقص.

توقّفَتْ عاصفة القصف عند الفجر فقط.

والحمدُ لله أنّ خسارتنا اقتصرَتْ على ضحية واحدة.

مرَّ يومٌ هادئ.

لكن الجندي المُكلّف بتموينِنا قُتِلَ في المر الضيّق. فذهب الرقيب زاحفاً على بطنه، وجرّهُ وقرّبهُ من مواقعنا. كان المسكين مُصاباً في رأسه. وكان الترمُس والكيس الذي يحتوي على ثمانية أرغفة من الخبز مُخضبّة كلّها بالدم.

* * *

عاين الرقيب محيط الحصن، فوجد ثلاثة وعشرين جثّة من الأعداء.

وعاد يقول:

ــ قتلْنا عدداً لا بأس به من الهتلريين.

وبينما هو يُعاين الحاجز الثلجي وجد عند طرفه الآخر جثّة، جرّها. وجدنا على صدر جثّة الألماني وسام الشبيبة الهتلرية وصليباً نُحاسياً. كان القتيل حليق اللحية يرتدي ثياباً جديدة. أمرْتُ الرقيب بدفنه بعيداً عن أمواتنا.

كنت أتمنّى أن يكون جريحاً يتنفّس. إذن لفعلْتُ كلّ ما بوسعي لإنقاذ حياته. أستدعي شورا، تأتي ولو عرَّضَتْ نفسها للخطر لتُساعد الجريح. إنّه ألماني في مثل سنّي.

في الليل وصل إلى موقعي ناظر كتيبتنا (يرين)، مع خمسة أوتوماتيكيين. لم يكن خائفاً ولم يزحف زحفاً عند مجيئه عبر الممر المُتجمّد الذي يُمطر بالرصاص. كان يكبُرني بما لا يقُل عن عشرين سنة، لكنّه ليس عجوزاً. فالعسكري تتأخر شيخوخته. قال:

ـ يا عزيزي، ما عندي ما أُبلغك إيّاه. باختصار، أنتم تؤدون عملاً بطولياً خارقاً. وما موقعكم إلاّ ستالينغراد صغيرة.

وقدّم لي رزمة من الجرائد فرحْتُ بها. فلقد مضَتْ أيام عدّة لم أر فيها صفحة جريدة. ولا أدري إن كنْتُ سأتذكّر الحروف.

لقد اُبيدَتْ القوات الألمانية التي طوقتْها قواتنا عن آخرها. اقتنصْتُ هذا الخبر بشراهة، فالأتراك المُحتشدون في قارص كانوا ينتظرون سقوط ستالينغراد ليقوموا بهجومهم على أرمينيا.... لقد فنيَتْ القوات الألمانية بسرعة في شمالي القفقاس. ولا ترى الآن غير مائة وخمسين ألف جثّة فاشي منثورة بين الأورال والدون. كما أُسِر قائد الجيش الألماني السادس الفيلدمارشال باوليوس، وإستسلم الباقون على قيد الحياة..إيه، ماذا استفدْتَ يا هر الألمان غير قتل النفوس البريئة؟ جئتمونا ((قطعاناً من الذئاب المتوحشة)) وها أنتم تهربون ((قطعاناً من الكلاب اللاهثة)). قبل عدة أيام من استسلام باوليوس، نال منحة هتلر بترقيته إلى رتبة فيلدمارشال. ها قد أصبح عندنا فيلدمارشال أسيراً، وكثيرٌ من

الجنرالات، وجيشٌ عظيم يربو عدده على المائة ألف، قد استسلم. وزكم الخل شهية تركيا، وانسحب الضبع القديم إلى وكره.

في الثاني من شباط ساد سلامٌ مُفاجئ جبهة الدون. وسوف تصل عدواه إلينا على هذا التراب المُتجمّد.

لم أحصل من قبل على مُبتغاي من جريدة مثل هذه الجريدة، وفي مثل هذا اليوم، وأنا في مغارتي الضيّقة بجوار العدو الذي يتربّص بي على بُعد مائة متر تقريباً. إنّه هو الذي أراد أمس، وبرغبةٍ قُصوى، قتلي مع جنودي. ومازال يأمل في تحقيق مطمعه.

قلت ليرين أنّه يحسن أن يأتي مُترجم الكتيبة إلى هنا ويُذيع بمكبر الصوت نبأ موقعة ستالينغراد على الألمانيين، لأنّ قيادتهم تتستّر على الخبر ولا شك، ويجب علينا نحن، أن نُخبرهم الحقيقة.

نحن الآن في الخامس من شباط. شهران وثمانية أيام وأنا في التاسعة عشرة من العمر. في كتابتي رائحة الموت.

آلامُ آلام

استلمْتُ رسالة من باكراد خاجونتس. بحثْتُ في الخريطة ووجدْتُ مكانه، ليس بعيداً عنّي، إذن يُمكن الذهاب لزيارته حالما تسنح الفرصة، فأستمع إلى أُغنية غرونغ.

* * *

حانَتْ الفرصة. فلقد هدأ العدو لسببٍ ما واختفى وراء حصونه بعدما ضربناه كثيراً في الليل والنهار.

استدعوني إلى قيادة اللواء.

ــ تعال استلم وِسامك.

ــ لماذا الآن فوراً؟ ولمن أترك المواقع؟

سؤالٌ وجوابٌ هاتفي.

ــ اترك المواقع لأوفتشكين واحضر أنت.

حلقْتُ لحيتي وأخذْتُ من شورا ماء الكولونيا وتعطَّرْتُ به. تطيّب به ذلك المُقدّم ما فيه الكفاية وجاء الآن دوري.

فرحَتْ شورا لأنني زرتُها لمُصالحتها.

* * *

في القيادة سلّمني آمر اللواء وسامي وقال:

ــ سأُعطيك الآن أُسبوعاً للراحَة. هل تعرف مدينة بوروفيتش؟

ــ أعرفها أيّها الرفيق اللواء.

ــ عليك أن تأخذ سجيناً إلى هناك، وهي فرصة ترتاح فيها قليلاً.

كان السجين مُلازماً جرّدوه من وظيفته ومن مرتبته، وقرّروا إرساله إلى كتيبة التأديب العسكرية. شعرْتُ بالضعة لهذه المهمة البغيضة، ورجوتُ الآمر أن يعفيني من هذه (الاستراحة). فضحك، وأدركْتُ أنني إنّما أرفض أمر آمر اللواء لذلك سكت. فأنا عسكري، والأمر عندي هو القانون.

معي مُسدس وقُنبلتان يدويتان. وأمرني الآمر أن أقتل السجين إذا حاول الهرب. وكان هذا الأمر أكبر همٍ لبسني.

* * *

السجين مُلازم أول روسي في الثلاثين من العمر، ربع القامة، مُستدير الوجه، كنيته بوريسوف. لا يدلُّ على رتبته العسكرية غير معطفه، لأنّهم نزعوا حزامه ونجومه، لكن لا تلوح على وجهه سيماء المُجرم. ومع ذلك دفعتُهُ أمامي ومشيْت.

اجتزنا نهر فولخوف من معبر حصن سيلشجينيان، وتزوّدْتُ بغذاء لي وله مُكوّن من الخبز والخُضار المُجففّة. قبل أن نبدأ السفر أشعلْتُ ناراً وطبخْتُ بُرغلاً مع الخُضار المُجففّة وجلسْتُ بصحبتِهِ لنأكل. سألْتُ سجيني في هذه الأثناء عن التُهمة الموجهة إليه فقال:

ــ لا يدورنَّ بخلدك أنني مُتهم بالخيانة العُظمى. لا، أنا في الخدمة العسكرية منذُ عام أربعة وثلاثين. وأُحارب منذُ بداية الحرب.

وتوقّعْتُ أن يبكي.

لم أسأله بعد ذلك شيئاً، لكنّه قال:

ــ كُنْتُ آمراً لسرية مدفعية. انتظرنا يومين، لم يأكل فيها جنودي خبزاً. في اليوم التالي جاء إلى مواقعنا رئيس قسم السوق في اللواء فسألْتُهُ: لماذا لم يصلنا الخبز؟

فبسط ذراعيه وقال بكلّ بساطة: لا يوجد. لم أتمالك نفسي وصحْتُ فيه: إذا كنتم في حال لا تمكنكم من إطعامنا اتركوا هذا المركز لأكفّاء يُحسنون تأدية واجبهم. وها هي النتيجة، عِقاب.

حلَّ الظلام والجليدُ باق والسفر صعب. فقرَّرْتُ المبيت في حصن سيليشجينيان حيثُ توجد استَراحة فيها كهوف أرضية دافئة ومياه ساخنة.

جلسْتُ مع بوريسوف على ألواح خشبية. فمدَّ رجليه مُستريحاً. وقال:

ـ على الأقل أنامُ الآن مُستريحاً.

كنْتُ أنا أيضاً أُريد أن أنام نوماً عميقاً، لكن لم يتسنّ لنا ذلك، لأنّ ثلاثة أو أربعة من العسكريين مع بنتين دخلوا إلى الكوخ الأرضي الذي نستريح فيه. كان بينهم ضابط برتبة مُقدّم قال لي ولبوريسوف:

ـ تقيّدوا بالانضباط فمعنا عسكري ألماني.

الألماني هارب من قطعتِهِ، لاجئ إلينا. طويل القامة، أشقر في مُقتبل العمر، يبدو عليه السرور والانشراح الزائد.كانت البنات لطيفات معه، يُكلّمنَهُ بلُغتِهِ الألمانية. يقتادونه إلى بوروفيتش باعتباره كنزاً ثميناً.

أكلوا صاخبين. وقدّمَتْ له البنات شراباً ألمانياً وحلوى.

اقترب بوريسوف من أُذُني وهمس:

ـ إنّهم لا يُقيمون لي أيّ وزن ولو قدر ذرّة غُبار على حذاء هذا الألماني.

حاولْتُ أن أنام، لكن كان فكري مشغولاً مع بوريسوف. مسكين هذا الرجل.

* * *

في الصباح الباكر أيقظني بوريسوف:

ـ فلنذهب قبل أن يستيقظ هذا الألماني، لا أُريد أن يرى واحداً من ضُبّاطنا مُعتقلاً.

خرجنا من الاستراحة، وكان علينا أن نمشي على الأقدام يوماً كاملاً في طريقنا إلى محطة (مالايا فيتشيرا).

أمرْتُ بوريسوف بالوقوف مُستعدّاً أمامي. عندي حزامان، واحدٌ على سروالي وواحدٌ على نصفيتي. فككْتُ حزام السروال وعقدْتُهُ على وسط بوريسوف. كان لديَّ كذلك فائض من المُربّعات، ثبَّتُ ثلاثة مربّعات منها على كل صفحة حمراء من ياقتيهِ.

فقال بوريسوف مُستغرباً:

ــ ماذا تفعل؟

قُلْتُ جازماً:

ــ لا تسلني، فقلبي يتفطّر وأنا أراك من دون حزام وإشارات ضُبّاط. ستبقى على مكانتك طالما أنت معي.

فقال وهو يُحاول فكّ الحزام:

ــ هل تعلم ما تجرّهُ على نفسك من جرّاء هذا التصرُّف؟

ــ فليفعلوا ما يُريدون.

ــ وإذا هربت.

ــ اهرب الآن فوراً إذا شئْت.

وسرنا جنباً إلى جنب. وكان ضُبّاط الصف والرُقباء الذين نمرُّ بهم يؤدون التحية له لأنّه الأعلى رُتبةً. فقال مُعلّقاً:

ــ طوبى لمن سيُصاحبك حين تبلغ المشيب.

سألتُهُ:

ــ لماذا؟

ــ قولٌ قُلتُهُ.

وصلنا عند المساء إلى مالايا فيتشيرا. كان البردُ شديداً.

نحن الآن في السادس من شباط. شهرٌ وتسعة أيام وأنا في التاسعة عشرة من العمر. كتابتي مُتمرِّدة.

دايسا الكساندروفنا

محطة القطار والبيوت والشوارع مُهدَّمة. وفيها تتجلّى مآسي مدينة تقع على خط القتال تخريباً وتدميراً. هجرها أهلُها، فلا نرى على الأرصفة المُخرّبة غير عدد قليل جدّاً من الناس.

بعد بحثٍ طويل، استدللنا على مركز التموين، وحصلنا على مؤونة ثلاثة أيام، كانت وافرة، تتألف من الخبز واللحم والطعام المعلب والسكر. بقي علينا أن نجد مكاناً للمبيت. رحنا نمشي، نُهشّم الثلج المُتجمّد إلى حيث يقودنا حظنا.

أثناء ذلك أوقفتنا امرأة وسألتنا:

ــ هل تبحثان عن مكانٍ للنوم؟

ــ نعم.

ــ اتبعاني.

* * *

كانت المرأة ترتدي ثوباً قطنياً مُبطناً وسروالاً من المخمل الأسود، فوقهما سُترة صوفية سوداء وشال أسود، فصارَتْ بذلك تُشبهُ خروفاً أسود كثيف الصوف.

تبعناها حتّى وصلنا إلى بيت خشبي صغير نجا بمعجزة من الدمار. عندما فتحَتْ الباب استقبلتنا في البيت رائحة عنبر فارغ ولفحة برد قارسة. قالت المرأة:

ــ اخلعوا ثيابكم وسآتيكم فوراً بحطب للتدفئة.

دخلَتْ إلى الغُرفة المُجاورة. بعد عشر دقائق عادَتْ تحملُ الحطب، وقد خلعَتْ بعض ثيابها مما مكنني من التعرّف على ملامحها. هي الآن

في ثياب نسائية ناعمة، ومع أنّها تبلغُ الأربعين لكنّها جميلة جذّابة. وضعَتْ الحطب على الأرض وراحَتْ تُشعل النار في ((مدفأة)) من الصفيح.

ــ أمّازلتم تشعرون بالبرد، هه؟

كان صوتها ودوداً يحملُ في نبراته تعبير صداقة حميمة.

ــ الآن يا أصحابي أصبحَتْ الغُرفة مُريحة. تصرّفوا كما لو كنتم في بيوتكم. سأُسخن لكم ماءً لتغسلوا أرجلكم. اسمي دايسا. عندما احتلّ الألماني اللعين مدينتنا هربْتُ إلى بوروفيتش. ولقد عُدْتُ إلى بيتي الخشبي القديم قبل شهر.

ذهبَتْ إلى إحضار الماء. وتمدد بوريسوف على السرير العاري. قال:

ــ لقد تحدّثتْ عن كلّ شيء. أمّا موضوع غسل الأرجل فيكشف عن نيتها. اسمع يا صاحبي، ليست دايسا هذه قبيحة، بل هي لمن هم في مثل حالنا تُحفة. نم معها أنت هذه الليلة.

نظرْتُ إليه مُعاتباً:

ــ أنت تنضج بالحمق.

ــ الأحمق هو ذلك العطشان الذي يرى الماء ولا يشربه.

رجوتُهُ أن يسكُتْ، لكنّ عينيه لمعتا بخُبث وقال:

ــ لا تدّعي العفّة، ونم الليلة في حُضنِ دايسا. أليس في نيتُك أن تُجازيها على معروفها معنا؟

ــ لا شأن لي بها، نم أنت معها إذا شئت.

ــ أنا شبعان إلى هنا، ــ وأشار بوريسوف إلى رقبته ــ لقد سبقتُكَ إلى فعل مثل هذا الخير.

جاءت دايسا تحملُ دلوين من الماء، وسألَتْ ببشاشة:

ــ ماذا؟ هل تتناقشان؟

فأجاب بوريسوف مُعترفاً:

ــ شيءٌ من هذا القبيل.

ووقفَتْ دايسا بكلِّ جاذبيتها أمامنا، وجعلتني أتمنّى الدخول في المدفأة حياءً. لكن بوريسوف لم يُراعِ الحدود، بل أضاف ضارباً باللياقة عرض الحائط:

ـ اقترحْتُ على هذا الشاب أن ينام الليلة في أحضانك. أمّا هو...

ضحكَتْ دايسا طويلاً، ثمّ نظرَتْ إليّ مُتفحصة، ورأيْتُ الحُزن مُتجسّماً في عينيها وفي صوتها. ثمّ التفتَتْ إلى بوريسوف وقالت:

ـ وهل يخاف الولد؟

أجاب سجيني:

ـ ما يُشبه ذلك. إنّه لا يُريد أن يقضي الليل معك.

فتغيّرَتْ لهجة دايسا وأومأَتْ برأسها قائلة:

ـ حسناً يفعل، فهو فتىً غر لا يُفيدني في شيء. ولكن تقضي أنت الليلة معي كابن عم يعتني ببنت عمّه.

وضحكَتْ دايسا مرّةً أُخرى. ونمَتْ ضحكتُها هذه المرّة بوضوح عمّا يُعتمل في نفسها من حُزن ومرارة، بل إنّه النواح الحقيقي والاحتجاج المُر الذي نفضتْهُ على غيرِ انتظار بما قالته لبوريسوف المُندهش. وقلبْتُ كلّ ما في جعبتي من طعام على الطاولة وقلْتُ:

ـ سيدة دايسا، تستطيعين تحضير سُفرة لنا من هذا الطعام.

وانشغلْتُ معها بتحضير الطعام. فتشمّمَتْ رائحة اللحم المُعلّب نصف الناضج وقالت:

ـ أوي، مُمتاز.

أتعجّبُ كيف حافظَتْ هذه المرأة على جاذبيتها وأنوثتها بالرغم من ويلات الحرب التي يشيبُ المرء من هول ليلة واحدة منها. لقد رأيْتُ فيها شُعاع نور خفي يُبدي طهارة روحها وخُلقها.

* * *

صار الطعام جاهزاً. فتحَتْ دايسا على الطاولة جريدة وقطَّعَتْ الخبز قطعاً صغيرة، ووضعَتْ على الطاولة ثلاثة صحون نظيفة ودعَتْنا إلى الأكل.

ـ اعذروني، ما عندي شراب، فنحن نعيش أوقاتاً عصيبة. يكفي أن نتساعد على بعث الفرح في نفوسنا، فالفرح أهمُ ما نحتاج إليه الآن، نحن الذين قدّرَ لنا القضاء أن نخوض حرباً مفروضة علينا أجّجَتها قوى الشر والأذى.

طال زمان الأكل مع الحديث.

لَمَّتْ ربّةُ البيت السفرة، ولفَّتْ ما تبقّى من زاد وخبز وأكل بعناية بورقة، ووضعتْها في جعبتي. ثمّ ارتدَتْ ثيابها التي كانت عليها وقت التقيناها وقالت:

ـ هيّا، يا شباب، سأترُكُ لكما البيت وأذهبُ إلى عملي. فأنا مأجورة مدنية في القيادة العسكرية كمُترجمة للُغة الألمانية.

اقترب بوريسوف منها مُرتبكاً وقال:

ـ اغفري لي يا دايسا...

فأضافَتْ ربّة البيت بحدّة:

ـ الكساندروفنا.

وهتف بوريسوف مُنحنياً:

ـ دايسا الكساندروفنا، اغفري لي، أنا رجل حقير، لقد جرحتك.

فابتسمَتْ ربّة البيت بلطف وقالت:

ـ ماذا أغفر لك؟ أنا أيضاً أُحبُّ المُزاح. كنتما تمزحان فجاريتكما ما في ذلك شك. أمّا الآن فالخير في أن تستمتعا بركن دافئ وتقضيا فيه ليلتكما. هيّا، إلى اللقاء. إذا مررْتُما بديارنا مرّة أُخرى، فلا تنسيا زيارتنا وسنُرحبُ بكما.

ذهبَتْ، وتركتنا أنا وبوريسوف نتبادل النظرات صامتين زمناً طويلاً قطع بعده بوريسوف الصمتَ قائلاً:

ـ اسمع، انزع إشارات الرتبة التي ثبّتها على ياقتي واتركني سجيناً حقيقياً كما أنا بالفعل. فلقد تصرَّفْتُ تصرُّفاً حقيراً مع هذه السيدة الطيبة وأنا أستحقُّ الجزاء.

قُلْتُ:

ـ ليس الذنب ذنبك، بل هو ذنب الحرب التي جعلتْنا نتصرّف مثل الوحوش، لا نُبالي بقيم أو أخلاق. سنحتاج إلى سنين طويلة قبل أن تنقى أرواحنا من أدران جبهة الحرب.

أشعرُ الآن وكأننا اغتنينا بعد فقر، فكم من أُناس طيبين موجودين في هذا الخليط المُضطرب تحت ضغط الموت والعذاب والخوف والألم.

نحن الآن في السابع من شباط. شهر وعشرة أيام وأنا في التاسعة عشرة من العمر. كتابتي أبية.

عينُ ساخنوف

أسرعنا في الصباح بالابتعاد عن (مالايا فيتشيرا). وفي اليوم نفسه مساءً وصلنا بالقطارِ إلى (بوروفيتش). هنا سلّمْتُ المُتّهم إلى قائد الكتيبة، وأخذْتُ منه إيصالاً، وعانقني بوريسوف وهتف:

ــ أخي...

قبَّلتُهُ، فاستاء الضابط الرئيس وهمهم:

ــ أتتبادل القُبَل مع مُتّهم؟

ــ صحْتُ:

ــ إنّه إنسان، فافهموا.

* * *

عُدْتُ من طريق مجيئي نفسه، وبوصولي إلى قرية (أورخينو) عرَّجْتُ على قطعة خاجونتس التي تتمركز في أعماق الغابة القريبة مُتسترة بكثافتها. وجدْتُ مغارة باكراد الذي فرح بي فرحاً عظيماً، ودعاني إلى الطعام، وقدّم لي معه كأساً من العرق حسب عادة آبائه الأقدمين:

ــ هه، هل الأحوال سيئة في مواقعكم؟ لا شكَّ في أنّها صعبة، ولو أنّك لم تُقتل. لكنّ هذه الصعوبة إنّما هي الشرف الذي يُكلِّلُ هامات الشُرفاء من الناس.

لم يُشاركني الشُرب، لأنّ الكمية قليلة، وصبَّ كلَّ ما تبقى عنده في كأسي. تبيَّنَتْ أنّ مغارتُهُ نظيفة مُرتّبة.

ــ إياك أن تُريني وجهك إذا كنت خائفاً.

تذكَّرْتُ ((مصراننا الأعور)). أظنُّ أنني لم أشعر بما يُشبه الخوف هناك.

وكما كنتُ أتوقّع، غنّى لي باكراد أُغنية ((غرونغ)). صوته ناعم رخيم ينبع من صميم فؤاده. راح يُغنّي، وأنا أشربُ رشفة بعد رشفة، أستمرئُ الشراب وأُحلّقُ مع الغناء في الأعالي الطاهرة مُترفعاً عن دنس الدنيا.. وهو يُغنّي:

يا ((غرونغ)) (لقلق) أما عندك
من بلادنا خبر؟...

ما عنده، ما عنده حتماً... لأنني لم أتلقّ من بلادنا خبراً منذُ عدّة أشهر. بلادي أرمينيا، أعرف أنّ شمسك غاضبة، لكن كيف حالك وأنت بعيدة؟

هل بقي عندك أحدٌ من أبنائك؟ من يفلح لك الأرض الآن؟ هل عندك خبز؟.

وتتأجّجُ النار في قلبي. ويتردّد صوت باكراد الرخيم في أُذُنَي طويلاً يقول:

ـ إيه، يا بُني. لا تخف، فأرمينيا تعيش، تعيش...

آن الوقت، وقُمْتُ أستعدُّ للرحيل. فأعطاني باكراد تبغاً وورقاً رقيقاً، وودّعني عابساً مُتجهماً:

ـ انتبه واعتن بنفسك.

* * *

عُدْتُ إلى مواقعنا، فرأيْتُ جماعتنا في يأس شامل. اليأس يُسيطر على حضيرتي أيضاً. قوامها ستةٌ وأربعون جندياً أوكلَتْ لهم مهمة الدفاع عن قطعة أرض طولها أربعمائة وستة وثلاثين متراً. ((يا غرونغ أما عندك من بلادنا خبر؟)). هذه قطعة من بلادنا. بدفاعي هنا إنّما أُدافع عن أرمينيا.

عُدْتُ إلى الحال نفسها من جديد. نحن مُتشبثون بالأرض. قتال، قتال...

* * *

جاء المُقدّم آمر فصيلنا إلى مركز مُراقبتي، وفي حصني الضيّق البارد نصف المُظلم بدأ يشرح لي خطة عملي في قتال الغد.

قُلْتُ له:

ـ لكن لماذا نتحدّث هنا رفيقي المُقدّم؟ لنصعد إلى مرصدي.

أنشأْتُ مرصدي على ذروة شجرة، أرصُدُ منه مواقع الألمان.

صعدْتُ مع المقدّم بسلم خشبي ثبتُّهُ بين أغصان الصنوبر الكثيفة، وحصنْتُ المرصد ببقايا مدفع مُحطم، كي أحتمي مع الجنديّ المُناوب للمراقبة من رصاص العدو المفاجئ. ووضعْتُ في المرصد هاتفاً، ورسمْتُ على لوح خشبي خريطةً لمواقع العدو الدفاعية التي تُقابلني، مع الإشارة إلى نقاط النار في كل منها. سُرَّ المُقدّم لذلك كثيرا.

ــ من أيّة كليّة حربية تخرَّجْتَ؟

ــ مياسناوا ــ بور.

وأدرك المُقدّم ما أرمي إليه:

ــ إذن أنت أيضاً سُلِقتَ في مياسناوا ــ بور.

ــ تلقيْتُ أول عمادي العسكري هناك.

ــ و....؟

ــ كنّا نُقاتل اعتباطاً ونسفك الدم سُدىً.

أراد أن يُدخّن، فلم أسمح له.

ــ نحن في النهار أيها الرفيق المُقدّم وسيُلاحظ الألمان الدُخان. عفواً. يُمكنك التدخين بعد نزولنا.

وزادَتْ هذه البادرة من توادّنا.

مهمتي القتالية سهلة، تقتصر على مُساعدة سرية المدفعية التي وصلَتْ إلى مواقعي في الهجوم على العدو، والوصول إلى الطريق العريضة المُعبّدة التي تبعد ستة كيلو مترات عنّا. قال المُقدّم:

ـ يجب أن تحتل كتيبتنا الطريق، وبذلك نقطع على العدو طريق الاتصال مع فصائله.

سألتُهُ:

ـ هل زودتمونا بدبابات؟
أجاب:
ـ ثلاث دبابات! إنّها قليلة فعلاً. وهذا يعني أن نحتلّ الطريق بوسائلنا الخاصّة. تُرى هل ننجح؟
قُلْتُ:
ـ نحن تعلّمنا القتال على كلِّ حال، وعندي أمل بالنجاح. نعم.

* * *

عند المساء جاء النقيب فولكوف. أنا أعرفه، فكثيراً ما لعبْتُ معه الشطرنج في حصني. سألني:
ـ هل تعرف الجندي ساخنوف؟
ـ جيّداً جدّاً.
فقال:
ـ منذُ زمن، وليس في كتيبتنا ((لسان)) خاصٌ بها. ومن دون ((لسان)) ناطق لا ينجح هجوم. واليوم رجا ساخنوف آمر الكتيبة أن يسمح له بالذهاب الليلة لاقتناص أسير ألماني.
قلتُ:
ـ لقد سبق له وفعل مثل هذا بالاشتراك معي ومع سوروكين. إنّه يفعل ما يقول، وهو هُمامٌ شُجاع.
أخرج فولكوف من جيبه علبة دخّان ((بيلومور)) ووضع لُفافة في فمه، وقال:
ـ لكن ما هو الدافع الذي يدفع ساخنوف إلى ذلك؟ ألا تعتقد أنّه يُريد بهذه الحجّة أن ينتهزها فرصة للهرب والالتجاء إلى الألمان؟
انزعجْتُ. فالنقيب يُفكر بالكفر. كيف يجوز لك أن لا تثق برفيقك، أخيك، أبيك؟ وسألتُهُ:
ـ ولماذا تُريد معرفة رأيي؟
ونفثَ فولكوف الدخّان من فتحتي أنفه وأجاب:

ـ أنت عضو عامل في الحزب، حائزٌ على وسامين، لذلك نحن نثقُ بك. ثمّ إنّ ساخنوف صديقك.
قُلْتُ:
ـ شُكراً على هذه الثقة، لكن هل عندك سبب يدعوك إلى الشكّ فيه؟
أجاب فولكوف ببرود: ـ عندي، لا تنس أنّ ساخنوف لص مُحترف يحملُ على كتفيه سنيناً من السجن. ويُمكن أن يُفكّر في الهرب والالتجاء إلى الألمان.
كُدْتُ أمسك بخناق مُنافسي في الشطرنج وأخنقهُ، ولكنني تمالكْتُ نفسي وقُلْتُ بهدوء:
ـ إذا كنتم تخشون من هرب ساخنوف، لماذا لا تعدمونه بالرصاص؟ تذكّر أنّه لم يهرب يوم ذهبْتُ معه لأسر ((لسان)) للواء.
فنظر النقيب إلى وجهي مُتعجباً وقال:
ـ لا أفهم ما تقصده.
ـ آخ، لا تفهم. ماذا تفهم إذن؟ هل تعتقد أنّ الهرب إلى مواقع العدو أمرٌ صعب؟ تعال نخرج من الحصن، لأُريك كيف أستطيع أن أذهب ثلاث مرّات إلى مواقع العدو وأعود أمام ناظريك. لو أراد ساخنوف الهرب، لما بقي حتّى الآن. وتفكيرك هذا إثمٌ ترتكبُهُ بحقِهِ.
وقام النقيب وذهب.

* * *

بعد رحيل النقيب بنصف ساعة جاء ساخنوف والبشرُ يطفحُ على وجهه. لقد سمح له آمر الكتيبة أن يذهب مع ثلاثة متطوعين آخرين لإحضار ((لسان)). لم أُخبرهُ بما دار بيني وبين فولكوف بشأنِهِ، وشجعْتُهُ قدر ما أستطيع.
في الليل عبر ساخنوف ورهطه إلى المنطقة المُحايدة. وبقيْتُ أنتظر عند الحاجز.

لم يصلْنا أيّ خبر من مواقع العدو طول الليل. تُرى هل قُتِل ساخنوف مع رفاقه؟ وتذكّرْتُ صلاتنا في ((المصران الأعون)):

ـ يا ربنا المسيح عيسى، أنقذنا.

* * *

عند الفجر رأيْتُ خيالات في المنطقة المُحايدة، تزحفُ نحو مواقعنا زحفاً. أسرعْتُ لإستقبالهم. ورأيْتُ... يا آلهي ما أكرمك! عاد ساخنوف مع رفاقه يُرافقون ((لساناً)). رأيْتُ الدم على وجه ساخنوف، فكان في ذلك نكسة لفرحي. عينه اليُسرى مُتورمة مُزرقّة، مع ذلك كان مُبتهجاً يهتف:

ـ لا بأس يا بني، لقد ضربني ابن الكلب هذا بقبضة مُسدّسه على عيني بينما كنْتُ أسدُّ فمه.

لمحْتُ النقيب فولكوف بجانبي، وكان مُغتبطاً.

كذلك جاءت شورا راكضة، وازداد عجبي، إذ إنّها مازالت تُلاحقني، رغم خشونتي معها. فبعثَتْ فيَّ هذه الفكرة شموخاً واعتزازاً، لا شيء يسمو بالمرء أكثر من أن يكون محبوباً.

نظّفَتْ شورا عين ساخنوف وضمّدتْها. لم يصرخ ساخنوف. اقتادتْهُ إلى مُستشفى الميدان. وعند عودتها سألتها:

ـ هل حضر عجوزك أيضاً إلى كتيبتنا؟

ـ كان يُريد ذلك، لكنني لم أسمح له. لقد طردتُهُ.

ـ خيانة...

وتعلّقَتْ شورا بياقتي:

ـ لا تقتلني بعدم إدراكك.

قالت ذلك وتنهدَتْ وذهبت. ولم أُتابعها بنظري. كما لم أتمكن من إشعال سيجارتي بقدح زند قداحي، لأنّ يدي كانت ترتجف.

تبين أنّ لسان ساخنوف ذو أهمية بالغة.

* * *

عند الفجر هجمنا في غفلة من الألمانِ، وما أيسر ما اخترقنا مواقعهم. وصلنا إلى الطريق العريضة ظهراً، وشكلنا مواقع جديدة هناك وتمركزنا فيها. قوتنا لا تُساعدنا على المزيد من التقدّم. لا تغيب شورا عن بالي. يبدو أنني جرحْتُ كرامتها أكثر فأكثر، ولكنْ ما العمل.

نحن الآن في العاشر من شباط. شهرٌ وثلاثة عشر يوماً وأنا في التاسعة عشرة من العمر. كتابتي مُتجمّدة.

الحواجز المُخترقة

بنينا في مواقعنا الجديدة تحصينات دفاعية. سألتُ آمر كتيبتنا: لماذا لا نُتابع معاركنا الهجومية؟ ففكر قليلاً وقال:

ـ الموضوع، هو أنّه في هجومنا هذا مغزى محلّي. وبمعنى أوضح ((ضجّة في جبهة القتال)). هذا أمرٌ مهم معنوياً. ولا تنسَ لينينغراد المُحاصرة أمامنا.

فهمْتُ من قوله أنّ هناك ترتيبات لهجوم كبير لاختراق حزام حصار لينيغراد. فجبهة قتال فولخوف تتجه بوجهها إلى لينينغراد وإلى جبهة لينينغراد. يستندُ الجناح الأيمن للجبهة الجديدة على بحيرة لاتوغا، بينما يستندُ الأيسر على الضفّة اليُسرى لنهر فولخوف في نوفغورود. نحن في القسم الجنوبي من الجبهة في حوض فولخوف.

جاء كشافونا بخبر يقول إنّ الألمان ينقلون من الجهات الشمالية لوائين باتجاهنا، ضدّ كتيبتنا وحدها. هذا رهيب، لكنّه يدعو إلى الفخر، إذ يوصلنا إلى غايتنا. الألمان يسحبون لوائين من القوات التي تُحاصر لوضعهما في مواجهتنا، وهو استدراج واضح إلى جبهة قتال جديدة تشلُّ كلَّ حركاتهم، بهذا الشكل لا يستطيعون التقدّم ولا الرجوع إلى لينينغراد لمُقابلة قواتنا التي تنوي الهجوم على تلك المدينة، لأنّ الرجوع يُكلفهم كثيراً من الخسائر المُختلفة.

هل تعرفون معنى لينينغراد المُحاصرة؟ لا تعرفون طبعاً. حصارها هو كما يلي: لقد كتبت رسالة إلى أهلي أقول ((سنة ونصف ولينينغراد مُحاصرة من جهاتها الأربع، وهي مُغطاة بحصار جوّي أيضاً. أُمّي العزيزة، هل تعرفين معنى الغطاء؟ لا تعرفين. لا قدّر الله أن تري مثل ذلك. المدينة، الميناء البحري، الحصار يُحيط بها من كلِّ جهاتها: خمسة وعشرون لواءً

ألمانياً مع ستة ألوية فنلندية، تعدادها زُهاء نصف مليون من العسكر مع آلاف المدافع، منها تلك المدافع التي ندعوها الحمار، وهي ذات ست فوهات، صوتها حين تُلعلع يُشبه نهيق الحمار.في كلِّ يوم تسقط فوق لينينغراد آلاف القذائف والقنابل والألغام وتنفجر. إنّها تسقط فوق المنازل حيث يوجد أطفال، وعلى الحافلات التي يستقلها الناس الذاهبون إلى أعمالهم السلمية. الفاشيون يُسقطون قنابلهم على المُستشفيات المُزدحمة بالجرحى وعلى المدارس ورياض الأطفال. الموت في كلِّ هذا... وهو مُستمرٌّ منذُ سنة ونصف دون انقطاع. لا يستطيع أحدٌ أن يتصوّر المُعاناة التي يُعاني منها أهلُ لينينغراد. آخ، ماذا أقول، أهلُ لينينغراد ليسوا مخلوقات عادية، بل مخلوقات سماوية. لا يوجد قومٌ يستطيعون الصمود أمام مثل هذه المُعاناة والموت، والحال الجهنمية. لا خبز ولا غذاء، الموت بالرصاص، بالقنابل، بل وبالجوع والبرد...

((ومع ذلك أُمّي العزيزة، مازال أهل لينينغراد صامدين وليس في نيتهم الإستسلام)).

عند الفجر تلقيْتُ أمراً بإلقاء وابل من القنابل على خرائب قرية أمامي لا تكاد تبين. فلقد خرّبها الألمان في خريف عام واحد وأربعين، وتركوا مكانها قوالب إسمنتية مُحطّمة، ومدخنة بقيت سليمة بأُعجوبة.

واضحُ أنّ جبهتي فولخوف ولينينغراد ستهجمان على الألمان عند الفجر، فهما قريبتان أحداهما من الأُخرى، لا تزيد المسافة بينهما على أكثر من خمسة عشر كيلو متراً. في هذا الحوض الضيّق وصل العدو إلى لاتوغا (البحيرة)، واستولى على ميناء شليسنبرغ (المدينة). بهذا عزل لينينغراد عن كلِّ الدنيا.

يجب إذن تحرير هذا الحوض ليصير للمدينة الكبيرة طريق إلى العالم الكبير.

أمامنا نصف ساعة على بدء الهجوم. وفي هذه الفترة عقدنا اجتماعاً فورياً في الخنادق للحزبيين والأنصار في السرية، وهذا ما لا يحدث دائماً. لم يطل اجتماعنا أكثر من ربع ساعة، قرّرْنا فيها وبصوت واحد

وهدف واحد القضاء على العدو البغيض. وماذا غير القضاء على العدو وطرده إلى ما وراء حدود أرض الوطن؟

كنت أقوم بمهمة أمين السر في هذا الاجتماع. فكتبْتُ في قرارنا: ((لا يُبخل على الوطنِ بالدم وبالوسيلة. يجب أن يكون للينينغراد نافذة على العالم الكبير تتنفس من خلالها)). وتذكَّرْتُ ما قاله بطرس الأول مرّة: بتروغراد نافذة على أوروبا. وأضفْتُ على القرار: ((يجب أن يكون للينينغراد نافذة وطريق إلى قلب الوطن)).

* * *

الساعة التاسعة. بعد نصف ساعة يبدأُ هجومنا الخاطف لإيصال النور إلى لينينغراد من خط كهربائيٍ يمرُّ تحت بحيرة لاتوغا، مع أنابيب للغاز تمرُّ تحت البحيرة أيضاً.

هذا في الصيف، أمّا في الشتاء فيتمُّ كلَّ شيء بواسطة سيارات تمرُّ فوق البحيرة المُتجمّدة.

يا للخُرافة!

هذه الطريق تُدعى عندنا ((طريق الحياة)). وهي كذلك. فببذل ما يمكنٍ من التضحية وتحمّل خسائر قد لا تُقدّر، تمنح لينينغراد قدراً مُعيناً من القُدرة على الحياة.

في الساعة التاسعة وعشر دقائق طلبني إلى الهاتف آمر الجبهة قائد الجيش الجنرال ميريتسكوف. هو لا يعرفني بالطبع، لكنّه أراد أن يتكلّم مع مواقع مدافع الهاون في منطقتنا. وها هو المقسم يصلُني به، فأهتُفُ:

ــ أنا أسمعك الرفيق الجنرال.

وسمعْتُ صوتاً هادئاً لطيفاً يقول:

ــ ماذا يلزمكم ذخيرة للمعركة.

ــ لا شيء رفيق الجنرال، فأنا مكتمل التموين.

ــ حسنٌ... هل ترى العدو؟

ـ إنّه فوق أنفي مُباشرةً.

ضحك الجنرال، وأدركْتُ أنني تفوّهْتُ بما لا يليق مع الجنرال. لذا قدّمْتُ له نفسي، وأوضحْتُ:

ـ إنني أرى بمنظاري كلَّ شبرٍ من تحصينات العدو الذي يُقابلني.

قال:

ـ أنا ممتَن. لكن جوابك الأول أكثر تعبيراً. فوق أنفك يعني أنّه يزول بخبطة واحدة. لكن، لهذه الذُبابة خرطوم وأرجل من فولاذ.

ـ نُحطمها أيّها الرفيق الجنرال.

ـ كم عمرك؟

ـ بلغْتُ التاسعة عشرة حديثاً.

ضحك الجنرال مرّة أُخرى وقال:

ـ آو، هذا يعني أنّك تلتهب كالبارود، هذا وقت عاطفة الحب. أتمنى لك نجاحاً حربياً. أجبْتُ بصوتٍ أعلى من الحاجز:

ـ لكم أيضاً. سيُنفَّذ أمركم الحربي، الرفيق الجنرال، سيُنفَّذ.

ـ هذا يسُرّني. إلى اللقاء.

* * *

يقف الجيش الألماني التاسع عشر الرهيب في مواجهتنا، على رأسه الجنرال ليتيمان. يقولون إنّه حبيب هتلر. إنّه يا سيدي الجنرال، كتِبَ عليّ أنا الآخر أن أكون في مواجهتك، ولسوف نُجرّب قوتنا. نُجرّب. أنت لصٌ أيّها الهرِ الجنرال. جئْتَ تسرق أرض الغير. عندما يُضبط اللص، يصفعونه كثيراً قبل أن يُحاكموه، فاستعد للصفع أيّها الهرَ الجنرال.

أُفكر في إجراء اتصال هاتفي مع ذاك الجنرال ليتيمان، وأحكي معه وأقول: يا رجل، اسحب نصف المليون من جيشك وارحل عن بيتنا. فقد يتسنّى بانسحابك للقليل من جنودك الوصول إلى أهلهم مُكسرين، وإلاّ فسيُقضى عليهم هنا.

وضحكْتُ من خيالي. قال هتلر: ((يجب محو لينينغراد من خريطة الدنيا)). كما حضّر مُخططاً لسد على نهر نيفا تغمر مياهه لينينغراد، فتحُلَّ محلها بحيرة عظيمة. هناك مثلٌ قبيح يتمثلون به عندنا ينطبق على مُخطط هتلر: ((انظر إلى كلبي يأكل البطيخ)).

* * *

ها قد أشارَتْ عقارب الساعة إلى التاسعة وعشرين دقيقة. أنا لا أشعر بالبرد. وأقرأُ حديث لينينغراد الموجه إلى جنودنا: ((في هذه الأيام الحاسمة تتوجّه إليكم أنظارُ لينينغراد بمحبّة وثقة وأمل... تدعوكم إلى الانتقام. قبور الأطفال أيضاً تُطالبكم بالثأر لها)). واعتصرَتْ الكلمات الأخيرة الدمع من عيني. آخ، يا إلهي، قبور الأطفال!

* * *

الساعة التاسعة والنصف.

لعلعة رهيبة. أطبقَتْ السماء على الأرض. لا، إنّها نيران مدفعيتنا التمهيدية، اندلعَتْ من آلاف المدافع، ومنها مدافعي الهاون التي راحَتْ تُنفّث دُخاناً مُتتالياً مُستمراً.

ـ باسم لينينغراد، عشر مدافع سريعة، ناااار.

التراب يغلي. أمّا سماء الشتاء الرمادية فنزلَتْ كُلّها وحطَّتْ على كتفي. لعلعة شاملة. نارٌ حامية.

جنودي لا يسمعون صوتي، فيُطلقون النار بإشارة من يدي. كان الهواء ساكناً، فعصف وأعصر.

استمرَّتْ نيراننا على هذا المنوال ساعة وخمساً وأربعين دقيقة. بَرَدُ معدني يتساقط على رأس العدو، وهو في مواقعه الضيّقة المتطاولة التي تُشبه الزُجاجات.

منظر رهيب. يصعبُ على الطبيعة نفسها أن تخلق مثل هذه الأُتون من النار.

مضى يومٌ هكذا، ثمّ يومان.... وسبعة أيام. ورقم الحكاية سبعة. لكن هكذا.

وتحطّم طوق لينينغراد، وانسحب العدو، وانفتح أمام المدينة طريق إلى العالم الكبير.

نحن الآن في الثامن من شباط. شهرٌ وعشرون يوماً وأنا في التاسعة عشرة من العمر. كتابتي تحرَّرَتْ من القيود.

أيامٌ مُضطربةٌ

جاء إلى موقعي أحد جنودي القُدامى الذي أصبح رقيباً أولاً. جاء يرتدي رداءً أبيض بقلنْسوة. تبادلنا التحية على الطريقة العسكرية، وقال إنّه قنّاص يقوم بهذه المهمّة منذُ ثلاثة أشهر.

قُلْتُ:

ـ شيءٌ مُشوّق، وما هي النتيجة؟

فأخرج من جيبه جريدة جبهتنا، وأشار فيها إلى صورته ((هذا القنّاص البطل من القطعة... هو عزرائيلنا الحقيقي إلى العدو. لقد قضى في شهرٍ واحد على تسعة وأربعين هتلرياً)). وقرأْتُ المقال مرّات ومرّات، ثمّ سجّلْتُ ترجمتها على دفتر مُذكراتي.

وبناء على طلبه أرشدْتُهُ إلى الممر الأرضي السرّي المموّه المؤدي إلى المنطقة المُحايدة. فدخل وبيده بندقية خاصّة مُجهزة بعين لضبط الهدف، وإلى الممر الجامد.

قُلْتُ:

ـ البرد شديد، تعال إلى حُصني.

فابتسم:

ـ شكراً، أنا ألبس ثياباً دافئة.

اليوم شتوي خالٍ من الغيوم.

* * *

خرج القنّاص من مخبئه قُبيل المساء. فقدّمْتُ له ماءً ساخناً بلا سُكّر طبعاً. إذ لم يكن عندي سُكّر، فأخرج من جيبه قطعتي سُكّر كبيرتين، أعطاني واحدة، وحلّى بالثانية الماء المغلي وشربه.

وقال:

ــ يُعطوننا نحن القنّاصين نصيباً مُضاعفاً. نحن مؤَمنون من الناحية الغذائية.

قُلْتُ:

ــ هذا واضح، فأنت تُشبه الثور النتن.

قدّم لي ما يُشبه التقرير المطبوع وقال:

ــ أشر إلى أنني كنت اليوم في موقعك، وأنني أرسلْتُ عدّة هتلريين إلى العالم الآخر.

ــ كم واحداً أرسلْت؟

ــ سجّل ستة.

فسجَّلْتُ ثمانية. وابتسم القنّاص ودسَّ الورقة في جيبه.

ــ سوف أجيءُ غداً أيضاً.

قُلْتُ:

ــ لا، لا تجيء، فإذا قتلْتَ ثمانيةِ هتلريين غداَ أيضاً وحدك، فسوف تقطع رزقي ولا يبقى لي من أُحاربه.

ويبدو أنّه فهم سُخريتي، فحكَّ صدره ومضى.

اعتدْتُ على أن أستلم رسائل من البيت من وقت لآخر. أنا قلق. ((غرونغ: هل عندك خبرٌ من بلادنا؟)). ما عنده. لا توجد في هذه الأصقاع لقالق.

الرسالة للجندي غذاء. ثلاثةُ أشياء يحتاج الجندي إليها وهِي: أن يأكل حتّى الشبع، وأن تتوفّر عنده الذخيرة الحربية، وأن يتلقّى رسالة من البيت. أَمّن له هذه الأشياء الثلاثة تره يصنع المُستحيل.

جاء اللقلق بالخبر أخيراً. رزمة خضراء بكتابة باهتة. تقول أُمّي إنّهم ((بخير جدّاً، جدّاً)). أعجبتني هذه ((جدّاً، جدّاً)). يبدو أنّه لا يوجد خبز ولا وقود عند أُمّي.

نَحيْتُ الرسالة وفتحْتُ الرسالة الثانية، وهي أيضاً ((بخير جدّاً، جدّاً)). هل ستعود من جديد يا لقلق؟ احتفظْتُ بالورقتين، فهما تنفعان في لفّ السجائر.

* * *

جُرِحَ اليوم بوتكارادزه، فحلَّ محلَّه المُلازم ايفان أوفيتشكين، فأخذْتُ حاجبه صديقي ساخنوف وضممْتُهُ إلى حضيرتي.

قال أوفيتشكين مُستاءً:

ـ نجومٌ، نجوم. منذُ اليوم علينا أن نحمل النجوم الثورية على أكتافنا. يوجد أمرٌ خطّي يقضي بأن تنزع المُربّعات عن ياقتك وتضع على كتفيك نجمة بحجم القرص.

قُلْتُ:

ـ فهمت. لكن ما الذي لا يُعجبك في هذا الأمر؟ ايفان أوفيتشكين.

ـ كان ضُبّاط القيصر يحملونها على أكتافهم، فاقتلعها آباؤنا الثوريون وها نحن نعود إليها من بعدهم.

ومع ذلك فقد ثبتها على كتفيه بعناية بالغة، وإن كان هذا التغيير لم يُغيّر شيئاً من وضعنا المُتوتر جدّاً. لكن يبدو الضابط بها أكثر أناقة وتأثيرا على من دونه رتبة. ولا أجد معنى لتذمّر صديقي ايفان أوفيتشكين.

* * *

جمعوا اليوم عشرة جنود من كلّ سرية من سرايا كتيبتنا في فسحة خالية في الغابة، لكي يعدموا واحداً رمياً بالرصاص بتهمة الخيانة العُظمى، فندمْتُ على حضوري لرؤية هذا المنظر.

كان المحكوم بالإعدام واقفاً دون حزام ولا كتافات، وبجانبه حفرة قبره. كان ينظر إلى قبره ويُصلّب على وجهه صليباً مُضطرباً. لا يرى أحدٌ قبره عادةً، أمّا هذا فيراه.

وقف ستة جنود يحملون البنادق صفّاً واحداً أمامه. وقرأ القاضي الفرد العسكري قرار الإعدام. وبإشارةٍ منه صوّبَ الجنود البنادق نحو الرجل البائس.

ـ على خائن الوطن، نار.

أطلقوا النار. ترنّح المحكوم بالإعدام، لكنّه لم يقع. بل صاح:

ـ إخواني: ارحموني لن أعود إلى مثلها.

لكنّهم أطلقوا النار ثانيةً. ولم أعد أشعر إن كنت على قيد الحياة أم لا. منظر فظيع.

ولم تبق غير غمغمة لأصيح: لا تقتلوه. لكن المحكوم بالإعدام ترنّح ووقع.

دفعوه إلى الحُفرة وأهالوا عليه التراب.

ـ إخواني.

لم يواتني النوم هذه الليلة، إذ لم يفارق القبر الأسود مُخيلتي، ولم يتوقّف صوت ذلك الرجل عن الطنين في أُذُني وهو يصيح إخواني... فظيع. لماذا خُنت، لماذا؟ ماذا تُريد من إخوانك أن يفعلوا الآن؟ ألم يكن الأفضل لك أن تقع في المعركة؟ إنّها الحرب، إنْ تُقتَلْ، تمت خالد الذكر، ما فائدة العيش في الذل؟

* * *

في كلِّ زمانٍ وفي كلِّ مكان موت. الموت من ورائي وأمامي تحتي وبجانبي.

كنّا خمسة أشخاص نسير إلى مواقعي عبر الممر الأرضي. فانفجر لُغمٌ بجانبنا طيَّرَ رأس المُلازم الذي يسير أمامي. ومشى خطوتين من دون رأس. التصق دمه وأشلاء دماغه بوجهي.

وصلنا إلى مكان حفرنا فيه في الثلج مكان موقد لإشعال النار، وذهبْتُ للاحتطاب. ولمّا عُدْتُ وجدْتُ واحداً من زملائي تاركاً مكانه وجالساً في مكاني. ولم تمض دقيقة إلاّ واخترقَتْ بطنه رصاصة.

قبل أن ندفن الجثّة، انفجر صاروخ على جذع شجرة قتل الباقيين من رفاقي وسلمْتُ وحدي ولم يُصبني خدشٌ واحد.

ما أكثر هذه الأحداث التي تتكرَّر في الليل والنهار، في الخندق وفي السهل، وعند تناول الطعام! تتكرَّر في كلِّ مكان وفي كلِّ يوم، وأتعجّبُ من بقائنا عسكريين آدميين ولنا روح آدمية مع كلّ هذه الوحشية!

نحن الآن في الثاني عشر من آذار. شهران واثنا عشر يوماً وأنا في التاسعة عشرة من العمر. في كتابتي استرحام. إخواني.

* * *

أُريدُ أن أكون صريحاً معكم

ترتخي الأعصاب المتوترة، وتلين الأماني الصلدة.

ويمنحونني لقب مُلازم أول.

في مُعسكر المدافع الرشاشة المُجاور لي فقدَ جندي عقله، وانتحر آخر، وقد كان موسيقياً.

أعصاب لا تحتمِل، روحٌ تضطرب.

مازلنا تحت خطر الموت في كلِّ يوم، على الطين وفوق الجليد، في الحصن، في الخندق. قد لا يكفينا الخبز أحياناً، وقد ينفد التبغ والسُكر أحياناً أُخرى.

أعصاب لا تحتمِل.

حصل في المكان أمرٌ عجيب لم يحصل من قبل ولم يُسمع بمثله. هرب اثنان من جنود المُشاة إلى مواقع العدو. أمرٌ بشع وعار تلبّسنا كلّنا.

عند الفجر تحدّث الهاربان من المواقع الألمانية بالراديو:

ــ إيه، هل تسمعون؟ ألكساندر إيفانوف، سيرجي بوريسوف، فينيبابييف، هل تسمعون؟ اهربوا إلى الطرف الألماني. لقد استقبلونا إستقبالاً حسناً. ها نحن نأكل الخبز الأبيض والزبدة. سوف يرسلوننا اليوم إلى الخلف، إلى الحياة الآمنة، وسيقطعوننا أرضاً. هل تسمعون؟

فأطلقْتُ النار من كلِّ مدافعي باتجاه هذا الصوت البغيض. وهتف لي المُقدّم يرين مفوضنا الذي عُيّن الآن مُعاوناً لآمر كتيبتنا في خطوط المواجهة:

ــ ماذا يجري، هل شنّ العدو هجوماً؟

أجبتُهُ بألم:

ــ لا، بل أخنُقُ الأصوات الناعبة الوغدة.
ــ ماذا؟ ماذا تعني؟
بعد دقيقة واحدة دوَتْ كلّ مدافعنا الرشاشة.يجب خنق صوت الخيانة.

* * *

اليوم هذا هو الأحد. أنا أحلقُ لحيتي مُقرفصاً في الخندق. أخبروني أنّ جندياً آخر من مركز الرماية المُجاور قد هرب أيضاً إلى الطرف المُعادي، فجرح الموس شفتي.
على الأثر عُقد اجتماع طارئ للحزبيين والأنصار في الكتيبة، وكانت كلمات المُتحدثين مخنوقة بالحزن والعجب. اقتُرِحَ تنظيم مراقبة ليلية من الضُبّاط على مواقع الرماية، وتطوّعْتُ لأن أكون البادئ بالمُناوبة في الليلة نفسها في أحد مراكز الرمي. وقُبِل اقتراحي. ذهب كثيرٌ منّا إلى مواقع الرمي لدعم المواقع.

* * *

مضَتْ سنة وأنا مُرشّح للعضوية الحزبية، حان الوقت لأن أُقبّلَ عضواً. عندما فاتحتُ المُقدّم يرين بالأمر فرح حسب طبعه المعهود.
ــ اكتب طلباً فوراً. قليلٌ هم المُرشحون الذين يُقبلون أعضاء.
سألتُهُ:
ــ لماذا؟
نظر إليّ بعمق ولمحْتُ في نظرتِهِ ألماً، قال:
ــ يستشهدون يا عزيزي، يُقتلون، يموتون.
في مساء اليوم نفسه قبلني مكتب الحزب في كتيبتنا عضواً بعد جلسة عُقِدَتْ في حصن سريتنا تحت نار العدو، وكتِبَ الإنتساب على قاعدة مدفع هاون مازال ساخناً بعد القذائف التي أطلقناها منه قبل قليل.

شُعاع الغروب الناري يُضفي على المساء لوناً دامياً.

باركوا لي. وذهبْتُ إلى حضيرتي. أكلْتُ شيئاً وذهبْتُ للمُراقبة وأنا أحملُ قنبلتين يدويتين ومسدساً ورشاشين بقرص دوّار، أخذتهما من مُعاوني الرقيب.

* * *

ظلام.

اقتربْتُ بحذر من مركز الرمي. لم أجد أحداً، اقتربْتُ أكثر، ووجدْتُ الجندي الحارس نائماً في مكان المُناوبة على الحاجز الثلجي. كانت بندقيته معبأة للإطلاق، وقد وضعها بجانبه وأسند ظهره على الجدار ونام. أخذْتُ بندقيتُهُ وأيقظتُهُ. فوقع المسكين على الأرض من الخوف.

ـ لا تقتلوني، آه، ماما...

عقاب النوم في نقطة الحراسة واحد لا ثاني له، هو: القتل الفوري. جذبتُهُ من ياقته وصحْتُ به:

ـ انهض. مُخالفتك هذه تضرُّ بك وتُعرّض رفاقك للخطر. يأتي العدو ويجدكم نائمين فيُبيدكم.

حاول أن يبكي، لكنني سددْتُ فمه وقُلْت:

ـ عُد إلى وعيك.

أخذتُهُ إلى الحصن، وكان رفاقه الأربعة نائمين أيضاً. أمرْتُهُ بأن ينام هو أيضاً. وتركتُهُ نائماً وإستلمْتُ الحراسة مكانه.

* * *

سمعْتُ من مواقع العدو صوت موسيقا صادرة من مُكبّر للصوت. ويرتسم معه في السماء خيط طويل من وميض الرصاص يردُّ عليه

جماعتنا بوميض مُماثل. يصلحُ هذا الوميض المرسوم على صفحة سماء الشتاء الصافية ليكون لعبةً أسطورية.

لعلع مدفع من الجبهة اليُمنى قليلاً وسكت. ومن أمامي سعل مدفع رشاش.

وحدةٌ رهيبة. أخطار جليدية في جهاتي الأربع. وأنا وحدي مع أفكاري الثقيلة، والعدو على بُعد مائة متر عنّي.

صمْتٌ مُفزع.

بدأ النوم يُراودني. فعضضْتُ على أصبعي لكي أبقى مُستيقظاً.

* * *

بزغ الفجر وخرج الجندي الذي وجدْتُهُ نائماً من الحصن. اقترب منّي وحيّاني.

ــ يبدو أنك تعبْت.

أجبتُهُ:

ــ نعم تعبْت، وهل نمتَ أنت جيّداً؟

فلفّ سيجارة بورق سميك أصفر، ثمّ قال:

ــ الحقيقة أنني لم أنم في البداية، ولأكن صريحاً معك، الرفيق المُلازم، فلقد ظننْتُ أنك ستُعاقبني حسب النظم العسكرية. هل تُريدني أن أكون أكثر صراحة؟

قُلْتُ:

ــ لا شيء أسمى من ذلك. كن صريحاً في كلِّ شيء.

يبدو أنّه قلق في الليل. ومع أنّ تصريحه كان صعباً عليه إلاّ أنّه قال:

ــ أنا أشكرك. لقد نشأتُ في أسرة مُنظمة. جئْتُ إلى الجبهة من الصف الثالث في معهد الفنون الجميلة. وأنا مُمتنٌ إذ عاملتني مُعاملة إنسانية. لو أنّك تمسّكْتَ بذيول الواجب لكان عليك أن ترميني بالرصاص.

قُلْتُ:

ــ خيرٌ لنا أن نضرب صفحاً عن ذلك. لكنّه لم يقبل.

ــ هل تعلم؟ عندما استلقيْتُ لأنام، دارَتْ في رأسي أمورٌ كثيرة. منها قتلك واللجوء إلى الطرف المُعادي.

قُلْتُ:

ــ قد تنفد عندئذٍ بجلدك، لكنّك ستُعرّض أهلك للعذاب والعار مدى الحياة، بل إلى الأبد.

فهزَّ رأسه مؤمناً:

ــ نعم، وهذا هو السبب الذي منعني من ارتكاب تلك الجريمة. فأنا أُحبُّ وطني. لكننا بشر معرَّضون للجنوح.

لم أجد كلاماً أردُّ به عليه. نعم، حِتام تتحمّل العيش والموت مُصلتٌ فوق رأسك؟

حطَّتْ الشمس على الثلج، فتصوَّرْتُ وكأنّها تبرد. جاؤوا بطعام للجنود الذين استيقظوا لتوهم. فتهيأْتُ للعودة إلى موقعي، فقال مُحدّثي:

ــ لا تعُد بعد اليوم لمُراقبتنا ولا تُرسل أحداً غيرك، كن واثقاً بأنَّ نقطة النار هذه هي في أيدٍ أمينة.

حكيْتُ كلَّ شيءٍ للمُقدّم يرين. ولم يُرسل مُراقباً بعد ذلك إلى نقطة النار تلك.

نحن الآن في التاسع والعشرين من آذار. ثلاثة أشهر ويوم واحد وأنا في التاسعة عشرة من العمر. كتابتي مُتعجبة.

الجليدُ يذوب

مازال النهر يحمل جثثاً بعدما تخلّص من ثوبه الجليدي.

يقولون إنّه الربيع. أين هو؟ مازال الثلج يتساقط، ومازال في الليل صقيع. ويصرٌّ ساخنوف على أنّه ربيع.

ــ لعلّك لا ترى.

أنا لا أرى الربيع فعلاً. عاد ساخنوف من المُستشفى حديثاً. وزعم أنّه استراح على أيدي الطبيبات. لقد فقدَتْ عينه المُصابة قليلاً من قوة إبصارها، وهي حمراء وحولاء أيضاً.

ــ ((لسان)) بقيمة عين. أيّهما أغلى؟

أعفوه في المُستشفى من الخدمة العسكرية، لكنّه اعتذر عن الذهاب إلى الخلف.

سألني: ــ إلى أين تريدني أن أذهب؟ أنا مثل ذئب الشتاء، مخلوقٌ لا مأوى له. والوطن في حرب مُدمرة يحتاج إلى أصغر مُقاتل. فكيف أذهب إلى الخلف؟

في جنوب مواقعنا تدور معركة هجومية تُنفذها قواتنا. فتحسب الجبال تدك، وسد بحيرة (ايلمي) قد انشق، وتدفّقَتْ مياهها في أخاديد الأرض.

تدور المعركة من أجل نوفغورود. تهجمُ قواتنا فتزيد مياه فولخوف وتغلي من حُمّى القنابل والقذائف والألغام الساقطة فيها.

فولخوف لا يفتأ يحمل جثثاً.

* * *

صدر إلينا الأمر بانتشال الجثث من النهر ودفنها.

فمددْنا بالقرب من مرساتنا الوحيدة شبكاً حديدياً بعرض النهر لوقف تيار الجثث وأعطينا لكلّ واحدٍ من جنودنا عصاً ذات شص، وراحوا بواسطتها ينتشلون الجثث من فوق الشبك أو من الضفاف. وبدأنا نُكدّس الجثث المنتشلة المتجمّدة المتخشبة فوق بعضها بشكل مُتصالب، مثلما يُكدّس الخشب. ورحْتُ أستعرض وجوه الجثث فقد يكون أحد أصحابها معروفاً أو ــ لا سمح الله ــ قريباً.

دفنّا المُنتشلين من النهر، لكن مازال الماء يحمل المزيد.

ولمحْتُ بين الجثث فجأةً جثّة سيروج. انتشلوا جثّة الشاب، صغير الحجم أشقر الشعر، وسجوه على ظهره. فلفَتَ نظري ما لمع على صدره. انحنيْتُ ورأيْتُ وسام ((النجم الأحمر)) يُزين صدره. هذا هو أنف سيروج الكبير، موحّد الأبعاد، وهذه خصلات شعره.

حاولْتُ تحريك يديه وإنعاشه بالتنفس الصناعي. من يدري، فقد... لكن كانت جبهتُهُ مثقوبة بشظية قنبلة أو لُغم.

ووجدْتُ سلسلة بيضاء حول رقبة جثّة سيروج المُبلّلة. إنّها سلسلة صليب رأيتُها من قبل، وهي تحمل صليباً من الفضة. حملْتُ سيروج ووضعْتُهُ في حُفرة القبر فوق الجثث المُنضّدة. لا أشعر بخفقان قلبي ولا بتنفسي. جفَّ الدمع في عيني، أنا مُتحفّز وحسب.

تذكّرْتُ ذاك القطار الذي حملني مع سيروج من جبال موطني، وتذكّرْتُ قطعة القماش التي أعطانيها ورغيف الخبز، وذاك الذي لم يكن يكتب رسائل إلى البيت.

ــ إيه، ماذا أكتب...

كفّنْتُ سيروج بعباءتي مع صليبه ووسامه. ومزّقْتُ قطعة من ورق الرسالة التي وصلتني أمس من أُمّي ووضعتُها بين شفتيه، بدلاً من فطير الجنّاز.

وضمَّ التراب سيروج.

* * *

بعد أسبوع توقّف هجومنا غير الناجح. وبقيَتْ نوفغورود في أيدي الألمان. أنا الآن تحت وطأة كابوس عنيف. بتُّ أخاف النوم، لأنني حالما يغمض جفني أتخيّلُ الجثث التي أخرجناها من الماء ماثلةً أمامي مع صليب سيروج. وأرى الجثث تقفز من تحت التراب وتمسك حلقة رقص حول القبر الرهيبة وهي تُقهقه ضاحكة. ومنها من يحمل علماً أو رشاشاً. أمّا صليب سيروج، فيكبر مرّة ليصير بحجم جبل، ويصغُر مرّة أُخرى ويطيرُ مُتحولاً إلى شظية قذيفة.

ــ إيه ماذا أكتب...

فظيع.

نحن الآن في السادس من نيسان. ثلاثة أشهر وتسعة أيام وأنا في التاسعة عشرة من العمر. كتابتي كئيبة مثل قبر سيروج.

صاروخٌ رائع

أخضرُ سطحُ حصني. وفي فتحة الإطلاق بنى عصفور عشّاً. كيف أُطلق النار الآن من رُشيشي، فقد يخاف العصفور ويُغيّر مكان عشّه. لذا نقلْتُ مكان رُشيشي.

وصل فصيلُ مُشاة إلى مواقعنا. كان أفراده طوال القامة لكن حركاتهم تدلُّ على عسكرية مُحضّة. دعوْتُ بعضاً منهم إلى مغارتي للاستدفاء. فقالوا: ــ لا تُضايق نفسك. سوف ندفأ حالاً إذا اقتضى الأمر.

ــ أيجب أن تُغنّوا جماعةً؟

ــ نعم، لكن من دون مُشاركتك هذه المرّة.

((الغناءُ جماعةً)) بمفهومنا نحن الجبهويين هو الهجوم.

إنّه فصيلٌ من المُعاقبين جاؤوا ليُكفِّروا عن ذنوبهم. قد يوجد بينهم صديقي بوريسوف. بحثْتُ عنه ووجدْتُهُ. كان يضع كيسه تحت رأسه ويغطُّ في النوم. لقد غاضَتْ إشراقة وجهه وشحُبَ لونه، ربّما من الخوف. انتظرْتُهُ حتّى استيقظ.

ـ إستيقظ.

ــ آ، يا مُلازم. أأنت أيضاً ذاهبٌ معنا؟

ــ لا يا بوريسوف، هذه مواقعي.

ــ أنا سعيدٌ لأنّك مازلت على قيد الحياة.

ــ وأنت كيف حالك؟

ــ جئنا لانتزاع مرتفع آنانون المُقابل لكم من العدو. وبعد انتزاعه نستردُّ نحن المُعاقبين اعتبارنا. البعضُ منّا طبعاً، أي من لم يمُت. هل التقيْت دايسا الكساندروفنا؟

ـ إذا قُدِّرَتْ لي الحياة، سأبحث عنها حتماً وأجدها.

عُدْتُ إلى حصني، وفكري لا يُفارق بوريسوف، علماً أننا لم نقض غير أيام معدودة معاً وفي ظروف سيئة.

* * *

كنْتُ في الساعة العاشرة والنصف صباحاً في مرصدي فوق الشجرة. أرى من هنا المُرتفع الأخضر آنانون بوضوح. كذلك أرى الممرَّات التي تربط بين مواقعي والمُرتفع. أتمنّى من كلِّ قلبي أن يُسيطر المُعاقبون على المُرتفع وأن يبقى بوريسوف حيّاً.

أطلقنا من مدافعنا ناراً عنيفة على مواقع العدو مدّة نصف ساعة. وقَدَّرْتُ سقوط خمس قذائف وقنبلة على كلِّ متر مربّع من الأرض. لم أقتر في إطلاق النار لأنّ بوريسوف بين المهاجمين. فتحْتُ لهم طريقاً.

حوّلنا نيراننا على خطوط الألمان الخلفية، وفي اللحظة نفسها اندفع المُعاقَبون من مواقع الانطلاق وذهبوا...

اندفعوا مثل صاروخٍ محموم شامخ. لم أر في حياتي هجوماً مُنظّماً واندفاعاً مثل هذا الهجوم.

اجتاز جماعتنا بسرعة القسم الضيّق من الميدان وتمسّكوا بأذيال مرتفع آنانون. هنا أشعر وكأنّ جارينتس شاعرنا العظيم يبعثُ حيّاً حين يقول:

أرقدُ على الأرض طعيناً دامياً...

على هذه الأرض كانت الحشود الثائرة تُقاتل.

* * *

أمطر الألمان الفُسحة الضيّقة من الميدان وابلاً كثيفاً من رصاص رشاشاتهم فوقع من جماعتنا خمسة، عشرة، ووقع أيضاً آخرون. ولم يتراجع الباقون أحياء. طرْتُ فرحاً بهذا الصاروخ الآدمي. ارتموا على

النار كالفراش الجميل. ودارَتْ معركة قصيرة بالسلاح الأبيض وهرب الهتلريون. افتخرْتُ بيوريسوف وبكلِّ أولئك الذين نفذوا هذه العملية الظافرة.

حوّلنا ثقل نيراننا إلى أعماق الغرب. يجب خنق فكرة الهجوم المُعاكس عند العدو. وأخذنا المُرتفع الواقع في وسط خط النار.

من الضفّة الأُخرى أُطلقَتْ قذائفنا الحديثة التي نُدللها ونُسميها ((كاتيوشا)) لأنّها قادرة على ضرب مواقع العدو البعيدة.

وتلتهب مواقع العدو مثلما تدبُّ النار فجأةً في الهشيم.

نار الكاتيوشا هي القاضية. صحْتُ بالهاتف:

ــ استمرّوا، استمرّوا، اضربوا، اخبطوا...

وبالصوت نفسه كانت تهتف كل الهواتف والإذاعات والتراب. نعم التراب يصرخ مُبتهجاً.

قلَبَتْ الكاتيوشا الأمكنة التي كان يحتلُّها الألمان وجعلَتْ عاليها سافلها. وأشعلَتْ النار في كلِّ شيءٍ فيها. ضربْتُ جذع شجرة بقبضتي فرحاً وضحكْتُ من أعماقي وأنا أتخيّل قذيفة عظيمة من الأجساد الآدمية تنقضُّ على العدو.

تمَّ انتزاع مرتفع آنانون من الألمان. أسرعْتُ نحو المُنتصرين. أين بوريسوف؟ لكنني وجدتُهُ مقتولاً مُلقى على ظهره كأنّه نائم. كان باسطاً ذراعيه دون حذر، والبسمة الدافئة تُشرق على وجهه.

كان بوريسوف يحلم بلقاء دايسا الكساندروفنا: ((يجب أن أبحث عنها وأجدها)).

هذه هي أُمنيتُهُ التي لم تتحقق.

الأمر بسيط. يستطيع بوريسوف أن يلتقي من يبحث عنها في الدنيا والآخرة.

نحن الآن في الحادي عشر من نيسان. ثلاثة أشهر وأربعة عشر يوماً وأنا في التاسعة عشرة من العمر. كتابتي قذيفة مُحرقة.

كوخٌ أرضيٌّ أبيض

تلقينا اليوم تكملة صغيرة لتعدادنا. فانضمَّ إلى سريتنا ثمانية جنود ومُلازم. ولقد سميَّ المُلازم الذي يُدعى ايفان فيليبوف آمر حضيرة. أنا وساخنوف أحببناه. أردتُ المُزاح مع القادم الجديد فقلْتُ:

ـ هيي، ايفان، لماذا لم تُحضر معك ((صديقتك))؟

ـ ظننتُك تحتفظ لي بواحدة هنا.

قال ذلك دون أن يندهش لسؤالي.

إذن ايفان شاب، لا يُحب المُزاح، وهو يكبرُني بسنة واحدة. وتقاسمنا العيش في حصن واحد أنا وهو وساخنوف.

ايفان بالنسبة لي يسوعٌ المسيح.

عند المساء جاءنا دليل السرية بحصّة الضُبّاط من العرق والتبغ. أعطاني إيفان حصتُهُ، فهو لا يشرب ولا يُدخّن، وما عنده صديقة حتماً. لكن عنده وسام رجولة.

هزَّ ساخنوف رأسُهُ وقال:

ـ الرفيق المُلازم، أنت لا تُدخّن ولا تشرب، فإن كنْتَ لا تُحب النساء أيضاً فهذا يعني أنّك راهب.

لم يتأثر إيفان وقال:

ـ أنا أكره مثل هذه النعم. ولا يحطّ من قدر المرء أن يكون راهباً.

راهبنا ربع القامة، أشقر، بوجه مُشرق، وعينين ضيقتين. حين رأى لوحة شطرنجي استبشر وقال:

ـ هيّا بنا نلعب.

ووجدْتُ مُنافساً جاداً خطيراً في الشطرنج.

* * *

أحضروا إلى مواقعنا جهاز عرض سينمائي، ونصبوا شاشة عظيمة ومسرحاً من أغصان شجر الصنوبر والسنديان.

ذهبْتُ مع إيفان إلى السينما.

وجاءَتْ شورا إليَّ واستوقفتني قريباً من المسرح وقالت:

ـ يُسعدني إذ أتيْتَ أنت أيضاً. هل أُسلّم عليك أم...

أردْتُ تقديمها لإيفان فقلْتُ:

صدّق ايفان، أنني كُدْتُ أقتل هذه البنت في معركة مياسنوى ـ بور.

إستمع ايفان إلى كلامي دون اهتمام، بينما ضحكَتْ شورا. وسألت:

ـ هل أنت نادمٌ على أنّك لم تقتلني؟

لكنّها عبسَتْ فجأةً وقالت وكأنّها تُخاطب شخصاً آخر:

ـ آمل أنّك لم تكن في نوبة جنون عندما أردْتَ فعل ذلك.

ـ أنا لم أقل لك ذلك حتّى الآن، لكنني لن أنساه، فأنت لم تُساعدي رفيقي الجريح في ذلك اليوم.

زاد عبوس شورا وقالت:

ـ فهمت، ولكن لم أكن أنا التي رأيتها هناك.

لم يرتح إيفان لمُناقشتنا، فتركنا ودخل وحده إلى المسرح. بقيْتُ أنا وشورا. سألتُها عن صحتها، فأجابت ساخرة:

ـ وهل تهمُكَ صحتي في شيء؟

ـ الأمر بسيط، أأحكي أم لا؟

ضحكَتْ. ما أحلى ضحكة شورا. فيها الشفافية والطُهر والوفاق والنور، رغم أنّ وجهها مُحمر وحزنٌ خفي يلوح عليه، يُعطيه جاذبية أكبر. لأول مرّة أُلاحظ وجود وسام على صدرها الناهد. لقد سرَّحَتْ شعرها كهالة نور فوق رأسها. كلّ الضُبّاط القادمين إلى السينما كانوا ينظرون إليَّ في حسد ويغمزون لي بأعينهم بخُبث. فيزيدني هذا استخفافاً بهم. ألم ير هؤلاء الناس قبل الآن بنتاً؟ أشارت شورا إلى كوخ أرضي قريب.

ـ أنا أعيش هنالك.

لم تنتظر لتُشاهد الفيلم. ووجدْتُ إيفان في المسرح فجلسْتُ بجانبه. وكنت أتوقّع أن يهتم ويتشوّق إلى معرفة من هي شورا، لكن لم يحصل شيء من ذلك. وشردْتُ في الشاشة دون أن أعي مغزى ما يُعرض، فقد كان تفكيري مُنحصراً في ذلك الكوخ الأرضي القريب.

انتهى عرض الشريط.

وسرْتُ بين الشُجيرات الخضراء واقتربْتُ من بيت شورا وقرعْتُ الباب.

كانت شورا تعيش وحدها، كما كانت قد استبدلَتْ ثيابها العسكرية بثياب مدنية، هي التي كانت ترتديها يوم التقينا عند البحيرة الصحراوية.

شورا تُشبه أُسطورة. وأسطورة أيضاً كوخها الأرضي الصغير. لقد سترَتْ جدرانه بقماش جميل، وعلى السرير الثابت فرشَتْ فرشاً خفيفاً، وغطتْ الطاولة الصغيرة بغطاء من القطيفة عليه مصباح نفطي بنور أصفر يميلُ إلى الحمرة. من كلِّ شيء تفوح رائحة خفيفة من الأربطة والأدوية.

سألتني:

ــ كيف وجدْتَ الفيلم؟

ــ لم أكن أنظر إلى الشاشة تقريباً.

سُرَّتْ لقولي وسخَّنَتْ ماء على المدفأة الصفيحية وقالت:

ــ يجب عليَّ أن أغسل رأسك ورجليك.

... انتصف الليل ومازلت عند شورا. وتخيَّلْتُ نفسي مثل الصبي الأسطوري ذهبي الشعر الذي سقط في الجنّة، فكأنْ لا همَّ لي ولا حرب تشغلني، ولا أنا موجود جسماً. ليس ثمة غير روحي تستدفئ بالجسم الشذي بجانبي.

نحن الآن في الثلاثين من أيار. خمسة أشهر وثلاثة أيام وأنا في التاسعة عشرة من العمر. كتابتي غارقة في النور.

هذا هو أنا

النهر أزرق، أزرق.

على ضفته تقع مواقعي، ومدافعي التي حجبتُها بأغصانٍ خُضر كانت النار تخرج منها مُخترقة ستارة خضراء.

أُعطي الأمر إلى مُعاوني وأنا مُستلق عند الضفّة:

ـ خمسة مدافع على رأس العدو، نار...

وتُلعلع مدافعي، ويخرج من فوهتها العريضة دُخان يتلوّى ويلُف ستار الحاجز الأخضر.

حلَّ الظلام وأمسى النهر في زُرقة خلاّبة. تعريْتُ ودخلْتُ في الماء، ورحْتُ أسبح كأنني سيد البحار، مع العلم السباحة في النهار مُستحيلة تحت أنظار الألمان.

قبل عدّة أيام قام الحلُفاء بعملية إنزال في شمال أفريقيا.

أنا الآن مُستلق على ظهري في الماء. ما ألذّه دحرُ الحلُفاء للجيوش الألمانية في شمالٍ أفريقيا. يبدو أنّهم يُحضّرون لفتح جبهة ثانية في شمال أوروبا. السماء تصفو.

ـ عشرة مدافع، نار...

تذكّرْتُ شورا وخرجْتُ من الماء قافزاً.

* * *

في الليل أنا في كوخ شورا الأرضي الأبيض. استقبلتني بهمسٍ مُضطرب.

ـ رأيتك بخير، هذا أنا.

سكتَتْ، ثمّ همسَتْ بصوتٍ أخفض:

ـ أنت مجنون. أنت تهرب من النور. لكنني لن أُضيّعك أبداً.

* * *

الليل من جديد.

وأنا في بيت شورا من جديد. كذلك استقبلتني بهمس مُضطرب.

ـ نحن معاً في هذه الدنيا القاسية. معاً دائماً. أنا أشعرُ بهذا وأنا أُصدّق حدسي.

لكن فُتح الباب وظهر عند العتبة المُقدّم رئيس مكتب قيادة كتيبتنا. وهو حديث عهدٍ عندنا، مُسن تجاوز الخامسة والأربعين. سألني:

ـ ماذا تفعل هنا؟

وقفْتُ أمامه باستعداد وأجبْتُ:

ـ جئْتُ لزيارة صديقتي.

فصرخ:

ـ يا للوقاحة... صديقة تبحثُ عنها حيث الدخول ممنوع.

انصعْتُ لأمر رئيسي وانسحبْتُ خارجاً على أطراف أصابعي.

وانتهَتْ الحكاية.

نحن الآن في السادس والعشرين من تموز. ستة أشهر وثمانية وعشرون يوماً وأنا في التاسعة عشرة من العمر. كتابتي ظلام.

سيلٌ من الورق

عند هؤلاء الألمان وَلَهٌ عجيب بالورق، فهم يقصّون منشورات يرمونها من الطائرات أو يُطلقونها من المدافع بطريقةٍ ما. ألقوا بقصاصات من الورق هو في الأصل أبيض، لكن وجدْتُ بين القُصاصات البيضاء أُخرى صفراء وخضراء وزرقاء بل ووردية، كتبوا عليها كتابات مُضحكة مما يخطرُ في بالهم. وما يخطرُ في بالهم هو، مثلاً: يجب إسقاط الحكومة السوفياتية، وإنّهم، أي الألمان سرعان ما يدخلون موسكو ويتنزهون في شوارع كوبيتشيف ((فيا جنود ويا قادة، اغرسوا الحراب في التراب وانتقلوا إلى طرفنا. فعندنا، تنالون خبزاً كثيراً وزبدة)). وكلامٌ آخر درجوا على كتابته منذُ سنتين، لم يتخلّوا عنه مع أنّهم يتلقون الانكسار تلو الانكسار.

مطبخ غوبلز نتن. فلقد حصل في العام الفائت أمرٌ مُضحك. ألقى الألمان حسب عادتهم منشورات تحمل العبارات نفسها فوق موسكو ولينينغراد مثل: ((لقد سقطَتْ موسكو في أيدينا. ولا جدوى من مقاومتكم يا أهل لينينغراد)). ((لقد احتللنا لينينغراد، تقاومون بلا جدوى يا أهل موسكو)). يكتبون منشورات ويرمونها في غيرِ أمكنتها. أي إنَّ أهل لينينغراد يأخذون مناشير موسكو التي كُتِبَ فيها ((لينينغراد مفتوحة)) وبالعكس. فيضحك الناس، كأنّها نكتة حربية لكنّها تعني الشيء الكثير.

وها هم الآن يعودون إلى منشوراتهم التي لم يعد يهتم بها أحد. والدفعة الجديدة تقول: ((أيّها الروس، إنّما انتصاراتكم فصلية، لقد كان حليفكم الشتاء فأحرزتم بعض الانتصارات. يأتي الصيف ونقضي على كلِّ جيوشكم)).

نحن الآن في الصيف، ولكن الألمان هم الذين يخسرون.

بدأَتْ قواتنا في الجنوب الغربي من موسكو بشن هجمات عنيفة جعلَتْ هتلر يُلقي بقوات عظيمة في بلغورود، يُريد تسيير حملة جديدة على موسكو.

حرَّرَتْ قواتنا أوريول، وبعدها بلغورود. وفي الخامس من آب وجّهَتْ موسكو أول تحية انتصار على شرف تحرير هاتين المدينتين.

نحن الآن في السادس من آب. بعد أربعة أشهر واثنين وعشرين يوماً أبلغ العشرين من العمر. كتابتي فرح.

دميان يرشوف

أُقسّم ستمائة غرام من الخبز، مؤونة مجموعتي، إلى ثلاثة أقسام للفطور والغداء والعشاء. وما يزيد من الفطور يأخذه ساخنوف ويُخزنُهُ في خزانة الحصن. وندخل إلى مواقع لإدارة عملنا في القتال والنار.

عندما يوزّع ساخنوف الطعام يتعمّد أن تكون حصّة دميانٍ يرشوف أكثر بقليل من الآخرين. لم أقل أكثر كثيراً، بل أكثر قليلاً. ويفعل ساخنوف ذلك بحذر دون أن يراه أحد. وعندما يوزّع المطبوخ يسأل أفراد المجموعة:

ــ من يُريد زيادة من الطبيخ؟ هيّا يا شباب، مازال في الترمُس بقية.
ومع أنّ دميان يرشوف يبقى ساكتاً، إلاّ أنّ ساخنوف يملأُ قصعته ثانيةً حسب معرفته. فيُتمتم يرشوف:

ــ لماذا تملأُ لي أيضاً؟ لقد شبعت.

فيقول ساخنوف بعطف:

ــ كُل، كُل فأنت الغر الوحيد في مجموعتنا ثمّ... باختصار، خُذ ما يُقدّم لك ولا تتردَّد.

انضمّ دميان يرشوف قبل عدّة أيام إلى مجموعتنا، وعُيّن هدّافاً في مدفعية الهاون. عندما قدم من المُستشفى سألتُهُ:

ــ أين كُنتَ قبل أن تُجرح؟

ــ على يمينكم قليلاً.

ــ تُقاتل؟

ــ يه، طبعاً.

دميان يرشوف شاب صغير الحجم، ضعيف، ضيّق الوجه، رفيع الأصابع. يمزح معه أفراد المجموعة ويقولون:

ــ يرشوف، هل كُنتَ تشتغل في البيت أشغالاً يدوية بهذه الأصابع؟

ولا يرد يرشوف بغير ابتسامة هادئة. ويقسو آخر ويسأله:

ــ ربّما كان يغسل غسيلاً.

ويسكُتْ يرشوف.

لاحظْتُ على يرشوف أنّه لا يضطرب ولو لحظة حين يقصف العدو مواقعنا بنيرانه. وإنْ فعل ذلك، فإنّما يفعله للتظاهر به فقط. أمّا عندما يُطلق هو النار ويندفع مدفعه إلى الوراء فإنّه لا يُخطئ الهدف، ويقول لزميله بنشاط:

ــ هات قذيفة، عجّل.

إنّه متواضع جدّاً، ويُحب العزلة، بل التواري الكُلّي.

عند المساء رنّ جرس الهاتف في خندق الموقع. كان المُتكلّم من قيادة اللواء.

ــ اسمع، رفيق... في الخدمة عندكم الجندي دميان يرشوف من الجيش الأحمر.

أجبْتُ بإحترام:

ــ صحيح، دميان يرشوف جندي في الجيش الأحمر موجود في مواقعنا القتالية.

ــ أرسلوه إلى القيادة فوراً.

ــ لماذا؟

ــ تعلم فيما بعد.

وندمْتُ على سؤالي. إنّه أمر، ففيم السؤال؟ وصححْتُ خطأي فوراً:

ــ حاضر. يُرسل دميان يرشوف في الحال...

عندما عُدْتُ إلى الموقع وأمرْتُ يرشوف بالذهاب إلى القيادة بدا عليه الامتعاض، ومسح أنبوبة المدفع الساخنة بيده. فسألْتُهُ:

ـ لماذا يستدعونك يا يرشوف؟

فهزَّ كتفيه. بما يعني أنّه لا يدري.

ذهب وبقي سببُ استدعائه مجهولاً. على كلٍّ أوعزْتُ إلى عامل الهاتف بالحلول محلّه. وبقيْتُ أنا قُرب الهاتف.

عاد يرشوف عند الفجر، ووقف أمامي باحترام:

ـ أنا تحت الأمر...

ولّما أراد الدخول إلى الموقع سألتُهُ:

ـ لماذا استدعوك يا يرشوف؟

أجاب:

ـ لا يوجد أمرٌ هام. استدعوني لمنحي وساماً لأنني جُرحْتُ في الجبهة.

رجوتُهُ أن يزيح ياقة ممطره. ففعل مُكرهاً على ما يبدو. ورأيْتُ على صدر قميصه وسام الجيش الأحمر.

ـ أُهنئك يا يرشوف.

ـ أنا أخدم الاتحاد السوفياتي.

كان هذا أول وسام علم الجيش الأحمر في مجموعتي.

يذهب جنودي أحياناً لزيارة جنود آخرين في السرية فيتباهون:

ـ حضيرتنا تحمل وسام العلم الأحمر.

نحن الآن في الثامن من آب. بعد أربعة أشهر وعشرين يوماً أبلغ العشرين من العمر. كتابتي تحمل وساماً.

((السـاني)) الجـديـد

ينزل على الأرض مطر أصفر.

إنّه الخريف. أوراق الأشجار تسقط، والنهر يلتهب.

وقفْتُ أُراقب بزوغ الفجرِ، وهو يُلقي تباشير الضياء على وادٍ ضيّق أمامي عليه بعض الأشجار المحطمة.

الألمان ساكتون. لماذا؟ السكون يختصُّ بنا وحدنا، لأنّ اللعلعة مُستمرة مع النار عن يميني وشمالي.

تحسَّبْتُ لهذا الصمت، وراحت عيناي تبحثان عن خطر كامن في الوادي الأصفر.

أمرْتُ جنودي بإطلاق النار على ذلك السكون الأصفر. وأطلقوا النار. واضطرب حشيشٌ أخضر بطول إنسان. وفُتحَتْ في الصُفرة ثغراتٌ سوداء. سألوا من القيادة عن الأمر، فأجبْتُ:

ــ شك.

واستمرَّ إطلاق النار على الوادي ساعة. لم أبعد خلالها منظاري عن عيني. ماذا يوجد في الوادي؟ أيُعقل أن يكون صمتُ الألمان بلا سبب. إنّهم لا يفعلون شيئاً بلا سبب، حتّى الصمت.

تدحرج جسمٌ على حافة الوادي. آها، إذن يوجد شيء.

ــ نار....

وحوَّمَتْ طائرة فوقنا. إنّها مُعادية. أطلقوا عليها النار من مواقعنا فاشتعلَتْ بكلِّ أجزائها وانفجرَتْ في الجو. نعم يوجد خطرٌ في الوادي.

ــ نار.....

وخرج النقيب غوبين ومواقع أُخرى عن الصمت، وأطلقوا نيرانهم.

وفوجئْتُ باثنين من جنودي برئاسة ساخنوف يدخلون المنطقة المُحايدة، رأيتهم بالمنظار يتغلغلون. أين؟ نزلْتُ من مرصدي وركضْتُ وراءهم أُناديهم، أخافُ عليهم من الفناء.

كُنتُ قد حفرْتُ خنادق مُلتوية حتّى في المنطقة المُحايدة، يزيد ارتفاعها على قامة إنسان عادي. ((تقول شورا إنني طويل)). وكُنتُ قد دعمتُ جدران الخنادق بعيدان وأغصان وأخشاب.

عاد ساخنوف يجرُّ ألمانياً. ضبطه تحت الحاجز مُباشرةً. لقد جُرح الألماني في قدمه. لا يوجد خوف في عينيه الصفراويين، بل يوجد حقدٌ وشر، واحتجاجٌ مجروح. ((هل أنا أسير؟ يا للحقارة!)).

جرَّده ساخنوف من سلاحه وأوصلوه إلى حصني. وجاءت شورا تسأل:

ــ هل يُمكنني إسعاف الجريح؟

قُلْتُ:

ــ إنّه واجبك، اسعفيه بعناية.

لكنّه رفض أن تُضمّد شورا جرحه، وطلب بلغةٍ روسية ركيكة مُتلعثمة:

ــ اعطوني الموت. أُريد أن أموت.

سألتُهُ:

ـ هل أنت جاسوس؟

فهزَّ برأسه وقال:

ـ نعم، نعم.

فأمرتُهُ بالطاعة والسماح لملاك الرحمة بتضميد جرحه. ولم يعترض.

ــ اعطوني الموت، الموت...

فقال ساخنوف غاضباً:

ــ انظر إلى هذا الوقح، عرَّضْتُ نفسي ورفاقي للخطر للإمساك به، ويُريد أن يموت.

من حسن الحظ أنّ الألماني كان قادماً مع ستة من رفاقه لاختطاف واحدٍ منّا. فدخلوا المنطقة المُحايدة ووصلوا حاجزنا الترابي، لكنّه وقع في الشرك.

ـ أُريد الموت.

أحطنا به وسرنا باتجاه النهر. أسير بجانبه، وينظر إليَّ ويُتمتم.

كيف؟ من أين؟ أخرج مُسدساً وصوّبه إلى صدغه يُريد الانتحار. لكنني تمكنْتُ في الوقت المُناسب من القبض على يده وانتزاع المُسدس منه. فزمجر:

ـ الموت لي، الموت....

ففتشتُهُ من جديد ووجدْتُ داخل خياطة ياقته أنبوبة زُجاجية. واضحٌ أنّها سُم. جرَّدْتُهُ منها أيضاً، ولم أتعجّب. لم يكن هذا الهتلري يأمل في الانتصار علينا. لذلك احتفظ بالموت في ثنايا ثيابه لكي يُنهي حياته إذا ما وقع في الأسر. أمرْتُ بتقييد يديه، فكزَّ على أسنانه، بعدما أُسقط في يده.

ـ الموت، الموت.

قُلْتُ له:

ـ لا تتعجّل الموت، فهو بعيدٌ عنك. لكنّه قريبٌ جدّاً من ((جيوشكم الحديثة)).

جاءت مُترجمة كتيبتنا، وكانت بنتاً قصيرة مُكتنزة، فقلْتُ له كلّ ما دار بفكري، ثمّ سألتُهُ إن كان يعرف أنّ جيوشهم قد أُبيدَتْ على آخرها عند مشارف مدينة كورسك. فخبط على رأسه وقال:

ـ هراء. أنت تهذي.

قُلتُ:

ـ أرى أنّك أنت السائر وراء خُرافة هتلر. فلقد أعماكم حتّى عن أنفسكم. في الخامس والعشرين من تموز سقطَتْ حكومة حليفكم موسوليني الإيطالي. ألا تعرف هذا أيضاً؟

فانتفض الأسير، وصدّق هذا الكلام وقال:

ـ ثمّ ماذا؟ لقد إخترعنا سلاحاً جديداً، سوف نستعمله عاجلاً. بل وسوف تركعون بعد أسبوع واحد. وتنتهي الحرب لصالحنا.

ـ يرى الحسون الدخن في منامه.

لا أعلم كيف ترجمَتْ المُترجمة هذا المثل الأرمني، لكنني لاحظْتُ ملامح الأسى على وجه الأسير.

أمّا ساخنوف، بطل اليوم، آسر هذا الجاسوس الألماني فقد أخذ ((ينظر بفخر إلى هذه الغنيمة)) وشيءٌ غير طبيعي يعتمل في داخله. يُخيّل إليَّ أنّه أدرك الآن أنّه رجلٌ سَوي وله أهميتُهُ.سُررْتُ لهذه الفكرة. ساخنوف ينسى ماضيه المرير. لكن لم يفته أن يسأل ((الغنيمة)) بواسطة المُترجمة:

ـ هل كنْت في نواحي سمولنسك، سيدي الألماني؟

ـ أوه، طبعاً، لقد وطئْتُ نصف بلادكم بأقدامي.

فإهتاج ساخنوف وقتم وجهه السمح وقال:

ـ أمّا الآن فأنت تحت قدمي. أظنُّ أنّك أنت الذي أحرق قريتي يا كلب يا ابن الكلب. آخ، لماذا أبقيْتُ عليك حيّاً؟

فاحمرّ، وازرق. واكتفى بأن بصق وانصرف. أعتقد أنّه خشي أن يقتل الأسير في لحظة غضب، وهو ما لا يريده طبعاً. وتصوّرْتُ أنّ له الحق في قتله إذا أراد، وما كنت لأمنعه، ولو لحقني من القيادة لومٌ بسببه.

أبلغونا من قيادة الجيش أنّ ((اللسان)) الذي أمسكنا به جاسوس خطير. ومنحوا كلاً من الجنديين مع ساخنوف ساعة يدوية. فطار عقل ساخنوف:

ـ آخ. هذه الساعة هي أول أجرٍ حق أتقاضاه من عرقي. آه، يا إلهي!

أهديْتُ مسدس الأسير إلى شورا. فهو بحجم علبة الكبريت ومن شركة

((براوننغ)).

نحن الآن في السادس عشر من آب. بعد أربعة أشهر واثني عشر يوماً أبلغُ العشرين من العمر. كتابتي أجرٌ عادل.

عدم الكتابة أدنى من الخط

خنادقي مغطّاة بشُجيرات العلّيق التي تنتشر بكثرة على طول حوافها. وفوق خنادقي سقفٌ أصفر، وأنا أمشي تحته.

توت العليق ناضج، تتدلّى عناقيده من السقف الأصفر. فنقطف منه ملء دلائنا ونأكل.

صنعَتْ شورا من توت العلّيق مُربّى، وأرسلَتْ لي منه قليلاً في وعاء صغير. تذوقتُهُ، ووجدْتُ طعمه يُشبه طعم العسل. لكن ساخنوف كان يأكلها طرية لذلك احمرَّتْ شفتاه. ولقد وجد في الخرائب القريبة ثلاثة براميل خشبية، ثبّتَ أُطرها جيداً. فسألتُهُ:

ــ وما هي حاجتك إليها يا ساخنوف؟

ــ أُخزّن فيها فطراً مُمَلّحاً. فالغابة القريبة من ضفّة النهر مليئة به. ما عليك إلاّ أن تُدبّر لي شيئاً من الملح، وسأطعمك في الشتاء حساء الفطر.

سألتُهُ:

ــ وهل تعتقد أننا سنبقى هنا حتّى الشتاء؟

ــ ماذا إذن؟

ــ نطرد الألمان ونتقدّم.

قال ساخنوف:

ــ ليسمع منك المسيح. لكن إله الحرب يُغيّر سبع زوجات في اليوم.

* * *

ملأ ساخنوف البراميل الثلاثة بالفطر المكبوس بالملح. وكان يُطعمنا في كلِّ يوم فطراً غضاً، وينصحنا بقوله:

ـ كلوا، ففي الفطر كحول يُسكر.

كم يعرف هذا الساخنوف من أمور.

* * *

في كلِّ أسبوعٍ يُحاول الألمان شنَّ هجومين على مواقعنا. وكنّا نعرف توقيت الهجوم من صمْتِ مدافعهم المُفاجئ. فنحصّن مواقعنا ونتصدّى لهم، ولا نمكنهم من الوصول إلى خنادقنا.

ها قد بدؤوا هجوماً جديداً.

رأينا دبابة ألمانية تتقدّم نحو مواقعنا. قدّرْتُ أنّ مدافعي لا تستطيع التأثير في جسمها الفولاذي الصلب، وهذا أكيد. والمدفع المُضاد للمُدرّعات الوحيد قد تحطم بقذيفة في الليلة الماضية تحطيماً كاملاً.

مازالت الدبابة تتقدّم يُرافقها مُهاجمون على الجانبين. لم نجد بداً من توجيه نيراننا المدفعية والرشاشة إلى المشاة المرافقين، أجبرناهم بذلك على الانبطاح والالتصاق بالأرض.

استمرّتْ الدبابة في الاقتراب. إنّها من طراز ((النمر)) ثقيلة رهيبة، لا نستطيع صدّها بأية قوّة. وراحَتْ تتقدّم من مواقعنا وتُطلق نيران مدفعها ورشاشها.

مرارة.

حضّرْنا قنابل مُضادّة للدبابات لإلقائها تحت جنزيرها، فقد نستطيع بذلك أن نُقلّص قُدرتها.

الدبابة قريبة جداً. وصلتني رائحة البنزين والفولاذ التي تفوح منها، وحسبنا أنّ نهايتنا قد دنَتْ، بعدما تسحقنا سحقاً. أنا مرعوب، فقد كنت يوماً لفترة تحت جنازير مثل هذا الغول....

وفجأةً انغرزَتْ الدبابة مع خرطومها الرهيب في التراب، وخُيّل لي أنّها تزعق وتعول، وغابَتْ عن الأنظار.

هل تمتّ مُعجزة أم ماذا؟ لقد غابت جنازير الدبابة بين دغل شُجيرات العلّيق. ماذا جرى لها؟ واكتشفنا أنّ الأمر بسيط جداً. فلقد حفر المُشاة من قبل شِراكاً للدبابات خلف مواقعنا إحتياطاً لمثل هذه المواقف. وهي عبارة عن حُفر عظيمة لاقتناص الدبابات، سُتِرَتْ بشُجيرات العليق وبعض الشباك. فوقعَتْ فيها هذه الدبابة المنحوسة وانقلبَتْ على قفاها.

* * *

أسقمتنا رائحة الجيف.

لقد أنتنت جثث الألمان الهتلريين المقتولين تحت حاجزنا. ولا توجد في المنطقة ضباع تأكل الجيف، لأنّ وحوش الليل قد هجرَتْ المكان بعدما فقدَتْ فيه الأمان. لا يوجد هنا غير القتال والقتل.

* * *

أعطتني شورا أوراقاً للكتابة. مُربّعة، ذات سطور مُتقاربة. خُصصَتْ لكتابة الرسائل فقط، وصُمِّغَ طرفها، حتّى إذا بُلَّ باللُعاب يلصق بالورقة الثانية. وطُبع في أعلى الورقة جُملة ((لا تكتب فوق العبارة)). العبارة هي ((أكتب بقلم الرصاص)). أعجبتني الأخيرة ((أكتب بقلم الرصاص)). لأنني لا أملك الآن إلاّ قلم رصاص بعد ما فقدْتُ قلم الحبر.

أنا رجلٌ نظامي، أكتب بين السطرين عن توت العلّيق والفطر و((النمر)) المُدمّر.

وتتزايد مواضيع كتابتي التي أحتفظ بها في جيبٍ خاص خطْتُهُ بنفسي على قميصي الداخلي، ففيه أسراري مُلتحمةً بجسمي. وفيه أيضاً وريقات ورد يابسة فقدَتْ أريجها طبعاً جئْتُ بها من ديارنا لكي تُذكرني بها في غُربتي، فأشمُها وأحسبها تضوع. وتتألف مذكراتي من

أوراق مُختلفة الأشكال والألوان، ففيها المُثلثة والمُستطيلة والمُستديرة، وفيها البيضاء والصفراء والخضراء.

حضر المُقدّم يرين إلى مواقعي.

قال بصوتِهِ الجهوري الهادئ المعهود، وقد أقول المُتجاهل:

ــ هل سمعت بالجديد؟ لقد نزلَتْ القوات البريطانية في الجنوب من أرض إيطاليا، وإستسلمَتْ القوات الألمانية الموجودة في إيطاليا.

قُلْتُ:

ــ نعم سمعْتُ بها أيّها الرفيق المُقدّم.

فتعجّب:

ــ لكن كيف؟

ــ من موسكو، هل نسيتم أنّ عندنا جهاز راديو؟

ــ آه، ها، اللعنة على الشيطان، لقد جئْتُ مُتأخراً.

قُلْتُ:

ــ لسْتَ أنت المُتأخر أيها الرفيق المُقدّم، المُتأخرون هم الحُلفاء الذين لم يفتحوا بعد جبهة ثانية في أوروبا.

ــ وهل لهذا تأثير مُعيّن على سير الحرب؟

ــ لم يصل الوضع إلى حدِّ اليأس. لكن إذا بدأَتْ عمليات حربية من الخلف فلا يتصرّف هتلر بمثل هذا الجبروت.

نظر إليّ المُقدّم طويلاً ثمّ ابتسم وقال:

ــ أنت على ما يبدو إستراتيجي أيضاً. هيّا، فلنُرسلك إلى الأكاديمية العسكرية.

ودار رأسي من جديد. كيف أحتملُ البُعد عن شورا؟ أبداً. هذا لن يكون. فمع أنني قليلاً ما أُفكّر في شورا أو ألتقيها، إلاّ أنني لا أُريد أبداً أن أكون سبباً في مرارة عيشها.

فقلْتُ:

ـ لا، أيّها الرفيق المُقدّم، أنا لا أنفع للعمل العسكري. يجب أن أرجع إلى البيت حالما تضع الحربُ أوزارها. وإذا لا سمح الله، امتدَّتْ هذه الحرب خمس سنوات أُخرى، أُحارب مُتطوعاً لنصرة وطني وشرفي العسكري. وعندما نُحرز النصر يتوجّب إعفائي من العسكرية وإرسالي إلى البيت. هذا هو ما أحلُمُ به.

غادرني وهو يهزُّ رأسه.

* * *

دبّ الإنتعاش عندنا في مواقعنا، وارتفعَتْ معنوياتنا، فلقد تمزّق المحور الهتلري العسكري وخرجَتْ إيطاليا، وراح الإيطاليون الشيوعيون يُحاربون بحمية لطرد الألمان من بلادهم. وفي هذا عونٌ لنا دونما شك، إذ كان كلّ ضغط القوات الألمانية موجّهاً علينا وحدنا ونحن نصدُّهُ ببذل الدم الغالي.

أمّا المُقدّم يرين فرجلٌ عجيب. تمنيْتُ لو يوبخني مرّة. فأنا تابعٌ له ورفضْتُ اقتراحه بإرسالي إلى التعلّم. فليقل شيئاً يدلُّ على غضبه وليفعل شيئاً. لكن لا. أنا أجد عنده العطف الأبوي، وهذا يزيدني ألماً. كلّ شيءٍ قاس هنا، والعطف شيءٌ غير عادي لا نُطيقه.

نحن الآن في الثالث والعشرين من أيلول. بعد ثلاثة أشهر وخمسة أيام أبلغُ العشرين من العمر. كتابتي بالقلم الرصاص.

مع شيراز

نحن في الخريف وعلى ضفّة فولخوف. الخريف هنا ملوّن بألف لون، دافئ مُثمر. لكننا نحن الجنود لا نُلاحظ هذه الألوان. فلا يوجد أمام أعيننا إلاّ لون واحد، هو الأسود الذي نراه في مواقع العدو المواجهة لنا، وفي التربة تحت أقدامنا، وفي الحفر والملاجئ التي نُبشَتْ بقنابل الحرب. فوق كلّ شبر من الأرض وفي داخله ما يقرب من مائة رصاصة، وربّما ثلاثمائة شظيةً، إضافةً إلى الدم الغزير المجبول بها. كيف تكون ألوان خريف السلام يا تُرى؟ وكيف يكون يوم السلام؟

استدعاني المُقدّم يرين بالهاتف:

ــ تعال إلى مكتبنا، يبدو أنّه توجد كتب هنا بلغتكم أيضاً.

ذهبْتُ، ونظرْتُ. إنّها بلغتنا، يعني بالأرمنية. دفترٌ صغيرٌ واحد هو ((مُذكّرات مُحارب)). أخذْتُهُ، وبدَتْ لي حروف لغتي بعيدة مثل النجوم. لكن كيف وقعَتْ حروفنا هنا في الجبهة.

جلسْتُ في موقعي أُقلّب صفحات دفتر المُذكّرات. فقرأْتُ على صفحة منه اسم هوانيس شيراز، ((أيّ واحد هو يا أبي وطننا)) ــ هو من له سماء عالية. هو من له شمسٌ حمراء فوق رأسه الأزرق.

وتغلغلَتْ بلاد أرمينيا البعيدة النائية في كياني، بتيجان الجبال البيضاء وأحزمتها الزرقاء وتُرابها الأحمر. إنّها كبيرة. بلادي حفنة تراب وطيف عظيم لا يُحتضَن وهي ليست بالعرض بل بالعمق، عميقة فتّانة، ألذ من حليب أُمّي وأجمل من وجه أُمّي المُتجعّد. لقد حمل شيراز قوّة أرمينيا كلّها ووضعها فوق ظهري. وتجسّد الفاشيست أمام عيني عدواً وموتاً بغيضاً يمدُّ مخالبه إلى أعالي السماء، إلى دنيانا التي صارَتْ صلاة. ((أيّ واحدٍ هو وطننا يا أبي)) ــ ها هو: إنّه هذا الخندق

والأرض المنكوشة، وهذا الخريف المجروح المسوَدْ. هذا هو وطننا يا ولدي ـــ إنّها الأرض تحكي بلسان الشاعر.

يجب بتر اليد الوحشية لكي لا تخمش ((شمسنا الحمراء)) قلب البلاد. أردْتُ أن أكتبَ رسالة إلى شاعرنا العظيم شيراز، لكن ساخنوف قاطعني مُضطرباً قائلاً: إنّ الهتلريين يستعدّون للهجوم.

عدوْتُ إلى سلاحي ـــ مدفع الهاون لمواجهة العدو بشدّة. ((أيّ واحدٍ يا أبي هو وطننا)) ـــ هو ذا، هو ذا.

دخّنْتُ كلّ ورقات دفتر مُذكّرات مُحارب، إلاّ ((أيّ واحدٍ هو يا أبي وطننا)) فلقد خبأتُ هذه الورقة في جيبي الخاص.

نحن الآن في الرابع والعشرين من أيلول. بعد ثلاثة أشهر وأربعة أيام أبلغُ العشرين من العمر. كتابتي شمسية.

... وأنتم يا شُجعان الأرمن

في جريدة جبهتنا، نُشِرَتْ صورة أرمني. من هو؟. آ، انتظرْ، إنّه اشخان دافيديان، من مُقاطعة غابان. عندما جئنا إلى الجبهة من جيلبابنسك كان اشخان رقيباً، وهو الآن مُلازم ومُحارب مشهور. إنّه في لوائنا في الكتيبة 200.

وأنظر مسروراً إلى صورة مواطني.

ــ أنا راضٍ عنك يا اشخان وفخورٌ بك.

جاء البريدُ. وسلّمني الجندي الموّزع رزمة سميكة. لم أستلم من قبل رزمة بمثل هذا السُمك. كُتِبَ عليها العنوان بخط أنيق و.... من يريفان.

فتحتُها وإذا بها من نابيري زاريان الشاعر المشهور. تضمُّ الرزمة كتابين ((صوت وطني)) و((آرشاك وشابوه)). وخفق قلبي من جديد. أين هو اشخان دافيديان؟ لو يأتي لقرأْتُ له ((صوت وطني)). وليشنف سمعه هو الآخر بهذه العاصفة الشعرية:

... وأنتم يا شُجعان الأرمن

عند انفجار القنابل وفي لحظة الموت الرهيبة

تذكّروا درب أرمينيا الأُم المُنير...

وتصوّرْتُ كلّ رجال مواقعي جاؤوا لمعاونتي في زي جيوش ديكران الكبير، أو وارطان مامغونيان، أو دافيد بك. وجاءت، جاءت كلّ جبال أرمينيا وأنهارها البعيدة النائية تحملُ قنابل، قنابل مليئة بالكره للعدو واليقين بالنصر المُبين.

الشعرُ أقوى سحر وأمضى سلاح.

وأقرأ ((صوت وطني)) بشغف، ثمّ يعود بي الخيال إلى أيام الملك آرشاك. ويمرُّ أمامي اشخان دافيديان.

ــ اسمع يا اشخان ((صوت الوطن)) هل تسمع؟ حسنٌ، اسمع.

وأقرأُ بصوتٍ مُرتفع وأنا أحسبُ أنّ اشخان يسمعني حقاً. وأضحك من نفسي، إذ كيف يسمعني المسكين وسط هذه الضجّة الفظيعة! الأفضل أن أُرسل ((صوت وطني)) إلى اشخان وليقرأه هو بنفسه. ولنُعطه بعد ذلك إذا شاء إلى جندي أرمني آخر. وهكذا يقرؤه كثيرون.

للأسف لا توجد ترجمة روسية له لأُعطيها إلى رفاقي هنا ليسمعوا هم أيضاً صوت شعبي ووطني.

نحن الآن في السادس والعشرين من أيلول. بعد ثلاثة أشهر ويومين أبلغُ العشرين من العمر. كتابتي شعرية.

بريد الميدان 77141 ف

المكان نفسه.

انتهى موسم العلّيق. وتغطّتْ المواقع بطبقةٍ سميكة هشّة من الثلج. كذلك الأمر في مواقع العدو، فهي بيضاء أيضاً.

أمّا داخل حصني، فأسود و... سوّد دُخان الفتيل السقف والجدر والباب السميك المُثخّن بالجروح. ومع أنّ الباب موجود تحت الأرض إلاّ أنّ شظايا بعض القذائف والرصاص تصلُ إليه أحياناً فتجرحه. ولا ننسى السخام المُتدني من عوارض السقف وعمده.

في الخارج برد، وفي الداخل سواد وهواء ثقيل. مدفأتي الصفيحية مُشتعلة وأنا أغلي من الألم وأشتعل، فيُطفئني البرد.

استلمنا ألبسة شتوية. بطانة نصفيتي من فراء الخروف الأسود الناعم أو الأبيض أو الأحمر، لا أُميّز. تفوح من الفراء رائحة خروف جبلي أو سفحي أو سهلي، لا أدري. فأتشمَمُهُ لعلّي أُميّز رائحة قطعان جبالنا.

ألبستي الصوفية بيضاء والكتانية سوداء.

* * *

الحياة مُمتعة في الوقع والخندق. أستلقي على الثلج الهش وأستنشق الهواء النقي، النقي.

ضممْتُ إلى مدافعي رشاش بَكَرة وجده ساخنوف وهو يبحثُ بين الجرحى، فأصلحه ونظفه ووضعه على جسم المدفع. اعتدْتُ على أن

أستلقي بجانبه، وأعبثُ بإطلاق النار منه، كذلك اعتادَتْ أصابعي على مقبضه، وأصبحْتُ أُطلق النار كأنني أعزف لحناً:

يمشي الولد وقت الغروبِ
بالقرب من بيتِنا حائراً.
فتتصل شورا هاتفياً:
ـ هل جنَّ جنودك من جديد؟
فأصيح عبر السماعة:
ـ ماذا أفعل؟ ((أعزف)) لك.
ـ صحيحٌ فأنت تُفرقع في رشاشك ـ البيانو ـ اللحن نفسه.
ـ لا أعرف غيره.
وتضحك شورا عبر السماعة. فيدخل الخط صوتٌ غليظ:
ـ هذا أنتما، هل جئتما إلى هنا للغزل أم للحرب؟

* * *

صنعْتُ من قطع الفخار والخشب على مصطبة الخندق مُخططاً لتمركزٍ العدو المواجه لي. هذا هو سياجه بطول ألف ومائتين وعشرين متراً، وبعرض متر ونصف المتر وارتفاع مترين. وفي السياج سبع وعشرون فتحة للمدافع والرشاشات. يملك العدو في هذا المكان أربع عشرة نقطة مدفع من الإسمنت المسلّح، ثلاث منها للتمويه، وأربع للاحتياط. يوجد على مخططي واديان ضيقان ينتهيان عند بيوت الألمان الأرضية ومطبخهم.

أنا لا أُطلق النار عليهم ليثقوا بأنني لا أعرف مكانهم. سأستغلُ معرفتي هذه عند هجومنا الشامل عليهم، فأُدمّر طناجرهم بحيث لا يتوقعون. أمّا إذا دمرتُها الآن، فلسوف يبنون غيرها في مكان قد لا أكتشفه.

علّمْتُ جنودي ودربتهم على مواقع العدو بالتفصيل، وبيّنْتُ لهم بمنظاري كلَّ شبر من الأرض.

* * *

سرية مدفعيتنا الهاون موجودة في نفس اللواء وفي الكتيبة نفسها، لكن رقم مركز بريد الميدان (ب ب) يتغيّر رمزه دائماً. ففي الربيع كان 1651 أمّا الآن فهو 77741 ورمزه ف. لا أفهم ما معنى هذه ال ف.

أكتب أحياناً رسائل أقول فيها ((أنا بخير حال ومكاني جيّد، معنوياتي عالية. فلا تشغلي بالك يا أُمّي العزيزة)).

كتبَتْ أُمّي مرّة تسألني ((يا ولدي، هل أنت في القتال أم لا؟ أعلمني)).

أجبتها: ((لا، مكاني جيّد جداً)).

ترى هل صدَّقَتْ؟.

* * *

شتاء، ثلج وجليد.

جاءَتْ نسوة من لينينغراد إلى مواقعنا في جبهة فولخوف. كنّ أُمّهات شاحبات بائسات، أصواتهنّ خانقة.

ــ الحال قاسية في لينينغراد يا أولادي...

ولم يتمكنَّ من الكلام فانخرطْنَ في البكاء.

ــ خلّصوا لينينغراد.

أطلقْتُ في الليل ثلاثمائة وخمساً وعشرين قذيفة على مواقع العدو الخلفية التي خمّنْتُ أن تكون أقسام مراكز القيادة.

ــ ساخنوف، إذا قُتلت ادفنّي تحت تلك الحجرة.

ــ لماذا تلك الحجرة بالذات؟

ــ لأنّ جدودي كانوا يعبدون الحجر. فإذا لم يوضع حجر فوق الميّت، لا يدخل جنّة الله ضحك ساخنوف وقال:

ــ ألم تجدوا شيئاً غير الحجر؟ أمّا أنا، فلا تدفنوني أبداً، إذ لا شيء ولا ذكرى لي بعد الموت.

جاء جنود الدفن إلى مواقعي. وهم عادةً من المُسنين. ومع أنني وجدْتُ بينهم من هم في مثل سنّي، إلاّ أنّهم كانوا كالمُسنين في عبوسهم ونظراتهم الحزبية الشاردة وظهورهم الحدباء، والفراغ الأصفر في عيونهم. جاؤوا يسألونه:

ـ هل عندكم اليوم ضحايا؟

واقشعرَّ بدني منهم.

نحن الآنِ في الثلاثين من تشرين الأول. بعد شهر واحد وثمانية وعشرين يوماً أبلغ العشرين من العمر. كتابتي علامة الصليب.

* * *

عام 1944 القاسي

عامٌ سعيد!

هكذا هنأني بالهاتف آردو خاجيكيان. لم أعلم بحلول العام الجديد إلاّ بعد هاتفه. ثلاث ساعات مضَتْ لي من أول ليلة الأربع والأربعين. سألتُهُ:

ــ لماذا لم تنم يا آردو؟

أجاب:

ــ كنْتُ سأسألك السؤال نفسه. فأنت أصغر منّي وأحوج إلى النوم.

ــ من أجل مَنْ؟

ــ من أجل شوراك.

هو يضحك، أنا، لا.

إذن، يوجد عامٌ جديد وتوجد شورا، وأنا الذي ظننْتُ أنّ الدنيا قد انتهت ولم يبق فيها غير هذه المغارة الضيّقة الرطبة الباردة أحياناً، والملجأ المخنوق بالحر عند الخط الأمامي أحياناً، وشخير ساخنوف المدوي أحياناً أُخرى. حسنٌ أنّ شخير ساخنوف قوي جدّاً، لأنّه يطغى على الدوي الهائل ولعلعة المدافع وطلقات الرشاشات وقصف الطيارات في الخارج مع غيرها من آليات الدمار.

من أين يأتون بكلِّ هذا الفولاذ الذي يلقونه بحماسة على بعضهم بعضاً؟ لا ينقصني شيء، إلاّ أن أقطع نومي من أجل شورا. لا، لا، أنا لا أنام إجمالاً، فيقظتي ليست من أجل شورا. بل لأنني عُينْتُ آمراً لسرية مدفعية الهاون. ألف ومائة متر من الأرض تمنحني فسحة الأمل، ويجب عليّ أن أُحافظ عليها بشدّة.

ليس المُحافظة عليها وحسب، بل أنا مُستعد لجعلها منصة صواريخ مُتحفزة للهجوم على العدو، وإلاّ كيف؟ فإن أنا لم أهجم وأنت لم

تهجم وهو لم يهجم، فمن يطرد هذا السيد النازي ويُرجعُهُ إلى بيته؟ جنوده آدميون أيضاً ويتمنون العودة إلى بيوتهم. إنّهم لا يريدون العودة طوعاً، لذا يتوجب علينا أن نعيدهم كرهاً وبقوّة السلاح. صحيحٌ أنّهم لن يصلوا كلهم سالمين، إذ يغمس أحدهم رأسه في الثلج في العام الجديد، ويُبقر بطن الثاني ويطير، رأس الثالث، ولكن يصل واحدٌ من اثنين إلى بيته سالماً على الأقل. لذلك يتحتم علينا طرد هذا الضيف الثقيل إلى ما وراء الحدود، ونعود بدورنا إلى بيوتنا وقد ارتاحت ضمائرنا. عندي في البيت دفاتر تلاميذي، بقي نصفها بلا تصحيح وعليّ أن أكملُها، وأقول أخيراً شيئاً لمارو. ففي روح المرء ألف طريق وطريق، مهما دارَتْ وتقاطعَتْ، فهي تدور لتعود به إلى بيته وإلى ماروه.

((و)) هكذا. لكن لماذا هذه ال ((و))؟ إنّها غير واردة ولا ناجحة. لكن كيف علمْتَ أنّها ليست ناجحة؟ ومن يستطيع أن يُقرّر من هو الناجح ومن هو غير الناجح في أمر ما؟ هيّا، دعني من لغوك، يكفي. دعني أقُل ما في فكري وأنته، ثمّ ارقُصْ رقصتك في العام الجديد.

وهكذا، عامٌ جديد.

قبل شهرين جرَتْ أمورٌ مُفرحة. حرَّرَتْ قواتنا مدينة كييف، فكتبَتْ أُمّي رسالة من البيت تقول إنّ بقرتنا قد ولدَتْ توأماً. كلاهما ذكر. إذن تحتفظ أُمّي بواحد لحفظ النسل وتُربّي الآخر فترة ثمّ تبيعه لتشتري بثمنه لأخواتي ثياباً، فأخواتي المسكينات يذهبن إلى المدرسة عاريات تقريباً.

قام ساخنوف وقال:

ـ ألم يحن الوقت؟

قُلْتُ له:

ـ لا لم يحن. نم، نم.

ثمّ سألتُهُ:

ـ اسمع يا عجوز، هل عندكم بقرة؟

ــ ماذا تعني بصيغة الجميع، مَنْ نحن؟

ــ أنت وأُسرتك.

فضحك وقال:

ــ هل رأيْتَ الريح في الحقل؟

ــ لا، فأنا مولودٌ في الجبال.

قال:

ــ الريح، هي الريح، لا فرق بين ريح الحقل وريح الجبل، وأنا مثل الريح لا مكان لي ولا بيت. ماذا تأمُرني أن أفعل، فلدينا مُتسع من الوقت؟

ــ إذهب إلى المواقع، وتأكد من أنّ الرجال لم يناموا.

ــ فليناموا، ماذا يحصل؟ لقد رشَّ الألمان الآن ملحاً على رأسه، ليس ملحاً بل نشادراً. قليلٌ من النار، وينفجر...

ثمّ ضحك وانصرف.

* * *

عند الصباح بدأ الهجوم الكبير. الهجوم قولٌ ينطبق على جبهتنا فقط، أمّا الانقضاض فهو على الجبهة الواسعة بقوات كبيرة. جبهتي هي ألف ومائة متر فقط، وهي قليلة. وما يُدريني؟ كل ما هناك أنني آمر سرية مدافع الهاون في الكتيبة 261. لو عندي جيش لصارَتْ ألفاً ومائة كيلو متر. لكن رأسي لا تستوعب ألفاً ومائة، لأنني من مواليد يلد صغير.

الثاني من كانونٍ الثاني. هجمنا بلا جدوى. قُتل جنديان من سريتي. استلمنا عرقاً، مائة غرام للفرد.

لم أستسغ البطاطا التي طبخها ساخنوف ولم آكلها. البطاطا والشوكولاتة تُعكّر طعم العرق.

الثالث من كانون الثاني. نحن في المكان نفسه تحت السماء المكشوفة، في الثلج. البرد قارس. عندي أربعة جرحى. دُمر أحد مدافعي وقُتل حصان.

أعطونا اليوم خبزاً أبيض. وارتفعَتْ نداءات تقول: ((يا جنود الوطن: آن الأوان لنُحرر لينينغراد بكاملها)). مَنْ لا يُريد؟ أنا؟. أنا أكتب كتاباتي هذه على ظهر أوراق النداءات المطبوعة.

السادس من كانون الثاني. تقدّمنا مسافة ثمانمائة متر. وجدنا ألمانياً واقعاً في الثلج من دون رأس. لم نجد أيَّ أثر للرأس. هو تحت أنظاري، ثقيل مُقرف. ما أبشع النظر إلى رجل بلا رأس. أمرْتُ ساخنوف بغمر الجثّة بالثلج.

الحادي عشر من كانون الثاني. تقدّمنا ثمانية كيلو مترات. كُسِرَتْ قدم أحد جنودي. شدَّ على الرجل المكسورة بقوّة ليوقف نزيف الدم، وراح بالثانية يضرب على الكسر ضربات ليُرجع الكسر إلى موضعه ويلتحم. وسأل ساخنوف:

ــ ألا تلتحم؟

ثمّ تابع ساخطاً:

ــ هات جرحك أُضمّده يا غبي، هل رجلك دودة تلتحم؟

أُغمي على الجريح. وجاءَتْ شورا وأخذتْهُ محمولاً.

الثالث عشر من كانون الثاني.

ــ رقم مشؤوم. ــ قال ساخنوف ذلك وبصق مُضيفاً ــ إن لم أُقتل اليوم فلن أُقتل بعده.

عندي ثلاثة قتلى وثمانية جرحى. أمرْتُ جنودي بدفن القتلى وكتابة أسمائهم على ألواح خشبية.

على يسارنا نوفغورود. نُقاتل من أجل تحرير نوفغورود.

قال ساخنوف:

ــ لن نرى اليوم نوفغورود.

ــ لماذا؟

ثلاثة عشر رقم مشؤوم.

ولم نر نوفغورود في ذلك اليوم فعلاً.

* * *

الرابع عشر من كانون الثاني.

بردٌ وعاصفة ثلجية. بين بيتي الأرضي ومكان العدو مائتا متر تقريباً. كلّ الأشجار مُكسّرة. ثلج، ثلج.

رنَّ جرس الهاتف. إنّه آمر الكتيبة.

ــ أسمعكم رفيق خمسة وعشرون.

ــ أنت جاهز؟

ــ تماماً.

ــ هه، أنت. هل استلم جنودك العرق؟

تدلُّ لهجته على الإنشراح.

ــ لكنّه قليل.

ــ يا لك من طمّاع. حسنٌ، ستستلم نصيباً كاملاً من العرق عندما تصير في المواقع الجديدة مُتقدماً إلى الأمام.

ــ لكلّ مائة متر مائة غرام.

وتضحك السمّاعة:

ــ ويحك، أنت. فليكن لك ما تُريد. وفوقه وسام إذاً... سنبدأ فوراً، هل أنت مُستعد.

ــ مُستعد.

العاصفة تزأر في الخارج. اندفع إلى الداخل المُلازم ساشا كاربوف، وهو شاب طويل أشهل العينين. قال وهو يختنق من العاصفة:

ــ رأيْتُ شورا، تُسلّم عليك، وقد أرسلْتُ لك نصيبها من العرق، فشربت نصفه في الطريق. لا تشتمني فالدنيا برد. وسيان عندك، لأنك كنت ستُعطيني النصف هنا، فأنا أعرفك.

((شورا، شورا)) لماذا يحشرون هذا الاسم دائماً في عيني. لكن لماذا دبّتْ الحرارة في البيت البارد. هل هو من الاسم؟

الخامس عشر من كانون الثاني. أنا مُلتصق بالمنظار فوق شجرة جوز.

ربطنا درع مدفع على جذعٍ الشجرة لحمايتها، ورحْتُ أُراقب تحركات العدو. لا أرى شيئاً أمامي، مع أنّ المسافة لا تبعد أكثر من مائة متر. تبّاً للضباب. إنّه كثيفٌ مُقلق. في أسفل الشجرة استعدّ مدفعنا الهاون ودبابتان ومدفع مُتحرّك ثمّ المُشاة. على يميننا لينينغراد في الكمّاشة. في السنة الماضية وفي مثل هذه الأيام كسرْنا أحد فكّي هذه الكمّاشة وفتحنا الطريق البريّة، طريق الخبز للينينغراد.

أجلسُ مُرتاحاً على المقعد الخشبي على الشجرة المرصد خالعاً قفّازي. ومع أنّ أصابعي تتجمّد إلاّ أنني سأكتب هذه السطور. فبعد قليل من يدري... ((نبدأُ اليوم هجوماً كبيراً على العدو لنحرر لينينغراد من حصار العدو تحريراً كاملاً)). لسْتُ أدري إن كانت ستبقى كتاباتي هذه أم لا.

الهاتف يئزُ أزيزاً.

ـ هل أنت مُستعد؟

ـ كلّ الاستعداد.

مُخاطبي على الهاتف يُراقب الساعة. بقَيتْ عشر دقائق... ثمان، خمس دقيقة واحدة، و... اندلعَتْ اللعلعة الرهيبة.

السماء والأرض تضطربان، تتهدمان.

بدأ... هذا هجوم مدفعيتنا في جبهتين: لينينغراد وفولخوف. في ميداني ستة عشر مدفع هاون، لكلِّ مدفعٍ ثلاثمائة وخمسون قذيفة لهذا اليوم فقط.

وأُصدر الأمر إلى جنودي بالمكبّر:

ـ نار...

عليّ اليوم فقط أن أُنزل خمسة آلاف وستمائة قذيفة فوق رأس الهتلريين. وبعد؟ وبعد، خيرٌ إن شاء الله.

السماء والأرض ترعدان.

ـ نار...

* * *

نحن في الحصن الذي أخلاه العدو. تدفأنا قليلاً وتابعنا هجومنا من جديد. أمامنا حاجز الخط الحديدي الداخل إلى لينينغراد، من جهته الأُخرى قرية.

ردَّنا العدو إلى الوراء. لكننا أعدنا الكرّة وتقدّمنا نحو القرية. يُشبه تقدمنا أمواج البحر ـ يتراجع ليعود بقوّة أكبر.

تقدَّمَتْ كتيبتنا اليوم ألف متر. قليل؟ لماذا قليل؟ سل القتلى منّا ومنهم. هم أكثر. يُخيّلُ لي أنّ الأرض التي استرجعناها من العدو تبتسم بين الدم والقسوة. أرض الأُم الحبيبة الجريحة...

استولينا على قرية غير موجودة. لقد امحَتْ ولم يبق منها غير نصف بيت سقط هتلري على عتبته.

وجدنا قطّة واحدة حيّة في القرية، لم نجد أيَّ مخلوق حي غيرها. وجدناها وقد توحّشَتْ بالدم الذي مازال عالقاً على فمها. كانت تنفخ علينا مُختبئة تحت جذع شجرة.

* * *

قبل هربهم أحرق الفاشيون بقايا القُرى الواقعة قريباً من (مياسنوى ـ بور) مع البيوت التي نجَتْ من دمارهم.

ها هي قرية أُخرى لا أثر لها إلاّ ما ظهر من بقايا مداخنها بين الثلج، وأشجارها المُكسّرة. كما يمكن التعرّف عليها من الخرائب وأكوام الرماد المُتحجّر المُتجمّد المرصوف بخط مستقيم يفصل بين بساتين الخضار. الحواجز محروقة والثلج أسود. وتوجد لافتة من الصفيح مُثناة واقعة في الثلج كتِبَ عليها كلمة: مدرسة. لكن المدرسة غير موجودة، لا هي ولا اسمها، ولم يبق منها أثر.

* * *

رأينا آدميين يتدلون من أغصان الأشجار نصف المحروقة. منظر فظيع. كان المُتدلون من العجائز الذين اسودّتْ أجسادهم. كانوا عُراة ذوي لحى بيضاء، لا يتحركون ولا يتأرجحون. رقابهم مُلتوية على أكتافهم وعيونهم تنظر إلى السماء.

فجأةً أمسك ساخنوف رأسه وقال:

ـ انظر إلى اليمين...

إلى اليمين غابة مُهشّمة تُشبه أشجارها الهياكل، فلا أغصان ولا أوراق. أمسكْتُ رأسي أنا الآخر. من على الأشجار تتدلّى أجساد أطفال ونساء شُنقوا بحبال مُشمّعة بيضاء. إنّها حبال أُلمانية جاء بها الهتلريون معهم من بلادهم لهذه الغاية. الحبال بيضاء مشدودة بفعل الثقل. أقدام الأطفال المُعلّقين صفراء، ورؤوسهم مُستندة على أكتافهم، وألسنتهم ممدودة إلى الخارج من بين أسنانهم.

هلعْتُ للفظاعة. ارتميْتُ على الثلج وبدأْتُ أفركُ وجهي به، لكي أحتفظ بوعيي. صرْتُ مثل شجرة مضروبة محروقة. عدَّ ساخنوف المُعلقين:

ـ اثنتان وستون امرأة وواحد وتسعون طفلاً. أوف، يا أُمّي، يكاد الدم يطفر من عيني.

أنزلنا المُعلّقين علي الأشجار، وكوّمناهم في فناء المدرسة المهدومة بجانب عمود كرة السلة الذي بقي سالماً. أجهش أحد جنودي الكسندر برودوف بالبكاء. كان فتىً يُتابع دراسته. لكن مدرسته هي في قريته التي...

* * *

سلموني رسائل جنودي في خمسة عشر يوماً دفعة واحدة. موّزع البريد في كتيبتنا بنت. فلأقُل سلمتني. وهذه البنت هي ملاك طيّب بالمعنى الصحيح. وجهها بلون الشمع لا يعرف الابتسام. يبدو أنّها لم تحترق

بشمس الصيف الغني بأسراب البعوض، ولم تر الشتاء. لقد شقّق البرد بشرة يديها في عدّة أمكنة. أمّا وجه البنت ساعية البريد فناعم نظيف.

قالت:

ــ توجد لك أنت أيضاً رسائل ثلاث.

سألتُها وأنا أستلم رزمة الرسائل:

ــ كيف عرفْتِ أنّها لي؟

قالت:

ــ أنتم القُدامى قليلون. وأنا أعرفكم كُلّكم.

ثمّ جلسَتْ ووزّعَتْ علينا ورق سجائر كُلّنا نحن الباقين على قيد الحياة وقامَتْ. ولكن قبل أن تخرج من بيتي الأرضي رجعَتْ وصرخَتْ بصوتٍ مُتهدج بالبكاء:

ــ أنتم، لماذا تموتون؟ لا تموتوا...

وخبطَتْ باب البيت وذهبَتْ، ربّما وهي تبكي. وخُيّل لي أنّها تُحب أحد رجالي. فتأثّرْتُ لها كثيراً. تُرى هل قُدِّرَ لهذه البنت النظيفة الناعمة أن تحزن؟ لا، لا. ليبق فتاها حيّاً. لكن من هو هذا الفتى؟

أصحابُ ثماني عشرة رسالة غير موجودين. وقعُ أليم. هذه رسالة دافيدوف. لقد قُتل من زمن بعيد في موقع المدفعية، إذ إخترقَتْ جبهتُهُ رصاصة. لقد تذكّرْتُ دمهُ الحَار. رسالته مُثلثة الشكل لا تحمل طابع بريد، كُتِبَ عنوانها بقلم الرصاص وأُرسلَتْ إليه من أُمه أو أبيه أو أخته، الرسالة تحرقُ يدي. ماذا كتبوا لك يا أخي العزيز؟ لا يعرف أهلك أنّك لم تعد قادراً على القراءة ولا على النظر، ولا على فعل شيء مما يفعله الأحياء. هذه اللفة المُثلثة تقطع أصابعي كالسكين. ماذا أفعل بهذه الرسالة؟ وماذا أفعل بالرسائل الأُخرى؟ لا أعلم. سلّمتُها إلى جندي الهاتف فسألني:

ــ ماذا أفعل بها؟

ــ احفظها.

عند المساء قتل جندي الهاتف نفسه. دفنوه مع رسائل المقتولين في جيبه.

* * *

الخبز مُخمّر تخميراً جيّداً فلا هو فطير، ويُشبّع. الحصّة الواحدة ستمائة غرامٍ، والسُكّر عشرون. كذلك اللحم. أمّا الحبوب فخمسة وسبعون غراماً. ليس سيئاً.

السيء هو أنّ البرد في الخارج قارس جدّاً، وأنا أقضي معظم اليوم في الخارج وسط الثلج وفوقه. وأول ما يشعر بالبرد هو شاربي الذي طال، فحين يتجمّد يُكَمّم فمي، وأعرف أنّ درجة الحرارة خمس وثلاثون درجة تحت الصفر. وعندما أزفر الهواء الساخن يتجمّد على شاربي وتتدلّى على فمي خيوط رفيعة من الجليد أُذيبُها بلساني وبالنفَس الحار، ولا يمكن اقتلاعها، لأنّها تقتلع معها الشعر. وأشعرُ بالتجمّد أيضاً من العصافير. فإذا رأيتُها تقترب من أبواب بيوتنا الأرضية وتدنو من منافذ الدخان والبخار، أعرف أنّ الحرارة قريبة من الأربعين. لكن هذا البرد صحّي، ولا أتضايق منه أنا الجنوبي. عندنا جميعاً ثياب دافئة، فألبستُنا الداخلية القطنية كالتنور. ما أذكى أولئك الذين اخترعوا السراويل الصوفية، فهي تُدفئ أرجلنا وكأنّها في ماء ساخن!

صددْنا كلّ الهجمات الألمانية المُعاكسة الواحدة بعد الأُخرى. البرد يوحي بالتفلسُف والحكمة. بتُّ أرى أنّ الحرب التي خضناها ضدَّ الفاشية هي اختبار لنا مثلما يختبرون الفولاذ بالنار.

مضَتْ سنتان ونصف على العدوان على أقدس شيء عندنا، على أرضنا. كلّ شيء من دون الأرض لا قيمة له، حتّى الرب.

ها هو الفاشي يحتلُّ أرضنا منذ سنتين ونصف، ويُريد أن يُبيدنا ويمتلك أرضنا. من دون أرض لا وجود لأمّة أو شعب.

أنا أعمل كي يعرف كلَّ واحدٍ من جنودي ببساطة عظم الخطر المُتربّص بنا. فالقتال بهذا الشكل وحده كفيلٌ بإحراز النصر. أنا لا أعرف إن كانت ستُكتَبْ لي العودة إلى البيت أم لا، لكنني واثقٌ من شيء واحد، هو أنّ النصر لنا حتماً، وهو أمرٌ لابُدَّ منه.

أنا لا أخاف من التجمّد.

العشرون من كانون الثاني. تحرَّرَتْ نوفغورود. ها أنذا أرى قبابٍ كنائسها العالية المُكوّرة ونواقيسُها، وأرى أسوار الكرملين المُتضررة جدّاً.

وماذا في أن تكون مُتضررة؟ ها هو ((وسام الرجولة)) لساخنوف. أنقذه من موت مُحتّم حين أصابَته شظيةٌ قنبلة لم تترك فيه أكثر من خدش بسيط والتواء جعله يصرخٍ ساخطاً:

ــ لم أمتلك في حياتي شيئاً حلالاً، فأنّى لوسامي أن يكون لي حلالاً مثل الآخرين. يا لسوء حظي!

قُلْتُ له:

ــ لا تشك من سوء حظك. فلولا هذا الوسام لاخترقَتْ الشظية صدرك.

مسَّدَ الوسام المجروح وضحك:

ــ هذا حارسي إذن.

* * *

أثمنُ حمل عندنا هو الراديو. لذا فنحن ننقلُهُ على عربة خاصّة. صفّحه ساخنوف بدروع فولاذية من بقايا المدافع الرشاشة المُحطّمة كي لا يتضرّر. وفي كلِّ فرصة سانحة يلتفُّ جنودي حوله ليستمعوا إلى الأخبار من العالم الكبير.

* * *

في آخر الليل، قُربَ الفجر وفي الثلج، كُنْتُ داخل فروتي دفآن، مُستلقياً على الثلج الهش ــ الهش. رجلاي دافئتان داخل السروال اللبادي، وقبعتي مُنكّسة حتّى أرنبة أنفي. سمعْتُ أغنية ((غرونغ)). أنا نائم، لكنني أسمعها. هل أحلم؟ هل هذا صوت باكراد خاجونتس؟، لا، ليس هو، لكنّه صوت مألوف:

يا غرونغ، عن بلادنا

إرحلْ، وابتعد، هيّا...

كان يُغنّي لي هذه الأُغنية سرّاً موسيقي قريتنا الشهير العم تسولوننس غازار.

إرحلْ، وابتعد، هيّا...

لم تُعطني جواباً،

هل طرْتَ وابتعدْتَ...

أستيقظ. لكن الأُغنية مُستمرّة. آي، حياكم الله يا أولاد. إنّه الراديو الذي شغّله الجنود بصوت خافت كي لا يذهب الصوت بعيداً. أمّا المغنّي فهو باول ليستسيان من موسكو. الثلج يذوب، ويتدفئون. بعد الأُغنية:

ــ انتباه..... موسكو تتكلّم.

* * *

موسكو تتكلّم بلسان ليفيتان:

ــ حطّمَتْ قواتنا أمس كُلّياً الحصار المضروب حول لينينغراد بالجيوش الألمانية الفاشية منذُ خريف عام واحد وأربعين...

ــ انتباه....

أيّ انتباهٍ بعد. وأفرغ ساخنوف خزّان رُشيشه الذي يحتوي اثنتين وسبعين طلقة في الهواء، ثمّ صاح:

ــ انتباه، تحطّم حصار لينينغراد بكامله. انتباه، نحن والعدو، انتباه....

* * *

احتضَنْتُ شورا وقُلْت:

ــ هل تبردين؟

ــ لا وأنت.

ــ أنا بردان.

ــ لماذا؟

ــ منذُ زمنٍ لم أرك.

وجنتا شورا محمرّتان طبعاً من الجليد. وإلاّ فمن ماذا؟ أم أنّ ساعدَي حارّان لدرجة، تُحمِّران معها حتّى وردة الربيع الداكنة؟

ضحكَتْ شورا:

ــ لماذا ورد؟

ــ ماذا إذن؟

تقلّبَتْ فوق الثلج مُستمتعة. لها فروة قصيرة، ياقتُها عريضة ولونها ضارب إلى الزُرقة. سروالها مُبطّن فوقه تنورة، وتلبس مثلنا قبّعة على رأسها. تلبس جوارب لبادية كذلك مثلنا، لكن قصيرة، مع حزام عسكري قصير وبلوزة ميدان. يا إلهي! كيف تعيش مع هذا البرد؟ كيف يعيش هذا الربيع الأبيض الحار مع هذا الجليد الفظيع!

ليلٌ صافٍ وفي السماء نجوم كثيرة. أنا لا أراها في الأعالي، أراها على الربيع الأبيض الحار، على صدر شورا.

وتهمس:

ــ هل تبرد؟

ــ لا، وأنت؟

صمت.

نحن الآن في الثامن والعشرين من تشرين الثاني. بعد شهر واحد أبلغُ العشرين من العمر. كتابتي بحرارة ربيعية.

متى يحلُّ الليل (نأليل)

كانون الثاني، برد.

قبل ثلاثة أسابيع، في العام الثالث والأربعين تركنا ضفاف فولخوف. كان عاماً غزير الدم كثير القبور. يجلس الآن فوق هذه القبور ثلجٌ ثقيل. وتبقى القبور مغمورة غير ظاهرة، فلا يتمكّن أحد من كتابة شيء عليها تخليداً لذكرى أصحابها. إيه، من البديهي أن يبقى قبري أو قبرٍ هذا الجندي من دون شاهد يدلُّ عليه، وقد لا يكون لنا قبرٌ إطلاقاً.

ها هي كتيبتنا بالقرب من أطلال قرية أمامنا تبدأ هجماتها المُستمرّة من جديد. القرية هدفنا بالأمر وحسب مُخطط وضعٍ بإرادتنا. نصبْتُ منظاري أمام القرية على شجرة، ونظرْتُ. لم أجد شيئاً قائماً في القرية.

جليد. جذوع الأشجار مُشقّقة. لكننا نلبس الدافئ من الألبسة فلا يتشقّق جلدنا، ونتحصّن فوق هذا بمائة غرام من العرق، إضافةً إلى حصتي ايفان فيليبوف وساشا كاربوف اللتين يُعطياني إيّاها. ساشا، شاب طويل نحيل على وجهه ابتسامة تظنُّها خائفة، لكن ما في قلبه خوف. يقول:

ـ لنصلّ إلى الله أن يُبقي لنا إيفان حيّاً وأن لا يُقتل.

أنّى لك أن تعرف مَنْ يُقتل ومَنْ لا يُقتل! لكن الأمل شيءٌ عظيم. لولا الأمل الذي يُمني الجندي بالحياة لجنّ. بالأمل يحسب كلّ واحدٍ أنّ الرصاصة ستمرُّ من تحت أذنه ولا تؤذيه.

ظهرَتْ شورا في موقعي تسأل:

ـ هل لديكم جميعاً ضمادات؟

ـ أنا ما عندي.

قالها شاسا، ناظراً إليها بلهفة، وأردف:

ـ جرحي لا يندمل.

فتعجّبَتْ شورا وسألت:

ـ لماذا؟

ـ تُدملهُ قُبلة منك فقط.

ضحكَتْ شورا وأجابت:

ـ أنت يا شاسا جميل ولا شك، ولكن لي صديقي.

ذهبَتْ ولاحقتُها بأنظاري. فلتُبقها يا رب حيّة وحدها.

عندنا دبابة ضخمة مستورة. على مدفعها ثلاث نجوم مدهونة باللون الأحمر. وهذا يعني أنّها دمّرَتْ ثلاث دبابات. لكن أين؟

ويشرحُ قائد الدبابة:

ـ في جبهة سينيافينو. لماذا أسرعَتْ شورا بالذهاب؟

فيقول شاسا بغيظ:

ـ لماذا. هل احتلَّتْ قلبك؟

* * *

بدأَتْ مدفعيتنا نيران التمهيد ودمّرَتْ مواقع العدو، وقلبَتْ كلَّ شيءٍ هناك رأساً على عقب، حتّى تطاير في الهواء. الضربة قاضية.

نحن نُدخّن.

انتهى التمهيد المدفعي الذي أصمّنا لنصف ساعة.

ها هي علامة الهجوم. انقلعَتْ الدبابة حاملة النجوم من مكانها ناثرة شظايا جليد حولها. سارَتْ وسار خلفها المُشاة وتحرّكنا نحن المدفعيين أيضاً لاحتلال مواقع جديدة.

فردَّ العدو علينا بوابل من مدفعيته ورشاشاته، ونهق ((الحمار)) ذو الفوهات الست ((أي ـ آ)) صوت معروف فيه الموت، لكننا نسير...

ها هي مواقع الهتلريين الدفاعية الأولى. هنا ضجّة. ماذا؟ هل يجري القتال بالسلاح الأبيض؟ هو كذلك. ما تزال هنا بقية من مصادر موت حيّة راحَتْ تحصدُنا نحن المُهاجمين، ففتحْتُ نيران مدافعي. إذا لم أتمكن من القضاء عليها بسلاحي، فلا أقل من أن أُمهّد طريقاً لمشاتنا.

الجثث مُتناثرة حولي بكثرة. والجرحى يزحفون إلى الخلف زحفاً ويصبغون الثلج بدمهم.

أمامي صرير قعقعة وأزيز. اصطدمَتْ دبابتان وجهاً لوجه. كانت كلّ واحدة بعد تحرّكها تُحاول إفساح الطريق للأُخرى. أنا لم أر ذلك بعيني، لكن أدركتُهُ بعدما سمعْتُ صرير الفولاذ.

تقدّمْتُ بمدفعيتي مع المُشاة إلى الأمام... شاهدْتُ الدبابة حاملة النجوم محروقة. أمّا من أطفأها فقد احترق نصفه وارتمى بعيداً فوق الثلج. تذكّرْتُ لهفته على شورا. أين شورا؟ فلتأتِ ولتر كيف احترق قلبٌ آخر مُتيّم بها.

* * *

وقفنا اليوم بكامله في مكاننا. أُمرْتُ بتحويل نيران مدافعي إلى غرب قرية مُدمّرة.

قالوا في مركز القيادة بالهاتف:

ـ القرية في يدنا. عليكم إحباط كلّ هجومٍ مُعاكس.

وأنا أُنفّذ الأمر. لكن ها هو أمرٌ آخر:

ـ احرق القرية، العدو هناك.

* * *

أخذنا القرية في اليوم التالي صباحاً. لكن لا توجد قرية إلاّ على خارطة المسح المحلية. فيها مدرسة، وواحد وتسعون وثلاثمائة بيت،

إلى غير ذلك من المعلومات. في يوم وليلة انتقلَتْ هذه القرية من يد إلى يد ستَّ مرّات، نعم ستَّ مرّات.

مازال قائد الدبابة المُحترق أمام عيني.

* * *

عند المساء تمركزنا في البيوت الأرضية والحصون التي انتزعناها من الغُزاة. هرب الغُزاة الألمان مُضطربين، فتركوا البيوت الأرضية جافّة دافئة مُريحة. عند أصحابها الأسبقين فرشهم أيضاً، تركوها مفروشة كما هي على ألواح خشبية. يبدو مما تُرك أنّ الهتلريين رغم ظروفهم الميدانية، ما كان ينقصهم شيء. وليس هذا غريباً، فكلّ أوروبا في يدهم.

عند منتصف الليل تحرّكنا من جديد، إذ لا يجوز إفلات ذيل العدو المُحتضر. بل لا يجوز إعطاؤه الفرصة ليتمكن من مواقع طبيعية دفاعية. أمامنا مجموعة غير كبيرة من العدو تُعرقل تقدّمنا، وتجرُّنا إلى معركة استنزافية.

* * *

بدأ الهتلريون بهجوم مُعاكس بقوّة كبيرة على المواقع التي احتللناها، فاضطررنا للجوء إلى التحصينات الدفاعية.

ودارَتْ معركة حامية.

تبين أنّ كتيبتنا قد طُوّقَتْ. انتشر خبرٌ يقول إنّ علم الكتيبة قد وقع في أيدي العدو. إنْ كان الخبر صحيحاً، فهو عارٌ كبير. جاء آمر الكتيبة، بدا عليه التأثر الشديد، من دون اضطراب أو حيرة. وبدا مع كبر سنّه شابّاً لا يتناسب مع سنّه. في يده رُشيش وعلى حزامه قنابل مُدلاة. قال:

ــ ماذا ترتؤون يا إخوتي؟

أنا أعرفه جيّداً، شُجاع ومُقاتل خبير لا يخاف. لم أره قط مُرتبكاً. وهو الآن أيضاً غير مُرتبك. أمّا نائبه يرين ففي وضع لا يُحسد عليه.

وماذا أفدح من ذلك؟ إذا فقدَتْ فرقة علمها تتفرّق بلا وعي وتضيع ويذهب أثرها، فما بالك بكتيبتنا التي خاضَتْ معارك كثيرة ونفذَتْ أموراً صعبة!

صفَفْتُ جنودي الثمانية والخمسين وقدّمتهم لآمر الكتيبة وقُلْتُ:

ــ مرنا، فنحن مُستعدّون للسير إلى الموت، رفيق آمر الكتيبة اعطنا الأمر.

وأحاط مئة مُقاتل آخر من المُشاة بآمر الكتيبة ووقفوا غير بعيدٍ عنّا باستعداد.

بعد خمس دقائق سرنا وراء آمر الكتيبة في هجوم على الاتجاه الذي نتوقّع أن يكون فيه علم كتيبتنا وشرفنا.

شتاء، ثلج، وضباب.

كنّا في هجومنا نُطلق النار من رُشيشاتنا ونرمي القنابل اليدوية، ونمشي في الثلج السميك. انضمَّتْ إلينا دبابة ثقيلة وآلية مُصفّحة، ففتحتا لنا طريق الأمل. ظهرَتْ أمامنا طاحون هوائية مبسوطة المراوح. قال آمر الكتيبة إنّ العلم موجود فيها مع مكتب القيادة. ازددْنا اقتراباً من الطاحون، فأطلقوا علينا النار من يمينها ويسارها. تقدّمنا زحفاً. ما من وسيلة أُخرى. زحفنا مُتحركين يتقدّمُنا المُقدّم يرين. واقتربنا من الطاحون وراء الدبابة...

لم نجد أحداً من الألمان المُحيطين بالطاحون، فهم إمّا قُتلوا أو هربوا. دخلنا فوجدنا نائب رئيس مكتب القيادة ممدّداً على أرض الطاحون الرطبة، مبسوط الذراعين وحوله عدد من المُدافعين مقتولين. لم يبق منهم إلاّ ستة على قيد الحياة. هزَّ آمر الكتيبة كتفي الجندي حامل العلم وسأله:

ــ أين العلم؟

فصاح الجندي المُنتعش من النجدة المُفاجئة:

ــ العلم؟، العلم معنا. هو ذا.

وأسرع فأخرج العلم الذي كان قد لفّه على جسمه تحت فروته. ومسَّد آمر الكتيبة رأسه المتموج كالحرير الأحمر. فظننْتُهُ في البداية يبكي من الفرح، ثمَ تبين لي أنّه جريحٌ بعدما لمحْتُ الدم يسيل على وجهه. أسرعنا وأرسلناه إلى الخلف.

* * *

الأخوان بودكيفيتش ـ بيديان وفيديان توأمان. هما ((صوصا)) كتيبتنا. رأيتُ تحت شجرة المرصد وفي الثلج مخلوقاً صغيراً يتحرّك. ما هذا؟ آها، إنّه أحد التوأمين. من هو؟ فيديان أم بيديان. يصعب عليّ التمييز بينهما، فهما شديدا الشبه أحدهما بالآخر. كلاهما في الحادية عشرة. ماذا أقول، هل هما جنديان صغيران؟ أم طفلان تقريباً؟ هما طفلان طبعاً، من أين جاءت هذه ال تقريباً؟ علّق هذا الصغير جهاز هاتف ميدان على وسطه وراح يتجوّل وحده مدفوعاً مع جهازه في الثلج، ويدفع الثلج بصدره ليفتح لنفسه طريقاً فيه.

لسْتُ أدري لماذا سألتُهُ:

ـ مَنْ أنت؟

فسأل هو:

ـ وأنت، مَنْ أنت؟

جلسْتُ أُدخّن. الولد من مدينة (مالايا فيتشيرا) على ما أذكر، أو ربّما من ديخفين، حيث دارت معارك طاحنة في ربيع العام الثاني والأربعين. التحق الولدان بعدها بكتيبتنا.

سألْتُ الولد:

ـ كيف صرْتَ جندياً؟

أجاب:

ـ أمرٌ طبيعي في الجبهة. أنا وأخي فقدنا أبانا وأُمنا. لا شكّ في أنّهما قد قُتلا. ولم يبق لنا من يحمينا. وها نحن الآن، أنا وأخي جنود.

قلتُ: ــ حياة غير طبيعية.

ــ طبعاً، ماذا تظنُّ إذن؟

وذهب يجرُّ وراءه شريط الهاتف.

الثلج منكوش في أماكن مُتفرّقة ومصبوغ بالدم الأحمر في أمكنة أُخرى، ففي كلِّ لحظة تنفجر قُنبلة أو قذيفة، فأغضبُ وأتوجّه بوجهي نحو الغرب قائلاً:

ــ أي أيّها الألمان: اسمعوا. لا تُطلقوا النار إلى هذا الاتجاه الذي اتجه إليه الجندي الطفل، ارحموه...

وليلة أُخرى فكّرْتُ بالصبيين التوأمين، ثمّ نسيتهما.

* * *

كنت مُضطجعاً في زحافتي التي تنزلق حسب رغبة حصاني حين سمعْتُ مُتكلماً بقربي يقول:

ــ ألا تشعر بالبرد يا جنوبي؟

فانتفضْتُ. إنّه آمر كتيبتنا الجديد باول انروفيتش سافوتوف. حاولْتُ تقديم الاحترام فلم يسمح وقال بلطف:

ــ لا ضرورة. ألا تشعر بالبرد؟

ــ لا أبرد.

ــ لكن انتبه، لا تنم في الزحافة، تتجمّد.

يبتسم. لقد جاء إلى كتيبتنا قبل ثلاثة أيام ليعمل فيها. يمشي وكأنّه ضائع، مُسن في حدود الخمسين من العمر. أمشي بجانبه مُتأخراً قليلاً حسب النظام العسكري.

قال:

ــ سنصل إلى نهر نارفا قريباً. يجب أن نعتني بالناس، فلقد دارَتْ معارك عنيفة حول نهر نارفا ومن أجله.

أنا فوق الشجرة من جديد في مرصدي. من هنا أرى بوضوح تنظيمات العدو وأرى جنوده أحياناً. تبدو بوضوح أكبر حواجز تحصيناته التي أقامها مؤخراً على عجل. الحفر السوداء تبدو أمامي كالمرآة بين نصاعة الثلج.

في هذا المضمار يُساعدني مرصدي ومنظاري. وهو وإن كان ثقيلاً، إلاّ أنني أحمله معي إلى كلِّ مكان.

أنا فوق الشجرة.

ــ مرحباً أيّها الرفيق المُلازم.

أنتفض وأنظر تحت الشجرة، فأرى الصبي. يقول مُمتعضاً:

ــ ماذا؟ ألا تذكرني؟

أذكره طبعاً. لكن لا أستطيع أن أُميّز التوأمين أحدهما عن الآخر. فهما مُتشابهان بالشعرة. يلبسان نفس الثياب المؤلفة من فروة نصفية وسروال رفيع وحزام ضيّق، خاطها لهما خيّاط كتيبتنا وحذّاؤها بعد تعديلها من ألبسة الكبار، وهي تليق جدّاً بهما بشكل لا يوصف.

أنزل عن الشجرة، ولم أجد واحداً فقط، بل وجدْتُ الأخوين معاً في وسط الثلج فسلّمْتُ عليهما:

ــ مرحباً بالرفيقين التوأمين.

لكن رتبة كلٍّ منهما عريف، ويغضبان إذا خاطبهما أحد بغير الرتبة العسكرية، ويغضبان أكثر إذا ناداهما أحد يا ولد، أو ((يا أولاد)).

ــ ماذا تفعلان هنا؟

ــ جئنا نتأكد من سلامة خط الهاتف، هل هو سليم؟

فأقول:

ــ سليم، هيّا اذهبا إلى البيت.

ويضحك الصبيان بصوت واحد مُتشابه:

ــ بيت...

آخ. ليس لهما بيت، إنّه محروق. بيتهما الآن هو هذه الغابة المُثلّجة وهذا الخندق المكشوف للسماء، والبرد ــ البرد...

ويقول أحدهما:

ــ سوف نُمنح قريباً رتبة رقيب، ولسوف نصيرُ مُلازمين أيضاً.

ــ وليس بعيداً عنكما أن تُصبحا جنرالين أيضاً.

ــ لكن كيف، والقتال لن يدوم طويلاً لكي نصل إلى سن الجنرالية؟

فأهزُّ رأسي موافقاً:

ــ صحيح، لن يدوم.

نعم، لن يدوم. لأنني أُريد أن تنتهي الحرب الآن وفوراً وفي هذه اللحظة، لكي يبقى هذان الولدان الصغيران سالمين. ولو بقيا عريفين.

* * *

نحن نستعد الآن لهجوم جديد. يتمُّ تشاور القيادة معنا نحن الضُبّاط في خندق، ثمّ نتلقّى التعليمات القتالية.

بعد الانتهاء من التشاور استدعى آمر الكتيبة الأخوين بودكيفيتش، وأمرهما بالذهاب فوراً إلى سرية الإسعاف غير البعيدة وانتظار أوامره هناك.

استاء الولدان بشدّة وعبسا:

ــ لا نُريد...

فيُبسط آمر الكتيبة يديه ويقول:

ــ هذا أمر. وأنتما عسكريان، عرّيفان، وعليكما إطاعة الأمر الذي لا يجوز الاعتراض عليه.

لكنّهما يعترضان:

ــ وهل يقبل الأمر بمنع العسكري من تأدية واجبه؟

لم ألحظ في صوتيهما رنة بكاء، بل رنة تأثّر.

ــ نريد أن نكون معكم.

فيردُّ آمر الكتيبة بحزم:

ـ لا، ويجب عليكما تنفيذ أمر رئيسكما.

ووقعَتْ في نفس الصبيين حسرة تجسّدَتْ وسالَتْ مع الدمع الحار على الثلج، لأنّ هذا الأمر يعني أنّهما مازالا طفلين، مع كونهما عريفين، ومع أنّ كلاً منهما يحمل وسام رجولة.

وبدأت الهجمات العنيفة. عذرْتُ آمر الكتيبة، فهو لا يطيق أن يبقى هذان البرعمان تحت خطر الموت، فلينتظرا عند الأطباء.

وذهب الصبيان صاغرين.

نحن الآن في الحادي والثلاثين من كانون الثاني. شهر واحد وثلاثة أيام وأنا في العشرين من العمر. كتابتي تُشبه الطفولة.

غزو جليدي

مضى أسبوعان على ابتعادنا عن ضفّة فولخوف اليُسرى بعدما تركنا على كلّ مترٍ منها تقريباً قبوراً جماعية أو فردية. يا ناس، إذا ما صادفتم قبوراً جماعية فاعلموا أنّ حالنا في تلك الفترة كانت سيئة، وأنّ معارك ضارية قد جرَتْ، وأنّ رجالاً كثيرين قد قتلوا وليس لدينا وقت لدفنهم فُرادى وحسب الطقوس المسيحية. وإذا صادفتم قبوراً فردية. فاعلموا أنّ جنودنا كانوا يمرّون بفترة سعيدة من حياتهم القتالية.

فولخوف نهر عظيم ينبع من بحيرة (ايلمن)، ثمّ ترفده جداول وسواقي، ويجري ليصبّ في بحيرة لاتوغا. كان فولخوف بالنسبة لنا مصدر غذاء وموئل موت. كم حمل هذا الملاك الأزرق من جثث! وكم أعطانا من سمك في صيدنا من مياهه الواسعة، كما... لا توجد ((كما)) إذ تكفي هاتان النعمتان.

الوداع، أيّها الفولخوف الطيّب، اذكرنا بخير. لقد فعلنا ما بوسعنا في قتالنا في سبيل الإبقاء على مياهك نظيفة. الحقيقة أننا لم نكن نريد هجرك والبعد عنك، خصوصاً أن مياهك كانت تتخثّر أحياناً بدمائنا الثقيلة نحن المخلوقات الآدمية، أو صوتك كان يختنق في خضم ضجتنا، أو زرقتك كانت تتعكر. لكن اعلم أننا نتسبب في كلّ هذا، بل دفعنا إليه دفعاً.

* * *

بالقرب من قرية (بوتبيريوزيه) احترق ماكار كيراسيموفيتش سيميونوف في دبابته. إنّه من سكان هذه المنطقة، وأظنه بالتحديد من

لوغا. لم أرافقه أكثر من أسبوعٍ واحد. لكن صداقة ساعة واحدة في الجبهة تُعطي معنىً أبدياً كاملاً. كان سيميونوف مُلازماً ثانيا يقود دبابته كاشفا غطاءها وسط الثلوج، وعندما أُصيبت بقنبلة حارقة، أحرقتها وأحرقتْهُ. وعظام أصابعه كانت مُلتصقة بشدّة بمقود دبابته.

* * *

نحن نتقدّم الآن صوب لوغا نهراً ومدينة... لن أُذكِرَكُم بأنّ لينينغراد قد تحرّرَتْ من طوق الفولاذ والنار... لقد عانت تسعمائة يومٍ من وطأة الحصار الظالم. حصار نفّذه عدو، وجوع خطط له العدو أيضاً. قال لي رئيس أركانِ كتيبتنا: إنّ الإحصائيات والمُعطيات، قد أكدَتْ أنّ ستمائة وأربعين ألفاً من السكان ماتوا في لينينغراد من الجوع وحده. هذا رقم فظيع لم يسمع التاريخ بمثله من قبل. مات الناس دون أنين عارفين أنّ مدينتهم لا تموت.

ــ الرحمة والمجد للأموات.

* * *

ساشا بولودين فتى غر ربع القامة ذو شقرة روسية ونمش على وجهه. فروته النصفية من صنع أهل بيته.

يقول ساشا بولودين:

ــ لا، أنا خطتها بنفسي.

قُبعتُهُ أجنبية. حين يُسأل يضحك ويْجيب:

ــ إنّها ألمانية، انتزعتُها منهم. وعدّلتُها حسب قياس رأسي وطرازنا. رُشيشه ألماني، قنابله اليدوية من صناعتنا، خنجرِه فنلندي. ساشا بولودين باختصار جندي غير نظامي وصل إلينا حديثا وهو يطلب الوصول إلى القيادة العليا. فنقول له:

ــ لكن كُلْ شيئاً من الطعام ثمّ اذهب.

فيأكل بشهية. كانت تفوح منه رائحة الغابة والرطوبة ورائحة الجندي غيرِ النظامي الذي لا أعرف شيئاً عنه. كتيبة غير النظاميين موجودة قريباً من لوغا. وراح يحكي لنا وهو يأكل بسرعة:

ـ في الأسبوع الماضي نسفنا أربعة جسور لنقطع على الألمان طريق الهرب. أنا أغبطكم على أنكم تجيدون طرد الكلاب.

في معركة لينينغراد، وخلف العدو، كانت تُحارب فرق كثيرة نظامية قوامها خمسة وثلاثون ألف مُقاتل.

قال ساشا بولودين:

ـ وقُتِلَ مثلهم في أثناء القتال. الفاشي المُجرم يحرق كلّ شيء في طريقه في الإياب وفي الذهاب. على طول طريقنا إلى نارفا لم نُشاهد قرية واحدة، أُحرِقَ وهُدِّمَ كلّ شيء.

قال ساخَنوف:

ـ نعم، وسنحرقهم بدورنا.

دخّن ساشا بولودين، شكرنا وذهب.

* * *

جيشان ألمانيان يتصديان لنا. الثامن عشر على يميننا والسادس عشر على يسارنا. نحن على ((معرفة)) بجنودهم منذ بداية العام الثاني والأربعين، زادوا عليهما الآن قوات جديدة جاءت من أوروبا.

لجأ إلينا ستة من جنود العدو وهم يصيحون:

ـ فرنسيون...

فرنسيون حرّكتهم القوات الألمانية وزجّتهم في مواجهتنا.

ـ ((شطيك فزيمليو))[*]

---

[*]. الحربة مغروززة بالأرض.

كلمتان روسيتان تعنيان: ألقينا سلاحنا، وانسحبنا من القتال. كان المُتكلّم يقولها بلغة روسية ضعيفة. ويُضيف:

ــ أنا قريب الجنرال دوغول.

وكان اسم الجنرال دوغول معروفاً، لأنّه يُحارب الفاشيست، وهذا يعني أنّه رفيقنا في السلاح.

أرسلنا الفرنسيين المُستسلمين إلى الخلف دون أن يُرافقهم أحد. لأنّهم يستطيعون بأنفسهم العثور على مكان تجمّع الأسرى.

* * *

إننا نفرح حين نرى طائراتنا، وما أكثرها وهي تطير في الليل والنهار، ترعد في الجو ذاهبة نحو الغرب مُحمّلة، ثمّ تعود ظافرة بعدما تُفرغُ حمولتها.

كانت بدايةِ هجومنا من ضفة فولخوف، في الرابع عشر من كانون الثاني. اشتركَتْ في الهجوم كتيبتنا المدفعية 261 التي أُلحقَتْ بالجيش 59 في جبهة فولخوف. لواؤنا قديم. هو لواء المدفعية الثاني، فيه كتيبتا مدفعية أُخريان الكتيبة 200 والكتيبة 13.

يقول ساخنوف،

ــ أحمدُ الله على أنّ سريتنا ليست في الكتيبة 13. فأقول:

ــ وأيُّ فخرٍ ينقص تلك الكتيبة وما العيبُ فيها؟

فيُجيب:

ــ يكفي أنّها تحمل هذا الرقم...

ماذا؟ لقد بدأنا نفكر بالفخر، وهذا فأل حسن. لقد انقشع الخوف.

كلنا يعرف الجنرال إيفان كاروفنيكوف آمر جيشنا التاسع والخمسين، ونحبه. لقد منح أحد طباخي كتيبتنا ساعة. كان قد جاء إلى مواقعنا، وتفقد أشياء كثيرة، ثمّ تذوق الطعام في المطبخ وأعجبه، فنزع ساعته من يده وكانت ذهبية، وعلّقها على معصم الطبّاخ شيديكوف.

الطبّاخ شيديكوف من الشمال، وأكبر الظن أنّه من مناطق مورمانسك. يقول لي إنّه لم ير العنب في حياته. إنّه يعرج قليلاً بسبب جرح أُصيب به في العام الواحد والأربعين، لكنّه لم يشأ أن يُعفى من الخدمة العسكرية، فاشتغل فيها طباخاً. أرسل ساعته إلى زوجته في البيت وهو يقول:

ـ أنا لا أعرف إن كانت زوجتي حيّة أم لا، ولكنني أُرسلها ذكرى لأحفادي ورمزاً للمجد العسكري لأُسرة شيديكوف.

* * *

في غابة كثيفة أخذ جنودي يقطعون من الأشجار خشباً لبناء مواقع وبيوت أرضية جديدة، ولكن المناشر تتكسّر. لماذا؟

ووجد ساخنوف السبب:

في كلِّ شجرة خمسون كيلو غراماً من الفولاذ. كلّ الأشجار جريحة، ولا تصلح لأعمال البناء. بماذا نقيم بيوتنا؟

عمد جنودي إلى حفر الثلج من أجل المواقع. بعد نصف متر من الحفر ظهر ماء أصفر. إنّه مستنقع. ولم تنقص جنودي الحيلة، بل راحوا يقشرون الأشجار ويُقيمون الحواجز من قشورها. لذا كنت ترى، حيثما كنت في الغابة، أشجار تعرّت أسافلها على ارتفاع مترين فوق الثلج فبدَتْ مثل أعمدة أطلال مدينة مهجورة.

الألمان يهربون.

* * *

ها نحن نقترب من مدينتي لوغا وأودوركوش. ذهبنا مع آمر الكتيبة للتثبّت من مكاننا، فقُتِل الجندي غيراسيموف الذي كان يمشي في المقدّمة برصاص رشاش مُفاجئ، والتجأنا نحن إلى جذوع الأشجار.

نارٌ حامية. ما معنى هذا؟

لقد ترك الألمان قوات كبيرة حول مدينتي لوغا وأودوركوش راحَتْ تُهاجمنا بشراسة. فالتصقنا بالأرض، بل بالجليد.

ومعارك دفاعية من جديد.

* * *

ويستمرُّ القتال العنيف في الليل والنهار، لا نعرف النوم ولا الراحة في ستة أيام متوالية. انهار جنودي من السهر والتعب وسقطوا بجانب فوهات مدافعِهم. رأى آمر الكتيبة الحال التي هم فيها، فأمر بالنوم ساعتين لكل منهم وبالتناوب.

قُتِل من سريتي ستة عشر جندياً وجُرح ثمانية.

قال لي يرين سرّاً:

ــ نحن مطوقون. اعلمْ أنت ولكن إحذرْ من إيصال الخبر لجنودك.

عندما ذهب أعلمْتُ جنودي بأمرٍ تطويقنا. لأنّ من مبدئي الصدق والحقيقة فهما يمنحان القوة للجنود المُحاربين.

* * *

آمر سرية المُشاة كوليا ساخاروف رفيق قديم في نفس العمر تقريباً. اتخذَتْ سريتانا مواقعهما عند هذا الطرف من مرتفعات الخطوط الحديدية، يليهما العدو في الطرف الثاني. لذلك كان الهتلريون الذين يُحيطون بنا يقومون بهجمات مسعورة بغية القضاء علينا والاستيلاء على محطة الخطوط الحديدية، ونحن نُقاتلهم بلا توقّف.

أنا وساخاروف في هذا الطرف من المُرتفع، في الثلج. جنود اتصالاتنا الهاتفية مُنبطحون على بطونهم، ينامون وسماعاتهم على آذانهم، ولا يفيقون إلاّ على أصوات. أرسل ساخاروف سعاته إلى مجموعاته يأمرهم بالهجوم بالصواريخ. فأمسكتْ بساعده وقلت:

ــ افهم يا كوليا ما أقول.

ــ ماذا؟

ـ لا يجوز الهجوم مُجابهةً. لأنك حالما تصل مع جنودك إلى قمة الخط الحديدي يحصدك العدو مع جنودك بنيران رشاشاته. وهجومك هذا فيه حمق وغباء.

لكنّه لم يوافقني، بل قال:

ـ سوف أُهاجمهم مُجابهةً.

ـ إذن تحرك حول المُرتفع وأنا أحميك بمدافعي. لكن در حول المُرتفع واهجم من اليمين.

لكنّه لم يستمع إلي. بعد عشر دقائق أطلق صواريخ خضراء وحمراء ووقف بطول قامته وارتقى التل بسرعة ركضاً. ولم يسعني إلاّ أن أنزل على العدو ناراً مُحرقة. الخطر يحيق بنا أيضاً. فالعدو على بعد خمسة وسبعين متراً تقريباً في الطرف الآخر من التل. وقد رفعْتُ فوهات مدافعي إلى أعلى ما يُمكن لكي تنزل نيراني قريبة منهم، وهنا مُخاطرة كبرى. لأنّ القنابل التي أطلقها قد تسقط فوق رأسي.

لم يحصل ما خفْتُ منه، لكن ها هو ساخاروف يتدحرج من أعلى التل إلى أسفله بعدما أُصيب برصاصة قاتلة في أعلى جبهته. أوقف معاونه الهجوم الذي بدأه من دون روية.

بعد تحطيم الطوق حولنا. نزلنا في العدو قتلاً حتّى أجبرناه على التراجع.

* * *

تقدمنا إلى الأمام ثلاثة كيلو مترات.

التقط جنود المُشاة أسيرين. وكانا روسيين. أحدهما في الأربعين من العمر والثاني شاب يلبس فروة، أطال شعره مثل الألمان، وهو حقير ووقح.

ـ هل أنتما من جماعة فلاسوف؟

بكى المُسن وبصق الشاب عليه، وقال له:

ـ لماذا تنتحب أيّها الجبان؟

أعلمنا المُسن أنّه من كالينين وله هناك زوجة وأولاد. أمّا الشاب فقال دون اهتمام إنّه من قازان الفولغا، وإنّه يُحارب لإنقاذ روسيا من النظام الشيوعي.

وقال:

ـ حقير من يعتبرني خائناً للوطن، أنا أُقاتل في سبيل الوطن.

قلت له:

ـ كلامك يعني أنك تُريد أن تُحرر وطنك من الشيوعية لتضعه تحت أقدام هتلر، أليس كذلك؟

قال:

ـ هتلر يُساعد روسيا.

فقلت:

ـ نعم، يُساعدها على إزالة وتدمير كل البلاد والقُرى من فولخوف حتّى هُنا، فلا أثر لها ولا لسكانها. وهتلركم هذا أمات من الجوع فقط في لينينغراد ستمائة وأربعين ألف مواطن روسي. أهذه هي المُساعدة التي تُريدها منه، أهكذا يُساعد هتلر من يطلبون منه المساعدة؟ وهذا هو حبك لوطنك؟

صمتَ ولم يتكلّم بعد ذلك. وخلع جنود المُشاة فروة الفلاسوفي المُسن وأعطوها لواحد منهم احترقَتْ فروته في الليلة الفائتة قُرب خندقه. وانتحب الخائن:

ـ آه، سوف أتجمّد من البرد.

فقالوا له:

ـ أحسن، فلا تشعر بما سيحدث لك بعد قليل.

وركع الخائن على الأرض يطلب الرحمة:

ـ الويل لي من خائن قذر. أترون الألماني ((يا أخوتي))؟ لم يُعطني ولا قميصاً أتدفأ به.

فردوا عليه:

ـ وهل كنت تنتظر أن يُعينك هتلر حاكماً على مُقاطعة دفير، يا خائن؟ خذ الآن جزاءك.

وقتلوه بالرصاص وهو راكع. أمّا الشاب فأرسلوه إلى القيادة. قد تستفيد منه في معلومات قد يعرفها عن العدو.

حصل هذا قُرب محطة بيريدولسكايا في هذا اليوم الشباطي المُتجمّد.

ونستمرّ في مُقابلة العدو الذي يطوقنا من جديد.

* * *

بعد ثلاثة أيام كسرَتْ قوات النجدة التي جاءت لدعمنا الطوق الذي يُحيط بنا وانضمّتْ إلينا، بينما راح العدو يبحث عن ثغرات يفلتُ منها هارباً.

في كلّ مكانٍ جثّة. أوه، كم قُتل من جنود هتلر! أمرونا بجمع جثث جنود العدو المُتناثرة على طرفي الطريق المؤدية إلى لوغا وتكويمها على جانب الطريق وعلى طولها.

وهكذا كُدّسَتْ عشرات من الجثث المُتجمّدة المُتخشبة. وأتتنا نجدات جديدة من الشرق دعماً لهجومنا. وشاهدوا هم أيضاً جثث الهتلريين القتلى مُكدّسة. كلّما كثُر عددها كان أحسن، لأنّها ترفع من معنويات النجدات الجديدة.

* * *

توقّف جنودي أمام تل مُتطاول مُغطّى بغطاء مُتفحّم.

ماذا جرى؟ لقد أمسك ساخنوف رأسه.

ـ آه، يا آلهي، ما هذا؟ أليس الهتلريون بشراً حقيقيين.

ـ ماذا جرى؟

ـ لقد أحرقوا الخبز. الخبز....

اكتشفنا بأنّ التل الذي يبلغ ارتفاعه نصف كيلو متر، مخزن خبز لسنة كاملة. لا أدري كم طناً، بل كم ألف طن، غُطي بغطاء كتيم، أحرقوه قبل هربهم. كان خشب الغطاء قد احترق تماماً وصار رماداً. أمّا تل المؤونة فاحترق منه بسمك نصف متر تقريباً من السطح، تحته طبقة

شائطة، ثمّ الخبز الأبيض الجيد الذي ظلّ سالماً مُعافى. عمدْتُ فوراً إلى إبلاغ القيادة بالهاتف بكمية الخبز التي وجدناها.

قالوا لي:

ـ سنرسل لك الآن عربة لنقلها. تأكد من أنها ليست ملغومة.

لا ليست ملغومة، إذ لم يسمح الوقت للهررة بلغمها. ولنفرض أنهم فعلوها، فإنّ كاشفي الألغام يُبطلون مفعولها.

ملأْتُ جيبي بعدة حفنات من الخبز المُقمّر لآكلها في الطريق. فأنا لم أتذوّق الخبز المقمّر منذ أمد بعيد.

استخلصنا لوغا من العدو. مدينة كانت كبيرة يوماً ما. لماذا ((كانت))؟

لأنّها غير موجودة الآن. بل حلّت محلّها أكوام خرائب، فلا بيت ترى إلاّ وقد شبع تثقيباً. وفي الشوارع لا نرى إلاّ صفوف جماعات من القوات غير النظامية، رجالاً ونساءً، جاءوا ينضمون إلينا بعدما أتمّوا مهمتهم.

حين نلتقيهم يحيوننا ويقولون ضاحكين:

ـ صَنْعَتُنا القتال.

ليس في المدينة سكان مدنيون لاستقبالنا، فهم إمّا قُتلوا، أو لجؤوا إلى الغابات هاربين، ولسوف يعودون حتماً إلى حيث كانوا. ومنهم عدد كبير ساقهم الألمان قسراً إلى نهر نارفا.

* * *

ظهر أمامنا خط نهر نارفا الجليدي.

شهرٌ ونصف ونحن في قتال مُستمر. آه، لو أجد مكاناً أنام فيه نوماً عميقاً... عاصفة ثلجية وذوبان ثلج من جديد. بلل مُسقم، ضباب أعمى يضني.

نحن الآن في الثاني عشر من شباط. شهر وخمسة عشر يوماً وأنا في العشرين من العمر. كتابتي بلا نوم.

حصاني هو أخي

أنا على حصاني ذاهبٌ للبحث عن كتب جديدة لسرية مدفعيتي.

التقيتُ في الطريق فارساً على حصان أبيض. أسمر بشاربين رفيعين وأنف كمنقارِ النسر. لمّا تحاذينا حيّاني قائلاً:

ـ مرحباً أخي الأرمني.

ترجّلنا.

وعرفْتُ أنّه المُقدّم آردو خاجيكيان رئيس القسم الهندسي في لوائنا.

طويل القامة ضيّق الصدر، مرح. أخرجْتُ من سرج حصاني عرقاً. لكنّه اعتذر قائلاً إنّه لا يتعاطى مثل هذه المشروبات. وسأل:

ـ منذ متى تركت أرمينيا؟

ـ منذ ربيع عام واحد وأربعين.

ومدَّ يده باتجاه نهر نارفا وقال:

ـ وأنا أيضاً. سنجتاز هذا النهر طالما جليده متين. لقد إجتزته أمس إلى الضفّة الأُخرى مع مُتتبعي الأثر.

اقترح عليّ آردو أن نتبادل الأحصنة وقال:

ـ حصاني جموح لا أستطيع السيطرة عليه، ولم أعتد على ركوب الخيل.

أردْتُ مُساعدته من كلّ قلبي، لكن لم تُطاوعني نفسي. فلقد تآخيْتُ مع حصاني منذ ثلاثة أشهر، ويعزُّ عليّ الانفصال عنه. وكأنما لاحظ آردو ترددي فلم يلح في طلبه.

وافترقنا على أن نلتقي ثانيةً.

ترك آردو في نفسي قطعة من أرمينيا. ودبّتْ في وسط هذا الجليد حرارة عالية. آه! أنا لم أر باكراد خاجونتس منذ زمنٍ طويل. ترى هل يُغنّي آردو ((غرونغ))

((هل عندك خبر))؟ حزنْتُ وكدْتُ أبكي.

برد قلبي الآن، فمن يُدفئه؟ شورا ليست بجانبي. وابتعد عنّي ريح وطني. آه من هذه الحرب! متى تنتهي؟ آه! تذكرت، لقد ابتعد فكري عن مارو تماماً، يا إلهي! وقبّلْتُ أُذُنَي حصاني. أحسنْتُ إذ لم أُبدّله.

* * *

ندف اليوم أيضاً ثلجٌ كثير. عجيب. إنّه عيد، عيدٌ في جبهة القتال. اجتاز الألمان نهر نارفا هرباً أو قتلاً، وراحوا يُحصنون الضفة اليُسرى منه.

كنت مع ساخِنوف نتعذّب في شق طريقنا في الثِلج الذي ارتفع حتّى الركب. ولم يتمكّن حتّى حصاني من شق طريقه إلاّ بعد لأي.

نحن ذاهبان لنستطلع مكان مواقعنا الجديدة.

اقتربنا من نهر نارفا. علىٍ مسافة قصيرة إلى اليسار تقع بحيرة (جوت)، وإلى اليمين وعلى الضفة الثانية من النهر تقع مدينة نارفا.

التقيْتُ آردو خاجيكيان مرّة ثانية على حصانه الأبيض، ومعه فارس آخر غير مُدرّب على ركوب الخيل، وقع عن حصانه حين تقابلنا.

سألته:

ــ أما زلت تشكو من جموح حصانك يا آردو؟

أجاب مُستبشراً:

ــ لا، أظنني تدربت.

ــ ماذا وراءك من أخبار؟

ــ أبحثُ عن معابر مُناسبة لاجتياز النهر.

ــ وهل وجدْتَ بغيتك؟

ــ سوف أجد دونما شك. رفيقي ضابط مهندس من أستونيا، من المجموعة الاستوائية الثامنة، وهو يُساعدني، فهنا أرض بلاده. تعرّفْ عليه. لقد تأكدنا من سمك جليد النهر وقِدْرته على تحمّل ثقل دبابة.

كان الضابط المهندس الأستوني رجلاً نحيل الجسم أشقر الشعر. مدَّ يده إليّ وصافحني، ثمّ أشار بها نحو النهر وإلى الضفّة الأُخرى منه قائلاً:

ـ هناك تربض أكواخ موطني.

أعطاني سجائر ألمانية من غنائم الحرب. ودسّ أردو في جيب نصفيتي الفرو زجاجة عرق احتفظ لي بها، كانت حصته لمدة أسبوع. فشربْتُ من العرق قليلاً، ثمّ حولْتُ الزجاجة إلى الأستوني، شرب هو أيضاً رشفات قليلة منها، وأعادها قائلاً:

ـ لا أحتمل المزيد، اشرب أنت ما تبقّى فيها. فقلتُ له:

ـ أشرب.

وشربْتُ ما تبقّى في الزجاجة، وألقيْتُ بها جانباً وقلت للأستوني:

ـ توجد قرابة بيني وبين أرضكم.

فهزّ رأسه مُجاملاً:

ـ مفهوم.

قلت:

ـ لا، لم تفهم. كلامي ليس تملقاً ولا مُجاملة. فعلى أرضكم وفي جامعة تارتو تعلّم فخر أمتنا: الكاتب خجادور آبوفيان.

قال متباهياً:

ـ آ، أنا من جوار تارتو.

* * *

حتّى آمر اللواء جاء لاستطلاع المكان. رافقته في البداية مخوضين في الثلج، ثمّ تابعنا التقدّم زحفاً على بطوننا إلى أن ظهر سطح النهر المُتجمّد، المُغطّى بالضباب. في الوقت الذي كان فيه العدو في الضفّة الثانية يُطلق علينا قذائف مُتفرقة بين آنٍ وآخر.

استلقينا، فأسندْتُ رأسي على الثلج، ولبثت أنصتُ لصوت الجنرال الذي نشر خريطة على الثلج وراح يشرح لقادة الكتائب عملية القتال.

راودني النوم. فغططْتُ فيه وأنا دفآن في نصفيتي وسروالي اللبادي على الثلج الناعم الوثير.

شدّني آردو من ذراعي وصاح:

ـ لا تنم تتجمّد.

فتحْتُ عيني وسألت:

ـ هل الربيع بعيد يا آردو؟

ـ تفتحت الآن عندنا في سهل آرارات أزهار اللوز.

لكن لم يهجني الشوق إلى شجرة اللوز. لأنني نسيت لون الربيع وعطر زهر اللوز.

عدنا إلى أحصنتنا وزحافاتنا. دعاني آمر اللواء إلى مركزه مع ثلاثة ضباط آخرين وقال:

ـ اعتباراً من الآن. أنتم في رتبة مُلازم أول. أُهنئكم.

فهرب النوم من عيني، ووقفْتُ مكاني مُستعداً، والجنرال يُثبِّتُ نجمات بيضاء على كتفي وكأنّها ندف ثلج كبيرة.

ـ هيّا. ستصل إلى رتبة جنرال يا ولدي. أنا راض عنك.

ذهبْتُ عدواً إلى حصاني وامتطيْتُ صهوته مُخاطباً إياه:

ـ إيه يا أخي. اللوزة مُزهرة الآن في موطني، وأنا الآن مُلازم أول. ماذا تقول؟

وراح الحصان يجري على هواه دون أن يعرف مقصدي. ما أجمل الريادة على الثلج. آه، تذكرت، أزهار اللوز أيضاً بلون الثلج، ناعمة مثله ناعمة، باردة مثله باردة.

نحن الآن في الثامن عشر من شباط. شهر واحد وعشرون يوماً وأنا في العشرين من العمر. كتابتي أخوية.

ينزل الضبابُ كثيفاً

لا أعرف، أكان من حظّي أو من حظ واحدٍ آخر أنّ تكاثف الضباب فوق الأرض يوم اجتياز النهر. أخذْتُ واحداً فقط من جنود الهاتف لمرافقتي في عبور النهر. وأمرْتُ الاثنين الآخرين بالبقاء في مكانهما من ضفة النهر، إذ لا ضرورة لتعريضهما للخطر، وأنا أستطيع السير مع جندي وهاتف واحد.

وانضمَّتْ شورا تحمل حقيبة الإسعاف إلى أعضاء القيادة، فنصحْتُ لها بالبقاء على هذه الضفة مع جنود الهاتف.

قالت:

ـ أبقى بشرط أن تبقى معي أنت أيضاً.

قلت:

ـ لا فرق بيني وبين غيري، فهذا لا يُغيّر من الأمر شيئاً.

ـ ضع حدّاً لشقاوتك هذه،

قالت ذلك شاردة غافلة عن نفسها، وأضافت:

ـ أتراني أستحقّ منك هذه التهمة الشنيعة؟

أشفقْتُ عليها. آه، إنّها من أهلي وهي غالية علي. قالت لي:

ـ تعال أبللّك.

ـ لماذا؟

ـ ترتفع حرارتك، فتبقى هنا ولا تشترك في اجتياز النهر، فأرعاك هنا.

فدفعتُها عنّي دفعة أوقعتها على الثلج. وما كادت تقف حتّى همسَتْ:

ـ يا لحظي السيء....

تركتها مع بكائها وركضْتُ وراء آمر الكتيبة.

حتّى الموت أربع خطوات.

* * *

نحن على حافة النهر.

نهار شتوي، جليد وضباب. من ضفتنا عدة مئات من المدافع بعيدة المدى ومدافع الهاون والكاتيوشا تقصف ضفة العدو بغية إسكات نقاط ناره.

ركّز آمر الكتيبة الهاتف والراديو في حفرة إحدى القنابل، وسألني عمّا إذا كانت مدفعيتي جاهزة للعبور.

أجبته:

ــ جاهزة، وسوف تتبع المُشاة فور تحركهم.

نحن نُراقب ضفة العدو من داخل الحفرة، لكننا لا نرى شيئاً في الضباب، فأشرْتُ على آمر الكتيبة أن تقترب الكتيبة من الضفة الأُخرى بهدوء وبلا ضجّة تحت جنح الضباب. وكان يُفكّر في الأمر نفسه، لذا استدعى قادة الفصائل وأمرهم بالعبور فوراً.

ــ ما دام الضباب كثيفاً، قرّبوا السرايا على الجليد من ضفة العدو. وحالما نقصف خطوط العدو الخلفية اهجموا وادخلوا مواقعه.

قال ذلك وهو في أسف وعجب من فعله، لأنّه يُرسل الرجال إلى النار.

حتّى الموت أربع خطوات.

وانطلق قادة الفصائل.

أمّا آمر الكتيبة فراح يزحف مُتشمماً رائحة الضباب والثلج وهو يُدخّن قلقاً.

* * *

تركنا في الزحافة كيسي وكيس ساخنوف ودثاراً مُبطّناً بالقطن. لفّ به ساخنوف بطاطا غير مُتجمّدة. لا أدري من أين جاء بهذه البطاطا، ولا أعلم كيف وأين ومتى سلق ثماني حبّات منها وقدّمها لي ساخنة قائلاً.

ـ كُلْ فهذا آخر ما عندي من المؤونة.

إنّه يقول ذلك دائماً، ودائماً أجد عنده بطاطا.

حصاني أحمر اللون كبير الرأس مُنخفض العجز قليلاً. كان واقفاً بجانب الزحافة رافعاً رأسه، حين كنت جالساً فيها أُدخّن وأنظر إليه. لقد مضَتْ سنة على رفقتنا. يُنظفه ساخنوف كلّ يوم ويغسله مرّة في الأسبوع. يجد له العلف كلّ يوم تماماً كما يجد لي البطاطا غير المُجمّدة، مع رأس بصل. وجد في الزحافة الآن قشاً ننام عليه، فإذا تعذّر وجود العلف، فسوف يطعم ساخنوف الحصان من هذا القش.

الحصان كما قلت واقف مرفوع الرأس، عيناه نديتان، وهذا يعني شيئاً كثيراً عند الفارس، ففي تينك العينين حس مثلما هو عند الإنسان، ولربّما كان أسمى من حس ذي الرجلين. فمه أسمر بشفتين رقيقتين، ومنخراه واسعان ورديان ناعما الجلد، ينفتحان ويضيقان مع النفس.

ـ مرحباً يا أخي.

هزّ حصاني رأسه فانتفخْتُ تيهاً. فهو يفهم لغتي ويفهم قولي.

ـ ما اسمك يا أخي؟

ـ اسمي حصان، ألا تعرف هذا، أم ماذا؟

ـ أعرف طبعاً، لكنني أريد أن أُجري معك حديثاً. قل لي، أين ولدت؟

ـ وهل هذا ضروري؟

ـ طبعاً ضروري. فالإنسان لا بدَّ أن يولد في مكان ما وأن يتعلّق بهذا المكان. أنا أشعر أنّ الحصان من مواليد السهول، أليس كذلك؟

فيقول مُنتحباً:

ـ هو كذلك. أنا من مواليد سهل كالميكا. هناك الأفق واسع ولا توجد حرب.

ـ وهل أنت حزين؟

ـ لا أدري. لكن سهولنا تعنُّ على بالي دائماً. أُريد أن أنساها فلا أقدر، ومع ذلك فأنا أُريد أن أنسى كلّ شيء.

ـ لماذا؟

ـ إيه، ماذا أذكر لأذكر!

فأمسح فمه، وأُقدّم له قطعة سُكّر كانت معي. لكنّه يشيح بوجهه عنها.

ـ لا أُريد، خلّها لك. يكفيني القش والعشب.

ـ كم عمرك يا حصان؟

ـ ست سنوات.

ـ هل عندك شورا؟

ـ لا، لستُ بحاجة إليها. أعني، أين. أين من يُعطيني ابنته؟

وأمسح فمه من جديد. وأرجوه مرّة أُخرى أن يقبل السُكّر. لكنّه يرفض، ويحكي لي ما رآه قبل ثلاثة أيام.

ـ كان لي رفيقة في الثكنة المُجاورة، اسمها ماتاك. جُرِحَتْ رجلها قبل ثلاثة أيام، فذبحها صاحبها وأكلوها.

أكاد أجن، الحصان يبكي.

ـ هكذا أنتم يا ناس. ماذا بيدي أن أفعل؟ ولا أستبعد أن تأكلني أنت يوماً. أليس كذلك؟

فصرخْتُ:

ـ لا، لن يحصل مثل هذا.

فيضحك:

ـ أنا لا أخشى من ذلك أبداً، ماذا يحصل؟ لحم يجب أن يؤكل، فإن لم تأكله أنت، أكلته الضباع. فأنت إذن أولى بلحمي.

أنخرط أنا بالبكاء ويبكي أيضاً معي. دموعه كبيرة جدّاً تنحدر من زوايا عينيه على مهل حتّى شفتيه، وتترك أثراً يُشبه الأخاديد على شعره الناعم.

قلت له وأنا أُقبّل خدّه وعينيه المُبللتين بالدموع:

ـ أنت تُخطئ في تقديرك، فلن يحصل مثل هذا يا حصان، ولسوف تبقى حيّاً.

لكنّه لم يفهمني، ولم يتكلم بعد ذلك، وزالت المُعجزة التي جعلته يتكلّم. لقد رفع الله عنه صفة الإنسانية التي منحها إياه قبل قليل، فعاد الآن كما كان حيواناً عادياً ذا نظرة بلهاء ورأس مرفوع.

* * *

نزل المُشاة بسير خفيف من الضفّة، وركضوا على الجليد يغمرهم الضباب، وتتقدّمهم أربع دبابات وست مُجنزرات. أغمضْتُ عيني خائفامن أن لا يصمد الجليد تحت ثقل الآليات وثقلهم، فينهار تحتهم. وفي هذه الحالة يمسكون بخناق آردو خاجيكيان. ولكنني استبعدْتُ هذا الخاطر لأنّ قشرة النهر الجليدية صامدة، آردو لم يُخطئ.

من المواقع المُجاورة لي أمرْتُ سريتي بإخراج مدافع الهاون بسرعة والتقدّم خلف المُشاة.

المنظر خلّاب. أنا أغلي في مكاني، بينما يسير جنودي صفوفاً لا ينظرون إلى الوراء. لم يطل ظهورهم على الصفحة الجليدية، إذ سرعان ما اختفوا في الضباب، مثلما تغور النسور في طيّات الغيوم الكثيفة. نعم، انطلاق جذّاب.

أطلقَتْ مدفعيتنا من ضفتنا حمماً على العدو. فرقعتها وسط الضباب تبعث الرهبة الجهنمية في النفوس. وبدأ العدو يردُّ علينا بنيران مماثلة. لقد أدركوا خطتنا وراحوا يحاولون تدمير جليد النهر. ولا عجب فالعدو ذكي، مُدرّب على صنعة الحرب. وإضافةً إلى مدافعهم راحوا يُمشطون صفحة النهر برشاشاتهم.

ويتشقق الجليد فعلاً، وتظهر في أمكنة مُتفرقة فتحات فيه، تعود فتغطيها شظايا الجليد المُتناثرة.

لم أعد أحتمل أكثرَ من ذلك. فعلي أن ألحق الضباب. وعرضْتُ على آمر الكتيبة رغبتي، وأعلمته أنّ مرصدي قد انتقل إلى الضفّة الأُخرى، فلم يعترض. وأمرْتُ جندي الهاتف أن يمدّ الشريط فوق الجليد، ويلحق

بي عند الضفّة الأُخرى. وحمل ساخنوف كيسه على ظهره، فأدركْتُ نيته وقلت:

ــ لن تأتي معي.

فتعجّب، وسأل:

ــ لماذا؟

ــ تلحق بي عندما نتثبّت على الضفة الأُخرى. أمّا الآن فاذهب وابحث عن شورا، وحاول أن تمنعها من العبور والحفاظ عليها في الخلف.

حاول ساخنوف الاعتراض ومُرافقتي، لكنني قفزْتُ على ظهر حصاني المربوط إلى الزحافة وهززْتُ اللجام، وانطلق الحصان نحو الضباب. لسوف أجتاز النهر بهذا الاندفاع ولن يُصيبني أذى.

* * *

انحدرَتْ زحافتي بقوة من شاطئ النهر المُنحدر وتوقفَتْ فجأة. أمسك آمر الكتيبة بزمام حصاني وقال:

ــ أنا قادمٌ معك.

وجلسْتُ إلى جانبه في زحافتي مع اثنين من رجال هاتفه وطباخه. سألني:

ــ هل تهجم، أم أنّ هناك شيئاً آخر؟

ــ أظنُّ أنّ جماعتنا بدؤوا معركة بالسلاح الأبيض في خنادق العدو.

وَسِطت حصاني وطارت زحافتي.

الألمان يقصفون ظهرِ النهر بنار ثقيلة، فيتكسّر الجليد وتتدفق فوارات الماء مرتفعة عالياً في الجو، ثمّ تتساقط علينا مطراً بزئير رهيب. فجأةً ظهرَتْ حفرة ماء أمامي. إن وقعْتُ فيها، كان الموت المُحتم غرقاً، ولا أعرف كيف أحيدُ عنها، لكن حصلَتْ مُعجزة، ولا أعرف كيف تحاشاها حصاني.

تخيّلْتُ نفسي صبّي الحكاية المُجنّح الذي يأخذه حصان سماوي مُلجّم، يطير به في الفضاء الأزرق بين الغيوم البيضاء.

كنّا نمرُّ بجثث كثيرة على الجليد.

فجأةً علق لجام حصاني بحقيبة أخت الرحمة (المُمرضة)، فكبحته بصعوبة كي لا تندهس تحت الزحافة، وشددتُها من رقبتها ووضعتُها في زحافتي. ورأيت من تحت النقاب المُغطّى برذاذ جليدي عينين سعيدتين تنظران إليّ. إنّها شورا، فغمغم آمر الكتيبة:

ـ ويلك يا وجه الشؤم!

اندسَّتْ شورا داخل الزحافة حتّى لا تقع منها أثناء زحفها. لو سنح لي الوقت لقبلتُها لكن الظرف غير مُناسب. فلتعيشي يا شورا. لقد صار حمل زحافتي غالياً. هيّا يا حصاني العزيز، هيّا يا أخي إلى الأمام.

* * *

ها هي الضفّة المنشودة. تبدأ خفيضة بمستوى سطح النهر الجليدي تقريباً، ثمّ يميل السطح ويبدأ بالارتفاع دفعة واحدة. هناك وجدنا جنوداً مُلتصقين بجذوع الأشجار إضافةً إلى جثث كثيرة مُتناثرة.

طار حصاني على الضفّة وانساب خمسين متراً تقريباً على البر، وقُتل. وانقلبنا من الزحافة. تحصنْتُ بجثة حصاني المُرتعشة، وأسندْتُ رُشيشي على ظهره وبدأْتُ بإطلاق النار.

وتدبّر آمر الكتيبة أيضاً لنفسه ملجأ. لكن ضاعت شورا. أين؟ أخشى أن تُقتل. أنا لا أراها، فالضباب كثيف. كما أنّه ليس لدي وقت لزيغان البصر. جثة حصاني تُدفئني. حصاني المُحتضر يلفظ أنفاسه. رفع رأسه ونظر إليّ بطرف عينه كأنّه يودعني الوداع الأخير، ثمّ أسند رأسه على الجليد. قبّلْتُ آخر نَفَسٍ له، نفثه في وجهي بحشرجة عالية خرجَتْ من منخريه.

سمعْتُ صوت رشاشنا غير بعيدٍ عنّا، ويبدو أنّه على بعد خمسين خطوة تقريباً. فزحفْتُ نحوه بين الجثث، دون أن أنظر إلى القتلى. لكنني رأيْتُ شورا تتفقدها. لقد احتلّ جماعتنا أول خطين من مواقع العدو. والآن يُقاتلون ليتعمقوا في تقدمهم.

أخيراً وجدْتُ سريتي بصعوبة بالغة. احتلّ رفاقي موقعاً وراحوا يقصفون منه السهل القريب. العدو تحت مساقط نيراننا.

إلى جانبي بقليل تحطّمَتْ بطاريةٍ من بطارياتنا المُضادة للدبابات الهجومية، فصارَتْ بهيكلها متراساً لنا. رأيت سائقها الجندي يتدلّى من نافذتها المفتوحة وتحته على الجليد دمه المُتجمّد. لقد أثار الدم المسفوح الثيران والأبقار، فراحت تخور بشدّة وتغمس أنوفها في الدم.

تُحيط بي غابة كثيفة. أشجارها تترنّح وتتكسّر أمام عيني تحت ضغط نيراننا ونيران العدو، فتنكشف السماء بتكسرها رويداً ويزداد النور.

أكثر ما يؤذينا ذلك المدفع ذو الفوهات الست الألماني الذي تحرق قذائفه حتّى الجليد. أمّا صوته اللعين الذي يُشبه صوت الحمار، إي، آ إي. آ، فهو يخدع الخيول المُهجّنة. انحشرْتُ بكلّ جسمي في جسم الحصان ورحْتُ أنصتُ إلى نهيقها لأتأكد من مكانها وأدعو مدافعنا بعيدة المدى في الضفة الأولى إلى القضاء عليها. لا عزرائيل لهذه ((الحمير)) إلاّ قنابلنا. لكنني لم أتمكن من كشفها فهي لا تظهر، والجو غير مُلائم للصواريخ.

* * *

اقتربَتْ سريتي كثيراً من مواقع العدو وراحت تقصف بشدّة استحكاماته. وأسقط في يد الألمان، لأنّهم لا يستطيعون قصفنا ونحن بالقرب من جماعاتهم خوفاً عليهم من تلقي الإصابة.

نحن الآن في التاسع عشر من شباط. شهر واحد وواحد وعشرون يوماً، وأنا في العشرين من العمر. كتابتي ضبابية.

كلوا، هذا لحم أخي

هل حلّ الليل وأظلمَتْ الدنيا؟ أمٍ أنّه النهار والضوء قد طلع؟

بقنابلنا اليدوية وحرابنا أحياناً أخرجنا العدو من خط مواقعه الثالث.

وأضفنا إلى الأراضي التي احتللناها على ضفة نهر نارفا اليُسرى خطوطاً وصلت إلى أربعة كيلو مترات. إنّه نصر.

صدر الأمر بتعميق الخنادق والدخول فيها.

فعمّقنا أخاديد الأرض المُتجمّدة. الأرض حامية مْنقذة ومُدفئة.

لا تُصدّقوا أنّه يوجد عند الجندي ما هو أحلى من أن يتغلّب في القتال على عدوه.

أنا فخور، فرح، منزو في الخندق الذي انتزعته من العدو، أقضم الخبز اليابس. آه، لقد حققنا نصراً مُبيناً.

جاء جنديا الاتصالات الآخران من الضفّة الأولى مع راعيّ ساخنوف الذين كنت قد تركتهم هناك قبل عبوري النهر. فسألني الشيخ لاهثاً:

ـ أين حصاننا؟

فأشرْتُ بيدي إليه وهو مرتمٍ على الأرض. صاح ساخنوف، وخُيّل إليّ أنني أسمع صوت آخر أنفاسِ حصاني الذي قبّلتُهُ.

* * *

أنا مُستلق في الخندق المُنتزع من الألمان. جدرانه مْحصّنة بأغصان متينة وأخشابٍ تمنع تسرّب الماء. وبجانبي حصن ألماني بيتوني مُغطى بسقف بيتوني أيضاً، وبابه من السنديان السميك. كان يشغل هذا

الحصن ضابط. ووجدْتُ في الحصن سراجاً كحولياً لا ينفث دخاناً، لكنّه مُحطّم. كذلك وجدْتُ ما يُشبه الملاحة وبقياسها، في ورقة سميكة رمادية مُزق جانبها.

أين شوَرا؟ فالتفتُ لأنظر إلى عينيها تحت نور لا دُخان فيه.

أين شورا؟

* * *

دخل إلى حصني مخلوقان صغيران. آه، ها. إنّهما التوأمان فيديان وبيديان بودكيفيتش.

قال مينيا:

ـ مرحباً. اسمح لنا بفحص هواتفكم. هل هي موصولة؟

قمْتُ من مكاني ودعوتهما:

ـ تفضّلا، افحصاها حسب الأصول.

نزع مينيا قُبعته ذات الأذنين، ورأيت رأسه مُضمداً عند جبهته. سألته:

ـ ما هذا أيّها الرفيق العريف، هل أنت جريح؟

فأجاب بتيه وفخر:

ـ نعم، لقد جُرِحْتُ قبل ثلاثة أيام وأنا أؤدي مهمة قتالية.

لاحظْتُ أنّ أخاه فيديا ينظر إليه حاسداً، فلقد جُرِح، ولم يُجرح هو.

ـ لكن، كيف حصل ذلك؟ ولماذا لم تذهب إلى المُستشفى أيها الرفيق العريف؟

فقال الولد مُفسّراً:

ـ جرحٌ غير خطير، لم تخدش الرصاصة غير جلد رأسي، لم تصل إلى العظم. لكن نزفْتُ دماً كثيراً قبل أن يسعفوني.

ـ هل يؤلمك الآن؟

ـ ماذا أقول؟ ربّما لا.

حاولت إستضافتهما بسُكّر وزبدة وقد كان عندي منهما ما يكفي. لكنّهما اعتذرا وامتنعا عن تناولها، أو مدِّ يدهما إليها.

قال فيديان:

ـ كلّ واحد فينا يأخذ نصيبه، إذن لا يوجد فائض كي يُقدّمه واحدنا للآخر. احفظها لنفسك.

عبثا بعلبة الهاتف ونفخا ونا‌ديا ((الدون)):

ـ كيف تسمع يا ((دون)) أنا ((الفولغا)).

وضع بيديان السمّاعة مكانها وقال كالكبار:

ـ هاتفكم صالح تماماً. هل تسمح لنا بالذهاب؟.

ـ طبعاً أسمح. ولكن ألا تستدفئان قليلاً؟

ـ شُكراً، فالوقت ضيّق، وعلينا أن نفحص هواتف سرية الرشاشات.

إلى اللقاء.

لقد وجدْتُ الأنِفة جلية في هذا الولد ذي الثلاث عشرة سنة. لِمَ لا؟ لقد أعطى من دمه النقي الطاهر قدراً كبيراً في سبيل وطنه.

الأنِفة الحقيقية في الدم.

* * *

انقشع الضباب، وبدأت طائراتنا تقصف مواقع العدو بالقنابل الثقيلة. كما بدأ الألمان يُدمّرون غلاف نارفا الجليدي بضربه من الأرض ومن الجو.

تحطّم غلاف النهر تماماً، وأصبح اجتيازه مُتعذراً، فغرقَتْ قافلة كبيرة من السيارات والعربات التي كانت تحمل إلينا الغذاء ليلاً.

لقد انقطعنا نحن ومركز الدفاع الصغير عن العالم. أمرْتُ المحطة العسكرية الرئيسية بإعطائنا، نحن مركز الدفاع، نصيباً مُضاعفاً من الخبز والعرق والتبغ، ولكن كيف ستوصل إلينا هذا التموين؟

* * *

وصلت درجة البرد إلى ثلاث وثلاثين حسب تقدير ساخنوف. وميزانه لسانه، يمدّه إلى خارج فمه ويتلمّس به الهواء ويُقرّر:

ـ درجة البرودة ثلاث وثلاثون. اذهبوا وأحضرا ميزان حرارة. فإذا كنت مُخطئاً اقطعوا رأسي.

* * *

جاء إلى بيتي الأرضي آردو خاجيكيان مع النقيب المُهندس الأستوني للاستدفاء على الموقد الذي بنيته في الجدار.

سألني:

ـ هل عندك دُخّان؟

ـ ما عندي.

فرك الأستوني تُراباً أصفر جافاً بيده ثمّ شمّه وقال:

ـ لذيذ.

مركز دفاعنا ضيّق، وهو قطعة من أستونيا. في أثناء جلوسنا فيه، أخرج الأستوني من جيبه حفنة من توت العلّيق وقدّمه لي، فوجدْتُ هذا الثمر الأحمر ناعم الحبّات مُعجزة في هذا البرد الشديد.. ولمّا سألته، قال:

ـ هذا لا يتأثر بالبرد، كلوا.

جاء ساخنوفي من شاطئ النهر، وأنزل عن كتفه كيساً مُشحماً مسودّاً، يتصاعد منه البخار، ووضع أمامنا اللحم المسلوق ساخناً وهو يقول:

ـ لحم حصان، ألا تأكلون؟
قال ضيوفي:
ـ بكلّ سرور، أين وجدته؟
فخفض ساخنوف رأسه ولم يتكلّم، وتذكّرْتُ حصاني المقتول...
أكل ضيوفي حتّى الشبع وذهبوا راضين. لقد أعاننا حصاني الوفي على الجوع وهو مقتول. العفو، يا حصاني، العفو...

* * *

رمم ساخنوف حصناً ألمانياً ورتَّبه. تمركزنا فيه، لأنّه قريب من مواقعنا الأمامية، هناك حيث تحطَمَتْ الآلية المُدمرة. واخترْتُ حسب العادة شجرة أنشأتُ عليها مرصداً أرى منه مواقع العدو بوضوح.
هجم الألمان علينا مرّة يبغون إغراقنا في مياه النهر مع شظايا الجليد. ولمّا كانت الطريق مقطوعة علينا للرجوع، زد عليها أننا لا نرغب في الرجوع، لذا أخذنا نصدّ هجماتهم الواحدة تلو الأُخرى.

* * *

لهث الألمان ثلاثة أيام ثمّ انقطعَتْ أنفاسهم.
بدؤوا يُعانون من حرب دفاعية مُرهقة، وهم في حالة يأس تامّة.

* * *

وجد ساخنوف بين الخرائب صندوق سُرُج كحول مُركّز. ففرحنا، إذ سيكون عندنا نور شعشاع. لكن ساخنوف أذاب الكحول المُركّز كالشمع على النار، وعصره، وغلاه، وعصره من جديد، وصفاه. كنت أنظر إلى ما يفعله مُتعجباً من عمليته الكيماوية وأنا ساكت. أخيراً غمزني بعين خبيثة وقال:
ـ المشروب جاهز.

لقد ملأ زجاجة من العرق المُستخلص من كحول السرج. شرب هو أولاً، وانتظر نصف ساعة ثمّ قال:

ــ جيّد، لقد استقبلته معدتي راضية.

وأعطاني كأساً منه، شربته. فلبّك معدتي، وكاد دماغي أن ينفجر. ومع ذلك شربْتُ ثانيةً، حتّى لفّتْ بدني حرارة لذيذة، تذكرْتُ معها شورا وشفتيها المُدورتين.

ــ ساخنوف، أعطني مزيداً من المشروب.

ــ لا أُعطيك، فالكثير منه يُسممك.

وأخفى القنينة.

أنا قلق على شورا. فسألت ساخنوف عمّا إذا كان قد رآها. أخشى أن تكون قُتلَتْ.

قال ساخنوف: ــ ليست ثمرة تُقتل، اطمئن.

ــ ثمرة؟ لماذا ثمرة؟ إذا كانت شورا ثمرة، فهي تنفع كمُقبلات مع العرق. ماذا تقول في هذا يا ساخنوف؟

ـ آه، لماذا يجيئون بالبنات إلى الجبهة؟ تفوّه.

ضحكْتُ. آه، ما أطيب قلبك يا ساخنوف.

نحن الآن في الواحد والعشرين من شباط. شهر وأربعة وعشرون يوماً وأنا في العشرين من العمر. كتابتي ضحكة.

أخي البعيد

المُقدّم يرين عندي، في موقعي. أعجبه بيتي الأرضي كثيراً. كيف لا، وقد غاص ساخنوف إلى أعماق الأرض ليجعل من هذا الكهف بيتاً حسناً جافّاً دافئاً، لا تُراب يتساقط من الجدران ولا ماء يسيل منها، فلقد سترها بالأخشاب مع الأرضية وفتح في الزاوية موقداً.

قال يرين الذي هو الآن نائب قائد الكتيبة ويبدو أكثر شباباً:

ـ أنا أحُبّ الناس المُدبرين. يبدو أنّ في رأس ساخنوف هذا عقلاً مُدبراً.

وبتُّ أخشى أن يأخذ البيت منّي. لكن، لا. لم يخطر ببال يرين مثل هذا الأمر.

سألني:

ـ هل ذهبت إلى باريس؟

ـ لا يا رفيق نائب قائد الكتيبة، لم أذهب.

فقال:

ـ ولا أنا. ولكن هل يوجد أرمن كثيرون في باريس؟

ـ يوجد، ولكن لا أعلم إن كانوا كثيرين أو قليلين.

ورحْتُ أتساءل بيني وبين نفسي عن الهدف من هذا الاستجواب. فأنا أعلم أنّ الأرمن موجودون في فرنسا. طُبِعَ هناك قبل سنوات كتاب للروائي القصصي الأرمني خنكو آبير بعنوان ((ذيل الوادي)) على ورق فاخرٍ لم أر مثيلاً له قط. وقبل ذلك، ويوم كنت طالباً، وقعَتْ في يدي صدفةً جريدة أرمنية تصدر في باريس، أذكر منها نموذج شعر تحت

عنوان ((صاحب المطعم)). وهي دعوة لزيارة مطعمه، أذكر منها البيتين الأخيرين:

لا تستطيع العيش في باريس
دون الدخول إلى مطعم القفقاس.

أعطاني نائب قائد الكتيبة جريدة (كراسنايا زفيزدا) ـ الروسية وقال:

ـ اقرأ المعلومات الأخيرة، إنّها عن الشيوعي الأرمني ميساك مانوشيان. هل تعرفه؟

ـ لا. وأنا أسمع باسمه منك لأول مرّة.

قال يرين:

ـ إنّه يُشرّف الإنسانية. اقرأ.

فأقرأ.

إنّها معلومة من وكالة الأنباء تاس، جاء فيها:

أفادت مراسلتنا أنّ رجال الغستابو الهتلريين. وفي الواحد والعشرين من شباط الجاري، أعدموا في باريس بالرصاص طائفة من كبار شجعان حركة معارضة حملوا السلاح لمُحاربة الفاشيين. هم شيوعيون من قوميات مُختلفة، اتفقوا على هدف واحد هو القضاء على الفاشية التي أصبحَتْ وبالاً على الإنسانية. ولقد قُتل رئيسهم ميساك مانوشيان مع رفاقه بسلاح رجال الغستابو. لقد ضحّوا بحياتهم دفاعاً عن أوطانهم، وبُغضاً للفاشية وهتلرها ونظامه الجديد الذي صار مصدر كلّ الشرور في العالم.

قرأتُ الخبر القصير عدة مرّات وبلا إرادة رفعْتُ رأسي مُتباهياً:

ـ لقد حارب الأرمن دوماً ضدّ الشرور التي تضرُّ بالإنسانية، وضحّوا وماتوا في سبيل هذه القضية العظيمة.

قال يرين:

ـ أعرف. فلتبق هذه الجريدة لك، اقرأها لجنودك.

وصار مانوشيان شغلي الشاغل. إنّه بطل يشدّني إلى التفكير فيه دائماً. ترى ما هي الظروف التي ألقَتْ به في باريس؟ وأين حدثَتْ؟ هل هو شاب أم كهل؟ وبقيَتْ تساؤلاتي من دونٍ جواب. لكنني أرى بوضوح أمام عيني، ذلك الرجل الذي وقف صلباً أمام بنادق الهمجيين، ويستقبل الإعدام بشموخ وإباء، مثل شاهوميان في صحراء آقجه كوما، يوم وقف هو الآخر أمام بنادق همجيين آخرين مكشوف الصدر، وبقي صلباً حتّى بعدما تخضَّبَ صدرهُ بالدم. آه، في أي مكان لم يبذل الأرمني دمه وهو يسعى وراء حرية الإنسان؟! وها هو الآن أيضاً، في باريس فرنسا يموت ميساك مانوشيان مع كثيرين وغيره بسلاح الغستابو.

أُفكر وأنسج في فكري خيوط أسطورة هذه الأيام خيطاً خيطاً. ولا أدري لماذا شبّهْتُ مانوشيان برئيس مهندسي الخدمة الهندسية العسكرية في لوائنا آردو خاجيكيان، طويل القامة، ضيّق الصدر، عريض الوجه مشرقه.

وذهبْتُ بالفعل إلى خاجيكيان.

ــ آردو، هل سمعت بإسمِ ميساك مانوشيان؟

ففكر برهّة وهزّ رأسه نفياً.

وعندما قرأ الخبر في الجريدة رفع قُبعتهُ وسألني بحزن:

ــ ها أنت ترى، إنّ أمثال هذا الرجل يرفعون شرف أمتنا عالياً.

في ذلك اليوم شرب آردو عرقاً. وشربنا نخب أخينا في الدم المُناضل ضدّ الفاشية واقفين.

نحن إخوة، نحن إخوة،

فرّقتنا الأعاصير...

الآن نحن في الرابع والعشرين من شباط. شهر وسبعة وعشرون يوماً وأنا في العشرين من العمر. كتابتي إعصار.

أنت وحيدي

اعتدنا مع الأيام على (بطالة) المعارك الدفاعية. ورحنا نتبادل الزيارات في الحصون والخنادق التُرابية والبيوت الأرضية. تأتي لزيارتي أحياناً شورا. تحمل لي في كلّ مرّة هدية، منديلاً مثلاً، أو قطعة قماشٍ بيضاء للياقة، تُثبِّتُها على سترتي بنفسها، بحيث لا تترك منها ظاهراً غير شريط رفيع أبيض.

وفي كلّ يوم سبت تقول:

ــ أعطني بياضاتك لأغسلها.

فأحتجُّ وأقول:

ــ لا. يكفي شورا. رعايتك الزائدة لي تُزعجني.

فتبكي، وأندم على قسوتي، ثمّ أعطيها بياضاتي لكي أُصالحها.

* * *

كلّنا الآن في شبع كامل. فنصيبنا من الخبز هو كيلو ومئتا غرامٍ، يزيد فنحتفظ بالزائد احتياطاً. ولكي لا يفسد، قطّعهُ ساخنوف وجفّفهُ ليصير بقسماط. لكنّه سُرعان ما ملّ من العملية، خصوصاً وأنّه لم يبق عنده مكان لحفظه. وفي أحد الأيام قال:

ــ يُمكن تحضير بيرة من بقايا الخبز، وتكون ألذ من صناعة المعمل.

تعجّبْتُ. وهل تسمح ظروفنا بتحضير بيرة؟ فسألته:

ــ هل أنت واثق مما تقول؟

ــ متى قُلْتُ شيئاً لستُ واثقاً منه؟

ــ حسناً. هيّا اصنع البيرة.

ـ هناك مواد ضرورية لصنع البيرة، لا تُصنع من دونها. هل عرفت؟ إنّها الخميرة.

واقترح عليّ أن أتركه يذهب إلى الخلف للبحث عن الخميرة وقال مُندفعاً:

ـ ليس الأمر صعباً، اتركني أذهب وسأُحضر الخميرة، ونبدأ بعدها بصنع بيرة تحمل علامتنا.

قلت:

ـ ونبادلها بالتبغ، أليس كذلك؟

ـ ونستطيع أيضاً أن نبادلها ((بلسان)) ألماني. وهذا من اختصاصك.

* * *

أرسلْتُ ساخنوف إلى الخلف للحصول على خميرة البيرة. أعطيته مالاً فلم يأخذ. بل قال:

ـ ماذا أفعل بالمال؟ لا يُعطون الآن شيئاً لقاء مال.

فأوعزْتُ إليه بأن يحمل معه شيئاً من غنائم الحرب التي وجدناها في حصون الألمان، فأخذ زوجاً من جوارب اللبّاد، ودِثاراً وخمسة أزواج من الأحذية وسراويل وقمصاناً، حشرها كلّها في كيس ومضى.

عاد بعد ثلاثة أيام ومعه الخميرة.

وقصّ عليّ ما جرى، فقال:

ـ اجتزْتُ النهر، وتعلّقْتُ بأول سيارة شحن صادفتها أوصلتني عند المساء إلى لينينغراد، فرأيتهم يعيدون بناء المدينة، والحافلات تعمل، والخبز يوزّع بالبطاقات، وقد عاد لون الناس إلى وجوههم، ولا ينقصهم إلاّ الوقود.

جمع ساخنوف بقايا الخبز، فحمّصه وطبخه، وملأ ألفية زجاجية خلط بها الخميرة وطمرها في التُراب وقال:

ـ نُخرجها بعد أسبوع.

ومع كل الجهد الذي بذله ليُعلمني طريقة صنع البيرة، لم أستوعب شيئاً مما كان يقوله لي. رُغم أنّه كان يُريدني من كلّ قلبه أن أتعلمها.

أخيراً قال يائساً:

ـ الصنعة كنزك اليومي على كتفك. ومع أنّك ذكي جدّاً يا صغيري، إلاّ أنني أستغرب لماذا لا تفهم هذا الشيء البسيط.

* * *

في الواقع كانت البيرة التي حضّرها ساخنوف مُمتازة جدّاً. شربْتُ منها خمس ليترات على ما يبدو، وأرسلْتُ قليلاً إلى آمر الكتيبة بعد موافقة ساخنوف الذي اشترط عليّ ألاّ أقول بأنّه هو الذي حضّرها. فسألته:

ـ لماذا؟ ليس فيما فعلت ذنب.

قال:

ـ إذا أخبرته يأخذني منك، يا بني، ويضعني عنده لكي أصنع له البيرة، أو قد يُرسلني هدية إلى الجنرال قائد اللواء.

قلت:

ـ وهل يسوؤك هذا؟ سوف تكون أكثر أمناً عند قائد اللواء بشكل أو بآخر، فلا تكون مُهدداً بالخطر، وتعيش في نعيم. هه؟ ماذا تقول؟

ـ إذا كنت لا تمزح، يا بني، فأنت تجرحني. لأنني لا أُريد فراقك. اعلم ذلك. أمّا إذا كنت أُثقِلُ عليك فهذا أمرٌ آخر.

دعوتُ شورا.

ـ تعالي اشربي معي بيرة.

وصرخَتْ عبر سماعة الهاتف:

ـ هل تمزح؟

ـ فلتبتلعني الأرض إذا كنت أمزح يا شورا. أنت وحيدتي، حبيبتي، روحي، نوري وراعيتي. تعالي.

البيرة هي التي تتكلم بهذه الجرأة. ساخنوف يضحك.

جاءت شورا، ونحن في السادس عشر من آذار. شهران وستة عشر يوماً وأنا في العشرين من العمر. كتابتي جريئة.

الربيع تحت الثلج

يقول ساخنوف إنّه الربيع، وأنا أضحك.

ـ أيّ ربيع تتحدث عنه يا رجل. يكون الربيع ربيعاً عندما تعود المياه فتجري كالمُعتاد، وترجع أسراب السنونو إلى أعشاشها، وتنتشر الخضرة، ويفوح أريج البنفسج بين الأحجار. أمّا هنا، فما زال الثلج إلى الركب.

ومع ذلك يصرُّ ساخنوف ويؤكد:

ـ ومن أعلمك أنّها ليست كذلك؟ انظر، ها هي غربان البذر تعود من الجنوب، وفي الهواء رائحة الربيع.

ـ حسنٌ. لك ما تُريد.

* * *

علمنا أمس، أي في التاسع عشر من آذار، أنّ القوات الألمانية، وبناءً على أوامر هتلر، قد احتلّتْ هنغاريا. فأثار النبأ العجب بين جنودي:

ـ إنّه يكاد يسقط سرواله وهو يهرب أمامنا، فكيف يحتلّ بلاد أُخرى؟!

لكنّها الحقيقة، فماذا نفعل؟ يُريد الرجل أن ينشر ((نظامه الجديد)) في تلك البلاد أيضاً. على كلِّ حال، لن يطول بقاؤه على ضفاف بحيرة بالادون.

* * *

اتبع جنودي في قصف مدافع الهاون خطة خاصة بهم. فهم يقصفون مواقع العدو على مساحة كيلو متر مربع مدة أربع وعشرين ساعة

أحياناً. ولا يقتصر همّهم في ذلك على إخراج العدو عن طوره، بل بالضغط عليه نفسياً، ولو كان يضجرنا، وبعد ذلك يحولون اتجاه قصفهم نحو اليمين أو نحو اليسار ويعيدون الكرّة في كلّ يوم.

ـ سوف نستلّ أرواحهم من أبدانهم.

* * *

جاءنا اليوم خبر مُفرح. أمس، السادس والعشرون من آذار، وصل جنودنا الذين يُحاربون في الجنوب إلى نهر برود، وهو الحد الطبيعي بين الاتحاد السوفياتي ورومانيا. وبعث فينا هذا النبأ فرحاً عظيماً، نحن جماعة جبهة نارفا. لأنّ ذلك يعني أننا نمضي نحو خارج حدود بلادنا.

فسألني جنودي:

ـ وهل سينتقل قتالنا إلى ما وراء الحدود؟

أجبْتُ:

ـ حتماً، إذ يجب القضاء المُبرم على بذرة الشر الهتلرية، لكي لا تقوم لهم قائمة بعد الآن. لا ينتهي قتالنا إلاّ في برلين، وبرلين فقط.

وحين وصلَتْ قواتنا إلى نهر برود ضحك ساخنوف وقال:

ـ ما أجمل هذا الإسم! برود تعني العصا الغليظة التي يستعملها الراعي لهش الكلاب والثيران. ونحن نفعل الشيء نفسه مع الألمان.

* * *

تأكدْتُ فيما بعد أنّه يوجد هنا في أستونيا شيء يُشبه الربيع. ففي هذه المنطقة المستنقعية الغابية المُحترقة يوجد ربيع. ساخنوف مُحق، فهو يرى الربيع بسرعة. إنّه يحلم في أن يكون له ربيع عمر. لذلك أطال شاربيه فإذا هما أحمران كثيفان غليظان. وراح يفتل نهايتهما ويوجّه النهايتين نحو أذنيه. لمحتُ فيهما شعرات بيضاء. وتُنبئ هذه

الظاهرة ببؤس داخلي كبير، لكنّه لا يُظهر ما بداخله، بل أراه عندما تأتي إليّ شورا يضرب الأرض برجله كلّما رآها. إيه، يا أخي المسكين، يا ساخنوفي اليائس. يبدو أنّك لم تشم يوماً رائحة جسم امرأة. كان من قبل، يحلق لحيته مرّة في الأسبوع تحت ضغط الأنظمة العسكرية، أمّا الآن فهو يحلق كلّ يوم تقريباً، ويخيط قطعة قماش بيضاء تحت ياقة سترته، فتُناسبه تماماً وتليق به وبشاربيه الطويلين وعنقه المتين. يُنظّف حذاءه بزيت الآليات. ومن يعلم بماذا أيضاً من العقاقير. وعندما يدخل إلى المواقع ينظر إلى الجنود نظرة استجداء.

ـ هيّا، ماذا تفعلون يا رجال؟ هيّا فلنعجّل بطرد هؤلاء الأوغاد أكلة مال الآخرين، ولتنته هذه الحرب عند بلوغي الأربعين على الأقل.

فيسألونه:

ـ ولماذا عند الأربعين؟

ـ لأتمكن من تشكيل أُسرة، إذ ينطبق عليّ بعد الأربعين المثل الذي يقول، لا يُخيف الأفراس شخير الحصان.

هذه صورة من حياتنا في مواقعنا الدفاعية في نارفا.

يقول ساخنوف لشورا:

ـ ما أقصر الحياة! أنت الآن صبية والمفتونون بك كثيرون، بينما أنا...

نحن الآن في التاسع والعشرين من آذار. ثلاثة أشهر ويوم واحد وأنا في العشرين من العمر. في كتابتي رائحة ربيع.

من أجل التاريخ

منذُ ثلاثة أيام والقوات الألمانية تشنُّ علينا هجمات مُستمرّة. إنّهم يستغلون وجود الثلج والجليد قبل الذوبان في هذه المنطقة المُستنقعية، ليخنقونا في هذا المركز الدفاعي الضيّق وإغراقنا في النهر. هم يريدون ذلك ولكننا لا نريد. ولا تسمح لنا ظروفنا الآن بتطوير انتصاراتنا وتوسيع رقعة دفاعنا، أو التقدّم زيادة. مهمتنا الآن تقتصر على المحافظة على الرقعة التي انتزعناها في شباط على الضفّة اليُسرى من نهر نارفا، على أرض أستونيا. مهمتنا المحافظة وانتظار اللحظة المُناسبة لنعود من جديد إلى هجومنا.

ضحايانا كثيرون. فنحن مُتجمعون في رقعة دفاعية ضيّقة بكثافة. نارنا أيضاً كثيفة. نصليهم بعشرين صاروخاً وقذيفة وقنبلة على كلّ متر مربع من الأرض. ومع أنّهم يقصفوننا بأكثر من ذلك، إلاّ أنّ مواقعنا حصينة. كلّما حاولوا رفع رؤوسهم للهجوم نُحطمهم، فلا يصلون إلى خصوننا. لقد بدأ الدفء، وصرت ترى جثث الأعداء على الثلج المُتميّع وعلى نقاط مُتفرقة منه.

* * *

ألقى علينا الألمان منشورات جديدة. هذا واحدٌ منها: إنّه نعوة عليها صورة مرسومة بالقلم للجنرال فادودي قائد أول معركة دارت في أوكرانيا. لقد سمعنا به من قبل، وقرأنا نبأ مصرعه على صفحات الجرائد. لقد جُرح فادودي في المعركة ومات في المُستشفى. حزنّا على موته. و((حزن الهتلريون أيضاً)) فها هُمْ، قد رسموه جريحاً مُستلقياً

على منصة العمليات، وقد غُرزَتْ في جسمه عدة سكاكين، وحوله أطباؤنا بستراتهم البيضاء وبزي يهودي. يقول أحدهم للآخر ((سوف يرضى الآن رئيسنا)).

يفهم من الصورة، أنّ رئيس مُستشفانا أمر الطبيبين اليهوديين بقتل ((الجنرال الروسي الكبير فادودي)) مثلما يطيب للهتلريين أن يزعموا. هذه فكرة سمجة واتهام غبي تفتق عن ذهن غوبلز القذر. هذه الصورة دلالة على ما يُعانيه الألمان من قهر وخوف وضياع.

إيه، ماذا نعمل؟

وجاء صاروخ آخر فيه منشور يقول: ((أيّها الروس: ستموتون كلّكم بدفاعكم الأحمق في مكامنكم)). ومع المنشور صورة أيضاً لرجل يضع نظارات على عينيه، بيده منجل يحصد القوات الذاهبة إلى جبهة القتال، وبجانبه تل من الرؤوس البشرية.

ما لنا ولهذا؟ نحن في مراكزنا الدفاعية نخنق هجمات العدو في مهدها. لا أدري كيف وصل إلى مركزنا الدفاعي مصوّر، جمعنا نحن الضُباط وصورنا. أُرسلَتْ نسخة من الصورة إلى البيت. سألت نفسي لماذا؟

ــ للتاريخ.

شيءٌ سخيف. حتامٌ يستمرُّ تاريخي؟ لا أعلم، فأنا شاب بدأ تاريخي مع بداية هذه الحرب الضروس الهائلة.

نحن الآن في الخامس والعشرين من نيسان. ثلاثة أشهر وثمانية وعشرون يوماً وأنا في العشرين من العمر. كتابتي للتاريخ.

دمٌّ أخضر

اخضرّتْ ضفاف النهر. برعمَتْ الأشجار الجريحة. لكن مازال الجليد قابعاً تحت الخرائب. جاءني اليوم ستة جنود كشّافة.

ـ هل اشتركتم في قتال؟

واحد منّا فقط اشترك. هو من منطقة إيفانوف. جُرِح عند بسكوف، وبعد شفائه أُعيد إلى الجبهة من جديد. عيناه خضراوان وهو شاب مسكين، ليتهم يعفونه من الخدمة ويُعيدونه إلى البيت.

بعد وصوله إلى مواقعنا بساعتين قُتل، فشعرْتُ بألمٍ عميق، وكأنني أنا المسؤول عن قتله. كثيرون قتلوا. لم أحزن عليهم مثلما حزنت على هذا المسكين. ما أصعب الدنيا، وأنت تنظر إلى شخص كنت تُحادثه قبل قليل وقد أصبح جثّة هامدة! ترى دمه ينفجر من جرحه، فتهملُهُ وكأنك لم تخسر شيئاً. نمسح بيدنا عينيه إذا سمح لنا الوقت.

ـ إيه، أنت...

لشد ما تعودنا على الأموات! لقد بلغَتْ بنا العادة أننا أصبحنا حين نرى جثّة صديقنا العزيز لا نفعل أكثر من إلقاء نظرة عابرة عليه ونمضي، ونكون أكثر إنسانية إذا تمكنّا، مع توفّر الوقت، من دفن هذا العزيز.

هذه هي حالنا مع الأموات. أمّا بالنسبة لهذا الولد فقد اختلف الأمر، إذ شعرْتُ بقلبي ينفطّر عليه. وتذكّرْتُ أخي الذي ضاع في الحرب. وراح مثلِ هذا الجندي ضحية فوق أرض قشرتها سوداء، وبطانتها الجليد المُتجمّد، ونباتها هذا القرّيص الوقح الذي مدَّ رأسه من خلل التراب المُتجمّد.

لم تطل مدّة تعرّفي على هذا الشاب أكثر من ساعتين، أصبح بعدهما جثّة في عينيها الخضراوين دم. ولأول مرّة أرى دماً أخضراً. قد يوجد، مَنْ يعلم!

* * *

أمس، التاسع من نيسان احتلّت قواتنا وحرَّرَتْ مدينة سيباسيتبول. أخيراً...

ما أروع هذه المدينة، الحصن البحري في القرم. لم ينزل إسمها عن أفواهنا منذُ عام واحد وأربعين. سيباسيتبول مدينة شُجاعة حقاً. قلت مدينة؟ خطأ، كانت مدينة، أمّا الآن فليس فيها بناء قائم. مثلها كمثل القسم الأكبر من مدننا التي غدَتْ خرائب وأطلالاً بفضل الفاشيست ((والنظام الجديد)) الهتلري، النظام الجديد الذي لا يُنتظر منه غير التدمير والقتل، الذي سبقه إليه آلب أرصلان السلجوقي في القرن الحادي عشر، الذي جاء هو الآخر إلى أرمينيا بنظام جديد، فهدم المعابد والمكتبات التي يزيد عمرها على ألف وثمانمائة سنة في آرمافير. ((نظام جديد)) جاء به واحد جديد اسمه آدولف هتلر بعد ثمانمائة سنة، أخذ على عاتقه التدمير والقتل. والعجيب هو أنّ مسيحنا يسوع الطيّب يبتسم لهؤلاء الهدامين!

* * *

استلمْتُ من البيت رسالة على ورقات قديمة، لكن لا يوجد قديم عندي، لأنني أقرأ كلّ ما تقع عليه عيني.

وجد ساخنوف بين خرابات الحصون الألمانية المُهدّمة كيساً أنيقاً مملوءاً بالخبز. إنّه خبز ألماني أسود، أرغفة صغيرة غُلّفَتْ بورق عازل يمنع البلل طبع عليه تاريخ ((1933)). خبز من إحدى عشرة سنة! منذُ عام ثلاثة وثلاثين وهتلر يُخطط لهذه الحرب التي قتلوا فيها هذا الجندي الإيفانوفي! يا ((للمدنية)) الألمانية.

لم آكل الخبز الذي وجده ساخنوف. لكنني لعقْتُ الورقات التي وصلتني من أرمينيا. الورق خشن وسميك أشبه بأوراق المسودة. ماذا فيها؟ تجميع دبابة ((دافيد الصاصوني))؟.

روحي فداكم يا إخوتي وإخواني. سلمَتْ أيديكم على ما صنعتم.

لقد جمع الأرمن في المُغترب أموالاً بوسائلهم الخاصّة، لشراء دبابة مُجمّعة من قطع خمسة وعشرين طرازاً للدبابات، وأرسلوها إلى بلادنا دعماً لجيشنا وإعراباً عن تضامنهم مع وطنهم ضدّ الفاشية. شيء مؤثر جدّاً. لم ينس الولد المُهاجر وطنه الأم. والأجمل، هو أنّ الدبابة تحمل إسم أعز بطل عند الأرمن ((دافيد الصاصوني)). ها قد عاد دافيد الصاصوني من أعماق السنين ليُدافع عن أرض الوطن المُقدّسة.

* * *

حسب تسلسل الرتب، حلّ في كتيبتنا نائب جديد لآمرها، هو قائد الكتيبة روتكون. رجل مُسن لطيف، ساقاه عجيبتان ملتويتان كقوسين. لماذا؟

يقول:

ـ ثلاثون سنة وأنا أخدم في قوات الخيّالة. أي إنني عشْتُ ثلاثين سنة على صهوة الحصان. أولاً في جيش بروسيلوف في حرب النمسا ـ ألمانيا، ثمّ في جيش الخيّالة الحمر، ثمّ... باختصار يا ولدي.

ضيفته عرقاً وبطاطا مسلوقة. كان مُكتئباً، لماذا؟ أبسبب كبر سنه أرسلوه إلى الجبهة؟ لا أدري. لكنّه يُضيف:

ـ هيّا، فلأذهب وأضع رأسي في مكان ما. الوداع يا خدمتي الحبيبة. لقد خدمْتُ وطني بإخلاص، ولن أبخل عليه برأسي، والله شهيد.

قبل رحيله استلّ سيفه من غمده وأمسكه أُفقياً وقال:

ـ لم يُفارقني منذُ حرب عام أربعة عشر. لكنّه لم يلزمني في هذه الحرب. أو بالأحرى، أنا لم ألزمه، فأنا عجوز. إيه يا ولدي. سوف أهديك هذا السيف، فلسوف أجتاز النهر وأذهب إلى البيت. لقد وهن منّي العزم ولا أُريد أن يهن عزم سيفي مثلي. لذا، خذه لك. إيه. إنّه وفي، وإن كان عديم الفائدة في القتال الحديث. أهبك إياه رمزاً، وعليك أن تُحافظ عليه مثل نور عينيك، ولتدُم حياتك.

قبّلْتُ السيف وقلت شيئاً لم أعه، لأنني تأثّرْتُ كثيراً. لا أذكر أنني تأثّرْتُ إلى هذا الحد في حياتي. قبّلَ صفحة السيف ثمّ غمده ثمّ قبضته، وأخيراً قبّلني أنا أيضاً وقال:

ـ هي الدنيا، لا سلطان لك عليها، يذهب واحد ويأتي آخر. الوداع.

وذهب يمشي مشية عسكري خيّال مُتمايلة. أو، ربّما بسبب الشيخوخة، من يدري؟

السيف طويل، مسحْتُ قبضتهُ. تآكل جلد غمده في محلاّت مُتفرقة منه، تشعر بحرارة فيه باقية من أيام حرب النمسا ـ ألمانيا. تُرى، هل أفقدُ أنا هذا السيف؟ لا، لا، يجب أن يبقى معي. لا تضعوه معي في قبري يا ناس، إذا كُتِبَ لي أن يكون لي قبر. وكتبْتُ رسالة إلى البيت أشرح فيها قصّة هذا السيف. فإن قُدِّرَ لي أن أضيع أنا وسيفي فلتبق قصّتهُ حيّة على الورق.

نحن الآن في الثامن عشر من أيار. أربعة أشهر وعشرون يوماً وأنا في العشرين من العمر. كتابتي كالخبز المقدّس.

ساخنوفي

((مضى الشتاء وجاء الربيع. ذاب الثلج وإمتلأ الجدول)). إنّها أُغنية قديمة شعبية. أمّا هنا، فمتى مضى الشتاء ومتى جاء الربيع؟ لا أعلم.

جاءنا الربيع بالهم.

بعد ذوبان الثلج ظهرَتْ في خنادقي تسع عشرة جثّة، إضافةً إلى أشلاء آدمية منثورة. ها هو رأس في الخندق المملوء بالماء يسبح تائهاً أمام حصني. لا أستطيع التمييز بين جثث العدو وجثث جماعتنا. لذا أمرْتُ بجمعها كلّها في مكان واحدٍ ودفنها. وجمعنا الأشلاء، يداً، رجلاً، أحشاء مُختلطة ودفنّاها أيضاً.

فتحنا قناة تصل بين الخندق والنهر للتخلّص من المياه الآسنة التي تملأ الخندق.

* * *

أخرج ساخنوف من قصعته شيئاً ساخناً قدّمه لي. إنّه يُشبه اليقطين المسلوق، ما هو؟ قال ساخنوف:

ـ هذا غذاء جيّد، كُلْ.

أكلْتُ، وانتشر في فمي طعم خشب جارح. ابتلعته على مضض، وصرخْتُ في ساخنوف:

ـ ما هذا الزبل الذي تُطعمني إيّاه؟

ـ إنّه زهر البطم، اعتدْتُ على أكله في سيبيريا. ماذا؟ ألم يُعجبك؟

ـ شريحة من لحم. هل عندك المزيد؟

ابتلع ساخنوف ريقه وقال:

ـ التعوّد عليه واجبٌ يا بني، وعلينا أن نعيش.

ها هي الخضرة النامية تنشر عطراً، والأشجار المُكسّرة تمدُّ فروعاً جديدة. وتتغطّى الحفُر بالحشيش الأخضر. علينا أن نعيش.

* * *

يغيب ساخنوف أحياناً مُدّة ساعتين، يعود بعدهما مُبللاً، بردانا. نهرته يوماً وسألته:

ــ أين تغيب أيّها الهر الخبيث؟

ــ في صدر الشيطان. ثلاثة أيام وأنا أذهب مع حاجبيّ آمر الكتيبة ويرين إلى النهر. نغطس تحت الماء. هل تذكر سيارات وعربات التموين التي غرقَتْ لنا في الشتاء؟ نحن نغطس تحت الماء أملاً في العثور على مُعلبات، أو زجاجات عرق.

منعتُه من دخول النهر وقلت مُبرراً:

ــ أنت مُسن، عظامك هشّة، قد تمرض.

ونظر إليَّ حزيناً.

* * *

عند المساء أيقظني ساخنوف قائلاً:

ــ استيقظ يا صغيري، جئتك بعرق.

ووضع على الطاولة علبة محفوظات أمريكية من الصفيح مع زجاجة من العرق الموسكوفي. فتعجّبْتُ كثيراً، من أين؟

ــ هل مدَّ جسر.

قال ساخنوف:

ــ أخيراً أخرجنا هذه من تحت الماء.

فقبّلته مُرطباً خاطره. وفتح علبة المحفوظات الأمريكية بسكين ألمانية، وقرَّرْتُ في الحال أن أُرشّح ساخنوف لمنحه وسام ((الرجولة)) فهو يستحقه عن جدارة.

لكن يُمكن أن أُفرحه بما هو أهم، وأوحيْتُ له مُلمحاً بذلك. فسأل:

ـ وما هو الأهم؟
بدلاً من أن أُجيبه سألته بدوري:
ـ في أي يوم من الشهر نحن اليوم؟
ـ مَنْ يدري، لعلّه السابع من حزيران، أو قد يكون السابع عشر، أنّى لي أن أعلم؟
ـ نعم، إنّه السابع من حزيران. وبالأمس، وبعد لأي، أنزل حلفاؤنا الإنكليز والولايات المتحدة قوّات في شمال فرنسا في نورمانديا، وبدؤوا قتالاً مع الهتلريين.
فهزّ ساخنوف رأسه وقال:
ـ فهمت، هذا يعني فتح جبهة ثانية في أوروبا ضدّ ألمانيا.
ـ هو ذاك.
ـ ومن لا يفرح لمثل هذا الخبر؟ هل أذاعته إذاعتنا؟
ـ ونائب آمر الكتيبة يرين، أيضاً.
لا أعلم إن كان هذا الخبر قد سرَّ ساخنوف أم لا، لكنّه كان واثقاً من نفسه في ذلك اليوم، ونام نوماً طويلاً.
أنا أيضاً مسرور. وإذ خانني النوم، دخلْتُ إلى مواقعي وأذعْتُ الخبر بين جنودي، وبيّنْتُ لهم أمر فتح الجبهة الثانية الذي لم يُصدِّقوه إلاّ بصعوبة، لأنّهم انتظروه زمناً طويلاً.

* * *

تهبُّ ريح حارّة من بحيرة جوت. فنحن في الصيف الذي تزدهر فيه الآكاسيا. ترفع الريح مياه نهر نارفا والأمواج فرحة تلطم الضفتين. نارفا نهر كبير، لا أستطيع أن أُعيّن الاتجاه الذي تجري مياهه إليه.
صارَتْ معارك الخنادق ((عادية)) إلى حد ما. فنحن والعدو نطلق النار شكلياً مثل من يؤدي واجباً مفروضاً عليه. وعند الطرفين اعتقاد راسخ، بأننا سننتصر، وأنّهم سينهزمون. هذا أمرٌ محتوم. وأيّ حتم، لقد ازورَّ إله الحرب عن عدونا. ونحن لا نريد إله الحرب هذا، لأنّه

ليس هو الذي قيّضَ لنا النصر، بل مركز قيادة كوبين والعمليات الحربية ((ملكة ساحة الحرب)) والمُشاة يقولون

((ملكة الميادين)). ما هي هذه الملكة الشريرة ساكنة الخنادق والمُستنقعات؟ المُشاة في هذه الحرب، هم الأكثر بذلاً، وقتلاً.

لقد اخترعوا هذا الاسم للتنفيس عن صدورهم.

نحن الآن في السادس عشر من حزيران. خمسة أشهر وتسعة عشر يوماً وأنا في العشرين من العمر. كتابتي فوق إرادتي.

أنا أضحك مُقهقهاً في وجهك

أيام مُمِلّة.

الألمان قابعون في خنادقهم يقصفوننا، فنردُّ عليهم بالمثل. القتال الدفاعي مُمل. أكاد أحمل رُشيشي وأذهب مع ساخنوف إلى مواقع هؤلاء الهتلريين وأصرخ فيهم:

ـ افرنقعوا إلى جحوركم يا أعداء البشرية. كفاكم ما ألحقتموه بنا من أذى. هيّا، أنا أُريد الذهاب إلى بيتي، لقد سئمْتُ أكل لحم الحصان.

* * *

أذهب لزيارة صديقي القديم إيفان فيليبوف. لقد عينوه آمراً لسرية مدافع الهاون. ثبَّتَ مركز مُراقبته على خط نار المُشاة، ومنه يُدير دفة القتال.

وكعادته احتفظ لي بنصيبه من الكحول والتبغ.

كلّ شيء عنده يسير حسب القانون والنظام، مع المُحافظة على الحياة الجبهوية القاسية. حصنُه متين لا خوف عليه، نظيف وجاف.

* * *

عند المساء كنت عند إيفان أيضاً. فقال مُتذمراً:

ـ ما أصعب أن نجلس بلا عمل! لماذا لا نهجم؟

أنا من رأيه. لكن، لا أنا ولا هو نستطيع أن نفعل شيئاً، فليس أيّ منّا القائد العام للجيوش.

أعطاني إيفان نصف ليتر من الكحول. كان نصيبه لمدّة عشرة أيام، احتفظ به لي، كذلك أعطاني نصيبه من التبغ. فلمّا قلت له إنني أثقلْتُ عليه ضحك:

ـ بالعكس، أنت تُخلصني من هذه الأشياء الضارّة.

في مركز دفاعنا سوق داخلية للكحول والتبغ. يوجدجنود لا يشربون ولا يُدخنون، فيُبادلون الكحول والتبغ بالخبز والسُكر. أنا أُبادل نصف خبزي بالكحول والتبغ، ولا يتذمّر ساخنوف مما أفعله، لأنّه يُعاني من نقطة الضعف نفسها، ويُضيف فيقول:

ـ نقتل المرارة بالمرارة.

شرِبْتُ الكحول الذي وهبني إيّاه إيفان من الزجاجة مُباشرةً، فصاح مُحذّرا:

ـ هذا انتحار يا رجل.

قلت:

ـ خيرٌ لي أن أقتل نفسي من أن يقتلني العدو.

لكن الحق مع إيفان. لماذا أُسمم نفسي، وأموت دون أن يستفيد من موتي أحد؟ ثمّ إنني في العشرين من عمري بعد، ولشورا أحلامها...

اعتذرْتُ من إيفان وخرجت.

* * *

الظلام دامس، وقد يكون من الضباب الذي ينبثق من رأسي. أمشي. لكن ما هذا؟ لماذا أمشي ولا أصل؟ وطيّر السؤال الكحول من رأسي.

سمعْتُ صوتاً، فوقفتُ تحت شجرة أتنصّتْ. الصوت قريب منّي، وهو بالألمانية. ألصقْتُ ظهري بالشجرة وتحفّزت.

في حفرة قريبة جدّاً ألمانيان يصلان أسلاك هاتف، أو يقطعانها، لا أعرف. عندما رأيتهما في الظلام طار ضباب الكحول من رأسي تماماً، وعدْتُ يقظاً خفيفاً. لقد أصبْتُ إذ التصقْتُ بالشجرة، فبذلك لا يراني الألمانيان. لكن أسأتُ إذ لم أحمل معي من السلاح غير مسدس عادي ورُمانتين صغيرتين مُعلقتين على حزامي.

من حولي أغصان أشجار مُكسّرة. دمي مُتجمّد، آه يا أُمّي العزيزة، دخلْتُ إلى مواقع الألمان وأنا في حالة السُكر.

يقولون إنّ السكران يرى البحر بمستوى ركبتيه. فلأُجرّب.

مازال الألمانيان في الحفرة. ومازلتُ لا أعرف موضعي ولا إلى أيّ إتجاه أمشي. الوقت ليل، وبوصلتي ليست معي.

كان أبي يقول: ((بعد كلّ حال عسير يُسر. إمّا الموت أو الخلاص)). الآن رأيت النقيب كوبين يُطلق قذائف من مدفع (هاوب) من مواقعنا، ورأيتُ اتجاه النار وعرفت وجهتي.

فككْتُ الرُمانتين، واقتربْتُ من الحُفرة بخفّة وألقيتهما فيها. انفجرَتْ الحُفرة...

خرج أحد الألمانيين زاحفاً. إذن هو لم يُقتل. أردْتُ إفراغ مُسدسي في رأسه، لكن خطر ببالي شيء آخر.

ــ ارفع يديك.

فرفع يداً واحدة، إذ كانت الثانية مكسورة. حشرْتُ قفّازي في فمه ودفعتُه أمامي قائلاً:

ــ امش أمامي تبق حيّاً.

فهِمَ لُغتي، ولم أنتبه إلى أنني خاطبته بالأرمنية. لكن كانت حاله في بؤس يَجعله يفهم حتّى لُغة العصافير.

أسرعْتُ نحو صوت مدفع كوبين، والألماني يركض أمامي مكسور اليد، مُنتعشاً حائراً.

شممْتُ رائحة دُخان، ورأيتُ مواقع فيليبوف. صحت:

ــ النجدة...

وعرفْتُ إيفان. حالما رأيت جماعتي، عاد الكحول يغلي في رأسي وبدأ الغثيان في معدتي.

* * *

.... لا أعرف متى استيقظْتُ من نومٍ كالأموات. لاح لعيني وجه إيفان الخائف بين ضباب الكحول، وسألتُ:

ــ هل نمْتُ طويلاً؟

أجاب بخبُث:

ـ ست ساعات ونصف الساعة تماماً.

ـ هل ((لساني)) حي؟

ـ ماذا يعنيك إن كان حيّاً أو ميتاً؟ ما يعنيك هو أنّك لن تنال كحولي بعد اليوم. لسوف أهدره ولا أُذيقك منه قطرة.

ولم أجد ما أُبرز به ما فعلت، أردْتُ أن أبكي. آه لو تلمحني شورا. كادت نهايتي أن تكون غير مُشرِّفة.

نحن الآن في الثامن والعشرين من حزيران. ستة أشهر وأنا في العشرين من العمر. في كتابتي سُكرْ.

لحمٌ مقليٌّ

يميلُ رأسي إلى أسفل من دون إرادتي، وفجأةً، أرى طائرة ألمانية تطيرُ مُنخفضة جدّاً، مُتجسمة. تبدو وكأنّها تحصد ذُرى الأشجار بجناحيها.

تمالكْتُ نفسي، ومن دون أن أتخفّى أخذْتُ سلاحي وأطلقْتُ النار على هذا الوحش. كان صوتها مُخيفاً تقريباً.

ولاحظْتُ في الأفق تحركات غريبة.

يبدو أنّ الهر الألماني يستعد لهجوم. وما عندنا بعد ممر آمن على النهر الذي ذاب جليده.

مياه نارفا ترتفع بالفيضان يوماً بعد يوم. أمّا الذخيرة والغذاء فتصلُنا على زوارق تمخر عبابه في الليل فقط، يغرق منها واحد من اثنين في أغلب الأحيان.

حليفنا وحيد، وهو المُستنقع الذي يقف حائلاً أمام دباباتهم دون الوصول إلينا. بعد ذوبان الثلج تشكّلَتْ هناك بحيرات في أماكن مُختلفة.

* * *

من قيادة اللواء جاء إلى مواقعنا قائد كتيبة، ((شيخ)) طويل القامة له شاربان طويلان. ولمّا كان من الخيّالة القُدامى، فهو يضع على حذائه مهمازين، ويحمل في وسطه سيفاً. جاء ومعه طبّاخه، ((شيخ)) مثله، كنيته مُضحكة: كولوبوز. وكان رجلاً يُحبّ المُزاح كثيراً.

قال:

ـ هيّا يا أولاد، فلنوجّه ضربتنا إلى الألمان.

بدأ هجوم الألمانيين المُعاكس، ودخلنا نحن إلى حصوننا حسب العادة. العدو مُتمركز بين الأشجار والمُستنقع، أراه وأعرفه خطوة خطوة.

أول ما فعلناه هو أننا نسجنا في وجهه ستارة من نار عظيمة بمدافعنا، خنقتْ هجومه في جُحره.

* * *

ثلاثة أيام والعدو يُهاجم ونحن نصدّه.

ثلاثة أيام لم نستلم غذاء ويكاد الجوع يقتلنا، فصاح قائد الكتيبة بطبّاخه كولوبوز:

ــ متُّ من جوعي، هات لي شيئاً آكله.

فخرج كولوبوز من الحصن زاحفاً وذهب، ولم يعد. هل قُتل يا تُرى؟ لا، لم يُقتل، ها قد عاد عند المساء زاحفاً أيضاً. وأخرج من جعبته لحم حصان طري فاستغرب الجميع وتساءلوا عن مصدره فأجاب:

ــ من المنطقة المُحايدة. جمح حصان أحد الألمان وجاء إلى مواقعنا وقُتل. ولمّا وصلْتُ إليه كان قد بقي منه هذا القدر فقط، فحملتُهُ وجئْتُ به.

ثمّ عمد إلى نار أشعلها في الحصن نفسه، وشوى لحم الحصان الطري على صفيحة صدِئة. أمّا قائد الكتيبة، فكان فخوراً بما فعله طبّاخه، وقال فرحاً:

ــ أنا لا أُبادل كولوبوزي ولا بالفيلد ماريشال كوتريان.

قسّمنا لحم الحصان المشوي بالتساوي، وأكلنا بشهية زائدة ونحن نُثني على الطبّاخ. وازداد بذلك فخر قائد الكتيبة فقال:

ــ كولوبوزي كنز. أطعم رعيته مثل يسوع المسيح.

بعد نصف ساعة بدأتْ معدة قائد الكتيبة تُقعقع. ولم يعرف ((الشيخ)) المسكين إلى أين يهرب. فالموت يتربّص في الخارج، والجنود في الداخل. لذا صاح مغلوباً على أمره:

ــ اللعنة عليك يا كولوبوز.

وفيما هو يُعاني من المغص الشديد كانت القذائف ترتطم على سطح حصني. فينهال التراب وتُصَمُّ الآذان، ونترنّح. ويتعذّب قائد الكتيبة ويصيح:

ـ آه، يا معدتي، إنّها تحترق. آه، اللعنة على لحم حصان كولوبوز.

* * *

هدأَتْ حدّة القصف. فأسرعْتُ إلى مواقع إيفان فيليبوف. عليّ أستطلع أخبار شورا، لأنّهما جاران.

وصلْتُ إلى خندق إيفان وصُعقت. جسم إيفان مُمزّق. وقعَتْ فوق حفرة مأمنه مُباشرةً قذيفة قطّعَتْ أوصاله. أغمضْتُ عيني ولم أتمكن من النظر إلى جسد صديقي الطيّب الودود المُمزّق. لكنني قاومت، ولففتُ أجزاء جسمه بدثاري ودفنته.

أجل دفنته. تُرى هل يوجد من يدفنني إذا قُتلت؟

* * *

عاد الألمان إلى الهجوم المُعاكس من جديد.

ومازلنا نتنفّس بعض الشيء. قاتلنا ثمانية أيام بضراوة، ولم نتنازل للعدو عن شبر واحد من الأرض. ولكن جهاز كتيبتنا البشري قد تضاءل إلى الثُلث بعدما استشهد اثنان من كلّ ثلاثة من العناصر.

* * *

لا شيء يدعو إلى العجب أبداً. ولا يغيب عن بالي رفيقي المُلازم إيفان فليبوف أبداً. فكلّما حاولتُ النوم على التراب الهش في الخندق أو على الخشب القاسي في البيت الأرضي يتراءى لعيني طيف إيفان بقامته المديدة يسألني: ((هه، كيف حالك، أمازلت تشرب؟)). وأُجيبه: ((لا، لا يا إيفان، لا أشرب، لا أشرب إذ لا يوجد عندي

مشروب بعدما رحلْتَ أنت. ألا قُل لي، لماذا قُتلت؟ فيردّ عليّ: ((ما كنت أُريد أن أُقتل، ولكن حصل. وعليكَ الآن أن تبقى أنت حيّاً)).

أنا حي يا عزيزي، حي.

وقرّرتُ أن أكتب رسالة إلى أهل إيفان. فلا شكّ في أنّهم قد تبلّغوا الآن خبر موته على ورقة خاصّة، مطبوعة، لا تُستعمل إلاّ لتنهي وجود إنسان في الدنيا، مع بعض كلمات النعي. ولكن أين تُطبع هذه الأوراق؟ ومَنْ هنَّ البنات اللواتي يصففن حروفها وهنَّ يبكين حتما؟

كتبتُ رسالة أقول فيها:

((أعزائي، أبا وأُم إيفان آفاناسييفيتش فيليبوف، أهلي الأعزّاء الغاليين، مرحباً بكم. أولاً، أرجو ألاّ تبكيا، فهذا لعمري غير مجد. من طبعي ألاَّ أُسبب ألما لأيّ إنسان خصوصاً لأهل رفيقي الطيّب إيفان. لا شكّ في أنّكم استلمتم ورقة نعي ولدكم، وأنّكم بكيتم عليه كثيراً. لا تبكيا بعد الآن عزيزي الأب والأُم. ليس لي أب، فلقد مات منذُ سنوات عدّة، وهو لا يبكي عليّ بالطبع إذا استلم مثل هذا الخبر الأسود عنّي، لأنّه لن يستلمه أصلاً. فهو غير موجود.

إذن، يا طوال القامة الأعزّاء، قد كان عندكم ولد طيّب جدّاً ورحل. وحين يجيء مثل هؤلاء الأبناء الطيبين إلى الدنيا يملؤون مكاناً شاغراً في أرواح معارفهم. كان إيفان رجلاً شُجاعاً جدّاً. وكلمة شُجاع نوع مُستحدث من الأوسمة، فكل مُشترك في الحرب ولو ليوم واحد شُجاع. قتِلَ إيفان في ميدان الحرب في نارفا، ولم يكن يُفكر بالموت، لأنّه كان ينصح لي بالإقلال من شرب الكحول، بل الإقلاع عنه نهائياً، لأنّه كان يخاف عليّ أن أذهب ضحية مُصادفة عمياء وأنا في حال السُكرْ. كنت أُحبُّ ابنكم إيفان حُبّاً جماً، إذ لم أُصادف في حياتي مثله نقاءَ روحٍ، ووطنية، بالرغم من تجاربي الكثيرة. كان إيفان بحرارة روحه يُدفئ قلوب الناس، فأحبوه كلّهم. كان يحكي أساطير عن مدينتكم (ستاريا روزا) وكأنّه مُقيم بها. ومن حكاياته تصورتها واضحة وضوح وجوهكم المحبوبة. يا أبت، وأظنك تُشبه أبي شبهاً كبيراً، أو هكذا يُخيّل لي. قلت لك أنْ لا أب لي، ولا أُريد أن أتخذ بدلاً منه أباً، ولكنني أُريدكَ أنت يا أبا إيفان أن تعلم أنّ الأبناء

يُحبّون آباءهم كثيراً. وعليه كان إيفان يُحبّكم كثيراً وبلا حدودٍ لحبّه. علمْتُ ذلك مما كان يحكيه لنا عن مآثركمٍ التي يرويها مُقتضبةً تخفي وراءها الحبّ الكبير الذي لم يكن واجباً أبوياً وحسب، بل كان شيئاً آخر أسمى بكثير، قد تكون ميّزة اختصّ بها جيلنا فقط.

البقاء لكم إذن، وأرجو ألاّ تبكوا. فإيفان، ما كان يُحبّ البكاء أياً كان سببه ــ جرح أو موت أو نعي.

إذا قلت إنني أحتفظ بذكرى حارّة لإيفان فقولي لا يفي المعنى حقّه. أنا لا أستطيع نسيان ابنكم إيفان. أنا لن أنساه أبداً. والآن وأنا أكتب لكم هذه السطور أُريدكم أن تُصدّقوا دون تحفّظ، أنّه كان حبيباً لي. أنتم لن تنتظروه طبعاً. ولكن تحدث في الحرب مُعجزات ومُفاجآت لا يتوقعها إنسان، فقد يرجع حيّاً مَنْ اعتبر ميتاً زمناً طويلاً. لكن لن يحدث مثل ذلك مع إيفان مع الأسف لأنني دفنته بيدي، ولا أستطيع أن أُنكر هذه الحقيقة. كذلك لا أُريد أن أؤكد لكم أنني سأزوركم عندما تنتهي الحرب، وأنّي سأرى بلدكم وبيتكم وأطّلع على غرفة إيفان وعلى الأشياء التي خلّفها وأواسيكم. أولاً، لأنني لا أملك أن أعرف أنني سأبقى حيّاً أو لا. وأيّة مواساة أحملها إليكم من دون حبيبكم. وقد أكون أنا بحاجة إلى مَنْ يواسيني على ضياع إيفان الذي كان لي رفيقاً عظيماً جدّاً.

والآن، إلى اللقاء يا أبت ويا أُمّي العزيزين. أعمالنا كما تقرؤون في الصحف موفقة. تتمُّ بنجاح. وما ذلك اليوم الذي تتبلغون فيه نبأ انتصارنا ببعيد. سوف تتبلّغون نبأ نصرنا الكامل الذي فيه الشيء الكثير من عمل إيفان. لقد عاش لينتصر على العدو. ومات لكي يقضي على العدو، ويتنفّس وطننا نفساً حُرّاً من فرحة النصر. سوف أجيء إليكم لكي أحمل إليكم أو أُريكم قبر إيفان)).

وأرسلْتُ الرسالة فعلاً.

* * *

يُعزّينا شيءُ واحد، هو أنّ سلاحنا الهندسي تمكّن من إقامة جسر من الزوارق على النهر، فتوفّر لنا الخبز والتبغ، وابتسامة شورا وهي تقول:

ـ كنت أُصلّي لك كي تبقى حيّاً.

أنا أنظر إلى حُطام الربيع، وأرى مياه النهر بجانبي تجري غزيرة قوية والحمرة القانية على ضفتيه.

* * *

استلمنا حصّة مُضاعفة من العرق والغذاء، ونحن الآن شبعانون. ملأ ساخنوفي كأسين من العرق لي ولضيفي الأستوني، يصبُّهُ ويتأسّف عليه، قرعْتُ كأسي بكأس المُهندس وقلت:

ـ نخب هذه البُقعة الصغيرة المُحرَّرَة من أرض أستونيا.

فأضاف:

ـ ونخب أرمينيا أيضاً. أهي بعيدة؟

ـ لا إنّها هنا.

وخبطْتُ على الأرض برجلي.

وتبادلنا القُبُلات.

* * *

البقاء في مكان واحد مُمل، حتى لو كان في حدائق بابل المُعلّقة وقت إزهارها. نحن مُستاؤون لأننا لا نتمتع بغير حفنة تُراب، ومركز دفاع منكوش. الغابة كالحدأة التي نُتِفَ ريشها، نتنة بالجيف والدم بما لا يُطاق. في كلّ مساحة إصبع من الأرض توجد قطعة من فولاذ، قنبلة أو شظية من قذيفة أو رصاصة.

عند فتحة نافذة حصني نبتة مُختنقة، على رأسها دم مُتخثّر.

على يميننا تقع مدينة نارفا المهدومة، مسلوخة مثل آني أو مالايا فيتشيرا أو فيليكوى لوكي(*). كان خجادور آبوفيان أبو الأدب الأرمني الحديث قد خرج من بطرسبورغ إلى نارفا ليدرس في جامعة تارتو ــ تورباد، وحذا حذوة توتوخيان. وقد يكون هناك مسقط رأس أول قصصه ((صدح السنونو)).

اهترأت الخريطة التي خبأتها في قبوي. لكنني لا أرميها. فالحلقات السوداء التي كانت تشوهها بدأت تزول رويداً رويداً. وأرسم بدلاً منها دوائر حمراء لأنّها مُحرَّرة. ولقد أصبحت الدوائر الحمراء كثيرة كثيرة. وها هي (مينسك) تتحرَّر في الثالث من تموز، تبعتها (فيلنوس) بعد عشرة أيام. كلاهما عاصمتان.

نحن الآن في التاسع عشر من تموز. بعد خمسة أشهر وتسعة أيام أبلغ الواحد والعشرين من العمر. كتابتي ناضجة.

(*). أسماء قرى ومدن معروفة. م.

الحرُّ مُزعج

أحسبُ وكأنني في سهل آرارات. ما أشدّ هذا الحر وما أثقله! نزلْتُ إلى نهر نارفا واغتسلتُ في مياهه نصف ساعة والقذائف والقنابل تسقط في مياه النهر غير بعيد عنّي، فترتفع شآبيب الماء إلى السماء. ولكن لِمَ كلْ هذا القصف؟ لقد رآني الألمان ولا شك. هكذا يبدو.

ــ لعنةٌ على هركم، ما لكم تُلاحقونني؟

خرجْتُ من النهر وأسرعْتُ إلى مواقعي حافياً، فرأيْتُ ساخنوف ينتظرني. ارتديت ثيابي واقتربْتُ من مدافعي مُسترطباً وصحت:

ــ باسم الحرب... انتباه، نار...

ولعلعَتْ مدافعي في حبور. ــ من كلّ فوهة عشر قذائف وبسرعة، نااار....

لقد تمرّس جنودي على إطلاق النار، وهذا يُفرحني. مدافعي مُختبئة في حُفر على شكل أنصاف دوائر، ليست واسعة، لكنّها عميقة. فلو وقف أطول جندي عندي لما وصل رأسه إلى حافة الجدار. ولقد تمّ ربط حُفر المواقع هذه بخنادق ضيّقة تتسع لمرور شخص واحد فقط، خوفاً من أن يملأها ما يذرو من التراب، ودعمتها بالأخشاب وأغصان الشجر المتينة.

كلّ شيء على الأرض أخضر، لذلك أمرْتُ بستر أسقف البيوت الأرضية والحصون والخنادق والممرّات بالخضرة، فلا يُرى من الجو إلاّ كلّ شيء أخضر.

الأصول أن يضطلع بكلّ مدفع ستة جنود، لكن ليس عندي سوى ثلاثة لكلّ مدفع، واحدٌ يُسدد الهدف ويُلازم المنظار. والثاني يُقدّم القذائف، والثالث يُطلق النار، يضع القذيفة في فوهة أنبوبة المدفع ويسحب يديه ويرتدُّ إلى الوراء ويصيح:

ـ نار.

عندما يفلت القذيفة تصطدم بقعر الأنبوبة بثقلها فتُصيب الإبرة ويتمّ الانفجار. وتندفع القذيفة خارجة من الأنبوبة مُخلّفة دُخاناً خفيفاً وتطير بشكل حلزوني وتسقط حيثما تُريد على الهدف.

كنت مُتحمساً، وأوعزْتُ بإطلاق النار من ستة مدافع تقذف ستين قذيفة في دقيقة واحدة على العدو، حسب المسافة التي نُقدرها وهي تتراوح بين سبعين متراً وثلاثة كيلومترات.

من بين هذه القذائف الكثيرة، أُطلقت من المدفع بجانبي قذيفة ترتفع ببطء زائد، كالحيّة تخرج من حجرها مُخلّفة دُخاناً وصفيراً غريباً. لم تنطلق وتطير في الجو وتذهب إلى هدفها كالعادة، بل سقطَتْ ببطء على الحاجز الترابي المواجه للموقع وبدأتْ تنفث دُخاناً وترتعش في مكانها. ذُعر جنودي وذُعرْتُ معهم. لكن لا وقت لدينا للذعر. فانقضَضْتُ وأمسكْتُ اللغم بيدي وبطرفة عين قذفْتُ به إلى الطرف الثاني من الحاجز، وأنا أصيح: انبطاح.

ـ انبطاح...

وارتميْتُ أنا أيضاً في الحُفرة وانفجر اللغم وصمّ الآذان، والحمد لله زال الخطر. فقال أحد الجنود فرحاً:

ـ ماذا؟ هل تلعب لعبة الاستخفاء؟

جاء نائب قائد الكتيبة يرين، ورأيت كلّ شيء فيه يبتسم، عينيه الضيقتين وشفتيه الغليظتين وكرشه المكوّر. فشرحْتُ له سير العمليات الحربية، وحكيْتُ له الحادث قائلاً:

ـ لم تشتعل القذيفة تماماً، وما هو إلاّ القليل حتّى كادت أن تقضي علينا نحن الأربعة، وتأخذنا معها إلى الآخرة.

ـ لا سمح الله، ولكن هل سمعْتَ بالجديد؟

ـ لا، ما هو الجديد؟

ـ جرَتْ أمس في العشرين من تموز محاولة لقتل هتلر.

ـ هل فطس؟
أخرج يرين سيجارة من جيبه وقال:
ـ لا، مع الأسف. هل تحسّون بالحر؟
ـ النهر قريب، نتبرّد في مياهه أحياناً.
فقال يرين عابساً:
ـ أمنعكم. لقد زرع الألمان في مائه ألغاماً عائمة. تنفجر فتهلكون. أمّا هتلر فحظّه عظيم. كانت في تلك الحقيبة التي سيُقدمونها له قُنبلة موقوتة، تأخر في استلامها، فانفجرَتْ قبل أن تصل إليه.
قلت:
ـ يظهر أنّ الله قد أبقى على أدولف هتلر لكي تُزهق روحه تحت دبابة.
ـ ربّما، لكن كان يُحسِن لو يموت. إذن لتبدّلَتْ أمور كثيرة في العالم. وانتهت الحرب بسنة واحدة.
ـ وهل ستطول حربنا سنة أُخرى؟
ـ أظنُّ ذلك.
الخبر مُفرح، لأنّه يدلّ على وجود أُناس في ألمانيا ضدّ نظام هتلر ويُريدون موته. ما هي حكمة الله في ذلك؟ لماذا لم يُيسّر محاولة اغتياله؟ إذا استمرت الحرب سنة أُخرى، ألا يموت فيها عشرة ملايين من الناس على الأقل؟ قد يكون منهم ساخنوفي، أو أنا، أو صاحب السعادة يرين.
ذهب يرين بعد ذلك إلى مواقع المدافع الرشاشة، فشيّعته طويلاً بأنظاري. لم تنجح محاولة قتل هتلر، ولا شكّ في أنّهم قد أعدموا المُحاولين. لكن لم تُخفق مُحاولة أخي في الدم سوغومون تهلريان في قلب برلين حين صاح بطلعت باشا في وسط الشارع العام:
ـ طلعت باشا، انسحبْ فأنا أرمني.
وأطلق رصاصات على رأس الباشا الذي يُشبه البطيخة.

كان طلعت باشا هذا اتفق إفق معِ القيصر الألماني ويلهلم على إبادة الشعب الأرمني فوق أرضه وترابه. ونفذوا المجزرة الرهيبة.

وهتلر هو وريث طلعت وويلهلم.

يوجد في الدنيا أشخاص من نسل الشياطين.

ولقد خرّب أحد أبناء الشياطين نصف الدنيا.

ـ عشر قذائف طلقة واحدة، ناااار...

واستمرّ بإطلاق النار على مواقع الهتلريين بانتظام.

* * *

الحرُّ يؤذيني كثيراً. لذلك جاءني ساخنوف بوعاء كبير فيه ماء مغلي، وطلب منّي أن أشربه كلّه لأنّه يُخفف من وطأة الحر، فشربته كلّه دفعة واحدة. والآن تشتهي نفسي نبيذاً. ولكن من أين النبيذ؟ عندما كنت مُعلماً، وأشتهي النبيذ، كنت أُرسل التلاميذ على حصان إلى قرية ماغنجوغ المشهورة بصناعة النبيذ ليُحضروا لي منها ما أُريد، فتُعارض مارو:

ـ قللْ من الشرب وإلاّ...

ـ وإلاّ تبتعدين عنّي؟ هيّا ابتعدي منذُ الآن.

فتبكي مارو وأضحك أنا في وجهها. لماذا تذكّرْتُ مارو الآن؟ ألم أنسها مثلما نسيت طعم ماء النبع القريب من بيتنا. هنا المياه تُشكّل مْستنقعات.

نحن الآن في الثاني والعشرين من تموز. بعد خمسة أشهر وستة أيام أبلغ الواحد والعشرين من العمر. كتابتي حرّانة.

يحدثُ هذا عند الفجر

الانفجارات في المواقع هي هي، لم تتغيّر. أمّا الكسوة الخضراءِ التي كسونا بها المواقع قبل أسبوع فقد أورقَتْ وإزدادَتْ اخضراراً دون تدخلنا. ثمّ تتفتّح من هذه العشبة زهرتان صفراوان ذات رؤوس كروية. ولفَتَ انتباهي قريباً منهما وجود حشيشة الحمّاضة ذات الساق الأحمر، وهي تفوح شذى طيباً، فسال لُعابي، لكنّي أبيْتُ أن أقتلعها بعدما شمتْ رائحة الحياة. لقد جاء جنودي بهذه الحشائش بعد ما اقتلعوها بالمجارف في الليل من مكان يبعد ثلاثمئة متر إلى يمين مواقعنا، ونثروها هنا على الأرض الجرداء لتمويه مواقعنا الجديدة، لئلا يكتشفها العدو. وهكذا تسترنا بالخُضرة، فالخُضرة إذن تُساعدنا.

خطرَتْ في رأسي فكرة رحْتُ أضحك منها. فكرة مُضحكة، ولكن إيّاك يا إنسان أن تضحك منها، لأنني أضحك من نفسي، لكن لا أُريد أن يضحك منّي غيري. الفكرة هي أنني أردْتُ أن أكتب رسالة إلى ولدي المُستقبلي.

فكتبْتُ: ((ولدي الحبيب، مرحباً بك. ها أنت الآن في الثانية من العمر، وبدأت تفهم شيئاً من الحياة. فاعلم إذن أنّ أباك هو الآن في حرب مع الفاشيست ولكن لسْتُ وحدي طبعاً، كما أنّك أنت أيضاً لسْتَ وحدك. فإذا سألك أحد أين أبوك؟ قل له بشجاعة إنّه يُحارب في سبيل الوطن ضدّ الفاشيست.

ــ وماذا يعني إذا كان يُحارب.

قل له: ــ سوف ينتصر، لأنّه ليس وحده في الميدان ولأنّه يُحبّ وطنه. يجب عليك يا ولدي أن تحتفظ بهذه الرسالة في مهدك، حتّى إذا ما عُدْتُ...

ويسأل ولدي: ــ ولماذا لا تعود؟

ــ أنا أُريد أن أعود، لكنّها الحرب، جبهة القتال، فيها يُقتل الناس. لقد ولدْتُ مثلك بناءً على مُتطلّبات الزمن، وها أنا أُحارب ضدّ عدو الوطن. أنا أُحبُّ وطني كثيراً يا ولدي، فهذه أرضي، وهذه سمائي. ولا أستطيع أن أُفكّر بغير ذلك. أنا مواطن في بلد رفيع السمة، غير قابل للمُبادلة أو المساومة، إنّه الإتحاد السوفياتي.

فأحبب وطنك منذُ اليوم، وافهم يا بني أنّك من دونه لا يكون لك كيان أو روح بين الناس. وأنا أُريد أن يكون لك كيانك وروحك مثل جنودي المحاربين المُتحصنين في الخنادق المُتسترين هنا بالخُضرة. كما أُريدك يا ولدي أن تكون عسكرياً، هل تسمعني؟ ستنتهي هذه الحرب بانتصارنا لأنّ الحقّ معنا، ولا بدّ للحقِّ أن ينتصر. لكن لا تنتهي الحرب بانتهاء حربنا، فقد تندلع حروب أُخرى يُشعلها أشرار لا نعرفهم، فكن مُستعدّاً للدفاع عن وطنك في أيّ وقت وأيّ مكان وكلّما تطلّبَ الواجب منك ذلك)).

ها هو ساخنوف يحمل صندوقاً من الألغام ويأتي به إلى الخندق. لا بدّ أنّ هناك عربات قد وصلَتْ من الخلف تحمل الألغام. ساعدته على إنزال حمله. ولمّا أراد أن يعود لإحضار المزيد أعطيته سيجارة وقلت:

ــ دخّن، واسترح قليلاً. هل تعلم ماذا أكتب؟

ــ تكتب رسالة طبعاً.

ــ نعم، ولكن لمن؟

هزّ ساخنوف كتفيه مُشيراً إلى أنّه لا يعرف. بينما راح يُدخّن دون شهية ويلهث من التعب.

ــ أكتب رسالة إلى ولدي.

فانفرجَتْ أسارير ساخنوف مُتعجّباً وقال:

ــ أيّ ولد وأنت غير متزوج أصلاً؟

ــ نعم، ولكنني أكتب لولدي في المُستقبل.

فنظر إليّ ساخنوف آسياً، وهو يظنني قد فقدْتُ عقلي:
ــ ومَنْ هي أمُّ ولد المُستقبل هذا؟
ــ مارو، فهي تنتظرني.
ــ وشورا؟
اضطربْتُ وهربْتُ منه بأنظاري وقلت:
ــ يُمكن أن يكون من شورا. لكن سيان. فأنا سأُرزق بولد وهذا يكفي. ولماذا يكون لي ولدٍ؟ هه يا عجوز: لماذا؟
ردّ ساخنوف ساخطاً:
ــ إيه، يا ولدي، لماذا لا تُريد ولداً؟ لماذا؟ أنا أُريد أن يكون لي ولد. لكن ما هذه الأفكار التي تُراودك في مثل هذا الوقت؟ أنا لا أفهم كيف يكتب رجل لم يتزوّج بعد رسالةً إلى ولده، أنا لا أُريد أن أقول لك: تريّث حتّى تعود إلى البيت سالماً، فليس هذا بيدنا، ولا نعلم من يبقى منّا حيّاً. لكن ولد؟... آخ، كيف؟...
بعد صمْتٍ قصير عاد إلى الكلام مثل من اصطلح مع الشقاء:
ــ هيّا يا عريس، اقرأ لنا إذا سمحت، ولنسمع.
قرأت له رسالتي وفي صوتي رجفة غريبة. وعندما انتهيْتُ نظرْتُ إلى ساخنوف لأرى تأثيرها عليه، فرأيْت عينيه نديتين، احتضنته مُعانقاً بمحبّة.
ــ آخ، لماذا تبكي يا أخي؟
وأجهش في البكاء:
ــ هل تريدني أن أضحك؟ آه، مازلْتَ فتياً ولا تُدرك أيّ حمل يُرهق كاهلك، لذلك رحت، وفي أشدّ الأزمات، تُفكر في إنجاب ولد وقدّرتَ له مُستقبله.
ــ وهل تعتبرٍ هذا منّي بطراً يا ساخنوف؟
فأجاب صادقاً:
ــ لا، لماذا؟ أنا أفرحٍ لكم أيّها الجهّال. أنتم جيلٌ طيّب. وأرى حياتنا سهلة معكم نحن المسنين.

ثمّ قام مُتثاقلاً وقال:

ــ الأفضل لي أن أذهب إلى حملي.

ذهب، وعدْتُ أنا إلى إكمال رسالتي. فكتبْتُ وكتبْتُ وأخيراً، مزقتُها. لأنّ الرسالة تحتاج إلى عنوان، وأنا لا أعرف عنوان ولدي، إذ لا ولد لي، ومارو بعيدة عنّي.

ــ الوداع يا ولدي...

* * *

أتانا ناظر السرية بخبز، وزّعه على الحضائر، وزّعوه بدورهم على المجموعات، وهؤلاء على الجنود. يقطعون الخبز دون ميزان أو قياس. فهم خبراء والحصص المقسومة تخرج من تحت أيديهم مُتساوية بالحجم والوزن. الخبز يكفينا الآن تماماً إلى درجة التموّن منه للمُستقبل. ويتمّ حفظ المُموّن بتنشيفه على النار، ثمّ تحميصه فيصير بقسماطاً ينفع في أيام الشدّة. مرَّتْ بنا أيام شدّة وأخذنا منها درساً، ومن يعلم كم سنُلاقي من أيام شدّة؟

وتمتدّ إلى ناظر السرية يد صغيرة تُريد خبزاً.

ــ أعطني حصّتي أنا أيضاً.

فأغمضْتُ عيني كي لا أرى. هذا ولدي، ولدي في المُستقبل. ومع أنّه شيءٌ صغير، لكنّه يجيء إلينا ليُساعده أباه. ساخنوف لا يُصدّق طبعاً، ولا يعترف بأنني يُمكن أن أُنجب ولداً. ويلي، لماذا مزَّقْتُ الرسالة؟ لو أنني أبقيْتُ عليها لسلّمته إياها الآن. ليقرأها.

* * *

ذهبْتُ لزيارة قبر فيليبوف. إنّه قريب، يبعد عن مواقعي ومواقعه مسافة مئة متر باتجاه النهر، في مقبرة ساحة الدفاع الرهيبة. لقد حفرْتُ القبر بيدي ودفنته فيه بيدي، وأهلْتُ عليه التراب بيدي أيضاً.

وبحثْتُ عن حجارة ـ حسب عادة شعبي الأرمني ـ كي أرصفها حوله فلم أجد. إذ لا توجد حجارة في هذا المكان.إذن، لا يوجد ما يُميّزه الآن غير عمود يحمل لوحة من الصفيح غرستُهُ في التربة وكتبتُ عليها اسمه ـ إيفان.

رأيْتُ نبتات الخطمي وقد نبتت على تربة قبره، لكنّها لم تُزهر بعد. سوف تُزهر النبتات، لكن لن يُزهر إيفان فيليبوف، لأنّه راح إلى الأبد.

ـ الوداع يا إيفان.

سكون.

ـ سوف نغادر مركز الدفاع، علينا أن نذهب لاستلام بقية العناصر، نتجه بعدها إلى الجبهة، وقد لا نعود إلى هنا. لذا، اصرخ يا إيفان، اصرخ من تحت التراب ليعرفوا مكانك.

فيردُّ عليّ صوت إيفان:

ـ ماذا يوجد من جديد؟

لم أخف من صوت القبر هذا، بل فرحت، وازدريْتُ مَنْ يقول إنّ كل مدفون ميّت.

وقلتُ له بصوت مُرتفع ليسمعني من تحت التراب:

ـ كل المُستجدّات سارّة يا إيفان، نحن نتقدّم بنجاح. ولقد تغلغلت قواتنا داخل حدود بروسيا. واعلم أيضاً، أنّ لفوف وبرست قد تحررتا. هل تذكر تاريخ الواحد والأربعين؟ يوم كانت بريست تُدافع رغم الحصار الوحشي الذي دام شهوراً وهي وحدها في المعركة؟

قال القبر:

ـ نعم أذكر، الآلهة فقط يُدافعون عن أنفسهم وحدهم.

ـ هل تراهم؟

ـ مَنْ؟

ـ الآلهة.

ـ لا، يبدو أنّ الوقت لم يحن بعد. لكنني التقيْتُ عدة شُبّان طيبين من برست. أما زلت تشرب؟

ـ لا، فوجود المشروب نادر.

وقال إيفان:

ـ لا تُسيء إلى شورا، إنّها فتاة طيبة. وافعل كلّ ما تستطيع لتمنعها من الحضور إلى هنا. أعني إلى جواري. ولا تأت أنت أيضاً، هه... هنا دنيا الأموات، لا تمر بهم.

ـ لن آتي يا إيفان.

انشقّت أردية البراعم الخضر خلسة لتظهر تحتها تقيحات مُحمرّة.

قال القبر:

ـ هذه زهراتي.

ـ نعم، إيفان، اعطني عنوانك.

ـ لماذا؟ أنت تعرفه.

ـ أعرفه، لكن... نحن ذاهبون إلى الخلف، إلى مكان قريب لنستلم تكميلاً لعناصرنا. سأكتب رسالة إلى أهلك كي يحضروا لأريهم قبرك.

قال إيفان:

ـ وهل أنا في قبر يا صديقي؟ أنت مُخطئ، هنا زرقة. زرقة فقط، فلا توجد حرب ولا يوجد هتلري. لا تقل لأهلي شيئاً. لماذا تقول؟ فلينتظروا.

وصمت القبر طويلاً. فانحدرت الدموع من عينيٍ، وانصبَّتْ في كئيسات الزهر التي أحنَتْ رؤوسها هي الأُخرى إجلالاً. وعاد الصوت:

ـ لا تقل شيئاً لأهلي. فلينتظروا، ولينتظروا إلى ما شاء الله. فيأتي هو بهم إلى عندي. أنا وحيدهم، لا أُريدهم أن يُعجّلوا بالمجيء.

ويعود السكون، ولكن لفترة، يا إلهي! هل القبور حيّة لها لسان يتكلّم وأذن تسمع؟ لقد قطع إيفان الصمت وقال:

ـ هيّا اذهب.

ـ كيف أذهب؟ وأنت؟

ضحك إيفان وقال:

ـ اذهب يا صديقي، ولا تتحدّث عنّي بشيء. أعلم أنّك كتبت شيئاً في أوراقك. يوجد عندي هنا قارئ الحظ. رجوته أن يقرأ لك طالعك فقالا إنّك تعيش طويلاً، طويلاً جدّاً. لذا لا تكتب شيئاً عنّي على أوراقك، ولا تقل شيئاً عنّي لأحد، فأنا كما تعلم لست ميتاً لتؤلف عنّي مراثيك، وتستجدي لي الرحمات. أنا حي وقد آتي لزيارتك يوماً. قد آتي بعد خمس سنوات أو ثلاثين أو خمسين، لكنني آتي.

وتجري مياه النهر الزرقاء. وأُحاول أن أستدرج إيفان إلى الكلام، لكنّه لاذ بالصمت المطبق ولم يقل بعد ذلك شيئاً، وأطبقَتْ الزهرات كئيساتها الخضراء وفاحَتْ رائحة التراب.

ـ إذن، الوداع يا إيفان.

وأسرعْتُ صوب النهر.

* * *

وجدْتُ بين أوراق جندي ألماني مقتول ورقة مُربّعة الشكل تحمل رمز الرايخ الثالث العسكري، وعظام جمجمة وساقين متصالبتين طُبعَتْ عليها حروف غليظة غير مُتزنة من مُخلّفات أيام غوتنبرغ.

أنا لا أعرف الألمانية، لكن ما في هذه الورقة السميكة يوحي بشيء رهيب من النظرة الأولى، لذلك احتفظْتُ بها وأهملْتُ الأوراق الأُخرى.

عند المساء قابلْتُ النقيب مُترجم الكتيبة، ورجوته أن يُترجم لي الورقة التي حفظتها. مسح النقيب عدسات نظارته ووضعها على أنفه وقرأها لنفسه سرّاً ثمّ قال:

ـ هذه وصية هتلر إلى جنود الرايخ الثالث.

وكتبت ترجمتها حسب إملاء النقيب:

ـ هتلر يُعطي أوامر مُشدّدة إلى جنوده: ((أيّها الجندي، اعتبر نفسك بلا قلب ولا كبد، لأنّك لست بحاجة إليهما في الحرب. تخلّص مما فيك من رحمة وشفقة، واقتل أيّ واحد من الروس أو السوفييت

إجمالاً. لا يمنعن تقدمك شيء ولا يهمّنك شيخ أو امرأة أو طفل وطفلة، اقتلهم جميعاً....)).

أنا أكتب كلمات الترجمة الفظيعة ويدي ترتعش. أنا لا أُدرك سبب هذا الطلب الحاقد على الإنسانية.

طلب إليّ النقيب أن أترك له الورقة. فتركتها وقلت له:

ـ خذها، فأنا لا أُريد أن أحتفظ بمثل هذا الأمر الأحمق، لكن نبئني يا نقيب، ماذا تقول في مَنْ يأمر بقتل طفل؟

فرفع النقيب كتفيه وقال:

ـ لا أستطيع الرد على سؤالك، لأنني أجد نفسي لأول مرّة أمام مثل هذه البادرة. لكن التاريخ هو الذي سيردّ عليك.

ـ لكن التاريخ ضعيف الذاكرة.

ـ قلت ذلك وأنا لا أقدر على كبت ألمي.

وتراخى كتفا النقيب ومضى.

* * *

لقد تهدّم حصني عند المساء حين لم يكن ثمّة أحد فيه لحسن الحظ. لقد سقطَتْ فوقه قنبلة مُباشرة من الجو فهدمتْه، وها أنا الآن مع جنودي بلا مأوى. أضحك من قولي. ماذا يعني بلا مأوى؟ سيان عندنا الخارج أو الداخل، وأمرْتُ ببناء حصن جديد، أو ترميم المُهدّم.

فقال الجنود:

ـ الأفضل أن نبني حصناً جديداً.

لكنني فكّرْت وقلت:

ـ لا، فلنرمم القديم، إذ لا تنزل قنبلتان على مكان واحد.

وراح رجالي يحفرون الأرض بحماسة، ويُخرجون العوارض من بين الأنقاض. والحقّ أن الأمر لا يحتاج إلى حفر كثير. فالقنبلة التي سقطَتْ كانت كبيرة مُتفجرة فتحَتْ حُفرة عميقة ووفَرَتْ علينا الحفر. أمّا العوارض فلم يبق منها غير حُطام لا ينفع في شيء.

جاءني معاون رئيس مكتب قيادة كتيبتنا بتسعة عشر جندياً، وقال لي حسب الأصول المُتبعة:

ــ اقبل هؤلاء الرجال، فهم في قائمة المُستفيدين من الغذاء منذُ اليوم.

قلت له:

ــ لكن العدد قليل، يلزمني ثمانية وعشرون رجلاً كي يكتمل النصاب القانوني.

ــ هذا هو الموجود وحسب.

ذهب، فتفقدْتُ الجدد، ثمّ قرأت أسماءهم من قائمة أعطانيها نائب رئيس مكتب القيادة. نحيْتُ اثنين منهما جانباً وسألتهما:

ــ هل سبق لكما أنتما الاثنان وجود في الجبهة؟

ــ نعم.

فرحْتُ لأنّي لم أُخطئ. لقد حضرا القتال وجُرحا، وجاءا إلى كتيبتنا بعد الشفاء. أمّا الآخرون فحديثون، لم يشمّوا رائحة بارود من قبل. أغرار في العشرين من العمر، لهم عيون زرق وصبر نافذ، حيّرني أمرهم، فيم هذه العجلة؟ والذي يُحيّرني أكثر أنّهم لا يأبهون لنيران العدو. على الرغم من القذائف والقنابل التي تسقط غير بعيد عنّا. فوقفْتُ بينهم خطيباً وقلت:

ــ هل تعرفون أين وقعتم يا شباب؟

فقالوا بصوتٍ واحد:

ــ نعرف. جئنا إلى جبهة القتال.

ــ وماذا تعرفون بعد؟

ــ نعرف أنّ علينا أن نُحارب العدو.

فأضفْتُ بحرارة:

ــ وأنكم قد تُقتلون وتموتون.

قالوا:

ـ هذا ما جئنا من أجله، فنحن فداء للوطن وما جئنا إلاّ للدفاع عنه.

ـ فقط؟

ـ لا، بل القضاء على العدو نهائياً حتّى لا تقوم له قائمة بعدها.

ـ ولكن ليس القضاء على العدو سهلاً، إنّه يحتاج إلى التضحية والحرمان. وأنا أرى فيكم هذه الصفات والاستعداد. هل تُدخنون؟

كُلّهم يُدخنون، فضيفتهم سجائر من حصتي، ثمّ قلت لهم إنّ أول عمل لنا هو الغناء. لم يستغربوا، ولم يحسب أحدهم أنّ العدو قد يسمع صوتنا، فليسمع وليأت معه بمن يسمع. هل نتوقّف عن الغناء خوفاً منه؟ لا، نحن لم نغن منذُ زمن بعيد، وآن لنا أن نعوّض ما فاتنا. وبدأ الشباب يُغنون، وينظرون إلينا نحن الجبهويين بحسد. يا إلهي! في أعين هؤلاء الأولاد حسدٌ منّا. علام يحسدوننا؟ آه، فهمت. يحسدوننا لأننا نُقاتل منذُ زمن طويل، وهم جدد في الجبهة. هذا أمرٌ فوق العادة لا يُصدّق. الأولاد يحَسدوننا، نحن جيران الموت الذين مازال الموت ينتظرنا، وقد نبقى من دون دفن...

وزّعْتُ الشباب على مجموعات السرية، فاكتمل لكلّ مدفع ثلاثة أشخاص، أو كما نُسميهم، التشكيل العسكري.

واحدٌ من اللذين سبق لهما الاشتراك في القتال حارب في معركة بريست.

سألته:

ـ كيف نجوت؟

قال:

ـ يبدو أنّ المُعجزات ما تزال موجودة في الدنيا.

بريست هي الأولى التي وقع على كاهلها كلّ ثقل القوات الألمانية الهتلرية أول بدء هجومها، وصمدَتْ لهذه القوات التي لا يحتملها بشر:

بريست هي الأولى في أوروبا التي أثبتت أنّه يُمكن القضاء قضاءً مُبرماً على شموخ الجيوش الألمانية بغطرستها ((الفاشلة)).

بدأنا نُصدر كلّ ثلاثة أيام جريدة باسم ((الجريدة الحربية)) بأيدينا ويوسائلنا الخاصّة، حسبما يروق لتفكيرنا. في جريدتنا الدورية وعلى صفحتها الرئيسية كُتب بحروف كبيرة ((أيّها المُقاتلون، معنا بطل بريست فاسيلي. الفخر والمجد له)).

ولمّا قرأ الجريدة جاء إليّ يقول من أعماق قلبه:

ــ آه، لماذا لقبتموني بالبطل؟ أين بطولتي وقد وقعت بريست في يد العدو؟ قلت: نعم وقعت، لكنكم لم تُغلبوا، بل ضحيتم وقاتلتم بشجاعة.

وكتبْتُ تقريراً عنه إلى آمر الكتيبة ورجوته أن يمنحوه حسب الأصول وسام لينين. ألم يكن مع المُدافعين عن بريست؟

ووافق آمر الكتيبة على اقتراحي.

* * *

أُعيد بناء حصني.

أطلقوا على الجندي الجديد فاسيلي عندنا لقب البريستي. ولاحظْتُ أنّ اللقب أعجبه. آه، إنّه أول واحد فينا ذاق لسع سياط الجيوش الهتلرية على جلده.

وبناءً على طلبي صار فاسيلي البريستي يحكي لجنودي:

ــ لم يكن أحدٌ منّا في فجر الثاني والعشرين من حزيران يتوقّع أن ينزل بنا الشر وتهجم علينا ألمانيا. ولم يكن ينتظر ذلك أحد في الدنيا. فأنى لنا أن نعلم أنّ هتلر الذي تولّى السلطة في ألمانيا في العام الثالث والثلاثين قد فتح عينيه، وقبل كلّ شيء على بلادنا في الشرق؟ كان يُخطط لضرب الاتحاد السوفياتي، ويُؤَلْمِنُ جمهورياته بالضربة

الخاطفة. أي إنّه كان يُريد أن يُبيد شعوب الاتحاد السوفياتي ويوطن على أراضيها رعاياه.

كان قد سبقه إلى هذه الفكرة وحشٌ آخر قبله هو السلطان عبد الحميد الثاني الذي بدأ فعلاً بإبادة الأرمن تمهيداً لإبادة باقي شعوب تلك المنطقة، ونجح إلى حدٍّ ما في تنفيذ جزء من مُخططه. ويبدو أنّ تلك البداية قد شجّعَتْ هتلر.

سألت فاسيلي:

ــ هل كان العدو قوياً في الثاني والعشرين من حزيران؟

ــ كانت قواته تُعادل عشرة أضعاف قواتنا. فمنذُ اليوم الأول ألقَتْ علينا ألمانيا 181 لواء و18 فرقة. وهذا يعني خمسة ملايين ونصف المليون من الجنود، مع أربع آلاف دبابة وخمسة آلاف طائرة حربية وخمسين ألف مدفع، وهي قوّة هائلة.

أنظر إلى فاسيلي وأتخيّل يوم الثاني والعشرين من حزيران، أهو يوم من أيام العام الواحد والأربعين. مضَتْ ثلاث سنوات على ذلك اليوم. تعودنا على الحرب، وها قد مالت الكفّة وبدأ العدو ينوء بقواتنا التي تُثقل كاهله. لكنّها ليست كهول الثاني والعشرين من حزيران عام الواحد والأربعين. هذا اليوم باق وسيبقى إلى الأبد ملعوناً ملعوناً. كان فاسيلي في بريست في ذلك اليوم، وحمل مع مَنْ حملوا ثقل القتال فيه. في ذلك اليوم كنت أنا في بيتي، ولم أعلم باندلاع الحرب إلاّ بعد أربع ساعات منها. عندها بكَتْ أُمّي قائلة:

ــ واه، يا أولادي...

لو لم يكن ذلك اليوم ما كنت وصلْتُ إلى هذه البقاع المُستنقعية. وما كنت لأُفكّر في مَنْ سندفن من جماعتنا غداً، ثمّ إنّ رجالي طيبون، أُشفق أن أراهم يُقتلون. لولا مُصيبة الثاني والعشرين من حزيران لكنت تزوجْتُ من مارو. فلا هي كانت تبكي ولا أُمّي. لولا ذلك اليوم لما

تكسّرَتْ هذه الأشجار وتجرّدَتْ حتّى بدَتْ السماء. آه، مضى زمان لم نر السماء، إذ لا وقت عندنا لرفع رؤوسنا.

لولا ذلك اليوم... لكان ذلك الفجر الصيفي حلقة في سلسلة زمان عظيم. ولكان يوماً مُشعشعاً سعيداً، وليس مثل يوم بداية هذه الحرب الرهيبة.

كلّ شيء يقبله عقلي. سوى أمر واحد. لماذا تتحارب الحكومات والدول ويتقاتل الناس والشعوب. يُدمرون ويُخربون ما بُني بالعرق الغزير؟

ما بالك أيّها السيد الألماني تُشغل فكرك بي، كيف وبماذا أعيش؟ لديك ((نظامك الجديد)) طبقه على شعبك وفي بيتك. من غلَّ يدك عنه؟ لماذا تُريدني أن أتقبّله عنوة؟ دعني أعش بالشكل الذي يُعجبني وأُغنّي الأُغنية التي أُريد، وأُطرب لها.

ويحكي فاسيلي عن فجر ذلك اليوم الدامي في بريست، وعن أول يوم مُظلم في تاريخ البشرية في العصر الحديث. يحكي كما تُحكى الحكاية القديمة أو الذكرى التي سمعها من يحكي من الآخرين، ولم يكن عضواً فيها.

ـ أنا لا أؤمن بالمُصادفة. ولكنني واثقٌ من أننا سنطرد عدونا من أرضنا، ولسوف أعود من جديد إلى بريست. هل تعرفون؟ إنني أؤمن أيضاً بأنّ هذا سيتم عند الفجر أيضاً، نعم عند الفجر.

وأنا أيضاً أُصدّق فاسيلي وأؤمن بإيمانه.

نحن الآن في الخامس والعشرين من تموز. بعد خمسة أشهر وثلاثة أيام أبلغ الواحد والعشرين من العمر. في كتابتي إيمان بالفجر.

أبصقُ على وجوهكم

نحن مُضرجون بدمائنا على فراش التراب.
ونهجم على مدينة نارفا.
الدنيا ليل. لكن لا يوجد نيام. أيّ ليل هو إذن؟ أهو ليل أبيض؟ وفي الليل أذهب للبحث عن نقطة جديدة لرصد المواقع الحربية استعداداً للهجوم.
أشرقَتْ الشمس يا أهل زيتون.
يا للمُعجزة، كيف تذكرْتُ أُغنية جدودي الأشاوس ورحْتُ أُغنيها من قلبي؟ لقد فار دمي وأنا أسمع نغمها، يعزفها نقيب في الفوج الثامن الأستوني. أنا أعرفه. سكن ذلك البيت الأرضي، جلس يعزف على الأوكورديون. فلمّا رآني سأل:
ــ هل اللحن جميل؟
قلت:
ــ هي أُغنية بلدي. هل تعرفها من قديم؟
ــ لا أذكر منذُ متى....
((أشرقَتْ الشمس، يا أهل زيتون))....

* * *

سرنا إلى الهجوم. كلمة هجوم بريئة، غير خطرة. فلنقل: سرنا إلى الاستشهاد. ((أشرقَتْ الشمس، يا أهل زيتون...)) أُنظروا كيف وصل أسى أُمتي إلى هنا.
مدينة نارفا غارقة في الدم والدُخان والنار. هيّا، إنّه الهجوم. هجمنا ساعة، ساعتين، بل الأبد كله...
ولم نتمكن من دخول المدينة إلاّ عند المساء.

لا شيء غير شظايا زُجاج مُحطّمٍ يلمع مع نعال خيول غاطسة في الوحل. في الشارع سرير طفل مُحطم وقطة سوداء. أسمع صُراخاً من السرير المحطّم. لا إنّه صادر من خارج بيت مُهدّم، من فتاة تعول، ذهبية الشعر، ذهبية الكتفين. ((أشرقَتْ الشمس...)).

أنا أبكي على زيتون المُخرّبة وعلى رفيقي إيفان على الذي جمعْتُ بيدي أشلاءه المبعثرة فوق التراب.. ويُمسك أحدهم بكتفي. إنّها شورا. فأُدندن بالأرمنية:

ـ أشرقَتْ الشمس يا أهل زيتون.

بدأ يزول احمرار النهر شيئاً فشيئاً.

إنّه الصيف. تموز.

نحن ننزف دماً.

* * *

على جسر جديد عبرَتْ كتيبة جديدة لتحُلّ محلنا. وجاء ساخنوفي إلى الضفّة الأُخرى يجرّ وراءه حصانين، من أين؟

خرجَتْ كتيبتنا من مواقعنا بكاملها. (بكاملها)؟ ماذا بقي منها؟ حُطام.

* * *

في مساء مشمشي اللون اجتزنا النهر على خيولنا وذهبنا لنستلم تكميلاً لعناصرنا.

في الليل ظهرت النيران آمنة مُطمئنة في مواقعنا. نظرْتُ إلى السماء فإذا هي قريبة ومألوفة على غير ما عرفتها. مضى زمن طويل لم أر فيه مثل هذه السماء.

استيقظْتُ عند الفجر ووجدْتُ فوقي سترة خضراء. مَنْ وضعها؟ ساخنوف؟ لكنّه لا يملك سترة. لقد إستبدلها بتبغ، إذن مَنْ؟ فيقول ساخنوف:

ـ جاءت شورا فوجدتك نائماً، أحضرَتْ سترتها وغطّتْكَ بها.

ورأيْتُ شورا غير بعيدة عنّا تجلس قُرب النار مُحتضنة ركبتيها. ما أجملها في هذا الوضع. ركبتان محروقتان ووجه محروق.

ساد هدوء عجيب بعد ما ابتعدنا عن جبهة القتال. غابة خضراء وراحة خضراء.

* * *

سبحْتُ مع شورا في نهر كينغيزب بعيداً جدّاً عن جماعتنا، في زاوية بديعة. تركْتُ شورا عند ضفّة النهر، وتغلغلْتُ في الغابة لأجمع لها قليلاً من توت العلّيق.

نحن الآن في الثامن والعشرين من تموز. بعد خمسة أشهر أبلغ الواحد والعشرين من العمر. كتابتي مريرة.

عندي أحصنة من جديد

كينغزيب قريب من نهر لوغا. ما أكبر هذا النهر! ليت لنا مثله في جبالنا، إذن لرويت كلّ الأرض. يوجد في نهر لوغا نوع من السمك، حين تطبخه وتأكله يُعطيك طعم النعنع.

عندما تسلّمْتُ التكميل طالعني جندي عجوز يكنى بولودني في السادسة والأربعين من العمر، كثير الفضول. تُرى هل سأصير ((عجوزاً)) (إذا وصلت) إلى سن السادسة والأربعين؟

أطلقنا جميعاً، ومعنا ساخنوف، على بولودني لقب ((العجوز)).

في أحد الأيام جاءني العجوز في هندام حسن وقال:

ــ أنا من نواحي غاتشينا.

قلت:

ــ أعرف. عرفتُ ذلك من تصرفاتك الشخصية.

قال:

ــ شكراً. وهل تعرف أنّ لي أهلاً ومزرعة هناك؟

ــ لا، لا أعرف هذا.

ــ إذن اسمح لي بالذهاب إلى قريتي التي دمرها الألمان الأوغاد لعلّي أطّلع على حال كوخي، وأستعلم إن كانت زوجتي وأولادي أحياء.

سكَتّ، ولم أعرف كيف أسمح لهذا العجوز بالذهاب.

ليس لي الحق في هذا. لكنّه ينظر إليّ بأملٍ كبير يُساوي رفضه قتل إنسان، وأنا لا أُريد قتل إنسان.

ــ أرجوك اسمح لي.

لا، لا أستطيع كسر قلب الرجل. ما أكثر القلوب الكسيرة. وأنظر إلى خريطتي فأُقدّر المسافة إلى غادتشينا بمدة يومين ونصف اليوم على الحصان ومثلها للعودة. لم يُصلحوا الخط الحديدي بعد، وإلاّ لذهب به العجوز في عشر ساعات. هيّا. لا بأس. خمسة أيام، فلتكن عشرة فنحن هنا طوال هذه المُدّة.

ــ موافق.

لم أر وجهاً مُستبشراً منذُ أمد بعيد، لكني رأيته الآن في وجه العجوز. لقد استغربْتُ فرحته. تُرى هل يُتاح لأحد أن يفرح في جبهة القتال؟ فإذا أُتيح. يكون من أكثر الأفراح صدقاً! بيتنا بعيد بعيد، وقد لا أراه. فليذهب الرجل ولير بيته بدلاً منّي على الأقل.

أعطيته حصاناً مع سرج ولجام. ركبه وراح. في اليوم التالي لذهابه وقُبيل المساء جاء آمر اللواء إليّ وقال في اجتماع للضُبّاط:

ــ غداً نسير إلى الغرب. سوف نذهب إلى لوغا. نستقلّ القطار ونتوجّه إلى جبهة القتال مروراً ببسكوف.

لم يُدهشنا الأمر. تعودنا على السير والترحال وبناء المواقع، ومُقاتلة العدو وغيرها. لا أعرف متى تنتهي الحرب وليس ذلك بيدي. تُرى هل يحصل ولا تكون هناك جبهة قتال؟ إذا حصل الآن فهو غير طبيعي، وكيف؟ عندئذٍ لا يكون معي رُشيش، ولا أرى ذيل دثار ساخنوف المُحترق، ولا تكون مدافع هاون ولا دُخان ينطلق منها. لا، هذا غير ممكن، لأنني أكون بلا دم ولحم.

بعد المداولة التفَتَ إليّ آمر اللواء على مسمع من كثير من الضُبّاط وقال:

ــ كيف مُنحْتَ كلّ هذه الأوسمة وأنت أجهل ضابط عندنا؟ قل لي كيف ستتصرّف مع حصان ضائع؟

دُهشْتُ وقلت:

ـ أي حصان أيها الرفيق الجنرال؟
ـ ذاك الذي أعطيته للجندي الغادتشيني(*) وصرفتهُ إلى البيت.
وتذكّرْتُ:
ـ آه، نعم، ماذا أفعل أيها الرفيق الجنرال؟ عفواً أنا لا أحتمل رفض طلب إنسان.
ـ لكن حصاناً حربياً يُساوي كلّ خدمتك أيّها الحمام الوديع. غداً نرحل، جنديك والحصان غيرِ موجودين. بماذا تُحمّل وتنقل عتادك؟. لقد ضاع حصانك، لذلك سنستوفي منك اثني عشر ضعف ثمنه الذي تُقدّره القيادة.
وثارَتْ نخوتي وقلت:
ـ بل أجد اثني عشر حصاناً بدلاً منه وأُحضرها لكم بأسرع من ذلك أيّها الرفيق الجنرال، على أن أحمل ذلك العار الذي تُريد أن تُكبلني به.
فهزّ الجنرال رأسه وقال:
ـ حسنٌ أنا أُصدّقك، لكنني لا أُحب المُزاح، فالكلام وعد. وأنا أنتظر أحصنتك الاثني عشر.
وذهب دون أن يودّعني كما ودّع الضُبّاط الآخرين. وحكيْتُ كلّ هذا لساخنوف.
ـ ماذا تُريدني أن أفعل يا بني غير عودتي إلى مهنتي السابقة؟
ـ أيّة مهنة؟
ـ السرقة. يجب أن أذهب وأجد اثني عشر حصاناً، حسنٌ أنّك لم تقل ثلاثة عشر، لأنني أكره هذا الرقم. متى تُريدني أن أذهب؟
ـ إلى أين؟
ـ إلى حيث أجد الخيول.

(*). نسبة إلى بلدته غادتشينا. م.

أنا مُندهش. هل تسبح الخيول مثل السمك في مياه لوغا ليتصيدها ساخنوف ويأتي بها بهذه البساطة؟ من أين سيُحضرها؟ وكيف؟ لكن ها هو يستعدّ للمسير.

ــ إلى أين؟

ــ قلت لك، إلى حيث أجد الأحصنة.

ــ الآن؟

ــ متى إذن؟ سوف نتحرّك عند الفجر.

وأخذ معه جندياً أوكرانياً. ركبا حصانين سمينين ودخلا في الظلام وغابا. وصل ساخنوف إلى قافلتنا في مساء اليوم التالي مع رفيقه وهما يقودان أمامهما اثني عشر حصاناً.

ــ هيّا، أخبر الجنرال الآن أنّك بررت بوعدك.

ــ قال ساخنوف هذا وهو على حصان.

ــ لكن أين وجدتها يا رجل؟

تهرّبَ من الجواب وأفاض:

ــ مالك ومالي؟ يُقال: الحصان المُهدى لا تُفحص أسنانه. هيّا، اقبلوا الهدية وافرحوا.

ونحن نفصل الخيول عن القطيع، لحق بنا الحصان الثالث عشر ولم نتمكن من إرجاعه بالرغم من كلّ مُحاولاتنا. إنّه شيطان كاد أن يُفسد عملنا.

لم أجد ما أقوله لساخنوف. هذه خيول جنود المؤخرة. ها هي الأماكن الطرية على ظهورها، كانت مجروحة وشُفيّت، ونبتَ مكانها شعر كثيف خشن. لا يهمنا أصحابها فلن يصلوا إلينا. سنكون في القطار بعد ساعة في طريقنا إلى الجبهة، أمّا ذاك الجندي فسيلحقنا حتماً. ((يعود إلى البيت)).

أخبرْتُ الجنرال بالأحصنة، ففرح وقال:

ــ هكذا يكون العمل. أنا أُحبُّ الرجال صادقي الوعد.

حالما جاء الأمر حُمِّلت الكتيبة في قطارات النقل العسكري، ورحلنا نحو بسكوف.

من بسكوف انعطفنا إلى الغرب، وعن طريق أستونيا دخلنا إلى لاتفيا.

نحن في طريقنا إلى القتال من جديد.

في إحدى المحطّات بادلْتُ ثلاث حصص من خبزٍي بزجاجة ماء الكولونيا ((كراسنايا موسكوفا)) وأهديتُها إلى شورا قائلاً:

ــ تفوح منك رائحة الحصن الألماني، فاغسليها بماء الكولونيا.

نحن الآن في السادس من آب. بعد أربعة أشهر واثنين وعشرين يوماً، أبلغ الواحد والعشرين من العمر. كتابتي ناضجة.

القتلى يُريدون قبوراً

شمس آب تحرق الشاحنة.

في كلّ يوم أذهب لزيارة النقيب كوبين وألعب معه الشطرنج. في أحد المواقف قال لي:

ــ هنا في فريندورك وفي السيارة ــ الحانوت المُتنقّل يبيعون ماء الكولونيا. هيّا بنا نشتر ماء الكولونيا ونشربها.

اشتريْتُ خمس زُجاجات ماء الكولونيا، كانت غالية جدّاً، مزجها كوبين بالماء. وأصبح العطر مشروباً كحولياً.

ــ فلنشرب ولننتعش قليلاً.

شربْتُ كأساً كاملة. شيء مُزعج. لا يهم ما شربته، لكن عندما صحوت من سُكرتي خلتُ رأسي يتفجّر، ويضرب غاز ماء الكولونيا يضرب جمجمتي بقوّة مُطرقة. وأشعر بالغثيان.

قال كوبين:

ــ أعراضها تزول سريعاً، فلقد جربتها قبلاً.

أسبوع كامل وماء الكولونيا يهدُّ جسمي.

* * *

في موقف آخر قابل كوبين آمر الكتيبة وقال له:

ــ بيتي على بعد ثلاثمئة كيلو متر من هنا، اسمحوا لي بالذهاب للزيارة فقد أجد بعض أهلي على قيد الحياة، سأعود وألحق بكم بسرعة.

بسط آمر الكتيبة ذراعيه وأجاب:

ــ هل تعتقد أنّ هذا بيدي يا نقيب؟

ونظر كوبين إلى ناحية موطنه حزيناً عابساً وقال:

ـ أعلم أنني سأُقتل، أنا أعلم ذلك يقيناً. ولكن لا بأس. الوداع يا أحبائي، ولو كنتم في القبر. الدنيا قاسية.

وراح ينظر إلى أُفق موطنه طويلاً، والأحزان تعصف به، وتسوّد نفسه وتجعلها فحماً.

* * *

اجتاز قطارنا نهر (تُفينا) الغربي الكبير.

لاتفيا بلاد جميلة، مياهها كثيرة، أرضها مُنبسطة خضراء ناعمة نعومة بنت.

تدور في أنحاء يلغافا حرب طاحنة أنستني البساط السُندسي ونواح كوبين الحزين وماء الكولونيا الكريه.

دخلنا جبهة القتال، وتمركزنا في مكان يُمكن أن نُسميه غابة، إلى هناك جاءني مُراسل القيادة، يُرافقه صحفي، وقال:

ـ جئتُ إلى سريتك، اُريد أن أكتب لمحة عنها. هل تسمح؟

ـ بكلّ سرور. قامت سريتنا بأعمال مُشرّفة خصوصاً في موقع دفاع نارفا.

فقال الصحفي مسروراً:

ـ حسنٌ، فلنبدأ إذن بنارفا. ما هو اسمك وكنيتك؟

ـ إيفان فيليبوف.

فنظر إليّ مُتعجباً وقال:

ـ لكنك لست روسياً، ولا تُشبه الروس.

أجبْتُ:

ـ نعم، لكن اكتب عن إيفان فيليبوف، لأنّه كان يكبرني بثلاث سنوات فقط ولم يُحَب في حياته. هذا الشاب البطل هو من مدينة ستارايا روزا. واكتب أيضاً عِن المُلازم أول بوريسوف. أكتب عن المقتولين. المقتولون يُريدون قبوراً.

ويكتب الصحفي ما أُمليه عليه بسرعة.

خرجنا للاطلاع علي مكان هجومنا يوم غد. يسير بجانبي النقيب كوبين. كان مُكتئباً جدّاً فسألته:

ـ هل بقي أهلك على قيد الحياة؟

ـ ليس عندي خبر عنهم. أكتب، فلا أتلقّى جواباً. لقد حطّ الألمان في مدينتنا.

الفجر بعيد. وصلنا تحت ستر الظلام إلى التلال. تُحارب هناك كتيبة تنزف دماً، وعلينا أن نجتاز التلال ونمضي في هجومنا لتحرير مدينتي يلغافا وريغا. والألمان يتمسّكون بأسنانهم بمدينة يلغافا مفتاح بحر البلطيق. ونحن مُندفعون لتحريرها منهم.

كنّا في خنادق حارّة ننتظر انبلاج الفجر.

حين اقترب منّي كوبين زاحفاً تفوح منه، حسبما تهيأ لي، رائحة ماء الكولونيا، قال:

ـ لم يسمحوا لي بالذهاب للاطمئنان على أولادي على الأقل. لا تحسبني طفلاً، لسوف أُقتل اليوم.

حاولتُ التخفيف عنه بقولي:

ـ لا تتكلّم كلاماً سخيفاً.

فقال وكأنّه يبكي:

ـ سوف أُقتل. أعطني عرقاً.

ـ لا يوجد عندي عرق.

كان عندي، لكنني لم أُعطه لكي يبقى صاحياً. إذ قال لي بعد ذلك إنّه يُريدني أن أُرشحه غداً عند آمر الكتيبة لمنحه وسام ((الحرب الوطنية من الدرجة الأولى)).

وقال أيضاً

ـ وليرسلوه بالطبع إلى زوجتي إن كانت على قيد الحياة.

زخّات الرصاص تمرُّ فوق رؤوسنا. والخنادق التي اختبأنا فيها مملوءة بجثث الموتى.

تبيّنا المكان واتفقنا على وجهة هجومنا.

كان ذهابنا للاستطلاع سهلاً في الظلام. أمّا الآن وبعد طلوع الصباح وانتشار الضوء فعودتنا خطرة جدّاً.

ما كدنا نخرج من الخنادق التي آوينا إليها حتّى أمطرونا بوابل من الرصاص. ركضنا. كوبين يسبقني، وقد اسودّ ظهره من العرق. آهه آهه نكاد نصل إلى المُنخفض. وعنده لا تصلنا نار العدو. آهه، آهه...

ووقع كوبين. ورأيْتُ عينه تخرج من محجرها. وارتمينا في حفرة تحتنا. آمر الكتيبة يلهث ويسأل:

ــ هل قُتل كوبين؟ لنسحب جثته على الأقل.

وجدْتُ عوداً معقوفاً فأخذته واقتربْتُ من كوبين زحفاً. وعلّقْتُ عقفة العود بزناره وسحبته بصعوبة كبيرة وأحضرته. كوبين مقتول. أخرجْتُ أوراقه الثبوتية وبطاقته الحزبية. وفيها صورةٌ لامرأة وثلاثة أطفال صغار يُلطّخها دم طري. وجدْتُ معه خمسمائة روبل نقداً وعنواناً. أخيراً فككْتُ ساعته ودفنّاه.

وصلنا إلى مواقعنا. أردْتُ إرسال المال إلى عنوان بيته. ووضعْتُ الساعة عرضةً للبيع في المزاد.

ــ ثمانمئة روبل.

ساعة ثمينة، وجدْتُ مَنْ دفع فيها ألف روبل فلم أبع.

ــ ألف وخمسمئة.

ــ ألف وثمانمئة.

ودفع أحدهم ثلاثة آلاف روبل اكتفيْتُ بها، وأرسلْتُ المال بالبريد إلى عنوان زوجة كوبين. هل تصلها؟ لا أعلم.

* * *

تمركزنا في مواقع هجومية وبدأنا الهجوم. يُسيطر عليّ هدوء الواثق بنفسه، لأنني موقن من وقوع يلغافا في أيدينا بعد يوم أو اثنين. أخبرْتُ آمر الكتيبة عن آخر رغبة لكوبين. ونفّذْتُ وصيته بعد موته، ومنح الوسام.

نحن الآن في الثاني عشر من آب. بعد أربعة أشهر وستة عشر يوماً أبلغ الواحد والعشرين من العمر. كتابتي واضحة.

قطعة أرض

وضعْتُ منظاري في أعلى التل الذي قُتل فوقه كوبين، فحكّ ساخنوف رقبته وقال:

ـ هنا يرى الألمان دُخان سيجارتي.

ـ لا تُدخّن. قل لي، هل الخيول مؤَمنة؟

أجاب:

ـ يُراودني أمل بأننا لن نأكل لحمها.

فتذكّرْتُ حصاني ذاك الذي أكلنا لحمه في مركز دفاع نارفا، وانغرزَتْ وخزة في قلبي. حصاني الجديد نادر المثال، إنّه أزرق اللون، طويل الرقبة، رفيع القوائم، رشيقها، وهو ذكر.

من شدّة القصف المُتواصل جمح حصاني وقطع عقاله وهرب باتجاه مواقع العدو. فأسرع ساخنوف وراءه. وخفتُ على ساخنوف. المنظر يفقد الرشد. يعدو حصاني رافعاً رأسه وجبهته في مواجهة الريح. توقّف بُرهةً وزفر، واستجمع قوته وعاد إلى الجري من جديد. ناديْتُ ساخنوف كي يرجع، لكنّه لم يُصغ إليّ.

العجب وحده لا يكفي. كيف تمكن ساخنوف من الإمساك بالحصان وإعادته والارتماء في خندق لاهثاً؟ لا أعلم.

وقال وهو يعني الحصان:

ـ صعلوكك الوقح لا يخاف. لقد شمّ الخبيث رائحة فرس في تلك الجبهة.

ضحك ساخنوف وأضاف:

ـ كان ذاهباً لمُغازلة فرس ألمانيا، أهو...

وجّهْتُ نيران مدافعي صوب المواقع الألمانية، وبدأتُ أُسويها الواحد بعد الآخر. أشعر بمتعة وأنا أراها بوضوح وأضربها كما أشاء.

أعطاني ساخنوف فصّي ثوم وقال:

ــ احشرهما في فتحتي أنفك، فنحن في مكان فيه رائحة جيف مؤذية.

* * *

قضينا على مُقاومة العدو واستولينا على مواقعه.

أثناء تقدمنا غنَمَ ساخنوف عربة ألمانية مُحمّلة. العربة ألمانية الصنع ذات لون أخضر فاتح وأربع عجلات متينة. حمولتها أدثرة ألمانية وأحذية وبياضات جديدة غير مُستعملة. أخذ ساخنوف ينظر إلى غنيمته حائر الفكر وقال:

ــ آه، لو أتمكن من إيصالها إلى قريتنا.

إنه يجرّ عربته مع عربتي، يُريد إرسالها إلى قريته. لكن، أما كان الألمان هناك؟ فكيف يُرسلها إذن؟

دخلنا عند المساء مزرعة، في وسطها بيت يدلُّ فناؤه على الثراء. ذبح لنا صاحب البيت اللاتيفي عجلاً. وغلَتْ امرأته في قدر كبيرة لبناً وزّعته على جنودي.

لم نُكمل الليل هناك، بل تابعنا طريقنا، فحُرمنا من لذة اللبن وضيافة أهل البيت الطيبين. جاء الأمر بالتحرّك، فأعطانا اللاتيفي خنزيراً مُحمّراً وقال مودعاً:

ــ مع السلامة.

* * *

أنا الآن نائم على حصاني.

بعد معركة قصيرة الأمد لكنّها قاسية هرب الألمان نحو بحر البلطيق.

جنودي أُسود، أبطال، لا يحتمون بالخنادق الآن، لأننا مُنتصرون.

* * *

قمنا عند الفجر لنُطارد الهتلريين. أفطرنا سريعاً فوق الخضرة السُندسية حيث ضيّفني نقيب المدفعية عرقاً، وضيّفته بدوري تبغاً. استغربْتُ، إذ رأيت يافعاً قصير القامة جالساً ينظر إليّ نظرة توحي بشرود ذهنه. ثمّ خاطبني:

ــ مرحباً بالرفيق المُلازم الأول.

جنَنْتُ وأنا أسمعه يُخاطبني بالأرمنية.

ــ موسيس، يا عزيزي...

كان تلميذي في مدرسة خنادزاخ. ها قد رأيت أثراً حيّاً من موطني البعيد. رجوتُ النقيب أن يحوّل الجندي موسيس بوغوصيان إلى سريتي مقابل اثنين من عندي، فلم يرض وقال:

ــ موسيس بوغوصيان هو المفضّل عندي ولا أستطيع التخلّي عنه.

فاحتضنتُهُ وقبّلتُهُ وشممْتُ في شعره الناعم عطر الوطن. تُرى هل أحمل أنا العطر نفسه؟

ــ إذن غنّ لي يا موسيس شيئاً من أغاني الوطن.

فنظر موسيس إلى آفاق الجنوب وبدأ يُغنّي:

على شاطئ البحر الأسود، أُمّي العزيزة،
لا يقف الزبد...
رسالتي التي أكتبها، أُمّي العزيزة
لن تصل إليك.

تقطّع قلبي وراح يتفطّر دماً ودمعاً. تناولتُ فطوري على صهوة جوادي وسرحْتُ على شاطئ البحر الأسود. فلأنظر، لماذا لا يبدو عليه الزبد؟ لماذا؟ أمن كثرة ما ساح عليه من دم فما عادَتْ مياهه تزبد؟ أم من شيء آخر؟ الأولى هي الصحيحة. عند شواطئ البحر الأسود حشود عسكرية أرمنية كثيرة.

* * *

ضربنا العدو من جديد عند الظهر.

رأيت المُقدّم يرين وشورا، ولم أقترب منهما، بل همزْتُ حصاني ومضيْتُ في سبيلي. أصاب النقيب حين لم يقبل بتحويل موسيس إلى سريتي. من يعلم، فقد يُقتل موسيس قريباً منّي. وما أفظع أن تُشاهد مقتل عزيز عليك!

وغنّى لي موسيس أُغنية أُخرى:

لّما مرَرْتُ بغيرتشا

والقنبلة فيه تزأر

رأيتُ سيل الدم يدفع الجثث.

انتفضْتُ، لأنّ الأُغنية قديمة، ولم يتبدّل من الحال غير اسم المكان.

كان أبي يُغنّيها أحياناً مع خالي المُحارب القديم أرميناك:

لّما مرَرْتُ بساراغاميش

والقنبلة تزأر،

رأيتُ سيل الدم يدفع الجثث...

فظيع، حضر أبي مجازر ساراغاميش عندما كان في مثل سنّي. ونحن الآن في حرب. سكتَتْ هذه الأُغنية ثلاثين عاماً وضاعَتْ، فما الذي أعادها؟ وما الذي أحياها؟ آه، إنّها هذه الحرب الجديدة وسيول الدم التي تُنادي الدم القديم.

لقد نزلت القوات الأمريكية ــ الإنكليزية على الشواطئ الجنوبية لفرنسا، ليُحاربوا الفاشيست إلى جانب الفرنسيين الذين شكلوا كتائب تحررية مُصممة على طرد الهتلريين من أرضهم.

فأقول لساخنوف:

ــ هناك خبر مُهم آخر.

ــ مهم أيضاً؟

ــ أجل، هل سمعت باسم منطقة بوهنغالد؟ إنّها في ألمانيا.

ــ لا، لم أسمع، ولتذهب إلى الجحيم.

ـ لقد باركها بلعنة أبدية. هناك يُسجن ابن ألمانيا الكبير أرنست تيلمان.

ـ أعرف هذا.

ـ بناءً على أمر هتلر، قتلوا تيلمان في بوهنغالد.

رفع ساخنوف قبعته احتراماً، فلأرنست تيلمان قدرٌ كبير عندنا. في الثلاثينات فقط سُميَّ في أرمينيا أكثر من خمسة آلاف طفل باسم أرنست أو تيلمان.

هكذا هي الدنيا. وهكذا هو الحرّ الشديد هنا. حرٌّ لا يتحرّك، حتّى في الليل لا يتحرّك الهواء. نختنق ونحن في البيوت الأرضية أو في الخنادق. فأخرج إلى الهواء الطلق، إلى أي مكان أخضر، تحت شجرة أو في حُفرة.

نضج الكرز. يا الله! إذن توجد في الدنيا أشجار مُثمرة. ما كنت أعلم ذلك. ونضج المشمش في هذه البلاد الخضراء الناعمة.

ماذا نضج أيضاً؟

ـ بُكائي.

نحن الآن في الواحد والعشرين من آب. بعد أربعة أشهر وسبعة أيام أبلغ الواحد والعشرين من العمر. كتابتي على ورقة صفراء.

حُرِمَتْ السماء من الغناء

رأيْتُ في الطريق قافلة من الدبابات تصدر ضجّة عظيمة وغُباراً كثيفاً، وأنا في مخبئي مع حصاني في الخُضرة.

ولمّا لمحْتُ على إحدى الدبابات ابن بلدي قائدها دزادوريان تركت حصاني في مخبئه وخرجْتُ وصرخْتُ:

ـ فاغو...

قفز فاغو من الدبابة واختلط مع فرحتي وسألني:

ـ أما زلت حيّاً؟

أوعزْتُ إلى ساخنوف بإحضار العرق. غمغم بالطبع. فأنا لا أتركه يصرف هذا المشروب النادر بالتقنين. شربنا العرق وقلت لفاغو آمر الدبابة:

ـ هل رأيت كيف نتقدّم يا فاغو؟

قال بحبور:

ـ نعم، ونحن في طريقنا إلى العودة. لكن قبل أن نصل إلى حدودنا مَنْ يعلم، مَنْ سيبقى حيّاً ومَنْ سيموت؟

رجوته أن يُغنّي. فتطلّع إلى آفاق الجنوب وغنّى:

على شاطئ البحر الأسود، أُمّي العزيزة،

لا يقف الزبد....

وقفزْتُ فوق صهوة حصاني وسرحْتُ... على شاطئ البحر الأسود، لا يقف الزبد. لماذا؟ لماذا؟.

لحِقْتُ يرين. إنّه مع شورا في المواقع الجديدة. يرين مُضطرب قليلاً، وفي عيني شورا دموع. صاح يرين:

ـ إنّهم يأخذون شوراك إلى الكتيبة الصحيّة:

ـ لماذا؟

ـ إنّه أمر.

ـ أيّ أمر؟

فقال يرين:

ـ وهل هذا من اختصاصنا؟ سوف تذهب وكفى.

ورأيْتُ جعبة شورا بجانب قدميها. فخلْتُ أنّهم يقطعون عنقي. سوف تذهب شورا، وقد لا أراها أبداً.

فقال يرين بلهجة أبوية مُخففاً:

ـ هيّا شورا، سيكون مقامك هناك أفضل. ومع ذلك فأنت لست بعيدة عنّا كل البُعد.

شدَدْتُ على أسناني لأمنع نفسي من الصياح. شورا مُكتئبة، أشفقت عليها كثيراً. أحسبني أراها لأول مرّة. إنّها قريبة جدّاً من نفسي. بل هي قطعة منّي. انتزعْتُ ساعتي من يدي وعقدتها على معصمها.

ـ إذا لم نلتق، فستجدين على صفحة غلاف الساعة من الداخل عنوان بيتي.

لم تُصافحني، ولم تُصافح يرين، واكتفَتْ بأن اقتربَتْ من سيارة شحن كانت تقف عند الطريق، فصعدَتْ إلى ظهرها، وتحرّكَتْ السيارة دون أن تلتفت شورا إلى ناحيتنا. وتابعْتُ السيارة بأنظاري من فوق ظهر الحصان إلى أن صارَتْ نقطة سوداء وغابت.

ارتفعَتْ أصوات السنونو في السماء وهي في طريقها طائرة إلى شواطئ الجنوب الدافئة. وحُرِمَتْ السماء من الغناء. تُرى هل يُكتب لي أن أرى شورا مرّة أُخرى؟

* * *

أضاف ساخنوف إلى حمولة عربته الغنيمة أشياء جديدة غنمها كالمجارف والمناجل وحتّى المحاريث وقال:

ـ أنا أخدمك من باب الشفقة، لا من باب الواجب. والآن أُريدك أن تُشفق أنت أيضاً علي وتسمح لي بالذهاب لإيصال عربتي هذه إلى القرية.

لكن هل له قرية؟ كان السجن بيته وقريته منذُ نعومة أظفاره. ويؤكد ذلك أنّه لم يرجع إلى القرية بعد خروجه من المُستشفى، على الرغم من أنّهم أعفوه من الخدمة العسكرية بعد إصابته. ويبدو أنّه أدرك شكّي فقال:

ـ ومع ذلك أنا أذكر قريتي ومسقط رأسي، وأعرف الطريق إليها. سوف أصل إلى قريتي على عربتي في ظرف خمسة عشر يوماً. إنّهم لا يتذكرونني، وإذا تذكروني فهم يتذكرونني بالسوء. ومع ذلك أُريد أن آخذ عربتي مع حملها إلى أهل قريتي، فهم ولا شك في أسوأ حال، وتكون لهم منّي ذكرى حسنة. ولا تنسَ أنّ الألمان أقاموا هناك ثلاث سنوات أشبعوا القرية خلالها تخريباً وتشريداً.

لمسْتُ أنّ ساخنوف يتحرّق إلى الذهاب إلى قريته. وتذكّرْتُ كيف لم يسمحوا لكوبين بالذهاب إلى بلده قبل مصرعه. لذا قرّرْتُ تلبية طلب ساخنوف دون استشارة ((الكبار)) وليحصل ما يحصل. فأنا لا أستطيع رفض طلبه.

فقال ساخنوف مُقترحاً:

ـ أنا أذهب، واكتب أنت في تقريرك أنني هنا... فلا يلومك أحد، وأنا أعود، أعود حتماً.

زوّدْتُ ساخنوف بثبوتيات نظامية وتمنيْتُ له السلامة. لفّني مُعانقاً:

ـ سوف أعود، يا بني، سوف أعود.

واعتلى ظهر العربة وألهب الخيول بسوطه وذهب. ودّعته وأنا لا آمل أن أراه ثانيةً. أنا واثق من أنّه سيعود، لكن هل أكون أنا على قيد الحياة؟

نحن الآن في الخامس والعشرين من آب. بعد أربعة أشهر وثلاثة أيام، أبلغ الواحد والعشرين من العمر. كتابتي على ورق أحمر.

البحرُ بعيد

أنا في جبهة حرب لا نهاية لها.

نسير الآن نحو البحر. طريقنا دامية. يُخرجنا العدو أحياناً من المواقع التي استولينا عليها. هو الآن عند عتبة بيته، لذا يُدافع بشراسة وقوّة. كلّ شبر أرض بثمن غالٍ من الدم، تاركين قتيلاً فوق كلّ خطوة نأخذها.

في هذا الصباح تمكن جنودي من بناء خمسة عشر حصناً وصلوها بممرّات خندقية طولها ألف متر. تركناها عند المساء مُتقدمين إلى الأمام.

أطلقنا اليوم من مدافع الهاون ثلاثة آلاف وستمائة قذيفة، زنة الواحدة أربعة كيلو غرامات ونصف، أي ستة عشر طناً ومائتي كيلو غرام من الفولاذ. أضيف إلى ذلك ما لا يُحصى من الرصاص والقنابل اليدوية والصواريخ، وتوصّلوا إلى المجموع الذي لا يتصوّره العقل.

* * *

استولينا هذا المساء على مدينة شياوليا.

استولينا عليها، لكننا لم نكد نضع أيدينا عليها، حتّى جاءت من الخلف قوات جديدة أخذَتْ محلنا لتدعمنا. آخ، نحن ننزف دماً. وشياوليا مدينة لا يجوز التخلّي عنها.

أخرجونا من المواقع وأرسلونا لاستكمال نصاب وحداتنا من الجنود.

خرجنا من الجبهة. وبعد مسيرة يومين وقفنا.

وّوقعنا على غير انتظار على سكْون أخضر. نظرْتُ إلى سريتي وأغضيْتُ الطرف. خسارتي البشرية كبيرة، كبيرة جدّاً والحال نفسها في سرايا المُشاة، أو ربّما أكثر سوءاً. فلقد بقي في السرية ثلاثة أو أربعة جنود فقط. يتراءى الجنود الذين قُتلوا من سريتي أمام عيني بوجوه مُخضّبة بالحمرة ونظرات تستهجن كلّ شيء. ويغلبني البُكاء، لأنّهم كانوا فتياناً طيعين.

* * *

تمركزنا في قرية لاتيفية كبيرة. البيوت هنا مُتفرقة فوق أراضٍ مُنفصلة وحقول خضار ومراعي مواشي.

اغتسل جنودي جيّداً في حمام القرية، ثمّ حلقوا لحاهم ونظّفوا سلاحهم.

أوعز إليّ آمر الكتيبة بتقديم جنود من تشكيلتي الأكثر بلاء في موقعة شياوليا لنيل أوسمة.

فصففْتُ جنودي كلّهم، وعددهم اثنان وعشرون، وجلسْتُ أمامهم، وكلّفْتُ أحد آمري الحضائر بتسجيل طلبي. أن يمنح الهدّاف غيتادي سميرنوف وسامٍ لينين، والرقيب كوماروف وسام العلم الأحمر، وساخنوف أيضاً، مع أنّه لم يعد بعد من القرية. الصعوبة هي في إثبات أسماء المقتولين. فسألتُ الأحياء الباقين:

ــ ماذا جرى للجندي بوريس ألكساندروف؟

ــ قُتل بشظية قذيفة.

ــ ودولاييف؟

ــ رأيته مُنكبّاً على وجهه.

ــ مقتول أو مجروح؟

ــ لا أستطيع الجزم.

يجب الجزم في المعرفة. لأنّ الأهل ينتظرون رسالة ولدهم بالآهات والحسرات. فالورقة السوداء تكون قدرية بالنسبة للكثيرين. لذا لا أُرسل نعياً عند أقل شك في الموت. أنا لا أُحيي الموتى، لكن يجب أن أُفكّر في الأحياء.

الخريف حار، في شهر أيلّول. والحياة أيضاً من حولنا وإن كانت جريحة فهي حيّة.

رشّحْتُ جنودي لأعلى المنح الحكومية.

* * *

عاد ساخنوف.

عند المساء بينما كنّا نقوم بتدريبات في فناء ذلك البيت الذي أعيش فيه رأيتُ ساخنوف قادماً، راجلاً، حقيبته على كتفه وعصا خشبية في يده، يبتسم. فأسرعنا للقائه، نحن الباقين على قيد الحياة. فتأثّر.

ـ أنا لستُ قادماً من الأسر أو من السجن. تلطّفوا في احتضاني، ففي جعبتي بيض يتكسّر.

شرح لي كلّ ما جرى معه. رأيته وقد عاد الشباب إلى وجهه، بعدما شذب شاربه الكثيف وقصّره، وقطعة القماش البيضاء النظيفة تحت ياقة سترته يفوح منها شذا البيت.

في الليل أيقظني ساخنوف.

أخرج من جعبته زجاجة عرق جيّد وقال:

ـ عندي ما أقوله لك يا بني. لقد أرسلَتْ لك هذه الهدية زوجتي، اشرب وتمتع بها.

استغربْتُ. فقال:

ـ حالما وصلْتُ سقط حجرٌ على رأسي. فقريتنا مُهدّمة والناس يعيشون في كهوف تحت الأرض. لم يبق في الجمعية كلّها غير حصانين. فوجدوا في حصانيّ اللذين أخذتهما معي خلاصاً لهم. هبة من يسوع المسيح. وجدْتُ خالتي وثلاث أُسر، وغيرهم ممن تذكروني. ويلاه، إنّهم في حال فظيعة يا ولدي. تصوّر أنّهم تلقفوا البياضات والأحذية والسراويل التي كانت معي كأنّها هدية من السماء.

كنت أشرب العرق رشفة رشفة، وأنصُتُ إلى صوته المخنوق.

تأسّى ساخنوف قليلاً وقال:

ـ في اليوم التالي لوصولي تزوّجت. ماذا أفعل؟ ليس في القرية غير رجلين عجوزين أعرجين، وكثير من البنات الناضجات. غالينا فتاة عظيمة والله. أردْتُ أن يكون لي وريث فتزوجتها.

وضع ساخنوف أمامي بقسماطاً بيتياً ورأس بصل.

ـ أرسلتها لك غالينا. كُلْ بالهناء والصحة. سيكون لي ولد، أو كما يُقال: وضعْتُ الأساس.

فترة اعتلال الروح وتَفَتُّقْ الجروح.

ساخنوف عظيم. قال لي عند الصباح إنّه يُريد الانتساب إلى الحزب، ويخشى أن لا يقبلوه. فقبّلتُهُ، وطمأنته بقبول طلبه.

وبالفعل كتبتُ له طلباً للإنتساب إلى عضوية الحزب.

بعودة ساخنوف شعرْتُ بأنّ نصف خسارتي في سريتي قد تعوّضَتْ.

* * *

جهّز لي ساخنوف طعاماً مدنياً بالحليب والخُضار والبيض وقال:

ـ أعطيْتُ لقروي زوج أحذية لقاء هذا الحليب والبيض.

ـ ألم تخف؟

ـ لماذا أخاف؟

ـ ألا تذكر حادثة القرية يوم ذهبت لبيع حاجاتي؟ و...

رفع رأسه وقال:

ـ أذكر، لكن الظرف مُلائم الآن. ـ وسكب البيض المطبوخ ووضعه أمامي ـ كُلْ، إنّه بيض طري.

فسألته: ـ وهل كان القروي يملك ديكاً؟

قهقه ساخنوف:

ـ وهل كنت تظن أنّ دجاجاته أرامل؟ مهما يقتل الألمان من الذكور تبق بذرة الرجولة باقية إنتظرني حتّى ندخل وكرهم، ستراني أقتل كلّ رجل فاشيستي كلب، بل كلّ الرجال...

وإنقلب وجهه رهيباً. والحق معه، فلقد سبب لنا الألمان شقاءً فظيعاً، مع ذلك لا أتوقّع أن يكون بهذه القسوة التي يدّعيها.

نحن الآن في الرابع عشر من أيلول. بعد ثلاثة أشهر وأربعة عشر يوماً أبلغ الواحد والعشرين من العمر. كتابتي ثابتة.

وليمةٌ مُعكّرةٌ

وصلتنا تكملة من جنود عادوا من المُستشفيات بعدما شُفيَتْ جراحهم، ومعهم مُجندون جدد. فبدأْتُ بتدريبهم من الفجر إلى وقت مُتأخر من الليل.

وصلتني رسالة من مارو. كتبَتْ البنت فيها: ((اعطنا معلومات عنك، هل أنت في القتال أم لا؟ فإن كُنتَ في القتال، فاكتب لنا شيئاً عن الأحداث نطبعه في جريدتنا. كثيرون يفعلون ذلك)).

أضحكُ في سرّي. قد أكون مُقصراً، فأنا لم أكتب ولا مرّة أنني في القتال. لماذا أكتب؟ ولماذا أزرع القلق في قلوبهم؟

وبناءً على طلبها كتبتُ في رسالتي الجوابية: ((أنا موجود وسط القتال وهذا هو كلّ ما أستطيع كتابته. أمّا كيف يجري هذا القتال، فكما يوجد الرعب، يوجد الفرح. وليس القتال بذي بال. فنحن نتقدّم في كلّ يوم، حتّى حرّرنا كل لاتفيا وانتهينا منها. نحن نتطلع الآن إلى ريغا ونُقاتل من أجل تحريرها. صحّتي جيّدة وقوي كالفولاذ)).

كانت هذه أول رسالة لمارو.

كتبت لها رسالة ثانية في اليوم التالي: ((لا تنتظري عودتي إليك يا مارو. لقد ماتت كلّ المشاعر في داخلي ونسيت كلّ شيء، ولم يبق لي غير ذلك الشعور الوحيد الذي يدفعني إلى القتال، الرغبة في القتال، وهو ما لم أنسه. أنا رجل ما دمتُ جُندياً، فإذا تخليْتُ عن الجُندية أفقدُ الرجولة. وبما أنني أُريد أن أبقى رجلاً، فيجب عليّ أن أبقى جُندياً. ابصقي عليّ إذا شئْتِ، لكنّها الحقيقة. أنا جُندي وحسب، ولا أُريد أن أكون غير ذلك. انسيني ولا تكتبي لي بعد الآن، واعلمي أنني لا أُريد استلام رسالة من أحد.أُريد أن أبقى وحيداً مع جُنديتي. وما

الحبّ إلاّ غُبار نفضْتُهُ عنّي ونبذْتُ الشوق والغناء وكلّ ما يُشبه ذلك. أسعى لأنسى كلّ شيء، كلّ شيء)).

كتبتُ رسالة أيضاً إلى أُمّي:

((الحمد للّه، مازلتُ حيّاً، همّي هو أنتم. بغض النظر عن رسائلكم التي لا تقول شيئاً عن حالكم المعاشية، أعرف أنّكم تعانون كثيراً من نقص المال ومن نقص الملبس والغذاء. ليس بمقدوري الآن فعل شيء. فيدي لا تطول. وأنا أُرسل إليكم كلّ ما يدفعونه لي، لأنني لسْتُ بحاجة إلى المال هنا. أوصيكم بشيء واحد، هو أن تتحمّلوا الحال التي أنتم فيها. فلقد ذهب الكثير وبقي القليل. قد تنتهي الحرب اليوم وننتصر على العدو. بقيتْ أمامنا آخر ضربة قاضية نوجهها إليه وينتهي كلّ شيء. أظنّ أنّ ليس عند الأولاد أحذية ينتعلونها للذهاب إلى المدرسة، لا بأس، ما دامت الدروب جافّة فليذهبوا حُفاة، وفي الشتاء تتدبرين أمرك معهم بنعال خفيفة. لو رأيت الناس في الديار التي نُحررها لحمدت اللّه على ما أنتم عليه. ليس الغذاء والكساء وحدهما اللذان ينقصان الناس هنا، بل المأوى. دمر الفاشيون كلّ شيء، وامّحَتْ مدن بكاملها، فلا تسلي عن البيوت والقُرى. رأيتُ لاتيفياً يبذر في حقله حبّاً جاء به من أقصى البلاد. اصمدوا، فقريباً، وقريباً جدّاً تسقط ألمانيا الهتلرية)).

وكتبتُ أيضاً: ((سرنا كيلومترات كثيرة مع الحرب، وحرّرنا كثيراً من القُرى والمدن. وفي أوج حدة إحدى المعارك التقيْتُ تلميذي الخنزاخي موسيس بوغوصيان، وكانت لحظة سعيدة. الولد جُندي بارِع ومُقاتل شُجاع. أرسلتُ لكم مؤخراً ستمائة وخمسين روبلاً وأرسلتُ صورة لي مع زمرة من رفاقي حملة أوسمة)).

كانت هاتان الرسالتان هما الأكثر طولاً بين رسائلي التي أرسلتها سابقاً إلى البيت. فأنا في العادة أكتب سطرين، أنا بخير صحّتي جيّدة، ثمّ عنواني. مسكينة أُمّي ومسكينة مارو. ظنّتا أنّي في أمان، لم أدخل قتالاً ولم أُجرح ولم أر الموت، وهذا واضحٌ من رسائلهما. يبدو أنّهما خجلتا منّي أمام

الجيرانِ والأصحاب. لكن، لماذا؟ فأنا في وسط القتال وأكتب هذه الرسائل مُستنداً على أنبوبة مدفعي الذي مازال ساخناً من شمس الخريف.

أحضر لي ساخنوف طعاماً:

ــ هيّا، يا ولد، ابدأ الأكل.

طعامنا اليوم غني جداً.

* * *

استُدعيتُ إلى مكتب آمر اللواء، فأحسَسْتُ أنّهم يستدعونني لتكليفي بمهمة جديدة. أمرْتُ ساخنوف بسرج الخيول، واحترْتُ في أمري: هل أوّدع جنودي الأحبّاء أم أتريّث. تريّثت؟

وانساب حصاني وسط لون الخريف الأصفر. لكنني لم أكن أشعر بجريه ولا بروائح الخريف.

استقبلني آمر اللواء في مسكنه، وأوضح:

ــ رشحناك لمنحة وسام العلمِ الأحمر، هل لك علمٌ بذلك؟ لقد منحته لبلائك في معارك (شياوليا) المُظفرة.

ــ لا، لا علم لي يا رفيقي الجنرال.

كان الخبر جديداً علي حقاً. تبلّغ الجنرال خبراً من قيادة الجيش يقول إن القرار قد وقّع، فشدّ على يدي وقال:

ــ أُهنئك على وسامك الجديد، فأنت جدير به.

فوقفْتُ استعداداً وقلت:

ــ أنا في خدمة الاتحاد السوفياتي.

دخّن الجنرال، وراح يتفحصني بنظرته الصارمة، ثمّ قال:

ــ علمْتُ أنّك لا تُريد الالتحاق بالكليّة الحربية للتعلّم، فلماذا ترفض الاقتراح المعروض عليك؟

الجنرال يحكي وعقلي في مكان آخر. كنت أُفكر كيف سيستقبل أهلي في البيت نبأ نيلي الوسام الجديد، وكيف سيفرحون ويقولون

لجيرانهم إنّي بطل. وما هي بطولتي في (شياوليا)؟ كلّ ما فعلته هو أنني أديْتُ واجبي.

قدّم لي الجنرال سيجارة وقال:

ـ دخّن، وأجب على سؤالي. هل أنت مريض أم ماذا؟

ـ لا.

أسرعْتُ بالإجابة خوفاً من أن يظن الجنرال أنني سكتُّ بسبب فرحتي بالوسام، وتابعت:

ـ لا، يا رفيق الجنرال، أنا في تمام الصحّة. كلّ ما هنالك أنني لا أُريد ترك لوائنا الذي أعتبره بيتاً أبوياً لي، ولا أُريد الابتعاد عن سريتي وعن جنودي، فلا تجبروني على ما لا أُحبّه والذهاب إلى التعلّم.

فرفع الجنرال يده وقال:

ـ وإذا أُمرْتَ؟

ـ أُنفّذ الأمر، فأنا جندي انضباطي في كلّ شيء. لكن...

وابتسم الجنرال: حسنٌ، حسن، فليكن لك ما تُريده. يا لحرارة دمكم أنتم القفقاسيون. أنا أُحبكم كثيراً، لذا سأتركك في سريتك وأتمنّى لك النجاح. اذهب.

وخرجْتُ من عنده وقد نلتُ منه الوسام والرضى. ما أطيب قلوب هؤلاء الجنرالات!

* * *

حلمْتُ في المنام بملاك ذي شعر ذهبي يطير على حصان. هل هي شورا يا تُرى؟ وخرجْتُ من وراء الشُجيرات التي كنت أختبئ فيها وصحت:

ـ شورا...

فالتفتَتْ إلى الحصان بوجهها البرونزي وقالت:

ـ أُهنئك على وسامك الجديد.

ـ وماذا غيره؟

لكنّها ساطَتْ الحصان وطار بها بعيداً.

اختلّ حلمي واستيقظت، فوجدْتُ نفسي في فراغ لا معنى له. وصاح طيرٌ من مكان قريب:

ـ قد هربَتْ، قد هربَتْ...

نحن الآن في الثاني والعشرين من أيلول. بعد ثلاثة أشهر وستة أيام أبلغ الواحد والعشرين من العمر. كتابتي هاربة.

صليبُ آني

يوجد بين الجدد الذين جاؤوا إلى مُعسكري ثلاثة شُبّان أرمن. بعث فيّ وجودهم مرارة. فأنا لا أحتمل أن أرى واحداً منهم يُقتل بجانبي، والناس في الحرب يُقتلون. سألتُ الأول موشيغ عن بلده فاستفهم:

ـ هه؟ أنا؟

ومن لهجته عرفْتُ فقلت:

ـ عرفْتُ، أنت من منطقة قراباغ.

ثمّ التفَتُّ إلى لوسيغين، وقبل أن أسأله قال:

ـ هل تسألني؟

ومن لهجته أيضاً عرفْتُ أنّه من نخجوان الجديدة قرب روستوفا.

أمّا أنترانيك فأجاب بترفّع:

ـ أنا أرمني من هوموش.

لكن موشيغ سخر منه وقال:

ـ هذا ليس منّا، ليس أرمنياً.

ونظر ((هذا)) إلى موشيغ مُتحدياً:

ـ قل ذلك مرّة أُخرى وسترَ.

الثلاثة أرمن، لكنّهم لا يكادون يتفاهمون لاختلاف لهجاتهم. فأكدْتُ لهم أنّهم جميعاً أرمن فرّقتهم ((الظروف)). كان الثلاثة سُمر الوجوه كبار الأنوف.

كان مع الرقيب لوسيغين شطرنج يُجيد لعبته، وأراني على صدره سلسلة فضيّة تحمل صليباً وقال:

ـ هذا الصليب جاء به جدودي من آني عاصمتنا القديمة، فحوطتني أُمّي به، وهي مؤمنة بأنّه سيحميني.

لوسيغين من أحفاد مُشرّدي عاصمتنا القديمة آني. هاجر جدوده إلى القرم، ومنها إلى حوض الدون، يلمع على صدره وسام وأربع ميداليات حربية تشهد مع صليب آني الأرمني على شجاعته.

جنود سرية مدافع الهاون من قوميات مُختلفة. بينهم غجري وضع كلّ همّه في الخيول. وجد حصاناً جُرِحَتْ رجله، فعلق به وراح يُداويه أملاً في شفائه، وراح ينقله معنا إلى حيث نذهب.

قال:

ـ جئْتُ إلى الجيش مُتطوعاً. فإذا شَفيْتُ هذا الحصان وأخذته معي إلى قبيلتي، يكون لي قدر كبير عند قومي وأتزوّج أجمل بناتهم.

وتمنيْتُ أن يشفى حصانه.

* * *

اتجهنا صوب الغرب... إلى أين؟، نصل إلى المكان ونعرف.

في الطريق، سلّمني جنرالنا وسامي الجديد.

تلمّس لوسيغين الوسام وقال:

ـ نحن أرمن، ونفتخر بك أكثر فأكثر.

كنت في فترات توقّف القتال أو الترحال ألعب الشطرنج معه، وينشغل الجندي الغجري بمعالجة حصانه. نحن الآن في الثالث من تشرين الأول. شهران وخمسة وعشرون يوماً وأبلغ الواحد والعشرين من العمر. كتابتي بشكل نجم ذهبي.

بولونيا

دخلنا إلى بلاد جديدة، إلى بولونيا.

الثلج يُغطّي البلاد، ونُصادف في دربنا الخرائب.

عند حدود بلادهم الدولية قاومنا الألمان بشدّة.

قُتل الجُندي الأرمني الهوموشي. حزنْتُ عليه، أخذْتُ رفشاً، لكن لم أتمكّن من شق التراب فاستعنْتُ بلوسيغين وساخنوف وحفرنا بالفؤوس حفرة لدفنه. ولم أتمكّن من وضعه في الحفرة وهو باسطٌ ذراعيه المُتخشبتين مع جسمه، فجعلنا الحفرة على شكل صليب وأنزلناه فيها.

أهلْتُ التراب فوقه.

أُفكّر في الجُندي الأرمني الذي دفنّاه على الحدود الدولية. فليشهد قبره على أنّ جُندياً أرمنياً وقع شهيداً في سبيل تحرير الأرض ودُفن مصلوباً.

* * *

كنّا نغوص في الثلج حتّى الركبتين. أعطاني ساخنوف عرقاً، شربته على الريق، ذلك لأنّ عربتنا قد تخلّفتْ بعدما انغرزَتْ في كتلة هائلة من الثلج. لم يتمكّن البولونيون من مُساعدتنا، بل اكتفوا ببسط أيديهم مُتأسفين.

ــ لا يوجد عندنا خبز، ولا بطاطا. فقد أخذ الألمان في طريقهم كلّ شيء.

وحذّرتُ جنودي من أنّهم إذا حاولوا أخذ شيء بالقوّة فإنّهم يُقتلون بالرصاص. لكنّهم جائعون. فاتصلْتُ هاتفياً ببيرين وسألته:

ــ متى يصلنا الخبز؟

ـ لا أعلم، فنحن أيضاً في مثل حالكم.

* * *

مررْنا بالقرب من قرية، وجنودي لا يقدرون على الحركة. الجوع لا يحتمل الصبر ولا يفهم الانتظار. انغرزَتْ عربات التموين في الثلج على بُعد ثلاثمائة كيلو متر.

وجدنا خارج القرية بيتاً مُنعزلاً، قرعْتُ بابه. بعد قليل من الانتظار فتح لنا الباب رجل، بدا من مظهره أنّه بولوني. كان مكشوف الرأس وعلى شفتيه ابتسامة خوف وفي يده ملح وقطعة خبز.

ـ أمرك سيدي الضابط.

مكث جنودي في مزرعته. ورأيْتُ عنده عدة تيوس بريّة داجنة. قلت للرجلِ إنه يجب إطعام الجنود فهزّ رأسه: ((أمرك)).

سلّمني تيساً. ذبحه جنودي وطبخوه. وأعطانا البولوني خبزاً ورأس بصل، وأخذني إلى غرفته، وأراني صفيحة خمر، واستفسر:

ـ هل يُمكن إعطاء الجنود منه؟

يُمكن. فشرب البولوني من الصفيحة أولاً، ثمّ أعطاني أنا وأرسل الباقي إلى الجنود.

نحن الآن لا نشكو الجوع والبرد.

نمنا الليل بكامله. عند الفجر رجاني البولوني أن أُعطيه وثيقة تُبيّن أنّه أطعم رجالي بإرادته. فأعطيته، فقال ساخنوف:

ـ بعد الحرب ينال هذا البولوني بهذه الورقة شرفاً كبيراً.

ـ فلينل، لقد أطعمنا.

قابلتُ يرين. فسألني مُرتجفاً من البرد:

ـ ألا ترى شورا؟

فقلتُ قلقاً:

ـ لا، هل حصل لها شيء؟

ـ أرسلَتْ لها قيادة الجيش وساماً، وهي تخدم في الكتيبة الصحيّة. أخبرها إذا استطعت كي تحضر لاستلام وسامها.

زاد قلقي. فأنا لم أر شورا مؤخراً سوى مرّة واحدة، في يوم رحيلها، فأين هي الآن؟ وكيف حالها؟ آمل ألا يكون قد أصابها مكروه، لكنني لم أفصح ليرين عن قلقي. سوف أبحث عنها وأجدها.

* * *

ثلاثة أيام ونحن نخوض معارك طاحنة من أجل جسر على نهر غير كبير. لم يصمد الألمان بل هربوا من جديد نحو الشمال.

وصل التموين، وليس سوى الخبز والمعكرونة. فلا لحم ولا دهن. أفرغ ساخنوف المعكرونة في دلو وطبخها. نثرنا عليها ملحاً وأكلنا. شعرْتُ بأنّ ساخنوف يُريد أن يقول شيئاً. قال:

ـ لم أستلم رسالة من زوجتي وأنا أنتظر مولوداً.

ضحكْتُ وقلت:

ـ لقد تزوّجْتَ قبل ثلاثة أشهر، وأظنّ أنّ المولود لا يتشكّل في ثلاثة أشهر.

وصاح:

ـ لو أعلم فقط متى يحين موعده.

لم يتمكن الغجري من مُعالجة حصانه، فمات.

* * *

أعطاني ساخنوف خبزاً ألمانياً، لكنني رفضته، فأنا أكره حتّى التبغ الألماني. ثلاث سنوات ونصف ونحن نكره الألمانيين ونعتبرهم مُجرمين، فكيف آكل خبزهم؟ لا، لن آكل.

نحن الآن في الثامن عشر من تشرين الأول. بعد شهرين وعشرة أيام أبلغ الواحد والعشرين من العمر. كتابتي على ورق أوروبي صقيل.

بقرة البولوني

أفلتنا ذيل الألمان من جديد.

الثلج كثيف، والمشي ٍصعبٌ وثقيل. لا نقطع في اليوم أكثر من عشرة إلى خمسة عشر كيلو متراً.

بدَتْ لنا على يسارنا قرية فوق تل. أمرْتُ ساخنوف والغجري بالذهاب إليها وإحضار بقرة. أعطيتهما المبلغ الكبير الذي كان معي ثمناً لها وقلت:

ـ لا تُحضروا غير البقرة التي تشترونها. مفهوم؟

ركب ساخنوف والغجري وذهبا. عادا بعد ساعة يقودان أمام الأحصنة بقرة كبيرة بَلْقاء.

وصلنا قُبيل المساء قريباً من القرية، فوضعنا رحلنا. ذبحنا البقرة وطبخنا لحمها وأكلنا.

وليتنا لم نأكل. فقد خرج لحمها من نافوخنا. أيقظني ساخنوف. رأيتُ أمام مسكني شاباً حسن الصورة وامرأة بوجهين عابسين غاضبين. كانا عاقدين ذراعيهما على صدرهما ينظران إليّ في حقد.

قال الشاب صارخاً:

ـ يا سيّد، أخذتم بقرتي الوحيدة وذبحتموها وأكلتموها ولم تُفكّروا في معيشة أطفالي.

تحرّكَتْ شفقتي، لكنّها ضاعَتْ مع شعوري بالغضب. وسألت:

ـ ساخنوف... سوف أُحيلك إلى التأديب لعصيانك أمري. هل اشتريت البقرة أم اغتصبتها؟

نظر ساخنوف إلى البولونيين مُصفرّاً مُتأذياً وقال:

ـ لقد دفعْتُ لهما المال فلم يأخذوه. فتركته فوق صندوقهم وجئْتُ بالبقرة، وكانت عملية بيع وشراء.

وصاح البولوني من جديد:

ـ ماذا أفعل بالمال؟ البقرة هي باب معيشتنا.

وأخرج المال ووضعه أمامي. نحن في بولونيا ونتقاضى أجورنا بالعملة البولونية حسب حاجتنا، وكان هذا المال هو أجري.

ماذا أفعل الآن وأنا ابن القرية، وأعرف معنى البقرة لقروي فقير؟ ماذا أفعل؟ وجدْتُ الحل. أمرْتُ ساخنوف بإعطاء حصانين من الغنائم الألمانية إلى البولوني. فرح بهما كثيراً. فالحصان في هذه البلاد أغلى من البقرة.

لمّا أخذ البولونيان الحصانين قال ساخنوف:

ـ في الحرب يتحلّى المرء بالحنان ورقّة القلب.

ولم أُجبه.

استلم ساخنوف من زوجته غالينا رسالة ((سيدي وعزيزي زوجي. لو تعلم... لو تعلم كيف يُعلن ابننا عن وجوده تحت صدري... لو تعلم...)).

* * *

صار ساخنوف سيّد العالم. وهتف:

ـ هل تسمعٍ ماذا تكتب زوجتي؟ إنّه ابننا يُعلن عن وجوده.

قلتُ مسرورا:

ـ فليحفظه اللّه. لكن لا تنس قصة البقرة.

* * *

نحن في قرية بولونية وبيت بولوني.

تعبق في المر رائحة روث ورائحة بقر كريهة، وتفوح في الغرفة رائحة بطاطا ولفت يُطبخ. كوخ خشبي انحنى سقفه بسبب قِدَمْ

العوارض تحت ثقل الثلج. الثلج في الفناء ومن أطراف السطح تتدلّى نوازل ثلجية مُتجمّدة. في الخارج برد شديد والحرارة حسب تقدير ساخنوف ثلاثون درجة. أمّا الحرارة داخل البيت فهي ثلاثون درجة أيضاً. وبسبب ذلك صار هواء الغرفة ثقيلاً جدّاً منتناً. نفذَتْ إلى أنفي رائحة تعرّق من أغطية تُنشّف على المدفأة. يتألّف البيت البولوني من غرفتين واحدة عند المدخل، مُختنقة بألواح خشبية وجسور مكسورة حديثاً وسقف مُنخفض.

ويُبرّر رب البيت انخفاض السقف فيقول:

ـ لكي تبقى دافئة في الشتاء.

انسحبَتْ الزوجة والأطفال إلى الغرفة الأُخرى وتركوا هذه الغرفة لي ولساخنوفي وأربعة ضُبّاط آخرين من آمري المجموعات. أمّا رجالي فوزّعتهم على بيوت أُخرى.

قلتُ لرب البيت:

ـ سوف نبقى هنا حتّى الفجر فقط، ولن نسبب لك أي إزعاج، والله على قولي شهيد.

لكنّه أسرع فقال:

ـ وماذا لو بقيتم ثلاثة أيام؟ بيتي تحت تصرفكم وأنا أُحبكم وحق يسوع المسيح. بيتي ضيّق كما ترى وأنا أعتذر، سامحونا.

الروائح المُزعجة ثقيلة في بيت البولوني، لا أستطيع النوم، فأقوم في الليل ويُشعل لي البولوني سراجاً من فتيل زيتي تزيد رائحته مع رائحة قدمي الرجل الكريهة في نتانة البيت.

النوم مُستحيل. جلسْتُ للتحدّث مع رب البيت:

ـ كيف تعيشون أيّها السيّد البولوني؟

فزفر المسكين زفرة حرى وقال:

ـ مثل الكلاب. بقي الألمان هنا أربع سنوات فحطمونا تحطيماً. نحن نشكركم أيّها السوفيات إذ جئتم وطردتم الألماني النجس، هتلر عدو بولونيا. أطال الله عمركم يا ولدي.

شرب كلّ واحدٍ منّا كأساً من العرق ثمّ سألني:

ـ يقولون إنّه بقدومكم تأتي الشيوعية أيضاً إلى هنا، هل هذا صحيح؟

ـ لا أعرف، وما رأيك أنت في الشيوعية؟

فبسط ذراعيه وقال:

ـ ليس عندي أية فكرة عنها، فلا أعرفها، أنا رجلٌ فقير غير مُتعلّم، لكن يقولون إنّه...، إيه ما أكثر ما يقولون مما لا أفهمه. أنا لا أملك حصاناً ولا أرضاً ولا أملك خبزاً أيضاً.

قلت له:

ـ ما يقولونه معروف يا سيّد. لكنني أعرف شيئاً واحداً هو أنّهم يعطون أمثالك في الشيوعية بقرة وأرضاً. أي إنّ مَنْ لا يملك يجب أن يملك.

فهزّ البولوني رأسه وقال:

ـ هذا حسن، لكن يقولون، إنّ...

وهبَّ جنوني وقلت غاضباً:

ـ لا تُصدّقوا ما يقولون يا سيّد، اعقلوا، إنّه لمنفعتكم.

وعاد اللون إلى وجه البولوني:

ـ حقاً؟

أشفقْتُ عليه، ولمْتُ نفسي لأنني خاطبته بغلاظة. فهذا رجل أُمّيٌ فقير قصير نظر، وعليّ أن أوضح له الفكرة بهدوء، لذا قلت:

ـ اعلم أيّها السيّد المُحترم أننا نسير لنكسر شوكة عدونا وعدوكم. نسير حشوداً وراء ألمانيا لنقضي على الفاشية. أمّا أسلوب عيشكم فتُقررونه أنتم أنفسكم، أشئتمونه اشتراكياً، أو فردياً فهذا شأنكم، كما عشتم من ألف سنة. نحن لا نلفُّ قيداً على عنق أحد.

فنظر إليّ البولوني راضياً، وكأنّه لا يُصدّق أقوالي.

كنتُ أتحدّث مع البولوني بلغة نصفها روسي ونصفها بولوني. علماً بأنّ الروسية والبولونية هما من أصل واحد. ويمكن فهم البولونية باعتبارها روسية مُحرّفة، كاختلاف لهجات كلّ اللغات بين بلد وآخر.

يبدو أنّ الرجل قد اقتنع بأقوالي، وسُرَّ لأننا لا نُريد أن نلفَّ حول أعناق البولونيين قيوداً. ولم أشأ أن أحكي له عن حسنات الاشتراكية، لأنّ ذلك يُعتبر ((لفّاً)). الله معكم في عيشكم اشتراكيين أو رأسماليين، لكن حسّنوا هذا الكوخ وتخلّصوا من رائحة الفئران.

* * *

تقدّمنا ببطء. إعاشتنا وذخيرتنا تصل مُتأخرة. نُرسل الجرحى إلى الخلف على عربات من مُخلّفات أجدادي فتُصدر أصواتاً: دراخك ــ دراخك. أو على شاحنات أو زحافات.

نُشعل النار في خنادقنا دون حذر من الألمان، فنحن واثقون من أنفسنا غير مُبالين بالموت الذي صار عندنا شيئاً عادياً.

قُتِل أحد جنودي وهو يكتب رسالة. كان يلبس نصفية فرو وجراباً لبادياً جديداً. فأمرْتُ ساخنوف أن يخلعها عنه ويُعطيها الغجري الذي اهترأ جرابه واحترقَتْ نصفيته من نار الموقد وهو نائم.

وقلتُ:

ــ الأمر لم يتغيّر، وماذا تنفع الميّت هذه الأمور؟

دفنّا القتيل مع صورة عائلية له كانت في صدره كُتِبَ على ظهرها ((بابا هيّا عُدْ إلى البيت سريعاً)). لقد عاد. لم آخذ وسامه ولا بطاقته الحزبية. تركناهما معه ووضعنا خشبة على قبره تحمل عبارة (هنا يرقد بطل...).

نحن الآن في السابع والعشرين من تشرين الأول. شهران ويوم واحد وأبلغُ الواحد والعشرين من العمر. كتابتي على ورقة بيضاء كالثلج.

أيامٌ عصيبة

يُجبرنا البرد على عدم التوقّف.

فوجئْتُ بساخنوف يضرب الغجري ضرباً مُبرحاً، فأمسكْتُ بياقته وسألتهُ:

ـ بأيّ حقٍّ تضرب جندياً في الجيش الأحمر يا عجوز؟ أجب.

لكن ساخنوف نظر إليّ هادئاً ولم يُجبْ.

ــ آمرك بإعطاء الجواب.

أصرّ على الصمت وهو يلهثُ غاضباً. وتدخّل موشيغ:

ــ لا يُلام أيّها الرفيقِ المُلازم الأول. لقد أحسن صنعاً بضرب الغجري، لأنّه سرق حصاناً.

نظرت إلى الغجري مُشفقاً، وإلى ساخنوف الذي أخذ يُصلح ياقته التي أمسكُها. أكد لي الغجري أنّه سرقه من قرية مُجاورة وقال:

ــ آه، سُرعان ما ينتهي القتال، وأعود إلى قبيلتي وأنا لا أملك حصاناً.

نظرت إليه مرّة أُخرى راثياً وإلى ساخنوف مُعتذراً ومُستشيراً. وأنقذ ساخنوف الموقف مرّة أُخرى بقوله:

ــ السرقة شيءُ لعين.

فرك الغجري خدّه المُتورّم من الضرب ويقول:

ــ سرقة الحصان ليست سرقة، أنا غجري.

ونظر ساخنوف إليّ متوسلاً:

ــ مره بأن يُعيد الحصان إلى حيث سرقه، وأنا أعلم أنّ سرقة الحصان ليست بأمرٍ ذي بال. ومع ذلك فلا أستطيع احتمال ذلك.

أمرْتُ الغجري وساخنوف بأخذ الحصان وتسليمه إلى أهل القرية التي سرقه منها. نفذ ساخنوف الأمر، وسحب الغجري من يده وهو يقول:

ـ هيّا بنا نذهب.

أعادا الحصان ورجعا.

وعاد ساخنوف إلى عمله بالهمّة نفسها. قلتُ له إنّه ضرب الغجري بلا رحمة، وإنه لم يندم على ضربه، فلماذا فعل ذلك. قال:

ـ لو وجدتُ مَنْ يضربني من دون رحمة وأنا في الرابعة عشرة يوم ارتكبْتُ أول سرقة لما رأيْتُ وجه السجن في حياتي.

* * *

لقد أسرنا أسرى من الألمان.

ففي الليل حاصرنا مزرعة صغيرة، وفي الصباح هجمنا على هتلريين تحصّنوا فيها. استسلموا لنا عند الظهر، وكان عددهم اثنين وثلاثين، كلّهم من نصيب سريتي وحدها.

كان الألمانيون يتدثرون بأسمال بالية. فلمّا تضايقوا ألقوا السلاح ورفعوا أيديهم مُستسلمين. لكنّ جنودي استقبلوا استسلامهم هذا بالحذر والصمت والاستغراب. ووجدوا بينهم اثنين مجروحين. لفّ ساخنوف جراحهما وأعطى كلّ واحدٍ منهما رشفة عرق.

ونحن في أمرنا هذا، ظهر يرين على زحافة مع مُدير أعماله، فحاولتُ التقدّم منه لشرح سير العمليات الحربية، لكنّه أشار إليّ بعدم الإقتراب، تقدّم هو ووقف أمام الأسرى وزفر:

ـ ها قد وقعتم في أيدينا. سوف.... كم...

وأخرج مُسدسه وصاح:

ـ أبيدوا الكلاب.

لم يُطلق النار. الألمان ساكنون وجنودي شاخصون حائرون، ينظرون إليّ حتّى صاح يرين ثانيةً:

ـ أبيدوا الكلاب.

لكنّه أعاد مُسدسه إلى جرابه، ونظر إلى الأسرى بقسوة وقال:

ـ قد لا تعرفون أنّكم ستُبادون، لأنّكم لم تُدركوا ما فعلتم في هذا العالم. بماذا تَردون على ضمائركم إنْ كنتم تعرفون معنى الضمير؟

ثمّ استدعى رئيس شعبة التموين وأمره بإطعام الأسرى الألمان. نظر الألمان إلينا هادئين من دون اهتمام. جاؤوهم بالطعام. وجلس يرين في زحافته وذهب.

أرسلنا الأسرى إلى الخلف.

الليل مُنار بلهيب نيراننا.

نخوض الآن معركة من أجل بلدة يقصفوننا منها بالمدافع.

دفنّا خمسة من جنودنا. قبورنا في أرض بولونيا تحمل علامات على شكل نجوم. ثبَّتَ ساخنوف العلامات بحيثُ صارَتْ على شكل صليب. وثبَّتَ النجوم على رأسها، ثمّ أعطاني ورقة وقال:

ـ هذا عنوان غالينا. ألا ترى أننا نُقتل دائماً؟ فإذا قُتلت اكتب لها، ولقد أشرْتُ في الورقة على ما يجب أن يُسمّى ولدي.

فقلتُ مُعاتباً:

ـ ما هذا الحمق الذي تتفوّه به يا ساخنوف؟

لكنّه أشار إلى القبور الطرية وقال:

ـ إسأل هذه.

وكتبتُ في ذلك اليوم رسالة إلى زوجة ساخنوف من دون علمه أقول لها فيها: عجّلي بولادة وليدك لتُفرحي رفيقي في الكفاح ولو مرّة واحدة في حياته.

نحن الآن في الثاني من تشرين الثاني. شهر واحد وستة وعشرون يوماً وأبلغُ الواحد والعشرين من العمر. كتابتي على شكل صليب وهيئة نجمة.

عام النصر 1945 يشتدُّ البرد

ما أوسع بلاد بولونيا. نسير ونسير ولا نصل إلى حدود ألمانيا. لكن الذنب ذنبنا. فالبلاد لا تُقطع بمسيرة عشرة إلى خمسة عشر كيلو متراً في اليوم، هذا مع المعارك التي نخوضها في سبيل هذا التقدّم.

قُتِلَ أربعة عشر جندياً من جنودي، وجُرِح سبعة عشر. في بعض مجموعات مدفعيتي بقي ثلاثة إلى أربعة جنود فقط.

البردُ شديد والطريق أمامنا مع القتال طويلة.

تحطّمَتْ عربتي وبقيْتُ بلا حصان ولا عربة. فحمَّلْتُ كلّ واحد من جنودي ثماني قذائف، وحملنا مثلها أنا وضُبّاطي وساخنوف.

* * *

مررنا بقرية. شمّ ساخنوف في بيت عند مشارفها رائحة حصان، فأمرْتُ بإخراج الحصان البولوني وشدّه إلى عربة المُزارع. خرج المُزارع البولوني مع ابنته... كانت عجيبة. ففي هذه البُقعة الصمّاء النائية تعيش لوزة مُتفتحة. قدّمَتْ لنا جعة وقالت إنّها صنعتها بنفسها، وابتسمَتْ بعينين بنفسجيتين، فسألتها:

ـ كيف جرى ولم تطلكم جحافل الألمان يا سيّدة؟

أجابت:

ـ لقد أخفاني أبي يا سيّد وأخفى حصاننا وعربتنا أيضاً. وإلاّ لجرجرونا معهم.

ـ سيّدتي: على كلٍّ حال سوف آخذ حصانكم وعربتكم، فأنتم طيبون وجعتكم طيّبة أيضاً. جنودي ينوءون بحملهم، وهي الحرب، ولا يُرضيكم أن يتعبوا أكثر.

وابتسمَتْ البنت من جديد وقالت:

ـ سنُساعدكم ولا شكّ أيّها السيّد. لكن بشرط أن يذهب أبي معكم حتّى يوصلكم إلى مكانكم، ثمّ يعود بالحصان والعربة.

ساعدَتْ أباها على ربط الحصان. وتخفف جنودي من حملهم، ودعوا لهما بالخير.

سرنا. ونادَتْ البنت أباها من ورائنا:

ـ دادوش، حمّل لنا العربة في عودتك حطباً من الغابة.

البولوني ذكي مُتزن وهادئ.

قال:

ـ لا يسعني إلاّ أن أُساعدكم، فأنتم بحاجة، ولكن اعلموا أنني سأعود بحصاني وعربتي عند أول محطّة.

بعد عشرين متراً اصطدمنا بمؤخرة الجيش الألماني، واضطررنا إلى اتخاذ مواقع دفاعية.

طلب البولوني أن نُعطيه وثيقة بأنّه ساعدنا في نقل عِددنا القتالية على عربته وحصانه، فلبيْتُ طلبه. وطلب أيضاً ختم الوثيقة ففعلت. أبدى الرجل امتنانه رافعاً قُبعته وذهب. وهزَّ ساخنوف رأسه:

ـ رجل عاقل. سيُصبح بهذه الوثيقة سيّد القرية بعد الحرب. إنّه يستحق أن يصير مُحافظ مدينة، فلقد ساعدنا، وفي بيته لوزة تُزينه.

* * *

ظهرَتْ شورا بفروة نصفية وجوارب لبادية، شامخة برأسها حسب عادتها دائماً وهي مُتلهفة وقالت:

ـ ابنة البولوني ذات عينين ساحرتين، أليس كذلك؟

أجبْتُ:

ـ وهي كذلك، لكن عينيك دافئتان، ثاقبتا النظر.

فابتسمَتْ قليلاً وقالت:

ــ أنت لم تنسِ عيني إذاً؟
أجبتُ مُستغفراً:
ــ كيف أنساهما؟ والآن كيف حالك؟
أجابت وفي صوتها غصّة:
ــ أنا مُمتازة، وأنت؟
ــ أُفكر فيك دائماً.
فقالت ساخرة:
ــ أرى ذلك في عينيك، ولكن ليس الذنب ذنبك، فمركزُنا الطبّي بعيد جدّاً عنك. أكثر من خمسة كيلو مترات.
ذهبْتُ. سرْتُ شارد الفكر لا أنتبه إلى الطريق، وإذا بساخنوف يصيحُ بي:
ــ انتبه، سوف تقع في الحُفرة.
ما أكثر الحفر في الدنيا.

* * *

احتلَّتْ كتيبتنا اليوم اثنتي عشرة قرية. فجاء آمر الكتيبة إلى سريتي وقال:
ــ اسمع يا بطل. على يمينك قرية كبيرة. توقّف هناك وانتظر التكميل، فقد ترتاح ثمانية أيام.
لا أُريد ثمانية أيام، بل يكفيني نصف يوم. وإنعطفْتُ مسروراً حسب الأمر.
حقاً إنّها قرية كبيرة، بيوتها مُتفرقة. رأيتُ بيتاً عالياً، فشققْتُ طريقي في الثلج إليه.
ــ هه، يا سيّد.. اخرجوا واستقبلوا الضيوف.
فخرج شيخ أبيض الشعر يرتدي صدرية وبيده خبز وملح.
ــ أوه، أهلاً بكم سُررْتُ جدّاً برؤيتكم.

في بهوين واسعين من بيته أقمْتُ مقاسم خشبية وأسكنْتُ جنودي فيها. اخترْتُ لنفسي الكوخ المُجاور الذي يسكنه عامل فقير استقبلني بحرارة أكبر.

* * *

وصل التكميل، وأوعزْتُ إلى آمري المجموعات بتدريب الجنود الجدد. أمّا أنا فذهبْتُ مع ساخنوف لأتجوّل في القرية التي وضِعَتْ تحت أمري.

رأيْتُ في نوافذ البيوت بنات يبتسمن لنا، فقال ساخنوف بخُبث:

ــ انظر إلى الشياطين، إنهنّ يغوين آدم العجوز. ماذا أقول لغالينا؟

* * *

تعطَّلَتْ ساعتي، فأشار لي مُضيفي العامل جوزيف إلى بيت يوجد فيه ساعاتي.

كان الساعاتي أصلع، سمحاً جدّاً وعجوزاً. أعطيته ساعتي. لمحْتُ امرأة جميلة تظهر عند عتبة الغرفة المُلاصقة لمشغله، في ثياب بيتية، وعلى وجهها ملامح أنفة مُميّزة، وفي عينيها الجذابتين قلق دفين. تحمّس الساعاتي:

ــ هذه هيّ السيّدة مارتا سيّدي الضابط. إنّها من نجوم المسرح في وارسو. هربَتْ من هتلر وهيّ هنا منذُ ثلاث سنوات.

ابتسمَتْ الفنانة برقّة وقالت:

ــ يسرّني أن يدخل السيّد الضابط إلى غُرفتي.

فتبعتها. كانت الغُرفة تعبق برائحة نسوية حارّة ضايقتني، فأنا لم أعتد على مثل هذه النعومة. قدّمَتْ السيّدة مارتا لي شاياً من دون سُكّر. شربته دالقاً نصفه.

سألتني السيّدة مارتا:

ـ هل الخدمة العسكرية صعبة؟

ـ عادية بالنسبة لي.

فنظَرَتْ إليّ بدلال وقالت:

ـ لكنّك ما تزال غراً.

عندما عدْتُ إلى مسكني أمرْتُ ساخنوف بأن يحمل حصّتي من السُكّر لثلاثة أيام إلى السيّدة مارتا. امتعض، لكنّه نفّذَ أمري. عندما عاد كانت على وجهه دهشة حمل.

ـ أنا لم أر مثلها في صور القديسين القُدماء وحق المسيح. لقد أرسلت لك تلك السيّدة هدية. إنّها زهرة اقتلعتها من مزهرية كانت في غرفتها وأرسلتها لك. كانت الزهرة زرقاء جميلة لا شذا فيها، حبيسة الشتاء.

نحن الآن في السادس والعشرين من تشرين الثاني. بعد شهر واحد ويومين، أبلغُ الواحد والعشرين من العمر. كتابتي بلا رائحة.

بعد العُرس

رجوْتُ العامل جوزيف أن يجد لي عرقاً، فأعلمني أنّ وجود العرق صعب جداً. لكنّه يستطيع أن يصنع لي عرقاً إذا زوّدتُهُ بطحين.

أبعدْتُ الفكرة من ذهني، إذ لا مُبرّر لهدر الطحين في سبيل العرق. فرضي ساخنوف عنّي كثيراً، إذ ملَّ العرق هو أيضاً.

لكن جوزيف وجد لي زُجاجة عرق وقال:

ــ اشرب نخب النصر يا رفيق.

ودعوْتُ آمري المجموعات. فشرب كلٌّ منّا رشفة واحدة مُتمنين لبعضنا بعضاً النصر حتّى فرغت الزُجاجة.

استدعوني إلى قيادة الكتيبة، فشدَّ ساخنوف زحافتي إلى حصان وقال:

ــ يبدو أنّهم رفّعوك إلى مرتبة أعلى وهم يستدعونك من أجلها.

توقعه معقول ولكن.

* * *

لكنّهم استدعوني لأمر مُختلف تماماً. رأيتُ ضابطين من القيادة العامّة للجيش قدِما في مهمّةٍ هامّة، وكان جنرالنا أيضاً في مركز القيادة.

انتهى الاجتماع عند مُنتصف الليل.

خرجنا لتفقّد قطعات الجيش، فدخلْتُ إلى زحافتي. قال الجنرال لآمر كتيبتنا:

ــ الطقس بارد، حبّذا لو نشرب كأساً من العرق.

فبسط آمر الكتيبة ذراعيه وقال:

ـ من أين؟ والشُربُ من عرقٍ مُصنّع في البيوت ممنوع بأمر.

فناداني الجنرال:

ـ آ، أنت يا قفقاسي، بماذا تُكرم ضيوفك؟

أجبْتُ:

ـ بالماء رفيق الجنرال. ماذا غيرذلك؟

فدعا الجنرال الضيوف إلى زحافتي وقال:

ـ لنذهب إلى قفقاسنا، فقد يتدبّر شيئاً يُكرمنا به.

وانضمّ إلى الضيوف آمر الكتيبة ورئيس مكتب القيادة ويرين. أخذتهم إلى مسكني وأجلستهم حول الطاولة. كانوا بردانين مُتعبين.

وضعْتُ نصف العرق على الطاولة. فبدأ الجنرال، وشرب بشهية ثمّ قال وهو يمسح شفتيه:

ـ مُدهش. ليس الشُرب مُمتعاً بحدٍّ ذاته. لكن هنا وفي هذه البلاد الغريبة لابُدَّ للمرء من مئة غرام يشربها لينتعش.

وشربنا تلك الليلة شاياً كثيراً.

* * *

مكان جنودي دافئ وأنا أُدربهم بحماسة.

في أحد الأيام جاء إلى مُعسكري في القرية ابن صاحب البيت الذي ننزل فيه. كان شاباً طويل القامة، له عينان صفراوان. كلامه مُهذّب ومشيته مُتزنة. صافحني بحرارة وقال:

ـ نحن ننتظر مجيئكم منذُ مُدّة طويلة، فأنتم منقذو بولونيا، ونحن البولونيون مدينون لكم أنّكم أنقذتمونا من الفاشيين.

لكنني لم أرتح إليه، راودني إحساس بأنّه مُنافق، وشككْتُ به. لم يُعجبني هذا الشخص، وأوعزْتُ إلى رجالي بالحذر منه. ودأب في كلّ لقاء لنا على أن يقول:

ـ أنتم المُنقذون.

وبتُّ لا أرغب في أن يظهر هذا الرجل أمامي.

* * *

جاءني القس كاهن القرية مع العُمدة وقالا:

ــ في قريتنا عُرس وأنتم مدعوون. وإذا لم تحضروا تجرحون شعورنا.

يجب إذن أن نحضر. فحلقْتُ لحيتي ولمَّعْتُ أحذيتي، وذهبْتُ مع ساخنوف. حملْتُ معي إلى العروسين خمسة كيلو غرامات من السُكر هدية مع الشاي. سُرِرْتُ لرؤية السيّدة مارتا في مكان العُرس. فقبّلَتْ وجهي وقالت:

ــ أوه يا عزيزي، كم سُرِرْتُ لأنّك أتيت.

كان العروسان في ثياب العُرس يقفان تحت شجرة غار مُزدانة بالشموع.

وباعتباري ضيف شرف أجلسوني بين الكاهن وبين صاحب بيتي وهو عمدة القرية وحاكمها. أمّا ساخنوف الذي أحضر معه رُشيشه تحسُباً للطوارئ، فقد وقف ورائي وأوصاني بالإقلال من الشُرب.

كان بين الشباب ابن صاحب البيت أيضاً، ذلك الشخص الذي أكرهه.

إنّه العُرس. الكلّ يرقصون ويُغنون ويشربون قليلاً.

وأشارَتْ السيدة مارتا إلى نجمة قُبعتي، وقالت على مسمع من الجميع:

ــ هؤلاء الرجال هم الذين خلّصوا البولونيين وبولونيا من الفاشيين وهمجيتهم، فلنُقدّم لهم الاحترام.

لم أتذوق جرعة واحدة من المشروب. آنستني السيّدة مارتا ولم تترك لي سبيلاً إلى الملل، وأسبغَتْ عليَّ روحاً سامية جميلة، لا يفهمها شرقي مثلي. وقالت:

ـ سوف أعود إلى وارسو قريباً. علينا أن نبني بولونيا من جديد. يا الله، لو تعلم كم أنا سعيدة.

رقصْتُ مع السيّدة مارتا.

عند الفجر استأذنْتُ من المُعرسين وخرجت.

رافقني العُمدة، وكان ثملاً يضحك ويتكلّم دون توقّف. ولمّا اقتربنا من بيته رجاني أن أدخل إليه وتوسّل:

ـ سيّدي الضابط، أرجوك اسمح لي بدقيقة واحدة تشرب فيها كأساً من العرق وتذهب. لن أستقبلك أكثر من دقيقة.

وراح يرجو ويتعلّق بي بشكل أخجلني وجعل ساخنوف يطلب إليّ مُسايرته وعدم رفض طلب العُمدةً. شربْتُ كأساً من العرق وأكلْتُ لحماً مُدخّناً ومضيت.

* * *

جئْتُ مع ساخنوف إلى مسكني وقد طلع ضوء الصباح.

فجأةً شعرْتُ بمغص أليم في معدتي. أحسسْتُ بأمعائي تتقطّع ودار رأسي. انحنيْتُ ماسكاً بطني.

ـ ساخنوف، لقد سمموني. ناد موشيغ فوراً.

وضجّ جوزيف وزوجته وعامل هاتفي. بدأ وعيي يغيب مرّةً ويحضر أُخرى.

رأيْتُ وجه موشيغ المذعور وسط الضباب الذي غشى عيني.

ـ موشيغ، أسرع، هات لي لبناً، هيّا إليّ باللبن الرائب.

وتجمّع جنود السرية في غرفتي وسمعْتُ ساخنوف يصيح:

ـ سممه عُمدة القرية، اقبضوا عليه.

لمحْتُ أمامي دلواً فيه شيء أبيض، وموشيغ يهزُّ كتفي ويأمرني:

ـ افتح فمك، إنّه حليب مُحمّض يُشبه اللبن الرائب. اشرب، اشرب.

بدأْتُ أشرب بنهم. وخطرَتْ ببالي ذكريات بعيدة عمّا كانوا يفعلونه في جبالنا عند التسمم. كانوا يُعالجونه بالحليب، مثلما فعلْتُ الآن. ورحْتُ أشرب وأتقيأ. ثمّ حملوني إلى الزحافة. رأيْتُ لهيب النار، استفسرْتُ فصاح موشيغ:

ــ لقد أحرق ساخنوف بيت العُمدة وفقأ عينيه.

لا أرى على الطريق البيضاء أمام عيني غير قوائم حصاني.

تعرّفْتُ في الكتيبة الصحيّة على جنرالنا وهو يروح ويجيء في الرواق. سمعْتُ صوته يسأل:

ــ هل هو حي أم ميِّت؟

ونزَلَتْ غشاوة على عيني، ودبَّ الغثيان في معدتي، وغبْتُ عن الوعي.

* * *

بعد ثلاثة أيام فقط تمكنْتُ من الوقوف على رجلي. رأيْتُ شورا عندما فتحْتُ عيني تضع كمادات على جبيني.

ــ لقد أنقذك الحليب الحامض. سمموا اثني عشر ضابطاً في تلك الليلة، مات منهم ثمانية. كيف تذهب إلى العُرس وإلى زيارة مَنْ هبّ ودب ونحن مُحاطون بالأعداء؟

كانت تتكلّم وأنا أنظر إليها وإلى عينيها مولهاً، فقد جعلتها الأزمة طفلة محبوبة، محبوبة إلى أبعد الحدود. أمسكْتُ بيدها المُرتعشة فسألتني:

ــ مَنْ هيّ تلك الفنانة التي قابلتها؟

لم أرد، بل تابعْتُ الشدَّ على يدها التي زاد ارتجافها.

* * *

شُفيتُ وعُدْتُ إلى سريتي.

لم يجد ساخنوف صاحب البيت ولا ابنه فقد هربا بعد فعلتهما. والأفظع هو أنّهم وجدوا السيّدة مارتا مقتولة بخنجر.

* * *

تلقيْتُ الأمر بمُغادرة القرية.

ودّعني جوزيف وزوجته باكيين وقال لي جوزيف راجيّاً:

ـ أيّها الرفيق الطيّب: لا تغضب على البولونيين ولا على بولونيا، فالذي تسبب في تسميمكم عميل من أعداء بولونيا. تذكّر أيّها الرفيق بولونيا بخير.

نحن الآن في الرابع من كانون الأول. بعد أربعة وعشرين يوماً أبلغُ الواحد والعشرين من العمر. كتابتي مسمومة.

وها هو جُحرُ العدو

منذُ عام واحد وأربعين ونحن نقول همساً بأننا سنخنق هتلر في جُحره، وإن كنّا آنئذٍ لا نستطيع الجهر بقولنا، لكننا كُنّا واثقين مما نقول.

وها قد جاء اليوم الذي كُنّا نُمهّد له.

نحن نتوجّه الآن إلى الشمال الغربي، إلى مدينة كونيغسبورغ في بروسيا الشرقية.

البرد يدفعُنا إلى التقدّم، والقُرى مُهدّمة من حولنا.

تصدّى لنا الألمان من فوق التلال، فضربونا ومزقونا وشتتونا، ومنينا بخسائر كبيرة، فشغّلتُ مدافعي وحطّمْتُ مواقع العدو، كما وصلَتْ مدافع الميدان لدعمنا. أوصيْتُ ساخنوف أن يُجهّز لي مرصداً متيناً.

فقال مُتكاسلاً:

ـ لماذا؟ سوف نتقدّم بعد قليل.

قلت:

ـ لا أعتقد بأننا سنتقدّم بهذه السهولة، فالجهة الثانية من التلال أرض ألمانية، ولسوف تجري في هذا المكان معارك استماتة متواصلة.

ورفع ساخنوف عن أُذنيه حاميات الآذان ورماها في الهواء وقال:

ـ تعني؟ تعني أنّها ألمانيا.

هكذا فرح بحّارة كولومبوس عندما وصلوا إلى أمريكا. وأطلق ساخنوف مشطاً من الرصاص من رُشيشه باتجاه مواقع الألمان.

فضحكْتُ وقلت:

ـ هل تظنُّ أنَ رصاصك قد وصل إليهم؟ غطِّ رأسك يا ساخنوف قبل أن تبرد فما زال الوطن بحاجة إلى رأسك.

* * *

يا إلهي! ما هذا السرور الذي وضعته في الثلج وفي قلوبنا! ها نحن أمام أعتاب العدو. هل أُصدّق بأننا في ألمانيا وسندخل جُحر عدونا؟

نعم، نعم. هذا هو وكرُ العدو، ونحن عند أعتاب هذا الوكر.

لسنا أول الداخلين، وما هو باليوم الأول الذي تدخل فيه قواتنا إلى بروسيا الشرقية. ففي الثامن عشر من تشرين الأول سبقتنا إلى هذا الشرف جيوشنا التي عبرَتْ الأرض الرمادية، ومهدَتْ لنا الطريق إلى الوكر الذي اختصّ بالنزعة الشريرة والروح الرمادية.

هذا وكرُ بومة الفاشية يا ناس.

أمامي نهر غير كبير، ثمّ مُرتفعات على ضفّة النهر يليها سهل ألمانيا. رأيْتُ شجرة مقسومة إلى نصفين مُمدّدة على الثلج. وراءها حاجز تُرابي يتستّر بشُجيرات كرزٍ قزمة، يبرز منها حدّ سقف هرمي فوقه مدخنة أُسند عليها عمود تعلّقتْ به أسلاك هاتفيّة وبرقيّة.

هذه يا ناس حاضنة فراخ الفاشية.

تُربة عاديّة، بُقعة رماديّة سوداء، مُستنقعات قليلة وغابات قليلة، ثلجٌ كثير، ثلج. تُربة عاديّة. أنا لا أحقد على الأرض لأنّها ألمانية. إنّ حقد جسمي الضئيل (نعم جسمي) هو على التُربة التي أنبتت حديثاً هذه البذرة الضارّة الفاشيّة.

ـ هذه حضانة الفاشيّة يا ناس.

هل يسمع الناس صوتي؟ رُبّما. وإذا كانوا لا يسمعون، فأنا على الأقل أُسمع صوتي نفسي. نعم أسمع صوتي.

أشعل جنودي النار وجلسوا حولها آمنين يُجففون ملابسهم.

الآن يحفرون الخنادق بأيدٍ خبيرة.

تحت أقدامنا أرض بولونية، وأمامنا ألمانية. كُنّا قد دخلنا بولونيا من الجنوب الغربي من ليتفا. أمامنا الآن وعلى بُعد مائة كيلو متر مدينة يوهانسبورغ الألمانية، بُحيرات مازوريا. علينا الهجوم في هذا الاتجاه.

فرقع رشاش ألماني خلف شجرة مشقوقة وإذ بالرصاصات تطير من فوق رؤوسنا وتسقط في مكان بعيد غاطسة في الثلج. جنودي مُستمرّون في جلوسهم حول النار بأمان يصنعون الشاي من ماء الثلج. الطقس بارد، والماء المغلي يُدفئنا.

* * *

هذه حرب ذات طبيعة مُختلفة تماماً. أقف في مواقعي أُصدر الأمر إلى جنودي:

ــ على جُحر هتلر عشر، عشر قذائف، نار...

فيرعد الهواء ويتحمّس ساخنوف ويسأل:

ــ هل توجد منطقة سكنية في الطرف الآخر من التل؟

أجبْتُ:

ــ توجد طبعاً، وماذا ستفعل؟

ــ سأحرقها وأُحيلها رماداً تماماً مثلما فعلوا بقريتنا.

صدّقته، فلقد هدموا بيته وعطّلوا عينه التي تدنّتْ قوّة إبصارها إلى حدٍ كبير. ولا أكون على حق أو عادلاً إذا منعته. عندما ذهب في آب إلى قريته مسقط رأسه لم يجد فيها غير الخراب فكيف أمنعه؟ ولماذا أمنعه من تدمير قُرى هتلر؟ وأُصدر الأمر من جديد:

ــ على جُحر هتلر عشر، عشر قذائف نار...

وترعد السماء المُتجمّدة.

أنا لا أوفّر القذائف، لأنّ المرارة المُتأصلة في قلبي وعضة العذاب تُمزقني فأنسى نفسي وأُصدر الأمر من جديد:

ــ نار...

تطير نيران مدافعي مُنسابة فرحة وتسقط فوق مواقع العدو لتبكي وتنتحب. آه، يا كلب يا ابن الكلب، ألم تُفكّر بيوم يأتي ويبرك فيه الجمل الأسود على باب غارك؟ جئْتَ بدباباتك تُريد أن تذبحنا وتبيدنا، فكيف حالك اليوم يا هر ألمانيا؟ هيّا اصمد وانتظر تقطيع أوصالك.

* * *

لم يتوقّف قتالنا طيلة أيام ثلاثة، هجمنا فيها على التل ثلاث مرّات، في كلٍّ مرّة يصدُّنا الألمان.

بدأنا الهجوم الرابع.

وخرِسَتْ التلال الألمانية.

وفي الصباح اعتلينا قمة التلال التي استولينا عليها، فداس ساخنوف على أرض العدو وبصق.

ـ الموت لك يا وكر قاتل البشر، مُتْ، مُتْ...

وراح يبكي.

* * *

دخلنا أول قرية غير بعيدة عن النهر بحذر. التففنا حولها أولاً، ثمّ تغلغلنا بين بيوتها. وكان اليوم شتوياً مُشمساً.

لا يوجد بيت واحد مُتضرر في القرية. كما لم أر قرية سالمة من ضفاف الفولخوف حتّى هنا. وعدم تضرّر هذه القرية عجيب لدرجة أنّ نوافذها لم تتكسّر.

راح جنودي ينظرون بحقد إلى هذه البيوت.

لا يوجد بشر في القرية. هناك بقرات بَلْقاء تسير شاردة في الطرقات، وكلب ينبح عند مدخل بيت، وبعدما نبح طويلاً وملَّ تسلّل إلى البيت

داخلاً. وعلى الثلج ديكان يتقاتلان لونهما أحمر. ومن اصطبل كوخ قريب سمعْتُ همهمة حصان.

لا يوجد أحد.

تقصيْتُ في الدرب وعلى الثلج آثار عجلات عربات، واتضح لي أنّهم قد تركوا القرية قبل وصولنا بقليل.

دخلْتُ إلى أول بيت. كلّ شيء في مكانه الطبيعي، حتّى الساعة على الحائط كانت تُشير إلى الثانية عشرة وخمس وعشرين دقيقة بتوقيت أوروبا.

ـ هذا هو وكرُ النازية يا ناس.

وجدنا على جدار غرفة صورة مُعلّقة لأدولف هتلر.

من ستائر هذا البيت الرماديّة تفوح روائح رماديّة أيضاً. والمدفأة الجدارية ما تزال دافئة. في ركن من البيت صورة للعذراء تحتضن يسوع الطفل. بجانبها شمعتان مُشتعلتان. تنظر إلى مريم العذراء نظرة طهر فأُخاطبها:

ـ هه، كيف حالك أيتها الأمّ المُقدّسة؟

إنّها صامتة لاترد.

ـ ألا تذكريني؟ لقد رسمتك يوماً وعلّقْتُ رسمك في هيكل كنيسة داتيف في العام 845، أي قبل ألف ومئة عام.

ـ ماذا حلَّ برسمي؟

ـ أنت التي ضيعته أيتها الأُمّ المُقدّسة.

لم تُجب مريم العذراء وبقي الطفل يبتسم. ما أطهر بسمات الأطفال!

* * *

أحضر لي جنودي علب فواكه محفوظة من أنواع مُختلفة. العلب مُغلّفة بعناية بغلاف بلاستيكي تشدُّ طرفه فتنفتح العُلبة.

كما وضع ساخنوف أكياساً ثقيلة في زحافتي. فسألته:

ـ ما هذا يا عجوز؟

ـ سُكّر ناعم يا بني، ما أكثره في هذا البيت! كأنّهم يملكون معملاً للسُكّر خاصّاً بهم.

فأمرته:

ـ اترُكها في مكانها.

ـ لماذا؟

سأل مُتعجّباً، إذ كُنّا نلفُّ مُكعّب السُكّر ألف لفّةٍ ونُخفيه.

ـ لأننا سنُلاقي في طريقنا كثيراً من مثل هذه النعم بعد الآن.

* * *

ذبح جنودي بقرة.

عندي مُساعدان من منطقة بولدافاي أوقعا خنزيراً في الثلج وسلقاه ببخار الماء المغلي وكشطا شعره لطهوه.

ورحْتُ بدوري أشوي كلاويٍ البقرة مع حبّات القلب على النار. سنون مضَتْ لم أشو خلالها لحماً بيدي.

هذه ألمانيا. شيءٌ عجيب. يغشاني سلامٌ بارد ولا مُبالاة فارغة. لماذا؟ ماذا جرى؟ ها نحن في وكر العدو نخنق أنفاسه، فماذا بعد؟ أمرْتُ جنودي بأن يؤدّوا التحيّة بصوت واحد، ووزّعْتُ أوراقاً على الجميع وقلت:

ـ اكتبوا رسائل إلى بيوتكم. أخبروا أهلكم وكلّ الدنيا بأننا ندوس بأقدامنا على ظهر ألمانيا، وأننا نهرس النازية تحت نعالنا. هيّا اكتبوا.

نحن الآن في العشرين من كانون الأول. بعد ثمانية أيام أبلغُ الواحد والعشرين من العمر. كتابتي هجومية.

((ابكوا لهمّي))

أحسُّ بمرارة، ويجثمُ على روحي شيء ثقيل لا أفهم ما هو، كأنّه يعتصر قلبي. ثلاث سنوات ونصف السنة وأنا أنتظر هذا اليوم الذي تطأ فيه قدمي تُراب العدو. وها قد تمَّ لي ما تمنيت. إذن، ما هو سبب انقباض قلبي هذا؟

الثلج منبوش مثله كمثل الأرض.

وساخنوف واقفٌ بجانب العربة المُحطّمة، جامدٌ لا يتحرّك. عمَّ يبحث هذا الرجل؟

يا للفظاعة والرهبة! إنّه ينظر إلى شخص محروق راكع وسط الثلج بجانب العربة وقد أصبح هيكلاً عظمياً مُتفحماً. كانت أحذية الشخص التي لم تحترق وحدها صغيرة تُشبه أحذية النساء.

ربّاه، أخشى أن تكون أحذية شورا.

وارتخَتْ ساقاي وارتميْتُ بجانب الجسم المحروق.

إرحمني يا رب...

وأخرج ساخنوف من بين الثلج سترة شورا تحمل ميدالية رجولة. فصحْتُ مشدوهاً:

ـ ماذا فعلتم أيّها الكُفّار؟

وزمجر ساخنوف:

ـ ألم أقل لك إنّ النازيين من أكلة الجيف؟ هل يحرق إنسان فتاة حيّة؟

أصبحْتُ كالميّت لا أشعر بشيء. لقد انهدَّتْ السماء مُرعدة فوق رأسي. وصار الثلج ناراً تحرقني.

ـ شورا....
ولم يتلقّ صوتي ردّاً على ندائه، ولم يهزّ غير أعماق قبّة السماء.
ـ شورا....

* * *

كانت بالقُرب منّا مدخنة من الآجر كالمسلة تشق صدر السماء. حفرْتُ مع ساخنوف تحتها حُفرة. غشَتْ قلبي أحاسيس أبدية خالدة، وشعرْتُ بأنني أشيخ.

لففنا عظام شورا التي مازالت دافئة بدثار أبيض، وقبّلْتُ عظامها ودعوت:

ـ تغمدْها برحمتك وغفرانك يا رب.

وكتب ساخنوف علىٍ الجدار الآجري ((اشهدوا يا ناس، لقد أحرق النازيون أخت الرحمة الممرضة شورا وهي حيّة. اشهدوا)).

ورحْتُ أضرب على رأسي. ماذا فعلت؟ لقد دفنْتُ شورا بيدي. حتام أحتمل مثل هذه الدفنات التي لم تنته؟

لا، أنا لسْتُ حيّاً يا ناس، أنا غير موجود، غير موجود...

ماذا بقي لي؟

لا شيء، لم يبق شيء.

* * *

تمدد ثمانية جنود في صفٍّ واحد فوق الحدود الألمانية مُباشرةً. أوعزْتُ إلى ساخنوف بإيقاظهم، لأنّهم يتجمّدون في حال استمرارهم في النوم. لكن ساخنوف غمغم:

ـ إنّهم مقتولون.

وطار عقلي من جديد. لقد مارس رجالي الهجوم صفّاً واحداً فحصدوهم بالرصاص من مخزن القش القريب. لما هدمْتُ المخزن بقذائف

من مدافع الهاون، ظهر خمسة من الألمان قتلى قُرب مدفع رشاش ثقيل. كانوا هم الذين حصدوا جماعتي. فوقفت فوق رؤوسهم وقلت:

ـ ماذا جنيتم أيّها الهررة النازيون؟ ها أنتم مقتولون، تُرابكم وجثثكم تحت أقدامي، أما حسبتم أنّكم ستستلون روحي؟ لقد سبقكم نبوخذ نصر ولم يتوصل إلى نزع رقبتي، وسبقكم أيضاً طلعت باشا فباء بالخسران، فمن أنتم عليكم اللعنة؟

ولم أعد أشعر بالبرد لأنني مُطمئنٌ إلى أنني إذا بردْتُ أُشعل مخزن القش وأتدفأ على ناره. ولن أمنع ساخنوفٍ من حرق البيوت الظاهرة من بعيد مع هذه الجثث إذا شاء. فبأي حق أمنعه؟ وهل أنسى أملي الأزرق شورا التي أحرقوها حيّة؟ هل أنسى الروح النقية «المؤمنة» إيفان فيليبوف الذي قتلوه ظُلماً وعدواناً، أو هل أنسى الفتى الشُجاع سيروج زاريليان؟ كيف أنسى كلّ هؤلاء وغيرهم؟ أنا إن نسيتهم لا أكون إنسانا. وأنا أُريد أن أكون وأبقى إنساناً إلى الأبد.

الهررة الألمان مقتولون.

أمشي وأدوس على الثلج الألماني، فتعنُّ على بالي أُغنية أجدادي «أشرقت الشمس...» وينتشر أمامي نور دموي مثل غلالة حمراء حارّة.

أحرق ساخنوف مخزن القش. فهو النور الذي يهديه فوق الثلج، وجاء إليَّ يلهثُ سائلاً:

ـ ماذا تقول؟.

فلا أرد، لأنّ عظام شورا تحرق شفتي. بل رحْتُ أكتب هذه السطور على صفحات كتاب «ألحان وجراح»، وتبينْتُ فإذا هي صفحة قصيدة:

«ابكوا لهمّي».

نحن الآن في الرابع والعشرين من كانون الأول. بعد أربعة أيام أبلغُ الواحد والعشرين من العمر. كتابتي، ابكوا لهمّي.

النارُ بلونِ الدم

وقف آمر الكتيبة على الزحافة يقول:
ـ هِيِ يا أولاد، كيف حالكم؟
فأسرعْتُ إليه لأشرح الوضع، لكنّه رفع يده قائلاً:
ـ لا داعي لذلك. أمامنا مدينة مومبيني الألمانية، تليها اينستربورغ ثمّ بريس إيلاون... وهكذا.
لكنني أُريد أن أقول له شيئاً آخر. وأُريد أن أبكي:
ـ شورانا...
ومدَّ آمر الكتيبة يده نحو الضباب وقال:
ـ أمامنا ألمانيا...

* * *

بدأ الألمان ينسحبون نحو بحيرة مازوريا، ويتحصنون هناك.
انتشرَتْ كتيبتنا. وأمرْتُ بالاستيلاء على قرية في طريقنا تقع على اليمين قليلاً.
مضى النهار القصير، وفتحتُ نيران الهاون على القرية، فردَّتْ الرشاشات على نيراني. أطلقْتُ بدوري الرشاشات الآلية مع ثلاث رُشيشات يدوية. ركض ساخنوف أمامي ورمى قُنبلة يدوية إلى ما وراء السور.
فهرب المُدافعون عن القرية.
كانت قرية ألمانية ببيوت مُتباعدة، ذات أسطحة مُرتفعة هرمية. أبوابها الكبيرة مُغلقة.

دخلْتُ مع ساخنوف وجنود الاتصالات إلى أول بيت. لم نجد فيه أيّ رائحة للحياة.. فتحْتُ باب أول غرفة وبيدي مُسدّس، وسلّط ساخنوف نور مصباحه اليدوي إلى الداخل.

تأكدنا من خلو البيت. لكن المدفأة الفحمية مازالت حارّة. كذلك الحليب في الوعاء الموضوعِ على الطاولة. أمّا المصباح النفطي المتدلّي من السقف فكان يرسل نورا أصفر صبغ وجه ساخنوف وصوته باللون الأصفر. وارتفع صوته الأصفر يقول:

ـ ماذا تقول؟

إنّه يطلب الإذن بحرق البيت. سمحْتُ له بذلك. لكنّه أعاد علبة الكبريت إلى جيبه ولم يحرق البيت، بل اكتفى بتحطيم كلّ ما وجده فيه من الأواني الزُجاجية.

وأطلق برُشيشه الآلي على مرآة كبيرة مُرتفعة إلى السقف وقال مُزمجراً:

ـ فلتُظلمي بعد اليوم.

* * *

أحضر كلّ واحد من جنود الاتصالات ملء حضن من المُعلّبات. ورأى ساخنوف صورة هتلر، فانتزعها من مكانها وداسها برجليه قائلاً:

ـ هذا هو مكانك يا ابن العاهرة، أين قريتي وعيني؟ ـ كذلك مزّق صورة العذراء التي كانت بجانب صورة هتلر وأضاف ـ وأنتِ، لماذا لم تكسري يد هذا المأفون؟

* * *

عينْتُ مراكز حراسة عند مداخل القرية، وأشعلْتُ خمسين شمعة، وبدأنا نحتفل.

أنا أخاف الظلام، لأنّ قبر شورا مُظلم، لذا أمرْتُ بزيادة عدد الشموع.

ـ زيدوا عدد الشموع وأشعلوها.

وأُثقلَتْ الطاولة بزجاجات الجعة والعرق والشمبانيا. الشمبانيا فرنسية والعرق هولاندي. حضّرَ لوسيغين وموشيغ شواء من لحم العجل. رفعْتُ كأسي وقلت:

ـ لنحتفل بدلاً عن المقتولين.

وعزف الجندي الليتواني الذي يتكلّم الألمانية الكسنيدس على البيانو.

وبدأ جنودي يخرجون بالدور من الغُرفة ليُطلقوا النار من كلِّ أنواع الأسلحة تكريما لهذا الاحتفال في الهواء.

وأراد الكسنيدس أن يؤكد لي معرفته باللغة الألمانية، لكن لم يكن في القرية غير المقتولين من الهتلريين. ورفعْتُ كأساً ثانية وقلت:

ـ على روح شورا...

فعزف الكسنيدس لحناً جنائزياً.

نحن الآن في الثامن والعشرين من كانون الأول. أنا في الواحد والعشرين من العمر. كتابتي تفتقر إلى الحياة.

لم نعد نشعر بالبرد

اشتدّتْ حرارة القش. لكننا لا نشعر بالبرد.

حان الليل، ولم أتمكن من التغلّبِ على النوم. فأدخلني ساخنوف إلى غرفة مبنية بالآجر لأنام فيها قليلاً، وذهب للبحث عن كحول مُركّز لإشعال النور، وليذبح بقرة. غلبني النُعاس وارتميْتُ على الأرض، وأسندْتُ رأسي على الأخشاب وغططتُ في نومٍ عميق.

ولم أشعر إلاّ وساخنوف يوقظني قائلاً:

ـ قم، فأنت تنام على الجثث.

وعلى ضوء شموع أشعلها لاحظْتُ تحت النور الأصفر أنني كنت مُسنداً رأسي على الجثث. جثث ألمانية مُتجمّدة مُتخشّبة مُكدّسة فوق بعضها. تتدلى من الأقلام صفحات خشبية كُتب عليها اسم صاحبها بالقلم الرصاص، فتعلقْتُ بياقة ساخنوف وزعقْتُ في وجهه:

ـ كيف تجعلني أنام في هذا المكان أيّها العجوز المُهترىء.

ففتح المسكين يديه وقال:

ـ كان الظلام دامساً، فلم أر. ألا ترى الظلام في كلِّ مكان؟

ذهب ساخنوف وسخّن ماء في الخارج. فاغتسلتُ فوق الجليد أملاً في التخلّص من رائحة الموت التي علقت بي.

* * *

عند الفجر بدأنا قتالاً نسيْتُ معه الجثث.

انتهت المعركة بعدما أسرنا أربعة وستين هتلرياً كانوا منهوكي القوى، لكن الشر في عيونهم والبرد يكاد يقتلهم، فاقتربْتُ منهم وقلت:

ـ إيه، هذه هي نهايتكم.

فقال أحدهم:

ـ أوه، نعم، نهايتنا.

وانفجر ساخنوف:

ـ أيّها الخنزير، تهربون ولا تملكون الوقت لدفن موتاكم، ها قد تشتت شملكم في كلّ مكان.

ـ أوه، نعم.

وقع واحدٌ من الأسرى، فإذا به جريح. فرفعه ساخنوف وربط جرحه وأشربه شراباً وقال:

ـ عش يا رجل، لماذا تُريد أن تموت؟

ـ أوه، نعم.

وضعه ساخنوف على عربتنا الصحيّة وأرسله إلى الخلف.

أخذْتُ معي الكسنيدس ورحنا نتجوّل في القرية المُحتلّة. اقتربْتُ من مصلى كنيسة للبروتستانت.

دخلْتُ القاعة ذات القبّة العالية، فوجدتها مليئة بالنساء والأطفال، وكان معهم شيخان كبيران. عددهم ألف نسمة تقريباً، يجلسون على الأرضية الرماديّة. فلمّا رأوني أشاحوا بوجههم نحو الحيطان.

سلّمْتُ عليهم بلسان الكسيندس، فلم يردّوا.

كان يجلس بين الكبار قرب الباب صبي في الرابعة من عمره تقريباً، راح ينظر إلى لباسي العسكري ويبتسم. فكرّرْتُ سلامي، ولكن.

صمت.

ـ ماذا تفعلون هنا؟ اذهبوا إلى بيوتكم.

صمت.

سمعْتُ تنهداً عميقاً، وأدار شيخ رأسه نحوي وقال:

ـ لا تُعذبونا، احرقونا كي نذهب إلى يسوعنا عيسى شهداء مؤمنين.

قلت:

ـ أوه، يبدو أنّك ذكي جدّاً أيّها الهر العجوز. الحرق والخنق والشنق وقتل النساء والأطفال هو من فعلكم أنتم، فلا تُلفقوا علينا ((نظامكم الجديد)). هيّا قوموا واذهبوا إلى بيوتكم، أو أُصادر كلّ ما تملكون وآخذها كغنيمة حرب. هيّا قوموا.

مدَّ الصبي الأشقر أصابعه الناعمة إلى حزامي اللامع. فرفعته ليتمكّن من لمس النجمة اللامعة. لكن أمّه حشرجت:

ـ أوه، الكافر يحمل ابني إلى...

فأنزلْتُ الولد على الأرض وقلت:

ـ لقد تعمّدْتُ في حوض المسيح قبلكم بخمسمائة سنة أيتها السيّدة. نحن لا نُريد أن نتعلّم منكم أيّها المؤمنون قتل الأطفال. ومع أنَّ لي ثأراً شخصياً عندكم إذ أحرقتم شوراي حيّة، ومعي الحق في حرقكم جميعاً حسب شرعة الدين الذي يقول ((العين بالعين، والسن بالسن)) لكنني لن أُطبّق ذلك لأنني إنسان وأكثر إيماناً منكم. والآن آمركم أمراً بالتفرّق حالاً.

وكرَّرْتُ أمري.

وتفرّقوا أخيراً إلى بيوتهم، وبقي المصلى خاوياً.

* * *

اليوم الأول من كانون الثاني من عام خمسة وأربعين. يوم العام الجديد ونحن على التُراب الألماني، في ألمانيا. لا نْلاقي في طريق تقدمنا غير القُرى الخالية. وبين مسافة وأُخرى نصطدم بفلول ألمانيين يُحاولون مُقاومتنا بشدّة. لكنّهم لا يصمدون كثيراً، فيهربون أو يُقتلون. وكثيرا ما لا نعير مثل هذه الفلول اهتماماً، بل نُتابع طريقنا، ونتركهم كما تُهمل الكلاب النابحة على الطريق. وقد نُفاجأ بساخنوف يُنشد لحناً إيقاعياً عسكرياً، يتأثّر به الآخرون ويُسايرونه في الغناء.

وزّعوا علينا عند الظهر عرقاً وخبزاً أبيض وزبدة كثيرة.

ـ عام سعيد.

يبدأ العام الجديد عادةً عند مُنتصف الليل، لكن المعارك الحامية لا تشتد إلاّ في الليل. أمّا الآن فنحن في النهار تحت وطأة نُعاس الشتاء. جلسنا في وادٍ ضيّق واستلّ كلٌّ واحدٍ من حقيبته كأساً من الألمنيوم أو طاساً من النحاس المطلي ومدّه لساخنوف ليأخذ حصته من العرق. وراح ساخنوف يوزّع العرق بكيل من الألمنيوم مُخطط بمقاييس تتضمن مئة وخمسين غراماً، بمعدّل مئة غرام لكلٍّ واحد. وشكّلنا حوله دائرة، ولأول مرّة منذُ بداية الحرب يُبارك رجال سريتي لبعضهم بعضاً بالعام الجديد، وتبادلوا القُبُلات الحارّة والتمنيات السعيدة مسرورين.

تحرّكنا بعد ذلك على عجل، وسرنا مُسرعين من جديد للإمساك بذيل العدو الهارب.

* * *

اتجهنا نحو بحيرة مازوريا. لواؤنا المدفعي الثاني الآن في تشكيلات جبهة بيلوروسيا الثالثة. فرحنا بآمرنا الجديد الجنرال إيفان جيرنياخوفسكي.

نسير الآن فوق الثلج النظيف على أرض بروسيا الشرقية التي دخلتها قواتنا قبل أسبوعين من الآن.

* * *

قابلنا كشافينا، وكانوا نعسانين مُتعبين، فسألتهم:

ــ هل معكم دُخّان يا شباب؟

أعطيتهم دُخّاناً، راحوا يُدخنونه بنهم وتلهّف. وقال لي رئيسهم وكان برتبة رقيب، إنّ أمامنا وعلى بعد كيلو مترين قرية أقام فيها الألمان تحصينات متينة.

سألته:

ــ هل أقاموها بهدف البقاء طويلاً؟

ــ على كلٍّ حال سوف يصعب القضاء على مُقاومتهم.

وذهب الكشافون لمُقابلة آمر الكتيبة.

طائراتنا تحوم فوق المواقع الألمانية. ظهرَتْ طائرة ((مسين)) للعدو، ضربتها طائراتنا، فسقطَتْ تنفث وراءها الدُخان واللهب.

اقتربنا من العدو بحذر، ما إن وصلَتْ إلينا طلقات مدافعهم الرشاشة، حتّى اختفينا في الخنادق.

* * *

جبهةٌ حامية. لقد أنشأ الألمان تحصينات ومراكز دفاعية على مساحة طويلة بغية قطع الطريق علينا إلى بُحيرة مازوريا. وتبيّنت صحة قول رقيب الكشّافة من كثافة نيران العدو وأسلوبها، وأدركْتُ أننا نواجه قوّات كبيرة تمركزَتْ هنا.

أمرْتُ رجال مدافع الهاون، أن يعمدوا، قبل البدء بالمعركة، إلى حفر حُفر آمنة للمواقع والربط فيما بينها بخنادق عميقة تحت الجليد.

وقلت لضُبّاط الصف والرُقباء:

ــ يجب الحفاظ قدر الإمكان على حياة كلّ فرد. بقدر ما تقل الخسائر في الأرواح، تكبر قيمة الانتصار.

تحصّنا عند منتصف الليل تحصيناً كاملاً. عندما جاء رئيس مكتب القيادة إلى مواقعنا تعجّب وقال:

ــ ماذا؟ أنتم هنا منذُ أيام خمسة فقط.

ثمّ قال لي على انفراد:

ــ ليكن في علمك أنّ كتيبتنا لن تخوض إلاّ معارك دفاعية لمُدة أسبوع واحد فقط، بانتظار وصول نجدات إضافية.

* * *

لاح الفجر واشتدّ البرد.

اشتَدّتْ حدة القتال أيضاً. انقلعَتْ من مواقع العدو ثلاث دبابات ونُشرَتْ حولها ستارة من غُبار ثلجي، استتر وراءها جنود مُشاة هاجموا مواقعنا. ساد

صمتٌ غريب فترة. دبابات العدو ظاهرة للعيان، لكن رجالي راحوا ينظرون إليها نظرة تختلف تماماً عمّا كانت عليه في جبهة فولخوف قبل سنوات.

قال ساخنوف:

ــ إحدّى الدبابات من طراز ((تيغر)).

وتقترب الدبابات في سير مسعور. تحسبها لا تُلامس الأرض، بل تسير فوق غيوم من الغُبار الثلجي.

على بُعد سبعين متراً أمامنا اختفَتْ في الثلج مدافع ضدّ المُدرّعات. تضرب أهدافاً مْستقيمة. لم نسمعها وقت أطلقت نيرانها، لكننا رأيناها، وبدأتُ بدوري أُطلق قذائف مدافع الهاون. كانت القذائف تنزل فوق الدبابات، وهي وإن لم تفعل شيئا فيها إلاّ أنّها كانت تشيع الموت بين المُشاة الذين يُرافقونها من ورائها ويمينها ويسارها.

كنتُ هادئاً إلى حد عجيب.

* * *

لم تصل الدبابات إلينا، إذ تحطّمَتْ اثنتان قبل أن تصلا إلى مواقع مُضادّات المُدرعات. أمّا الثالثة فدارت وهربَتْ بنفس السرعة التي جاءت بها.

بعد ما حطّ الغْبار الثلجي على الأرض، لاحظنا وجود الكثير من الجثث فوق الثلج.

لكن قبل أن نتمكّن من لف سجائر، رأينا فوق رؤوسنا ثلاث قاذفات قنابل ألمانية. لم يدهشنا أمرُها، كما لم تُقلقنا. فخنادقنا أُمينة حصينة.

انقضّتْ قاذفات القنابل علينا. لكن قبل أن تتخفّف من حملها، ظهرَتْ طائراتنا المُقاتلة فوقها.

استمتعنا بالتفرّج على حرب جوية. لقد اعتلَتْ طائراتنا المُقاتلة السريعة ظهر القاذفات الثقيلة، وأشبعتها ضرباً بالرشاشات الثقيلة والمدافع الجوية. وتصدّتْ لمُقاتلاتنا ثلاث مُقاتلات مُعادية، فانفصلَتْ من مُقاتلاتنا ثلاث ذهبت لمواجهة المُقاتلات المُعادية، بينما تابعَتْ الأُخريات ضرب القاذفات.

كنتُ في ذلك الحين مُستلقياً عليٍ ظهري فوق الثلج أُراقب هذه المعركة الجوية الفظيعة والمُتعة في آن معاً. إلى جانبي ينام ساخنوف. ما الذي يستطيع فعله ليُبعد عن عينيه النوم؟ ثلاث ليالٍ لم يغمض له فيها جفن.

* * *

استمرَّتْ معاركنا هذه ثلاثة أيام. ثلاثة أيام يُهاجموننا وثلاثة أيام نصدّهم. في اليوم الرابع انهدَّ حيلهم. وفي اليوم الخامس بدأنا نحن بالهجوم.

استسلم لنا في قسمنا ثمانية من الألمان كانوا مذهولين وغير حليقين، يرتجفون من البرد. طلبوا طعاماً، فأطعمناهم. سألتهم عن طريق ضابط الصف الكسنيدس، لماذا لا يستسلمون كجيش بكامله، وبماذا يضعون آمالهم؟

فقال واحدٌ منهم وكان برتبة ضابط صف:

ـ لقد استسلمنا نحن الثمانية، لأننا لم نجد بدلاً من ذلك. لكننا نأمل بأنّ جيشنا لن يستسلم لكم. أُسبوع واحد ويكونٍ عندنا سلاح رهيب يُبدّل طبيعة الحرب في يوم واحد، وفي يوم واحد أيضاً يُبيدْ أكثركم.

لم يترك كلامه أيّ انطباع في نفوس جنودي، بل دفعنا إلى الضحك.

قلتُ للألمان:

ـ أتعجّب، وأنتم أبناء شعب مُتحضّر ذكي، كيف تُصدّقون مثل هذه الخُزعبلات! لا يوجد السلاح الذي تتحدّثون عنه إلاّ في عقل الفوهرر قائدكم، صدقوني.

لم يُصدّقوا، فأرسلناهم إلى الخلف، حيث يُجمع الأسرى ويُساقون إلى الشرق.

ذهبوا، ولا أدعي أنّهم غير ممتنين. فلقد تخلّصوا من الموت، وما هذا بقليل.

نحن الآن في السابع من كانون الثاني. عشرة أيام وأنا في الواحد والعشرين من العمر. كتابتي للعام الجديد.

البُحيرات مُتجمّدة

تتزايد برودة الفصل مع الأيام. شتاء، وأوروبا، ونحن نتجه إلى الشمال.

كنّا ونحن نستولي على الأرض قطعة قطعة، نقترب من بحيرة مازوريا. نُصادف في طريقنا قُرى ومزارع خالية على الدوام. وكنت قد منعْتُ جنودي بحزم من التعرّض لها ولو بكسر زجاج نافذة. كلّ شيء هنا على حالته الطبيعية. لم تتهدّم غير البيوت الألمانية التي أبدَتْ مُقاومة لتقدمنا واضطررنا إلى قصفها بنيراننا الكثيفة. مثل هذه الزُمر تتحصّن في المناطق الآهلة بالسُكان الدافئة، وأحياناً، وعندما يضطرُّ الهتلريون إلى الانسحاب يحرقون البيوت، فنضطرُّ بدورنا إلى إطفاء ما أشعلوه من نار لكي لا ينتشر الحريق.

نرى القطط والكلاب والديوك والدجاج هاربة من البيوت المُحترقة. ونسمع من وراء الأبواب الموصّدة صخب العجول وعربدة الخيول وصهيلها، فنسعى قدر استطاعتنا إلى إنقاذ ما يُمكن إنقاذه منها بإخراجها بسرعة من الأبنية المُحترقة.

لكننا لم نُصادف سُكاناً مدنيين أبداً.

* * *

غابات كثيفة.

المكان هنا أكثر أمناً نسبياً، لا توجد دروب في الغابة، فيما عدا الشقوق المحفورة في الأرض لنقل جذور الأشجار المقطوعة.

إنّها غابات أوكوستوفية، وهي تحتل على الخُارطة مساحة كبيرة. خريطتي المحلية ألمانية على ورق مُقاوم.

لم نُصادف مُقاومة هنا تقريباً. نأخذ نفساً قليلاً حسب تعبير ساخنوف. أشار آمر كتيبتنا على الخريطة إلى طريق بين القُرى وقال:

ــ قُدْ سريتك بهذا الاتجاه، وعلى هذا الطريق. ستُصادف بعد خمسة كيلومترات قرية ليست كبيرة، استول عليها، وانتظر فيها قدومي أو أمري.

انتشرَتْ كتيبتنا، وبدأنا زحفنا على مساحة واسعة نتقدّم نحو بلدة أوكوستوف الصغيرة.

قطعْتُ خمسة كيلو مترات دون أيّة عثرة، ودون أن نلقى حيّاً يتنفّس. أميتةٌ هي هذه الديار؟ في الغابة هدوء مُريح وشتاء مُمتع، حتّى لأتشوّق إلى إصدار الأمر إلى جنودي بالنوم على هذا الثلج الناعم تحت الأشجار الوارفة.

خرجنا إلى حدود الغابة، فوجدنا وادياً ضيّقاً غير عميق لا يعدو أن يكون مُنحدراً صغيراً، يبدو على الخريطة المحلية، وكذلك الطريق إلى القرية. ولكن لا توجد قرية. فبعد مُنبسط صغير من الأرض، وعند سفحه غابة ذات أشجار عظيمة مُعظمها دائم الخُضرة، مُعمِّرة.

خفْتُ لأول وهلة، فقد أكون ضللْتُ الطريق. لكن لا. فعلى الخريطة مواقع موجودة وحصون مبينة. أنا أجيءُ على الخط الصحيح تماماً حسب ما رَسم لي آمر الكتيبة باول أندونوفيتش سافونوف. لكن أين هي القرية؟

أرسلْتُ ثلاثة من رجالي إلى الغابة لتفتيشها وأوصيتهم:

ــ اذهبوا بحذر، واجعلوا أسلحتكم جاهزة احتياطاً لكلِّ طارئ.

ذهبوا وعادوا بعد عشرين دقيقة. فشرح لي مَنْ عينته آمراً عليهم ما رأى:

ــ توجد في الغابة مدينة كبيرة صناعية.

لم أُصدّق، وعمدتُ إلى الاستعانة بمنظاري. بعد تمعّن شديد تمكنْتُ من رؤية مداخن المعامل، التي لم يتجاوز ارتفاعها ذُرى الأشجار

العملاقة. بحثْتُ في الخريطة المطبوعة في العام 1929. اتضح لي أنّ هذه المعامل لم تكن موجودة يوم رُسِمَتْ هذه الخريطة.

وسألتْ الكشافين الذين أرسلتهم:

ـ ماذا رأيتم هنالك؟

ـ خالية خاوية، لا أحد.

تفرّقنا ومشينا مُتباعدين بمسافة أمتار، نحمل مُسدساتنا وبنادقنا جاهزة، وجلبنا مدافع الهاون مُحمّلة على زحّافات.

كان الشارع الأول مُعبّداً مُزفّتاً، ولا يوجد أيّ أثر على الثلج. نزل هذا الثلج حديثاً منذُ يومين لا أكثر. وهذا يعني أنّهم نقلوا هذه المعامل إلى مكان آخر قبل يومين.

تقدّمنا مسافة أُخرى. كانت البِيوت ذات طابقين مبنية تحت الأشجار. كانت الأشجار لها ستراً يحجبها عن الأنظار، ويخفي سطوحها الهرمية الحمراء.

دخلْتُ أول مبنى صادفته. لم يكن بيتاً، بل استراحة للعمّال، لا يحتوي على أثاث فاخر، بل على أسمال عتيقة وأسرّة حديدية. ولا أثر يدلُّ على وجود نساء أو أطفال.

يُفهم أنّها مدينة صناعية سريّة بناها هتلر على ما يبدو بعدما استولى على السلطة في البلاد. وهناك العشرات من المداخن المُساوية في ارتفاعها للأشجار. في وسط المدينة ساحة مُستديرة تتوزّع منها كالأشعّة ممرّات تحت الأرض، عريضة تؤدي إلى أعماق الأرض، حيث بُنيت المعامل. كان التيار الكهربائي مقطوعاً والأسلاك الهاتفية كذلك، حتّى أنّهم فجّروا ممرين تحت الأرض.

ليست المدينة كبيرة، وقد تمكنّا بسرعة من تفتيش كلّ زاوية فيها. وحسب التعليمات لخّصْتُ كلّ ما رأيته على ورقة وأرسلْتُ التقرير مع فارسين اثنين سريعين إلى آمر الكتيبة.

تمركزنا تحت خميلة واسعة بانتظار الأمر الجديد.

صمْتْ القبور. ننظر إلى المداخن التي تُساوي في طولها الأشجار، لكن الأكثر رهبة هو السكون العميق. قال ساخنوف:

ــ لو وجدنا بيرة على الأقل لشربنا. سمعْتُ بأنّ البيرة الألمانية رائعة.

لم يلق كلامه صدى عند أحد. سكون. ما أفظع السكون. لا يُسمع إلاّ هدير أصم لمدافع بعيدة تتبادل النيران. يُخيّل إليّ أنّها صرخات المداخن الخضراء.

سكون. لا تصمتي يا غابة. أنا لم أعتد على الصمت.

ظهرَتْ في الطريق العريض سيارة قادمة تتقدّم نحونا بحذر، ووقفْتُ بشكل فجائي. لعلّهم رأونا. أوعزْتُ إلى جنودي باتخاذ مواقع دفاعية. لا أعرف ما هي هذه السيارة، ولا مَنْ بداخلها. بواسطة منظاري عرفْتُ أنّها إحدى سيارات لوائنا. بدأنا نُشير إليها بالاقتراب.

بدأت السيارة تقترب منّا مُترددة، ثمّ أسرعَتْ إلى مكان وجودنا. خرج منها قائد فرقة الكشّافة، مُقدّم مقدام، سألنا؟

ــ ما هذا؟

فشرحْتُ له ما اكتشفناه بدلاً من القرية القديمة المرسومة.

تجوّل في البلدة وتفحّص الممرّات تحت الأرض، ورفع يده قائلاً:

ــ آمركم بعدم الدخول إليها، فكلّ شيءٍ هنا ملغوم.

فكتبنا على الأخشاب والأوراق والصفائح: ((احذروا، المكان ملغوم)) وعلقناها على الحيطان. وقال لي المُقدّم:

ــ طوبى لكم. طوبى لكم ما اكتشفتم. يبدو على البلدة أنّها بلدة معامل عسكرية. طوبى لكم.

نحن الآن في العاشر من كانون الثاني. ثلاثة عشر يوماً وأنا في الواحد والعشرين من العمر. كتابتي مُتعجبة.

لحمُ بقر

نسير عبر الغابات الأوكوستوفية. يبدو أنّ كلّ الغابات تملأ نفس الإنسان بانطباع الفرح.

يبدو أنّ لدى الحشرات الألمانية المُتأخرة سيارات ودراجات نارية خفيفة، فهم يُفاجئوننا، ويُطلقون علينا النار مدّة ساعتين أو أكثر في مُحاولة للصمود، ثمّ يركبون آلياتهم، وبهدير فظيع يهربون نحو الشمال.

صادفنا حواجز ضيّقة من شبك حديدي يرتفع ثلاثة أمتار أو يزيد، وضِعَتْ مُتباعدة بعضها عن الآخر. ومن شِقٍ من هذا الشبك، وقبل أن نصل إليه بقليل، اندفعَتْ عشرات الأبقار بسًرعة جنونية واتجهَتْ إلى فلاة قريبة، فأعمل فيها أحد جنودي النار من مُسدّسه الرشاش، ورأيتُ بعيني كيف وقع أحد الثيران على الثلج. حاول الوقوف، فلم يستطع، فمدّ رقبته على الأرض وبقي حيث هو.

إذن توجد هنا حظائر أبقار، وهذه الحيوانات هربت من ضجّة الحرب.

في تلك الأُمسية أكل كلّ واحد من أفراد سريتي قطعة من لحم البقر.

* * *

عند الصباح مرَّ قطيعٌ من الخنازير البرية خارجاً من الغابة، نافراً من أصوات المدافع، واتجه نحو الطريق. كانت زحّافتي تزحف على الطريق فأصابها القطيع الجامح ومرَّ كالريح ووقع أحد أحصنتي. لقد شقّ أحدها بطنه.

وهكذا مرَّتْ هذه الحادثة.

* * *

بُحيرات مازوريا مُتجمّدة ونحن نسير فوق الجليد. وكانت قوات جبهة بيلوروسيا الثانية التي تجاورنا قد استولَتْ على مدينة أوكوستوف الصغيرة.

قُتِل جندي يقود إحدى العربات بلغم كان مخفياً بين الثلوج على الطريق. لحُسن الحظ أنّه كان يسبق الصف بعيداً عن الجنود، فلم يُصب أحد غيره بأذى. تسيل من بُحيرات مازوريا جداول مُتفرقة تجتمع عند نهر فيسلا. فكسر ساخنوف قشرة الجدول الجليدية بفأس، أدلى دلواً ومَتَحَ ماء اغتسلْتُ به لأُزيل تعبي وأخفف من نُعاسي. تعريْتُ حتّى وسطي، فانتعشْت. وراح ساخنوف يصبُّ الماء على ظهري ويتعجّب بدهشة:

ــ أوخ، يا بني، ها قد اغتسلت.

اعتدتُ على أن أغتسل كلّ يوم هكذا منذُ أيام جيليابينشك. وإذا لم أجد ماء فركْتُ جسمي بالثلج، وذلك حسب وصية شورا إذ قالت:

ــ الوسيلة الوحيدة للوقاية من النزلة البردية هي النظافة والاغتسال بالماء البارد أو الثلج.

* * *

ثمانية أيام مُتتالية ونحن في قتال. ولم يكن القتال في مكان ثابت بل طوال طريق سيرنا. لم أكتب هنا رسالة ولم أستلم أيضاً رسالة. لا نعرف أين بقي مركز بريد الميدان.

جنودي شبعانون ويجدون أحياناً شراباً، يتأكد ساخنوف بوسائله الخاصّة أنّه غير مسموم. ولكنني لم أكن أسمح بشرب أكثر من مئة غرام من الشراب.

في أحد الأماكن وجد جنودي كحولاً. أعلن ساخنوف أنّه كحول خشبي، سام قاتل، لا يُشرب، بل يُستعمل لأمور أُخرى. في سريتي جندي كان الأكبر سناً بين الجميع، في نحوٍ الأربعين من العمر. كان قد التحق بسريتي قبل أسبوع وأنا لا أعرفه جيداً.

هذا الجندي الجديد شرب من الكحول الخشبي خفيةً وغاب عن الوعي. مدّده الجنود على العربة واستدعيْتُ طبيباً من المركز الطبي، فجاء وفحص الثمل وقال:

ـ لن يعيش، قتله الكحول.

ومات العسكري. فطلبْتُ إلى الموجّه الحزبي في السرية أن يكتب في الجريدة الدورية عن هذه الحادثة.

نحن نطبع نشرة عسكرية كلّ يومين مرّة على ورق أكبرٍ قليلاً من العادي، مُخطط ومُزين بوقائع حربية مُختلفة. عنوانها أيضاً مطبوع. نستلم منها أعداداً كثيرة. وعندما يندر الورق نلفّ بها سجائرنا. الجريدة العسكرية هذه مُهمّة جدّاً، لأنّها مُلخص لمعاركنا اليومية. وقد يكتب الموجّه الحزبي على الجريدة بقلم النسخ أو بالحبر تاريخنا. ويحلو له أحياناً أن يكتب بالحروف الكبيرة ما يلفت النظر في المعارك اليومية التي نخوضها. ويختم مقالاته عادة هكذا: ((تذكّر يا جندي الجيش الأحمر أنّ الطريق الوحيدة لعودتك إلى البيت هي من فوق برلين.)).

في عدد جريدة ذلك اليوم وضع الموجّه الحزبي حادثة الكحول المُميت واسم الجندي الميّت في الموضع الأول. وختم المقالة بقوله ((يا مُقاتل، لا تنس هذه الحادثة.)).

* * *

بردٌ شديد. ومع ذلك فساخنوفي مُتضايق في فروته النصفية.

يحلق ساخنوف لحيته كلّ يوم تقريباً. يجلس في الخندق فوق الثلج ويحلق، ثمّ يكتب رسالة مُطوّلة إلى زوجته.

صادفنا قطار شحن في طريقنا. فلمّا رآنا الألمان قطعوا البُخار عن الشاحنات وهربوا.

اقتربنا وفتحنا أبواب الشاحنات. كانت مُحمّلة بأثواب من النسيج وبالثياب الجاهزة والأحذية، فأشرْتُ على ساخنوف بأن يأخذ منها شيئاً لزوجته. يبدو أنّي جرحْتُ كبرياءه فقال:

ـ إذن أنت تدفعني إلى السرقة. لقد تذوقْتُ مرارتها سابقاً.

ـ لكن هذا حقك الشرعي، غنيمة في ساحة القتال.

ـ مُغمّسة بدم غزير.

ساخنوف مُحقٌّ في هذا.

* * *

تنهار معاقل الألمان عند بُحيرات مازوريا الواحد بعد الآخر.

عند مزرعة ألمانية قريبة من مدينة اينستربورغ أحضر لي ساخنوف عربة فخمة يجرّها حصانا سبق فارهان.

ـ ها قد أصبحْتَ يا ولدي الفيلدمارشال كوتوزوف.

شوى موشيغ ولوسيغين لحم بقر وأطعموا كلّ أفراد السرية.

ساخنوف يجمع سكك محاريث.

ـ سوف أرسلها بعربة إلى القرية، فقد أُنهك جماعتنا هناك.

لكن كيف يُرسلها؟

نحن الآن في العشرين من كانون الثاني. ثلاثة وعشرون يوماً، وأنا في الواحد والعشرين من العمر. كتابتي مُتعبة.

تقتربُ النهاية

اخترقنا حزام بُحيرات مازوريا إلى مسافة مئة كيلو متر.

طلبوا منّي من مكتب القيادة ترشيح جنودي حسب جدارة كلّ منهم لمنحهم أوسمة، فأجلسْتُ ساخنوف على الثلج، وأوعزْتُ إليه بكتابة اسمه في رأس القائمة لنيل وسام النجم الأحمر، لكنّه اعترض بقوله:

ــ يكفيني وسامِ الرجولة. لا تنس بأنني لصٌ سابق.

فعانقته، ولاحظتُ في عينه الجريحة دمعاً، فرشّحته لوسام لينين.

* * *

ها أنا جالس أمام منظاري تتساقط من حولي القنابِل والقذائف وتنفجر. أوعزت إلى ساخنوف أن يتقدّم بطلب قبوله عضواً في الحزب، فنظر إليّ بفضول:

ــ أنت تعرف أنني حوكمْتُ ثماني مرّات.

ــ أعرف، ولا تنسٍ أنت أيضاً أنّك عضو نصير منذُ ستة أشهر، ومن حقّك أن تكون عضواً.

ــ أفلا يُمكن أن أبقى نصيراً؟

ــ لا، لا يُمكن. أربع سنوات وأنت تُقاتل في سبيل الوطن، فهل تظن أنها خدمة قليلة؟ مَنْ قاتل بإخلاص ولو ليوم واحد في سبيل الوطن هو حزبي حقيقي. هيّا اكتب طلبك.

وجمعْتُ الحزبيين من سريتي في الخنادق في المساء نفسه. ولم يدم الاجتماع أكثر من دقائق، لأنّ الوقت ضيّق، ووجودنا مُجتمعينَ في وقت الحربِ خطر.

وقبِلَ جنودي الحزبيون ساخنوف عضواً حزبياً عاملا، فضمّني وضحك من بين الدموع:

ـ أنا الآن إنسان. إنسان يا بني.
وتنفّس نفساً عميقاً، ودخل إلى الخنادق، إلى القتال.
استولينا على قرية أُخرى. التقينا هناك بحشد كبير من النساء والأطفال. لم يمض وقت طويل على طرد الهتلريين منها، ولم تبرد فوهات مدافعي بعد.
يتقدّم الحشد منّا بتمهّل وتردد أيضاً. ضغط على كياني شيء ثقيل. اقترب المحتشدون أكثر، وفجأةً انهاروا وبكوا.
ــ الإنسانية.
إنّهم أهلنا. ارتموا علينا.
ــ آخ، يا أهلنا...
وارتفع النحيب والبُكاء. لقد انتُزعوا من أرضهم في الواحد والأربعين والثاني والأربعين، وسيقوا إلى هذه الَديار الجهنمية أسرى.
ــ آخ يا أهلنا...
كانوا في المعتقلات، الخوف في وجوههم. يبكون ولا يُصدّقون أنّهم الآن مع أهلهم. عين ساخنوف الواحدة تبكي والثانية ترفُّ في عصبية.
ــ آخ يا أهلنا...
وبدأ يبحث عن مواطنين له بينهم، يصرخ ويصيح مُعلناً اسم منطقته وقريته.
ــ مَنْ منكم من قرية فيرخني بوريسوفكا من منطقة سمولنسك؟
وجد امرأة وبنتاً في ملاءة ذات نظرات خائفة شقية، فخلعَتْ البنت ما عليها من ثياب البنات، وصاح صوتها:
أنا رجل، رجل...
كانت المرأة القروية قد ألبسته ثياب بنت عندما انتزعوهم من بيتهم وساقوهم إلى الأسر:
ــ آثرْتُ أن أفعل به ذلك كي لا يأخذوه ويقتلوه.
الصبي في الثامنة عشرة من العمر، راح يبكي كالبنات. ليس من السهل تمثيل دور بنت أربع سنوات وتقمّص شخصيتها. ألبسه جنودي لباس الرجال. وتخلّى له ساخنوف عن فروته النصفية.
ــ آخ يا أهلنا...

كانوا خمسمائة شخص بين كبير وصغير. وقفْتُ بينهم وصحت:

ــ أيّتها الأُمهات والأخوات. نحن مُنتصرون.

سلّمْتُ العربات والخيول التي استولينا عليها إلى النساء. وملأ ساخنوف عربة بالسكك التي جمعها مع المحاريث مع ثيابه وسلّمها إلى مواطنته وابنها وقال:

ــ خذوها إلى قريتنا. هل تسمعون؟ قولوا لغالينا إنني سآتي قريباً.

وملأ جنودي العربات مما غنموه من الأمكنة التي استولينا عليها، وسلّموها للنساء وأرشدوهم إلى الطريق.

تحرّكَتْ القافلة بطيئة نحو الشرق. وتنفّسْتُ الصُعداء وأنا أنظر إلى قافلة المُحررين من الأسر.

* * *

أمامنا مزرعة واسعة مُحاطة بسور عال من الحجر. يوجد الكثير مثلها من الحصون في هذه البقاع. وهي ملكٌ لبروسيين جُبلوا على حبٍّ القتال. يُحيط بالمزرعة خندق مُضاد للدبابات عميق وضيّق، تليها أسلاك شائكة لعرقلة المُشاة، وبعدها حصون.

حاربنا أربع ساعات من أجل هذه المزرعة. عندما دخلناها كان مخزن القش فيها يحترق. لقد أشعل فيه النار أصحابه وهربوا.

* * *

حلَّ الظلام. صدر الأمر بهدنة. فأشعل جنودي النار في مدفأة حائطية في قاعة كبيرة. وبعد أشهر كثيرة، ولأول مرّة نمْتُ على سرير لحافه ووسادته من الريش الناعم. شيء مُمتع. النُعاس يُثقل عليّ، لكن لم أتمكّن من النوم لأنَّ آمر فصيل المُشاة الذي أتبعه أرسل إليّ ساعيه يستدعيني إلى مكتبه.

كان مُستقلاً في قسم خاص من المزرعة، مع ضُبّاط المُشاة أتباعه. كانوا ثمانية أو تسعة في قاعة واسعة يُشعلون عشرات من الشموع. لكن ما أدهشني هو وجود الكثير من البنات معهم. هل هنَّ ألمانيات يا تُرى؟

دخلْتُ فقال لي النقيب آمر فصيل المُشاة بصوتٍ مُرتفع:

ـ أهلاً بك يا عزيزي. هل ترى كيف وقعت بروسيا تحت أقدامنا؟ اقترب. لا شكَّ في أنّك تعرف لسان هؤلاء.

ـ أنا لا أعرف الألمانية.

فضحك النقيب:

ـ لسن ألمانيات، إنهنّ فرنسيات. هيّا، أيّها القفقاسي الأسمر. ارقص على ((اللازكينكا)) واسألهنّ: كيف وصلن إلى هذا المكان؟

ـ لكنني لا أعرف الفرنسية أيضاً.

فهزّ النقيب رأسه:

ـ آه منك. وأنا الذي كنت أظنُّ أنّك تعرف كلّ لغات العالم وقد طاعت لك.

كانت الفرنسيات نحيلات، ناعمات، فرحات لأنهنّ تخلصْنَ من العبودية. وأفهمننا بأنّ الهتلريين أخرجوهنّ من فرنسا وجاؤوا بهنَّ إلى هذا المكان ليعملن خادمات في مزرعة البارون.

ـ أوه، شكراً، أيّها السيّد.

لشدة ما يفرح المُتخلصون من ربقة الأسر، ومنهم هؤلاء الفرنسيات اللواتي يُبدين لعيني جميلات، وحرام، حرام... في قلبي شوكة من ذكرى شورا. قدّم النقيب للبنات صندوقاً من الزبيب غنموه من مستودع البارون. وقال:

ـ خذوه معكن، فقد تجوعون.

ـ أوه، سيدي، شكراً.

كُتِبَ على صندوق الزبيب ((تركيا)). إيه، بالزبيب يتودد التُرك إلى الهتلريين.

تقول الفرنسيات شيئاً لا أفهمه أنا ولا النقيب، ويتراءى أمامي قبر شورا. وقعٌ أليم. أُخلّص الغريب وأُضيّع القريب.

بشكل ما تمكنّا من إفهام الفرنسيات أنهنّ يستطعن الذهاب إلى بلادهن حَسبما يشأن.

عدْتُ إلى سريتي أحمل قدراً من الفخر، لأنني أنقذْتُ إنساناً من الأسر. يحدث هذا في عام خمسةٍ وأربعين يا ناس.

سرعان ما تنقضي السنة الرابعة من الحرب.

يقول لي ساخنوف إنّ الربيع على الأبواب. أين الربيع، وأنا لا أرى غير الشتاء والثلج الذي لا يذوب؟ أين هو هذا الربيع؟

* * *

استلم ساخنوف رسالة من غالينا تُعلمه أنّهم استلموا العربة والمحاريث. ((أشكرك كثيراً يا سيّد رأسي)).

* * *

ضُربَ حول هذه المنطقة السكنية حزام دفاعي متين.

بدأت المعركة ودبَّ الخراب في كلِّ شيء. لم يبق سور ولا كنيسة ولا بيت. ألن يوضع حد لهذا التخريب؟ ألن تستطيع الإنسانية أن تضع حجراً على النازية يا تُرى؟ فلا تقوم لها بعدئذٍ شوكة شر على وجه الأرض.

* * *

مللت، بل كرهْتُ كتابة كلّ هذه الأمور. لماذا أكتبها؟ وهل يتحتّم على مَنْ بعدي أن يقرؤوا هذه الفظائع؟ لا، أنا لن أُطلع أحداً على كتاباتي، ولا أحد.

* * *

تُرى هل يُقدّر للبنفسجات أن تضوع في سهولنا وبين صخورنا ثمّ تذبل من دون أن تراني؟ ألن يضع طير في ودياننا بيضاً في هذا الربيع أيضاً؟

نحن الآن في السادس والعشرين من كانون الثاني. ثمانية وعشرون يوماً وأنا في الواحد والعشرين من العمر. كتابتي لا تُشبه الكتابة.

نحو البحر

اجتزنا بُحيرات مازوريا، وانعطفنا إلى اليسار الغربي في طريقنا إلى البحر، أو إلى الميناء البحري: مدينة كونيغسبورغ.

قال الكسنيدس:

ــ إنّها مدينة كبيرة تتصل بالبحر عن طريق نهر برغيل. ويدخل هذا النهر أكبر البواخر التي تعبر المُحيطات.

شُيّدَتْ على النهر جسور عالية قابلة للفتح، أي إنّها تنفتح من وسطها عندما تقترب باخرة، وتنطبق عندما يمرُّ قطار مُستندة على جدرانها الأساسية.

وجدنا كلّ الجسور مفتوحة، إذ يبدو أنّ الألمانيين قد هربوا بواسطة البواخر باتجاه بحر البلطيق.

عبرنا النهر على ألواح خشبية لأنّ هذا النهر لا يتجمّد.

وسُرعان ما بدا لنا شيء رمادي. إنّها مدينة. لكن أية مدينة؟ وأين هي كونيغسبورغ؟ إنها هي. إنّها المدينة القلعة الحصينة في بروسيا الشرقية.

بدأتُ أنظر إلى المدينة بمنظاري ساعياً إلى اكتشاف حصونها. لكنّها بعيدة، إضافةً إلى الضباب البحري، ولم أر غير قباب الكنائس وأسوار القلعة الوسطى المسودّة.

تنفسْتُ نفساً عميقاً. لقد وصلنا إلى كونيغسبورغ.

وكتبتُ رسالة إلى البيت.

نحن الآن في الثلاثين من كانون الثاني. شهرٍ واحدٍ وثلاثة أيام وأنا في الواحد والعشرين من العمر. كتابتي تحملُ نفساً بحرياً.

دمي فوق الثلج

أنا لا أشعر بالبرد على الرغم من أننا في شباط. وفي أوائل أيام هذا الشهر الشتوي.

كونيغسبورغ مُحاصرة. في كونيغسبورغ أعداد هائلة من القوات الهتلرية، مع كامل عددهم وزادهم. شُيِّدَتْ حول المدينة أربعة حصون متينة حصينة يُسمونها ((فورد)). توقّفَتْ كتيبتنا في مواجهة الـ ((الفورد)) الثامن.

تُحاصر قواتنا المدينة من جهاتها الأربع. اقترحَتْ قيادتنا على حُماة المدينة الاستسلام حقناً للدماء.

لكنّهم رفضوا اقتراحنا.

أشار كشّافتنا أنّ اجتياح حصون المدينة شيء مُستحيل.

أيّها الهتلريون: ما دمتم لا تُريدون الاستسلام، فتحمّلوا إذن ضرباتنا.

وبدأنا بهدم كلّ ما هو ظاهر لأعيننا في المدينة دون رحمة. وتذكّرْتُ حصار لينينغراد الذي دام تسعمائة يوم. وضحكت. يالسُخرية القدر. يبدو أنّ لا أحد من الهتلريين كان يتوقّع أن يحلّ بهم مثل ما حلّ بلينينغراد. لقد انطبقَتْ عليهم حكمة الفردوسي: ((في يوم تكون أنت فوق السرج، وفي يوم تكون تحته)).

يتضح من نيران العدو أنّهم يقننون الذخيرة. نحن نُحاصِر من الجهات الأربع، نسدُّ كلّ المداخل إلى كونيغسبورغ بينما يستمرّ قسمُ من قواتنا بمُتابعة التقدّم نحو البحر.

ركزْتُ منظاري على تل غير مُرتفع، وأحضرْتُ هاتفاً مع ساخنوف واثنين من جنود المراقبة. يظهر من هنا بوضوح مكان أهدافنا. ورحْتُ أُمهّد تلك الأمكنة بالنار متراً فمتراً. من الواضح لنا أنّ مراكز ((فورد)) الألمانية

مبنية بالإسمنت المُسلّح وبالحديد في أعماق الأرض، ومُغطاة بسقف سميك متين، بحيث لا تؤثر فيه أثقل القنابل وزناً وأشدّها انفجاراً.

سألني ساخنوف:

ـ إذن، كيف سنستولي على هذه الحصون؟

ـ بالهجوم. بالهجوم البشري فقط.

ـ لكن سوف تكون الضحايا كثيرة جدّاً، وا أسفاه.

نعم ستكون الضحايا كثيرة. ولقد أطلق الهتلريون على الحصون أسماء مُرعبة. فلقّبوا أبراج الحصون ب ((أسنان التنين)). فلتكن كذلك.

وصلَتْ قواتنا إلى شاطئ البحر. هناك، عند مدخل نهر بريغيل مقبرة السفن الحربية الألمانية، إذ لا تسمح مدافعنا وسفننا الحربية المُرابطة في البلطيق وطائراتنا الحربية لأية سفينة ألمانية بالخروج إلى عرض البحر، أو تغرقها في مكانها.

ونحن بدورنا نهدم التحصينات في كونيغسبورغ بالمدافع الثقيلة ومدافع الهاون وبالقنابل من الجو. وحسب التقرير الذي قدّمته مُخابراتنا توجد في المدينة خمسة ألوية من الهتلريين إضافةً إلى قوّات القلعة.

* * *

يشنُّ العدو هجوماً مُعاكساً.

تقدّمَتْ الدبابات الهجوم، ثمّ تبعها المُشاة الخارجون من ال ((فورد)). وتُمهّد لها المدفعية الثقيلة الطريق بقصف مواقعنا.

المعركة حامية الوطيس. أنا في موقعي حسب عادتي.

تسقط القنابل والقذائف حول مركز مُراقبتي وفوقه وبجواره، وتنفجر، فتطير شظاياها من فوق خنادقي. أنا داخل الأرض، مُلتصق بالمنصب الذي يحمل منظاري الكاشف المرتفع فوق الخندق. بواسطته أرى العدو بوضوح وأوجّه إليه نيراني حسب ما أُريد.

لعلعة شاملة. ولم يبق للثلج بياض لا حولنا ولا أمامنا. فالمدفع يقذف بالتراب فوق ظهره.

قُتِل الجندي المُكلّف بالهاتف. فأزحْتُ جثّته جانباً واستلمْتُ الهاتف مكانه.

وقُطع سلك هاتفي، فقُطع بذلك اتصالي بوحدات مدافعي. خرجْتُ من الخندق للكشف على السلك المقطوع. وجدْته ولم يكن بعيداً، فزحفْتُ زحفاً ووصلْتُ طرفيه.

عدْتُ. وانفجرَتْ بقربي قذيفة، فالتصقْتُ أكثر بالأرض.

أحسسْتُ بسائل حار تحت حزامي، فارتميْتُ في الخندق زاحفاً. كان الثلج يغمره، ورأيتُ عليه دماً. إنّه دمي. خلعْتُ فروتي، وأزحْتُ ثيابي.

رصاصة أصابَتْ يمين بطني. الدم ينزف غزيراً. ضغطْتُ على الجرح بمنديلي. وسحبْتُ نفساً عميقاً. لا، لم تخرج الأمعاء من الجرح، فالجرح إذن سطحي، لم يصب غير جلد البطن بعرضه.

سوف أعيش. لكنني أفقد وعيي. أين ساخنوف؟ لا يستطيع جندي الهاتف القتيل أن يُساعدني، هذا معروف. فطلبْتُ آمر أول حضيرة مدفعية بالهاتف وقلت:

ــ تعال لتحلّ محلّي، فأنا جريح.

* * *

عدْتُ إلى الوعي في الزحّافة، وأنا مُستلق على القش اليابس والنصفيات. جسمي مُغطّى بالفراء. ظهر ساخنوف، يطير بزحّافة وحيدة الحصان فوق الثلج.

نحن في غابة، تُحيط بنا الأشجار على الجانبين. في أُذني ضجّة الحرب المكتومة التي أبتعد عنها. رحْتُ أُعمل فكري لأتبيّن كيف أخرجوني من الخندق، فلم أصل إلى شيء. بطني يحترق.

ــ إلى أين تأخذني، ساخنوف؟

ـ ليس إلى حماتك، طبعاً.

ـ ارجع بي.

ويسوط ساخنوف الحصان الذي يطير مُنساباً، ويصيح بصوتٍ مُرتفع:

ـ انظروا إلى هذا، انظروا إليه، الولد يُريد أن يعود؟ إلى أين نعود؟ سأوصلك الآن إلى مركز الإسعاف، دلّني آمر الفصيل على موقعه. إيه، كيف حالك الآن؟

فأسكُتْ، ولا يلتفت ساخنوف إلى الوراء. يعرف أنني تعمّدْتُ السكوت.

ـ لقد مزّقَتْ الرصاصة جلد بطنك. لم تجرحك جرحاً عميقاً يا بني... ليس الجرح خطيراً، لكنك فقدْتَ دماً كثيراً. سوف يسعفونك جيّداً في مركز الإسعاف.

* * *

في مركز الإسعاف عالج جرحي طبيب أسمر من أذربايجان. سألته:

ـ ما هي كنيتك؟

ـ آخوندوف.

ـ أنت من باكو؟

ـ نعم من باكو.

ـ أظنك تمتُّ بقرابة لميرزا فتالي آخوندوف.

ـ رُبّما.

وقدّم لي آخوندوف كحولاً ممزوجاً بالماء، ثمّ زِبدة وشاي. ووضعني بعد ذلك في عربة وأرسلني إلى الخلف، وقال مودّعا:

ـ مع السلامة.

ـ شكراً جزيلاً.

كانت العربة تهتزُّ بشدّة، ويشكو منها جرحى لا يستطيعون المشي. كانوا ستة في العربة نفسها. وتسبب ضجيج العربة في فقدان وعينا. آخ، يا للفظاعة. لو يحملوننا بسيارة.

ـ وتُعربد العربة.

يتراءى لي دمي، دمي بالذات على الثلج. تُرى ماذا يفعل ساخنوف. وموشيغ القراباغي، والجنود الآخرون؟ آخ، فليشفع الله لهم فلا يُقتل أحدٌ منهم. لقد شارفَتْ الحرب على النهاية.

* * *

هذه مدينة اينستربورغ على ضفّة نهر بريغيل.

يستقرّ المُستشفى في بناء قديم ذي طابقين. وضعوني على سرير مصنوع من الخشب بطابقين. كانت القاعة مملوءة بجرحى مُمددين على أسرّة ذات ثلاثة طوابق.

أنا في كامل وعيي. أطعموني حتّى الشبع. لكنني أعطش كثيراً.

اليوم هو التاسع من شباط. جُرحْتُ في السابع من شباط. سألتُ الطبيب المداوي:

ـ هل أشفى سريعاً؟

فابتسم وقال:

ـ بسرعة، ليس جرحك خطيراً. لو أنّ الرصاصة تعمّقَتْ أكثر لصار وضعك خطيراً.

* * *

مضى عليّ أسبوع في المُستشفى. حالي تتحسّن. لا أُريد أن أكتب رسالة إلى البيت. ماذا أكتب؟ أأكتب أنني جريح؟ لا داعي لذلك، فقد يجعلهم الخبر يُخمنون ألف فكر وفكر سيئ عنّي.

في بلادي الآن ربيع.

بجانبي جندي مجروح في رجله. إنّه يلهث ويئن. استدعيت الطبيب الذي جاء وفحصه وذهب. بعد قليل أخذوه منقولاً على محفّة. قالت لي المُمرضة:

ـ أُصيبَتْ رجله بالغنغرينا.

ومات المسكين. ولم أعرف حتّى اسمه، مع أننا كُنّا مُتجاورين. ليلة ثقيلة قضيتها حتّى الفجر.

* * *

أستطيع الآن أن أمشي.

طلع الصباح وها نحن نستعد للفطور. حين دخل نائب رئيس المُستشفى الإداري وقال:

ـ أيّها الرفاق المقاتلون والضُبّاط: سوف أُنبئكم بنبأ مُحزن. لقد مات اليوم، مُتأثراً بجراحه، آمر جبهة بيلورو الثالثة جنرال الجيش ديميبروفيتش جيرنيا خوفسكي.

وضجّتْ القاعة المُزدحمة بالجرحى ببكاء مرير وتأسف:

ـ واه، واه...

وارتجف صوت ناقل الخبر:

ـ خطبٌ فادح علينا وا أسفاه.

سمعْتُ نحيباً لم أميّز أهو منّي أومن جاري. ولا فرق.

في هذا اليوم أحضروا جثّة جيرنيا خوفسكي إلى اينستربورغ، فصفّرَتْ الصافرات البُخارية وأرعدَتْ نيرانِ مُختلف الأسلحة، ووقف مَنْ يستطيع الوقوع منّا دقيقة صمت احتراماً لموت الآمر البطل.

* * *

الثامن عشر من شباط.

أنا الآن مُعافى.

أخرجوني من المُستشفى وأرسلوني إلى مركز النقاهة، حيث يُبقون المرضى عدة أيام للنقاهة. يُرسلونهم بعدها إلى الجبهة.

قابلت الجنرال قائد قسم الضُبّاط في هذا الفصيل وطلبْتُ إليه:

ـ أرجو إرسالي إلى قطعتي التي كنت فيها.

فنظر إليّ بحدّة وقال:

ـ تعلّم النظام. نحن نُرسل المُقاتلين إلى حيث نكون بحاجة إليهم. هيّا اذهب وانتظر.

وجئْتُ إلى المبنى الذي عُيِّن لي، فوجدْتُ الضُبّاط وحدهم هنا بأعداد كبيرة جدّاً. فقال لي مُقدّم كان ناظر هذا المبنى:

ـ هيّا، يا حمامتي، انزع عنك نقاب النعومة، وتسلّم مُناوبة النظارة هذه الليلة.

تسلمتُها على مضض.

عند الصباح أفطرْتُ في المطعم المُشترك، وخرجْتُ إلى الطريق العام، حيث تمرُّ سيارات شاحنة باستمرار باتجاه كونيغسبورغ مركز لوائنا.

صعدْتُ على ظهر شاحنة وسافرت.

رحْتُ أبحث عن لوائنا، ولكن لم يعرف أحد مكانه. وفيما أنا أُعاني من المرارة في داخلي، ضبطني فجأة أفراد قواتنا الخاصّة واعتبروني هارباً من الخدمة. كيف أُفهمهم بأنني هاربٌ من مقر النقاهة، وأنني أبحث عن لوائي، وأنّ لي فيه بيتاً وساخنوف.

ودبَّ فيّ اليأس، ولكن حدثتْ المُصادفة، إذ رأيتُ على جانب الطريق أمام البيوت الأرضية سيارة أعرفها. إنّها سيارة آمر لوئنا. نعم إنّها هي. أعرف سائقها.

لكن قبل أن أصل إلى تحيته خرج من بيت أرضي قريب جنرالنا نفسه، يُرافقه قائد الكتيبة مُعاونه الإداري. فأظهرْتُ نفسي لهما وقلت:

ـ لقد استشفيتُ في المُستشفى، وأنا الآن أبحث عن لوائنا سيدي الجنرال.

ـ آه، أهذا أنت؟ أنا مسرور لذلك. هيّا لنذهب معاً.

جلسنا على المقاعد الوثيرة. وقال الجنرال لقائد الكتيبة:

ـ يجب علينا جمع رجالنا من المُستشفيات.

* * *

وصلْتُ قُرب المساء إلى سريتي فوجدْتُ الضابط الذي ناب عنّي مقتولاً، وقد عيّنوا آخر بدلاً منه، فقال هذا بمرارة:

ــ منينا بخسائر فادحة.

لم يبق من جنودي إلاّ القليل: ساخنوف وعشرون آخرون، فتجمّعوا حولي فرحين. وأخبرْتُ آمر الكتيبة هاتفياً بعودتي فقال:

ــ أنا أكبر فيك عودتك. هل تعلم أننا رشحناك لوسام؟ هيّا استلم سريتك.

* * *

شتاء، وثلج.

الربيع يُزهر في جبالنا الآن.

جاءني ساخنوف برزمة من الرسائل وقال مُستحياً كأنّه ارتكب ذنباً:

ــ لقد احتفظْتُ لك بكلِّ ما أرسلوه من البيت. لكنني ارتكبْتُ ذنباً إذ أضعْتُ سيفك.

سيفي الذي أهدانيه قائد الكتيبة روتكون في موقع دفاع نارفا، فلماذا يضيع هذا بالذات. أتأثر وأشعر بالحزن ولكن لا أُبينه لساخنوف. لكنّي سألته عما عنده من أخبار غالينا فقال:

ــ كتبَتْ رسالة تقول فيها، إنّ كلّ شيء على ما يُرام. وأنّهم في سبيلهم إلى إعادة بناء القرية.

ــ هل تُرسل لها هدايا؟

ــ لا أُرسل.

ــ ارسل لها في كلِّ يوم.

نحن الآن في الواحد والعشرين من شباط. شهرٌ واحد وأربعة وعشرون يوماً وأنا في الواحد والعشرين من العمر. كتابتي بيتية.

نداءاتٌ بعيدةٌ

الآن يخضرُّ قبر شورا.

أكتب غصباً عنّي وأُريد أن أُمزّق ما أكتب. لكنّ ساخنوف يمنعني بقوله:

ــ هل جننت، ماذا تفعل؟

ــ ولكن مَنْ تُفيد كتاباتي يا ساخنوف. مَنْ؟...

ــ على الأقل، يعرف عنّا أولئك الذين لم يأتوا بعد. ولكنّهم سيأتون. فليعلموا كيف حافظنا على الوطن.

* * *

منحوني رتبة نقيب، لكن لم يُغيّر ذلك شيئاً من حالي سوى نجمة إضافية علقوها على كتفي.

مازالت أمامنا مدينة كونيغسبورغ كالسابق. تظهر أبراج قلعتها الوسطى وقِباب كنائسها السميكة التي تهدّم بعضها في السابق. ويتهدّم البعض الآخر الآن.

عدة آلاف من المدافع الثقيلة والمدافع الهاون والمدافع المُحرقة تقصف حصون تلك المدينة البروسية في الليل والنهار.

تبذل القوات الألمانية كلّ جهدها لتُبقي فروع نهر بريغيل على اتصال بالبحر. ولكن لا منفذ لهم إلى البحر، لأنّ بواخرنا الحربية سدّتها عليهم. وقد أنزلَتْ بها قاذفاتنا أقسى ما يُمكن من التدمير.

هربَ مُعظم سكان بروسيا الشرقية إلى هذه المدينة آملين أن يتمكّنوا من الهَرب إلى الغرب عن طريق البحر. لكن الممرّات البحرية مُغلقة.

كونيغسبورغ تتهدّم.

وعُدْنا نحن بمكبرات الصوت إلى دعوة حامية المدينة من العسكريين إلى الاستسلام. لكن الألمان لم يستمعوا مرّة أُخرى إلى اقتراحنا المُسالم.

* * *

حلّ الربيع وبدأ نهر بريغيل يحمل تيارات من الجثث العائمة إلى البحر، فتذكرْتُ نهر فولخوف عند مدينة نوفغورود يوم اسودَّتْ مياه نهرنا الزرقاء بسواد الجثث العائمة. وتذكّرْتُ جثة سيروج المُتجمّدة. الصورة نفسها الآن. فارقٌ أنّ نهر بريغيل الآن يحمل جثثاً ألمانية.

لماذا يحصل هذا؟.

أصبحت هذه الـ لماذا الرهيبة كالسيف مُسلطة فوق رأسي.

لماذا؟

لا يوجد جواب، لا يوجد... لماذا لا يوجد؟ مَنْ الذي سيُجيب إذن عن كلّ هذا الدم المسفوح وهذا الدمار المؤلم؟

* * *

حالما أُغمضُ عيني تتراءى لي رمال بالخاش وشورا. فأستيقظ مُضطرباً ويُخيّل لي أنني أسمع صوت شورا يسألني:

ـ هل نسيتني؟

ـ فلتعمَ عيني إن كنتُ نسيتك.

آمر جبهتنا القتالية الآن هو الماريشال فاسيليفسكي. جاء ليحلّ محل جيرنياخوفسكي. لقد اشتهر إسم هذا الماريشال أيضاً في صفوف في الجيش. أنا لم أره، لكنني أحببته.

إلى أعلى، أيّ في القطاع الأوسط في البلطيق، يعمل آمر جبهة القتال الأولى إيفان باغراميان. أعتقد أنّ اسمه الحقيقي هو هوانيس وأنّه من قره باغ. وأنا أحلمُ دوماً في أن أرى هذا الجنرال الأرمني ولو مرّة واحدة.

أنا في مرصدي السابق. في كلِّ يوم حين أدخل إلى هذه الحُفرة أبحثُ عن آثار دماء. لكن ذلك الثلج قد ذاب من زمان وأخذ الدم معه.

يشنُّ العدو هجمات أحياناً فتُصدُّ كلّ هذه الهجمات ويُقضى عليها.

نحن الآن في الربيع. في آذار. اليوم فقط عرفْتُ أنّ هذا المكان يحوي الكثير من أشجار الصنوبر، لكنّها صغيرة، مازالت مُلتصقة بالأرض. أما تحطّمَتْ أو تجرّحَتْ؟ بدا لي أنّ حال الأشجار الواقعة في جبهة الحرب صعبة.

* * *

أزهرَتْ الأشجار الجريحة، وهذا أمرٌ يدفع إلى العجب. لقد أزهرَتْ من بين أكوام التراب أو تحت الحجارة وأخذَتْ تبتسم. آه، يا لوقاحتك، لماذا تبتسمين ببراءة هكذا؟ فتّانة؟

* * *

قُتِل ثلاثة أشخاص من رجال سريتي، وأربعة جرحوا. أرسلنا الجرحى إلى المُستشفى. بعد دفن القتلى لاحظْتُ أنّ مقبرة أبنائنا في السهل خلف مواقعنا تزداد اتساعاً، فقلتُ ليرين نائب آمر كتيبتنا الإداري:

ــ أينما وجد قبرٌ لنا، يجب أن نمتلك أرضه.

فابتسم وأجاب:

ــ وما أدراك أنّ هذه المدينة وهذه الأرض لن تبقى لنا؟ لقد كانت سلافية الماضي، استولى عليها الألمان. وها هي الآن تعود إلينا.

* * *

نحن الآن في الثامن من نيسان. ثلاثة أشهر وعشرة أيام وأنا في الواحد والعشرين من العمر. كتابتي مؤسسة.

جاء الربيعُ يا ناس

شمسُ ربيعية. تغطّى خندقي بالخُضرة الناعمة. خندقٌ سُندُسي أُريد أن أنام فيه، وآمر ساخنوف بإهالة التراب فوقي.

ـ أُريد أن أنام إلى الأبد مثلما تنام شورا...

تفوح رائحة التراب دافئة. في ممر مربض مدفعي الذي مددْتُ فيه أنبوب مدفع رشاش ثقيل، وجدْتُ برعم قرنفلة بريّة لم تتفتّح بعد، بل أسندَتْ رأسها على فوهة الأنبوب، ويهدر بجوارها نهر بريغيل، فتذكّرْتُ بنفسجة تُركَتْ في سهولنا بلا صاحب.

* * *

عند الفجر حاولنا الاستيلاء على كونيغسبورغ بالهجوم فلم ننجح.

بدأتُ أستعمل لكتاباتي ورقاً ألمانياً. ورق أبيض، صقيل ووفير.

جاءني لوسيغين بابوفيان. كان عابساً، في عينيه دمع. قال:

ـ سوف أُقتل اليوم.

فتذكّرْتُ غوبين. هو أيضاً توقع موته وتحقق. فتصنّعْتُ الضحك وقلت:

ـ أحمق. هل تعلم بالغيب؟

لم يتعظ، بل قال:

ـ لقد فقدْتُ صليبي.

ـ أيّ صليب؟

هدية أُمّي، صليب آني. إنّه حارسي الأمين، أضعتهُ مع حافظة أوراقي، وفيها بطاقة عضويتي كنصير مع رسائل أُمّي. كنتُ قد خلعْتُ

صليبي من عنُقي ووضعته في حافظتي عندما قبلوني في عِداد الحزبيين. ويلٌ لي...

قلت له وفي عيني قبر غوبين:

ــ ماذا بعد؟ ضاع وانتهى، ماذا بعد؟

ــ سوف أُقتل.

ولم أتمكّن من مواساته رغم كلّ السُبل. كيف أُقنعه بأنّه لن يُقتل وهو يرى الجنود في سريتي يُقتلون كلّ يوم. هنا على الأخص، تحت أسوار كونيغسبورغ؟

تأثرْتُ كثيراً على لوسيغين. إنّ ما يُرهبه هو ضياع صليب آني. رُبّما لم يبق من آني الضائعة غير هذا التذكار البسيط. وقد ضاع هذا أيضاً. بالرغم من كلّ محاولاتي لإقناعه، لم يهدأ. ركبه اليأس المميت.

ــ مهما تقل. سوف أُقتل.

اليأس أكثر خطراً من العدو.

* * *

ذهبتُ في المساء إلى القيادة القريبة منّا، من أجل الذخيرة، لأننا سنقوم بعملية هجوم واسعة في الصباح. ما تاريخ اليوم؟ لا أذكر. لكن البنفسج في حقولنا الآن مُتفتّح.

في القيادة أعطاني أحد معارفي من الضُبّاط حافظة أوراق صغيرة ذات غلاف جلدي أسود وقال:

ــ وجدتها، وفيها أشياء ورسائل أظنُّ أنّها كُتبت بلغتكم.

كانت تحتوي على رسائل أرمنية وصليب. هذا من حظ لوسيغين. عثر على صليبه.

عدْتُ إلى مواقعي. لوسيغين يُطلق النيران من مدفعه بهدوء واكتئاب. يُطلق النار بانفعال وحقد. ويتمتم:

ــ سوف أُقتل. لقد ضاع صليبي.

أعطيته الصليب، فانكبَّ على الأرض من فرحته وقبّل الصليب فوق الوحل. وقال بكلِّ ارتياح:

ــ سأعيش، لكن اعلم بأنني سأُجرح. صليبي هو روحي، خرجتْ وعادَتْ إلي.

في آخر المساء جُرحَتْ رجله، فأرسلته إلى الخلف.

* * *

هطل المطر في الليل، أول مطر ربيعي يهطل في القطاع الأوسط من بحرِ البلطيق. هذه بروسيا الشرقية. وهذه مداخل كونيغسبورغ. القتال هنا خفيف بشكل عجيب، أو على الأقل، هذا ما يبدو لي. هذا على ما يظهر لأنني أصبحْتُ ومنذُ زمن خبيراً مُحارباً جبهوياً. وضعف القتال هذا مرده إلى أننا في وكر العدو، في ألمانيا الهتلرية، ونحن نغلب العدو الذي كان يظنُّ بأنّه لا يُغلب. القتال في الواقع شديد وحامي الوطيس، لكنني أعتبره خفيفاً حتى أنني كثيراً ما أجلس مع جنودي في الخنادق لنُغنّي، وقد نُغنّي ونحن نُطلق نيران مدافع الهاون.

عند الصباح خلعْتُ فروتي ولبسْتُ سترة. قُبعتي ثقيلة على رأسي، وأحسُّ بتيار الربيع الشديد. لأول مرّة بعد أربع سنوات أشعر بالطبيعة وهي في جمالها، أوج جمالها. نحن نغلب النازية...

هطل المطر في الليل. مطر أول الربيع. ظهرَتْ شمس خفيفة، حُفر مائية خفيفة، السماء خفيفة وخُطايَ خفيفة أيضاً. ويُخيّل لي أنّ ضجة مدافع الميدان ومدافع الهاون أيضاً خفيفة، ولا تعدو أن تكون لعبة مُمتعة.

في الطريقِ الذي تصل إليه مواقعي توجد عربة مقلوبة وجدْتُ تحتها كتاباً مفتوحاً، وصورة على الصفحة المفتوحة. اقتربْتُ وانتفخْتُ. إنّه كتاب كاتبنا العظيم رافي. وانقطع نفسي، فدخلْتُ تحت العربة وانتشلْتُ كتاب رافي من بين الوحل والماء. لكن لم يكن هو، بل

موراتسان وكتابه الروسي ((كيفورك مارزبيدوني)). غلافه منزوع، لكن بدايته ونهايته موجودتان. ضممت الكتاب الندي كأرض بلادي الندية إلى صدري وأغمضْتُ عيني. ما عدْتُ أسمع ضجيج أسلحةَ الحرب، بل بتُّ أسمع حكاية أو أسطورة من بعيد، أو رواية تعيش في كياني مذ ولدت.

أشعل جنودي ناراً لغلي الماء، لكنّهم تركوها وأسرعوا إلى المواقع وسلّطوا نيرانهم على العدو في هجوم مُفاجئ. أخذْتُ كتاب ((مارزبيدوني)) ورحْتُ أُجففه على النار ورقة ورقة. آه يا قريبي. من أين وكيف وقعْتَ في هذه المناطق! مَنْ الذي حملك وجاء بك من أرض الوطن إلى هذه البلاد! بلاد العدو الغريبة. أم تراك جئْتَ وحدك راكباً حصاناً مثل بطلنا الأسطوري آشود يرغات، أو بطلنا كيفورك مارزبيدوني، وقصدْتُ مواقعي بالذات لكي تعينني من بعد آلاف السنين بطيفك في وسط هذا الدم وهذه النار، لكي تجعلني أتغلّب على العدو وأُجمّد يده الدامية إلى الأبد. شكراً لك.

عند المساء جاء إلى موقعي قائد الكتيبة بافل سافونوف وسألني:

ــ ما هذا الكتاب؟

شرحْتُ له مضمونه، فاستعاره منّي لليلة واحدة للاطلاع عليه. وعاد عند الصباح من جديد إلى موقعي وقال:

ــ قرأتُ كتابك كلّه دون أن أنعس. إنّه شيءٌ عظيم. أنتم الأرمن تحظون بتاريخ بطولي عريق، أنتم شُجعان، ومُتفانون في حبِّ الوطن. يجب إطلاع جنودنا على هذه القصّة.

وأوعز بافل سافونوف إلى الضُبّاط بقراءةٍ كتاب ((كيفورك مارزبيدوني)) وأعطى فرصة أربع وعشرين ساعة لكل منهم. بدأ بقراءته رئيس مكتب القيادة بريغول. وبعد انتهائه صافحني وقال:

ــ شكراً على ما أمتعتني به بهذا الكتاب.

ووقّع على هامش آخر صفحة من الكتاب، وكَثُرَتْ بعده هذه التواقيع مما اضطرني إلى لصق ورقات إضافية لتتسع لحمل التواقيع. وبقيت قصّة ((كيفورك مارزبيدوني)) تدور على شفاه كلّ ضُبّاط كتيبتنا

المدفعية 261 أياماً طويلة، وكأنّ قائدنا القديم جاء من مثواه، وانضمَّ إلى صفوفنا ليُحارب معنا.

* * *

يلفظ ساخنوف اسم كونيغسبورغ بصعوبة ويبصق.

ـ ما هذا الاسم الذي لا يستطيع المرء أن يلفظه بسهولة!

تظهر المدينة الرمادية بسهولة ووضوح. القلعة المتوسطة، وقِباب الكنائس والنهر وغيرها. تُشبه مدينة كونيغسبورغ قبضة مشدودة.

هطل في الليل مطر غزير، مطر ربيعي دافئ. لمَعَتْ تحته ألواح القرميد التي تُغطّي بيوت المدينة. لكن لم يدم ذلك طويلاً، بل عادت إلى أنظارنا تلك الرمادية المعهودة.

استدعوني إلى قيادة الكتيبة وأعطوني معلومات مُفصّلة عن كونيغسبورغ. كان لابُدّ من ذلك، حتّى ولو كان ما سنهجم عليه تلاً من التراب، التفاصيل ضرورية، فما بالك وأنت أمام مدينة كبيرة لا يمكن اجتياحها بسهولة؟

المدينة قلعة حصينة، أظنُّ أنّه لا يوجد مثلها في كلِّ أوروبا. تُحيط بالمدينة حصون قديمة. قديمة جدّاً، ومع ذلك فقد عمد الألمان، قبل الحرب العالمية الأولى، إلى إحاطتها بطوق من الإسمنت المُسلّح بأبراج مُحصّنة، كما وضعوا على فروع نهر بريغيل مراكز ((فورد)) بحيث تسدّ كلّ المداخل إلى المدينة.

على لوائنا أن يُهاجم ال ((فورد)) الثامن منها. منظره رهيب، مُرتفع فوق تل مُتطاول ينحدر نحو النهر.

أوضح رئيس مكتب قيادة اللواء:

ـ هذا الفورد عبارة عن جوزة قاسية. أسواره من الآجر، سمكه ثلاثة أمتار. وبالسمك نفسه تراب يُغلّفها. أمّا المُنشآت الدفاعية تحت

الأرض فتتألّف من ثلاثة طوابق. فوق الحصن برجان عاتيان، ترونهما أنتم بأعينكم.

لم يترك رئيس مكتب القيادة شاردة ولا واردة. أمّا أنا فكنتُ أستمع إليه من دون أيّ اهتمام. لأنني كنتُ أرى أنّ أيّ حصن مهما كانت تحصيناته قوية متينة، هو سهل الاجتياح. للأبراج مساحة قتالية دائرية الشكل. تتيح للألمان مُراقبة كلّ متر من مداخل المدينة. وفي الأبراج ممرّات حلزونية ضيّقة حُصنَتْ أيضاً بنقاط نار.

ويضيف رئيس مكتب القيادة موضحاً:

ـ هذا الفورد الذي علينا أن نقضي عليه ونحتلّه يضمُّ أربعة وستين مدفعاً رشاشاً ثقيلاً. يؤَمن العمل فيه دورياً ثلاث ورديات مُستمرّة. على جناحيه وخلفه تقع القلعة المتوسطة التي تضمُّ خمسين نقطة مدفعية ثقيلة في كلِّ جناح.

لقد عرفنا كلّ هذا نحن الضُبّاط من مواقعنا بواسطة منظارنا وبالكاشف الزوالي وبالعين المُجرّدة.

* * *

عند الصباح بدأ هجوم قواتنا كلّها، فقرّبْتُ مدافعي من أحد أبراج الفورد، وحضرْتُ في الليل ملاجئ وخنادق آمنة للمدافع والجنود، وبدأت الآن تكثيف نيراني على هذا البرج.

بدأ الهجوم في الساعة الثامنة والنصف. الأرض تهتز، والتراب يعلو مثل الشآبيب في الجو. وتنفجر العشرات من القنابل والقذائف فوق مواقعي وحولها.

قتالٌ رهيب. تسقط في الدقيقة فوق العدو عدة مئات من القنابل والقذائف والألغام. ساخنوف لا يتوقّف عن مسح عرقه، وهو يقول:

ـ لنعمد إلى القتال بالسلاح الأبيض، إذ لا يؤخذ هذا الحصن إلاّ بالقتال بالسلاح الأبيض.

كان قوله يبعث الضحك في الجنود، إذ لا يمكن الاقتراب من الحصن إن لم يُهدم عن آخره.

* * *

أربعة أيام بلياليها ونحن نقصف كونيغسبورغ. فوهات مدافعي الهاون تحمَر. فأُضطرُ إلى تهويتها، أي أتركها دورياً من دون عمل مدة نصف ساعة فتبرد هكذا. وبالاستفادة من وقت استراحة المدفع ينام جنوده نصف ساعة معه. ينامون إلى جانب المدافع، في الخنادق ويغطون بالنوم.

تنفّخَتْ عيناي من قلة النوم، وأكاد لا اقف على قدمي من التعب. لكنني لا أشعر بثقل في رأسي ولا بالحاجة إلى النوم.

اخترق جنودنا المُقاتلون في الأجنحة المدينة. علمْتُ بالخبر بالهاتف وبلّغتُهْ لجنودي، فاشتدَّ أزرهم. وزاد من اندفاعهم هجوم الطائرات المستمر على أبراج المدينة. فرحوا فرحاً لم أر مثيلاً له.

* * *

صدر إليّ الأمر عند الظهر بالاقتراب من الأبراج. فحملنا المدافع وقطعنا كيلو مترين عدواً. الأرض التي تحت أقدامنا مُحفّرة مفلوحة. وقد جدنا فيها حبوب القمح منثورة.

* * *

أنا الآن داخل المدينة مع مُقاتلي. وضعْتُ المدافع على الأرض وبدأتُ بقصف أبراج القلعة المتوسطة. من فوقها كان العدو يحاول بمدافعه الرشاشة تفريق جنودنا المُشاة.

معركة جنونية. نحن الآن نُقاتل في شوارع المدينة، وفي أطلال البيوت المُهدّمة. كلّ الأمكنة ساحة حربية. تزداد حولي جثث مُشاتنا.

الدروب ضيّقة جداً في بعض المحلات، كما تنهار البيوت المُهدّمة على المُقاتلين أحياناً. في كلّ خطوة ترى جنوداً قتلى من العدو، خصوصاً الضُبّاط منهم.

تهدّم حصن القلعة المتوسطة. فقفز منه كثير من الهتلريين ووقعوا على الصخور أو الآجر المُحطّم وتحطّموا هم أيضاً. من خرابة بجانبي خرج ثلاثة من الألمان يرفع كلّ واحدٍ بيده علماً أبيض.

ـ نستسلم.

كانوا مذعورين مذهولين، فسألتهم بواسطة جندي مُترجم:

ـ لماذا تأخرتم في الاستسلام؟ ألم تروا المدينة مُهدّمة. وأنّها نهايتكم؟

فقال أحدهم وكان برتبة ناظر:

ـ ولماذا لم تستسلموا أنتم يوم كنّا عند أسوار موسكو؟

فأعلمته أنّهم ما كانوا ليستطيعوا اقتحام موسكو، وما كان ذلك مُمكناً، إذ لن يستسلم أيٌّ واحدٍ منّا هناك للعدو مثلما يفعلون هم، وها هم يطلبون الرحمة.

فعبس الألماني.

وقلت له:

ـ نعم، ما كان أحدٌ منّا ليستسلم حيّاً للعدو. فهذا عارٌ علينا أمّا أنتم فتستسلمون كما أرى.

فألقى قطعة القماش البيضاء من يده وانخرط في البكاء.

وسقطَتْ كونيغسبورغ.

* * *

في ليلة السادس من نيسان بدأنا نُهاجم الحصون الداخلية في المدينة. اختلطَتْ السماء بالأرض، ونحن نُهاجم بلا توقّف.

... أنا وسريتي تحت أسوار القلعة المتوسطة.

يدسُّ ساخنوف وموشيغ ألغاماً في شقوق السور ويُفجرونها.

ينتثر التراب. وتظهر مجموعات الأسرى الذين يستسلمون. وكان بينهم ضابط برتبة جنرال.

* * *

التاسع من نيسان. سكون.

وجد لي ساخنوف ورقاً نادراً وقلم حبر.

عُلقَتْ على البيوت المُهدّمة خرق بيضاء. إنّها القوة الدفاعية في كونيغسبورغ تستسلم.

* * *

تجمّعنا تحت أسوار القلعة المتوسطة. السكون سائد.

جنودي يطبخون طعاماً في قصعاتهم.

لقد انشقّ رأس القيصر ويلهلم وكُسِرَتْ رجل حصانه، وبدا التمثال العظيم مُشوّهاً خصوصاً وقد تمدَّدَ عند قاعدته جنديان ألمانيان مقتولان.

عربات الحافلات مُحطّمة، مقلوبة. نوافذ البيوت كالعيون المعمية.

* * *

اقترب منّي طفلان وطلبا خبزاً.

ــ خبز، خبز.

كانا طفلين أشقرين جميلين، فأعطاهما ساخنوف كلَّ ما عندنا من خبز وسُكّر وزبدة، ودمدم:

ــ أكثر مَنْ يستحق الرحمة في الحرب هم الأطفال.

ونظر إليَّ طويلاً وقال:

ــ اكتب عن هؤلاء الأطفال أنّهم طيبون أبرياء...

واقتربَتْ نساء منّا أيضاً، فارتعشت. كانت إحداهنّ صورةً عن شورا. أنا لم أنس بعد مكان قبر شورا. لا، لم أنسه. طلبَتْ النساء تبغاً فأعطيناهنَّ.

ــ إيه، أيتها النسوة، ما رأيكنَّ؟
والتزمَتْ النسوة الصمت.
ــ هل الحرب شيء جميل؟
ما زلن صامتات.

* * *

ورنَّ بجانبي هاتف الميدان. إنّه آمر الكتيبة:
ــ في الحديقة العامّة، حيث يُدفن كانط الفيلسوف زرعوا ألغاماً تحت الأرض. خذ جنودك إليها.
أسرع ساخنوف ليستعجل الجنود المُقاتلين. وترك جنودي القصعات على النار واندفعوا تحت مدافعهم.
يومٌ ولا أجمل منه.
إنّه الربيع. من شجرة مُجاورة يصدح حسون. أحسبني في بيتنا، في بستاننا أستمع إلى غناء الحسون الأرمني.
وأرى بُكاء أُمّي.
هيّا، يا أُمّي العزيزة، اصبري قليلاً، مهما يكن سأعود إلى البيت.
تركْتُ كتابتي عند نصفها لأذهب إلى الألغام.
ساخنوف قلق. كان على زوجته أن تُنجب ولداً.
تحرّك مُقاتلونا.
في طريقنا إلى القتال...

* * *

صادفْتُ الأخوين بودكيبيفيتش. كانا يرتديان ثياباً مدنية، وقد لفّا ستراتهما حول رقبتيهما. فقال فيديا:
ــ نحن راحلان، نستودعك الله.
ــ لكن، إلى أين، ولماذا؟

ـ نحن ذاهبان إلى الكلية الحربية بإرادتنا طبعاً. لم يُجبرونا على ذلك، ولقد انتهت الحرب. نستودعك الله.

فضممتهما إلى صدري وقلت:

ـ كان الله معكما يا أولاد، أتمنّى لكما حظاً سعيداً.

كان كلّ واحدٍ منهما يحمل على صدره وسامين، أحدهما ((رجولة)) والثاني ((النجم الأحمر)). أشفق قلبي... يا للطفلين! لقد شاركا في هذا النصر بيديهما الصغيرتين الناعمتين.

ـ مع السلامة يا أحبائي. أيّها الأولاد الشُجعان. مع السلامة.

وأسرعْتُ في الابتعاد، لكي لا يريا بكائي.

وقاتلنا زارعي الألغام طوال النهار والليل. لكنّهم استسلموا عند الصباح. ولو لمٍ يستسلموا لأُبيدوا عن بكرة أبيهم. وأشرْتُ لأحدهم إلى قبر كانط، قائلا:

ـ هذا قبر قلب الفلسفة الألمانية.

فرفع كتفيه، لأنّه لا يعرف شيئاً عن كانط.

* * *

يُشعل ساخنوف النار داخل الخندق:

ـ تعال، تدفأ يا بني.

لم يعد أحد يتخذ الحذر، أو يخاف أن يرانا الألمان ويقصفونا بالقنابل. فقد كُسِرَتْ شوكة النازيين، بعدما استولينا على كونيغسبورغ وبدأنا نطرد الألمان إلى البحر.

اليوم هو الرابع عشر من نيسان. أمس دخلَتْ قواتنا إلى فيينّا عاصمة النمسا وطردَتْ فلول الألمان النازيين. فيينّا... أنا لم أزر هذه المدينة، ولكنني أُعلّل أنّ للآباء المُختارين فرعاً هناك. وعندهم مكتبة تضمّ أقدم الكتب المخطوطة. تُرى ألم تُصب المخطوطات والتُراث الأرمني بأذى؟ هذه أول حرب عالمية لم تمر بأرض أرمينيا. يبدو أنّ حظ الأرمن قد

استراح، وأنّ الحروب قد حوّلَتْ طريقها عنها. لكن ماذا حلَّ بكتبنا في فيينّا؟ أنا أذكر هذه المدينة أيضاً من قصيدتي نابيري زاريان ((الإبريق الروشاني)) و((أريكة من فيينّا)). جميلة ومتينة هي أرائك فيينّا. كان عندنا ست منها مازالت باقية منذُ زواج أبي.

على كلٍّ حال الألمان يهربون.

* * *

رنَّ الهاتف من قيادة الكتيبة. مَنْ؟، آه، إنّه بريغول مُقدّم القيادة. ليتواني أسمر طويل القامة.

ــ اعلم يا صديقي أنّ قواتنا تقترب من برلين، وأنّ القتال يدور الآن من أجلها.

فسألته:

ــ وهل سنتوجّه نحن أيضاً إلى برلين؟

ــ طريقنا إلى البحر...

البحر هو البلطيق. نحن على الضفّة اليُسرى لنهر بريغيل، نُقاتل في طريقنا إلى البحر.

حلَبَ ساخنوف بقرة عظيمة وأحضر إليَّ الحليب الساخن وقال:

ــ اشرب يا بني، فالحليبِ الطري صحّي مُفيد.

ــ ماذا؟ هل تعتبرني مريضاً؟

ــ لو وجدْتُ الوسيلة لأرسلْتُ هذه البقرة مع عجلها إلى القرية. آخ، وحدتنا محرومة تماماً من البقر. آه لو توجد الوسيلة...

* * *

في الثاني والعشرين من نيسان وصلَتْ قواتنا إلى مشارف برلين، وفي الخامس والعشرين حاصروها حصارا كاملاً، فتذمر ساخنوف قائلاً:

ــ لماذا لا يسوقون كتيبتنا أيضاً إلى برلين؟

قلت له: ــ هنا أيضاً يقف النازيون أمامك. كلّ السُبُل تؤدي إلى برلين.
قال ساخنوف:
ــ على كلٍّ حال، نحن هنا.

* * *

أسر جنودي عند قرية صغيرة ستة وخمسين ألمانياً، ليسوا الآن من المُتفاخرين السابقين الذين كانوا يزمجرون في ضفّة الفولخوف ((أيٍ، إيفان، تعال إلى هنا، يوجد شاي وزبدة)). فأشار عليهم ساخنوف قائلاً.

ــ ويلكم، أيّ نوع من الجنود أنتم؟ تستسلمون أسرى في دياركم! عارٌ عليكم.

فهزَّ واحدٌ منهم رأسه:

ــ خسرنا. خسرنا.

ــ ماذا خسرتم؟

ــ خسرنا برلين. وهربٍ هتلر.

فقال ساخنوف ساخراً:

ــ وكنتم تعتقدون أنكم سترقصون فوكسترو في موسكو. ها أنتم الآن بين براثنيٍ. أنا روسي. لقد عانيت الأمرّين منكم. لو شئتُ الآن لأزهقْتُ أرواحكم كلكِم برُشيشي ولا أكون مُذنباً، إذ يجب قتل قاتل الناس. وقد شرّع ذلك يسوعنا المسيح.

ــ أوه، نعم.

قالها مُلازم صحح هندامه قبل الاستسلام، لكي يظهر بمظهر البطل على ما يبدو. منذ زمنٍ طويل وأنا أعرف ثيابهم المائلة إلى الرمادي.

مازالت الحسرة فيٍ قلبي من أول مرّة رأيتُ فيها الثياب العسكرية الألمانية. ومع أنني رأيتها على الجنود الهتلريين المقتولين قبل سنوات مضَتْ، لكن بقيَتْ تلك الحسرة. قد يكون ذلك غريباً، لكنّها الحقيقة. قُبّعة الهتلري ليست دائرية تماماً. بل هي كرأس ثور مُسطّح قليلاً.

وتَحسب كأنّ له قروناً أيضاً ناتئة. على أُذنيه حافظات كأنّها جِراب قتال. أمّا قفل حزامهم الجلدي فكبير يُشبه الترس، أو صندوق سلحفاة. ويتراءى لي الخنجر المتدلّي من الحزام كالأفعى. والآن يُخيّل لي أنّ خنجر هذا الضابط المستسلم يقطر دماً. والأكثر رهبة، هو حذاؤه القاسي طويل العنق الأسود. رأسه عريض ذو نعل. تحت هذه النعال تخدّشت مخامل اللوفر. ووُطِئ أطفال براغ، وعلم بولونيا، ومخطوطات ليو تولستوي في ياسنايا بولونيا. هذه الأحذية قاتلة البشر. فلا تستغربوا أن تكون قبعات الهتلريين مُرتفعة من الأمام ومن الخلف. لأنّها تُشبه فم التنين المفتوح. طرفها حدُّ سكين، ورمز النسر الذي يعلوها تنين بمخالبه الحادّة. أمّا رأسه فذيل تنين مملوء بالسم. كذلك أشعر بحسرة في قلبي من جيوب ستراتهم المُركّبة على الجانبين، فهي شاذّة وسخة.

أرسلْتُ الألمان إلى الخلف إلى محطة تجمّع الأسرى.

هتفوا من القيادة بأنّ برلين سقطَتْ.

ـ يُرفرف الآن علمنا على الرايخستاغ. اليوم هو الثاني من أيار. رفعوا علمنا على الرايخستاغ في الأول من أيار عيد العمال. استدعيْتُ الكسنندس وأمرْتُ أن يُذيع ذلك على الألمان. إنّهم أمامنا، عند مرمى نيراننا ومازالوا يُحاربون بجنون. صاح الكسنيدس بمكبّر صوت أنبوبي وقال:

ـ هيي أيّها الألمان. لقد سقطَتْ عاصمتكم برلين. اعقلوا وتوقّفوا عن القتال.

لكنّهم زادوا من حدّة مقاومتهم.

البحر قريب وقد طوقنا المُقاومين في الوادي الصغير، وبدأنا نزحف نحو البحر في مُناوشات خفيفة.

* * *

في مساء الثامن من أيار كنت جالساً على الحشيش الأخضر في موقعي آكل لحماً وأشرب الشمبانيا، أحضرها جنودي من بيت خرب قريب بالصناديق. بجانبي جندي الاتصالات. ناولني السماعة.

ــ آمر الكتيبة معك.

أعرف صوت بافل آندونوفيتش سافونوف جيّداً. هادئاً فيه رنة رجل مسن فسألني:

ــ اليوم هو الثامن من أيار، أليس كذلك؟ اليوم الثامن من أيار وفي ساحة كارلسهود في برلين وقّع قادة الجيش الألماني عقد استسلامهم من دون قيد أو شرط. لقد انكسرَتْ ألمانيا.

شددْتُ السماعة على وجهي، ولم أعرف كيف بدأتْ الدموع تجري غزيرة من عيني. واختنق ساخنوف بالبكاء.

ــ أخيراً... أسفي على شبابي الضائع.

وإرتفع صوت آمر الكتيبة في السماعة:

ــ لقد انكسرَتْ اليوم ألمانيا الهتلرية وانتصرنا. انتصرنا، أُهنئكم يا جنودي...

جنَّ جنوني وطار عقلي، وخرجْتُ من الخندق أصيحُ بملء صوتي: النصرررررر...

في غمضة عين شعَّ المساء بألف نور، لا بل ثمانية عشر. بل مائة وثمانين ألف قُنبُلة وقذيفة وصاروخ ولغم انفجرَتْ وتلألأت السماء بلهيب القلوب. ساخنوف يبكي. جنَّ جنون جبهة الحرب. لا صوت في جهة العدو. ها هو العدو يستسلم.

انكسرَتْ ألمانيا الهتلرية.

انتظرْتُ هذا اليوم طويلاً، طويلاً. انتظرْتُ عن قناعة بأنّ هذا اليوم سوف يأتي. سوف يأتي. وأتى...

يقف أمامي ثمانية من الألمان رافعين أيديهم في الهواء. فعجبْتُ بشدّة. لأول مرّة أرى هؤلاء أُناساً من البشر.

نحن الآن في الثامن من أيار. أربعة أشهر وعشرة أيام وأنا في الواحد والعشرين من العمر. كتابتي مُنتصرة.

أنا أُحسُّ بالربيع

التاسع من أيار. الهدوء يسود المواقع. تأتي من البحر أحياناً جماعات من الجنود الألمان للاستسلام. يأتون بصفوف نظامية، بالسلاح والعتاد.

يقولون:

ـ مرونا أين نضع السلاح وإلى أين نذهب؟

فيُشير ساخنوفي إلى شجرة وإلى بقعة ويقول:

ـ اجمعوها هناك واذهبوا إلى الاتجاه الذي تُشرق منه الشمس.

حقّاً، من أين تشرق الشمس؟ لا أعرف، لقد نسيت. أصحيحٌ أنّه الربيعِ مع الشجر الأخضرِ والحشيش الأخضر وغناء العصافير؟ آه، ما هذه المعجزة يا ناس! أنا أُحسَ بالربيع.

رجوْتُ آمر الكتيبة أن يُعيد إليَّ كتاب ((كيفورك مارزبيدوني)) فرفض:

ـ هذا من أسلحة كتيبتنا. وسيبقى في كتيبتنا.

* * *

هتف لي آردو خاجيكيان:

ـ هيي، تهانينا.

ـ التهاني لأرمينيا أيضاً.

ـ هل تعلم؟ هناك عودةٍ بأعداد كبيرة إلى الوطن. لقد أبدى أربعمائة وخمسون ألفاً من الأرمن المُغتربين رغبتهم في العودة إلى أرمينيا وطنهم، للعيش معنا.

ـ مهلاً يا آردو، فقد أفقد عقلي من الفرح. ماذا بعد؟ ماذا بعد؟ أنا أبكي. يقولون إنّ البكاء يأتي من شدّة الفرح.

المدافع صامتة. أمرٌ غير عادي. بقدر ما تعودْتُ على لعلعة المدافع وضجة الحرب أصبحْتُ أعتبر الصمت أمراً غير عادي. غريب.

* * *

استلمْتُ برقية من البيت. لقد تخلّص أخي من الأسر. أبرقَ لهم من مكان الأسر، وأبرقوا لي بدورهم. لم يبق لأُمّي حجّة للبُكاء. أرسلتُ لهم مبلغ 2400 روبلاً.

هذا الأيار، هو نور حياتي. يُمكنني العيش بعد النصر. ولقد فُكَّ أسرُ أخي.

أرسلوا لي من البيت بنفسجات ذبُلَتْ داخل الغلاف، لكنّها مازالت تنشر شذا في كفّي. أُريد أن أطير، وأن أتقلّب على الحشيش الأخضر. ما عدْتُ أُصدر أيَّ أمر إلى جنودي. إيه، استريحوا، ناموا، استمتعوا يا أحبائي.

* * *

رجوتُ ساخنوف أن يربط لي عربتي ذات الحصانين. إنّها ألمانيا بحشايا وثيرة، كان ساخنوف قد زينها بفرو ثمين ووسائد ناعمة. جلسْتُ في عربتي وبسحبة واحدة قطعْتُ خمسة وعشرين كيلو متراً ووصلْتُ إلى الناظر ديكران، صديقي ديكران زاكاريان الذي كان عند شاطئ البحر. فضيفته ماء الكولونيا الممزوج بالماء. وقلت:

ـ فلنشرب يا ديكران، ألا ترى إنّه الربيع؟

شرب ديكران تلك المرارة بصعوبة وأنا أضحك. أية مرارة بعد. كلّ شيء الآن حلو...

اليوم هو الخامس عشر من أيار. أربعة أشهر وسبعة عشر يوماً وأنا في الواحد والعشرين من العمر. كتابتي في أشدّ الفرح.

لا أريد أن أتذكّر حياتي مع ثلاثمائة ألف، بل ربّما ثمانمائة أو تسعمائة ألف ميّت، يحيطون بي، ينعبون ويجأرون فوق رأسي، ولم يأخذوني معهم. كلّ ما أذكره هو أنني أعيش، والعيش مهما يكن، يبقى الأفضل، فمع الحياة يزول كلّ حزنٍ وألم، ويلتئم كلّ جرحٍ، ويُعالج كلّ شقاءٍ ويُنسى.

الموت في الحرب أمرٌ عادي جداً، مثله كمثل العيش تماماً ـ عادي، بل هو ضروري، أو على الأصح، لا مفرّ منه. والموت ليس مُرعباً في ساحة الحرب، وليس ذلك لأنّ الإنسان جريءٌ بطبعهِ، جسورٌ، إلخ... بل لعدم توفّر الوقت للخوف.

يبقى المقاتلون في الحرب أحياءً مصادفةً. الموت ليس مصادفةً، بل الحياة هي المصادفة.

أبي ميّت، وأنا صغير، وخالي هو أمل مستقبلي، وها هو الآخر مكسور مثل منجله.

وفي المساء عاد أخي إلى البيت مُتأخراً ليقول:

ـ أعدّوا لي متاعي، فأنا ذاهب.

وانخرطَتْ زوجته مع أمّي في البكاء، ولم أطق ذلك فصحْتُ بهما حانقاً:

ـ لماذا تبكيان ؟

نحن الآن في حرب. وأنا معلمٌ في مدرسة القرية منذ سنة، وفي إجازة العطلة الصيفية. بي رغبة في الذهاب إلى شعبة التجنيد في المدينة لأتوسّل إليهم كي يأخذوني. ماذا أستطيع أن أفعل إذا كنْتُ ضعيفاً دائم المرض ؟ أخشى، ولو استدعوني، ألا يُلحقوني بالخدمة، ويجددوا القول، أنت صغير، وغير سالم صحيّاً.

وأبيْتُ الليل، أنتظر شروق الشمس مؤملاً.





دار الحوار
سوريا ـ اللاذقية ـ ص. ب ... 42


9 789933 477622